نافذة على

الدار الآخرة في القرآن الكريم

المجلد الأول

من أول سورة البقرة الى آخر سورة العنكبوت

تأليف
لأبي أحمد عبد المنجي السيد أمين

مكتبة العلوم والحكم
مصر

نافذة على الدار الآخرة

فى القرآن الكريم

((المجلد الأول))

من أول سورة البقرة إلى آخر سورة العنكبوت

لأبي أحمد

عبد المنجي السيد أمين

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعين به ونستنصره ونستهديه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الأحزاب]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [النساء]

أما بعد :-

إن القرآن العظيم هو الدستور الخالد ، والمعين الذي لا ينضب ، المنهل العذب الرويُّ ، لا يخلق على كثرة الرد وليس تنقضي عجائبه ، النور المبين ، والذكر الحكيم ، والصراط المستقيم ، وحجة الله تعالى على خلقه ، عنوان السعادة وأداة الهدى والشفاء للنفس والقلب من الهوى والردى ، لا غنى للعبد المسلم عنه طرفة عين ، وإلا ضاع الحق من أمام عينيه ، وتغشته ظلمات الشقاء والبعاد ، واحتوشته حسرات الضلال ، فصار ممن أغفل قلبه عن ذكر ربِّه فكان أمره فُرطا .

وهذا الكتاب المبارك فيه محاور كثيرة رئيسية ينبغي أن تكون القلوب لها أوعية ، لتحيا بين الناس في دنياهم من أجل أن يسعدوا في دنياهم وأخراهم ، وذلك إن احتفوا بهذه الآيات البينات فقدروها حق قدرها ، واعتنوا بهاالعناية اللائقة بها وهذه المحاور من أهمها

وهذه المحاور من أهمها الإيمان ، ماهيته ومظاهره وآثاره ، وثمراته في الدارين وشرف التوحيد ، ومكانته وخطره ، ومن هذه المحاور الكبرى الكون الدال على خالقه ، ذلك الكتاب المفتوح الناطقة آياته بالليل والنهار في السماوات والأرض ، وما بينهما وما تحت الثرى .

ومن هذه المحاور الكبرى أيضاً قصص الأنبياء والصالحين وما فيها من درر وعبر وعظات نافعات عاقبتها الثبات دنيا وأخرى ومصارع الغابرين المكذبين عبر الماضي السحيق وحتى ذلك الوقت الذي نحياه ، مما يبعث على السمع والطاعة والتقوى والخشية ، ومن هذه المحاور الأخلاق والسلوك في شريحة عظيمه من القرآن الكريم في غاية من الجمال والدقة ، والتفصيل الباعث على رسم صورة الخلق الحسن على القلب والجوارح في واقعية صادقة بعيدة عن الزيف ، والإبهام ، وربط ذلك بآثاره المباركة وعواقبه الحميدة على الفرد والمجتمع في الدين والدنيا والآخرة ومن هذه الأحكام الشرعية كثرة واتساعاً تدليلاً وتفصيلاً على نحو معجز مبهر تام دقيق واضح وضوح الشمس في رابعة النهار .

ومن هذه المحاور الهامة جداً وهو محور أصيل رئيس في غاية الأهمية للنفوس والعقول ، والصدور ، في السِّر والعلن ، محور الدار الآخرة بأحواله وأهواله ، ومشاهده المرسومة المجسدة في القرآن العظيم ، فعلى حين بغتة تجد الآيات تشدك شداً ليس يقاوم فإذا بك قد نسيت أصلاً أنك لا تزال لابثاً بين أهلك وقومك ، وقد صارت الدنيا عندك نسياً منسياً، ذكريات عابرة ، وإذا بك قد انتقلت بكل الأحاسيس والجوارح متلبساً بالدار الآخرة ، تنظر من قريب على القبور ، إذا بُعثر ما فيها ، وقاموا لربهم ، كأنهم الجراد المنتشر والفراش المبثوث ، سراعاً كأنهم إلى نصبٍ يوفضون ، تنظر لترى اختلاف أحوال الناس في الحشر فمنهم من يحشر على وجهه أعمى ، أسود الوجه ترهقه قترة ، ومنهم من يحشرون وفداً إلى الرحمن ، ومنهم من يحشر كأمثال الذر تحت أقدام الخلق ، وتشقق السماء من كل اتجاه فتصير في أحوال عديدة تصير كالمهل وتصير وردة كالدهان ، وتنزل الملائكة

والناس ينظرون ، وقد وقفوا حفاة عراة غرلاً [غير مختونين] محشورين مع الجن والإنـــس بألوانهم واختلاف لغاتهم وألسنتهم وتحشر الوحوش ويؤتى بجهنم لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها ، فتجثو الأمم على الركب ويشفق الأبرياء من سوء المنقلب ، ودعوى الأنبياء يومئذ : اللهمَّ سلم سلم ، فالخطر محدّق ، والموقف رهيـــب ، والوقت عصيب ، وتبلغ القلوب الحناجر ، وتدنو الشمس من الخلائق مقدار ميل واحد ، ويبحثون عن الشفعاء ويبدأ العرض على الله لفصل القضاء ، ومناقشة الحساب ، وكـــل امرئ يعرض شخصياً على الجبار بلا صديق ، ولا قريب ، ولا ملك مقـــرب ، ولا نـــبي مرسل ، يحابي عنه أو يشهد له أو يؤنسه في موقفه ذالك بل هو موقوف وحده وما أدراك ما العرض والحساب ، والصراط المضروب على متن جهنم حيث يكون علـــى جنبتيـــه الخطاطيف تخطف الناس بأعمالهم ، فمنهم ناج ، ومنهم ناجٍ مخدوش ، ومنهم مكـــدوس في أمواج النار ، والميزان وما أدراك ما الميزان ، والقنطرة التي لا يدخل أحد الجنة أو النار حتى يقف فوقها فيقتص بعضهم من بعض مظالم كانت في الدنيا حتى إذا هُذّب المسلمون ونقوا أُذنَ لهم في دخول الجنة ، أهوال وأحوال مشاهد وصور ، وعبر ، وعلى ذلك فـــإن هذا المحور الرئيس من الأهمية بمكان ، ونسيان الآخرة ضلال مـــبين : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص: ٢٦] والقرآن يدعو إلى معايشة الآخرة قبل المثول في عرصاتها إذ قـــال تعـــالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا

كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الأنعام] وقال ﷻ : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنعام]

وقال تعـالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأنعام] وقـال تعـالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ ﴾ [الأنفال] وقـال ﷻ : ﴿ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الشورى]

وقال ﷻ : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الإنسان] وقال تعـالى : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المطففين] وقـال ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ ﴾ [الإنسـان] وقـال ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الدخان] وقال تعالى : ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحجر]

وقـال ﷻ : ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الرعد] ولأهمية هذا الموضوع الخطير فقد حفل القرآن الكـريم بسـور كاملة تجسد ذلك اليوم تجسيداً كاملاً بكل مظاهره وتفصيلاته بشكل دقيق عجيب جـداً أنظر مثلاً سورة الواقعة ، وسورة الحاقة ، والقيامة ، والإنسان ، والنبأ ، وعبس والتكوير ، والانفطار ، والانشقاق ، والغاشية ، والزلزلة ، والقارعة ،والتكاثر ....إلخ .

لهذا وغيره ولأن المادية المفرطة قد شغلت الكثير بالدنيا فقط – إلا مـــن رحـــم الله ، نسأل الله أن يجعلنا جميعاً ممن رحم – ولذا فقد وجب علينا أن نعود إلى القرآن من جديد في محاوره عامة ، وهذا العنصر خاصة لأنه علاج أكيد لهذا الركام من التردي في ميـــادين السمع والطاعة والأخلاق والسلوك والأحكام ، وسائر الميادين – إلا من رحم ربـــك – ولذلك آثرت أن أذكر نفسي ومن شاء الله من المسلمين بهذا الإعداد وأرجوا أن تعيه أذن واعية وقد عمدت وقصدت أهدافاً ، أوجزها لك باختصار :-

١- جمع الآيات القرآنية الخاصة بهذا المحور مع تخريجها .

٢- التعرف على السورة الوارد فيها الآيات بشـــكل إجمـــالي كأســـلوب للتعايش مع القرآن العظيم وهذا العنصر غالباً ما أذكره للتعرف على معظم هذه السور وعناصرها في إجمال .

٣- بيان الغريب ومفردات الآيات ليحصل الناس على معاني كثيرة لكلمات كثيرة ليحصل القارئ – بإذن الله – على ثراء لغوي قرآني كبير ، وهذه طريقـــة مجدية في تفهم القرآن العظيم إن شاء الله تعالى .

٤- آثرت أن أذكر المعنى الإجمالي بشكل مبسط لأئمة كرام علماء لغتـــهم ميسورة وأسلوبهم مفيد لكل الطبقات والمستويات .

٥- أحياناً أتعرض لتصوير المشاهد من بعض كتب التفاسير أو كتاب الظلال بتصرف كبير وتقديم وتأخير .

٦- أحياناً أعمد إلى تعزيز الموضوع بالنصوص النبوية للتذكير بها في ميادينها المباركة كالشفاعة ، والصراط ، والبر والصلة ، والأخلاق ، ونحو ذلك ، لـــيس خروجاً عن الموضوع ولكن لتمام الفائدة والوصول بأسلوب عملي ينفع الله بـــه صاحبه في الآخرة والأولى – بإذن الله تعالى – .

٧- ثم أردف ذلك بما يؤخذ من الآيات من الدروس والعظات والعبر ، وقد أكثرت جداً الإفادة من كتب التفاسير لأنها أصل في هذا المبحـــث ، عســـى الله

تعالى أن ينفع به طالب علم أو باحثاً عن حق أو متلمساً لهدى أو راجيـــاً عفـــو ورحمة ربه تعالى ، وقد راعيت في ذلك الموضوع ترتيب السور حسب ورودهـــا في المصحف

٨- تركت الأحاديث الواردة في كتب التفسير على حالهـــا وإن كـــان في بعضها ضعف بينت هذا الضعف في الهامش في الغالب ، ولربمـــا كـــان هنـــاك حديثٌ صحيح مقارب في المعنى والألفاظ فأذكره .

٩- أضفت بعض التمهيدات لأطلع القارئ على فوائـــد وثمـــرات وعـــبر وعظات للإفادة والتطبيق العملي كما ذكرت بعض اللطائف والدرر من كتـــب أهل العلم .

١٠- أضفت مباحث كاملة في موضوعات متنوعـــة متعلقـــة بالآيـــات بتفصيلها موضوعياً سواء كانت في الاعتقاد أو العمل راجياً بر ذلك وذخره وأن ينفع الله تعالى به وأن يكتب لنا به القبول والإخلاص في الدنيا والآخرة هو سميع الدعاء .

١١- قمت بتخريج الآيات من كتب التفسير بأرقام الآيات وأسماء الســـور من باب التسهيل على الباحث لاختلاف عدد المجلدات في الطبعـــات للكتـــاب الواحد ومراعات المختصرات لبعض كتب التفسير .

وأسأل الله تعالى أن ينفعني به ووالدي ومن كتبه وقرأه والمسلمين وآخـــر دعونـــا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى اللهمَّ على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

كتبه راجي عفو ربه

أبو أحمد

عبد المنجي بن سيد آل أمين

سورة البقرة

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٦٥ – ١٦٧]

المعنى العام للآيات: -

ما أحسن اتصال هذه الآية بما قبلها، فإنه تعالى، لما بين وحدانيته وأدلتها القاطعة، وبراهينها الساطعة الموصلة إلى علم اليقين، المزيلة لكل شك، ذكر هنا أن ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ مع هذا البيان التام من يتخذ من المخلوقين أنداداً لله أي: نظراء ومثلاء، يساويهم في الله بالعبادة والمحبة، والتعظيم والطاعة.

ومن كان بهذه الحالة - بعد إقامة الحجة، وبيان التوحيد - علم أنه معاند لله، مشاق له، أو معرض عن تدبر آياته والتفكر في مخلوقاته، فليس له أدنى عذر في ذلك، بل قد حقت عليه كلمة العذاب .

وهؤلاء الذين يتخذون الأنداد مع الله، لا يسوونهم بالله في الخلق والرزق والتدبير، وإنما يسوونهم به في العبادة، فيعبدونهم، ليقربوهم إليه، وفي قوله: ﴿ اتخذوا﴾ دليل على أنه ليس لله ند وإنما المشركون جعلوا بعض المخلوقات أندادا

له، تسمية مجردة، ولفظا فارغا من المعنى، كما قال تعـــالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ ﴾ [الرعد: ٣٣].

﴿ إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾ [النجم: ٢٣] فالمخلوق ليس نداً لله لأن الله هو الخالق، وغيره مخلوق، والرب الرازق ومن عداه مرزوق، والله هو الغني وأنتم الفقراء، وهو الكامـــل مـــن كـــل الوجوه، والعبيد ناقصون من جميع الوجوه، والله هو النافع الضار، والمخلوق ليس له من النفع والضر والأمر شيء، فعلم علما يقينا، بطلان قول من اتخذ من دون الله آلهة وأندادا، سواء كان ملكا أو نبيا، أو صالحا، أو صنما، أو غير ذلك، وأن الله هـــو المستحق للمحبة الكاملة، والذل التام، فلهذا مدح الله المـــؤمنين بقولـــه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ ﴾ أي: من أهل الأنداد لأندادهم، لأهم أخلصوا محبتهم لـــه، وهؤلاء أشركوا ها، ولأهم أحبوا من يستحق المحبة على الحقيقة، الذي محبته هـــي عين صلاح العبد وسعادته وفوزه، والمشركون أحبوا من لا يستحق من الحب شيئا، ومحبته عين شقاء العبد وفساده، وتشتت أمره.

فلهذا توعدهم الله بقوله: ﴿ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ ﴾ باتخاذ الأنداد والانقياد لغير رب العباد وظلموا الخلق بصدهم عن سبيل الله، وسعيهم فيما يضرهم.

﴿ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ ﴾ أي: يوم القيامة عيانا بأبصارهم، ﴿ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ ﴾ أي: لعلموا علما جازما، أن القوة والقدرة لله كلها، وأن أندادهم ليس فيها من القوة شيء، فتبين لهم في ذلك اليوم ضعفها وعجزها، لا كما اشتبه عليهم في الدنيا، وظنوا أن لها من الأمر شيئا، وأنها تقربهم إليه وتوصلهم إليه،

فخاب ظنهم، وبطل سعيهم، وحق عليهم شدة العذاب، ولم تدفع عنهم أندادهم شيئا، ولم تغن عنهم مثقال ذرة من النفع، بل يحصل لهم الضرر منها، من حيث ظنوا نفعها.

وتبرأ المتبوعون من التابعين، وتقطعت بينهم الوصل، التي كانت في الدنيا، لأنها كانت لغير الله، وعلى غير أمر الله، ومتعلقة بالباطل الذي لا حقيقة له، فاضمحلت أعمالهم، وتلاشت أحوالهم، وتبين لهم أنهم كانوا كاذبين، وأن أعمالهم التي يؤملون نفعها وحصول نتيجتها، انقلبت عليهم حسرة وندامة، وأنهم خالدون في النار لا يخرجون منها أبدا، فهل بعد هذا الخسران خسران؟ ذلك بأنهم اتبعوا الباطل، فعملوا العمل الباطل ورجوا غير مرجو، وتعلقوا بغير متعلق، فبطلت الأعمال ببطلان متعلقها، ولما بطلت وقعت الحسرة بما فاتهم من الأمل فيها، فضرتهم غاية الضرر، وهذا بخلاف من تعلق بالله الملك الحق المبين، وأخلص العمل لوجهه، ورجا نفعه، فهذا قد وضع الحق في موضعه، فكانت أعماله حقا، لتعلقها بالحق، ففاز بنتيجة عمله، ووجد جزاءه عند ربه، غير منقطع اهـ (١) .

* **قال القرطبي في تفسيره** ذكر تعالى حال المشركين به في الدنيا وما لهم في الدار الآخرة، حيث جعلوا [له] أندادًا، أي: أمثالا ونظراء يعبدونهم معه ويحبونهم كحبه، وهو الله لا إله إلا هو، ولا ضد له ولا ندٌّ له، ولا شريك معه. وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: ((أن تجعل لله ندًا وهو خلقك)) ، وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ ولحبهم لله وتمام معرفتهم به، وتوقيرهم وتوحيدهم له، لا يشركون به شيئًا، بل يعبدونه وحده ويتوكلون عليه، ويلجؤون في جميع أمورهم إليه. ثم تَوَعَّدَ تعالى

---

(١) انظر تفسير السعدي [المجلد الواحد] تفسير سورة البقرة ص٦٢ آية رقم ((١٦٥ – ١٦٧)) ط/ المكتبة التوفيقية .

المشركين به، الظالمين لأنفسهم بــذلك فقــال: ﴿ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ .

قال بعضهم: تقدير الكلام: لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذ أن القوة لله جميعًــا، أي: إن الحكم له وحده لا شريك له، وأن جميع الأشياء تحت قهره وغلبته وسلطانه: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾ كما قــال : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الفجر: ٢٥ ، ٢٦] يقول: لو علموا ما يعاينونه هنالك، وما يحــل بهم من الأمر الفظيع المنكر الهائل على شركهم وكفرهم، لانتهوا عما هم فيه مــن الضلال.

ثم أخبر عن كفرهم بأوثانهم وتبرؤ المتبوعين من التابعين، فقال: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ ﴾ تبرأت منهم الملائكة الذين كانوا يزعمون أنهم يعبدونهم في دار الدنيا، فتقول الملائكــة :

﴿ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [القصص: ٦٣]

ويقولــون: ﴿ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [سبأ: ٤١]

والجن أيضًا تتبرأ منهم، ويتنصلون من عبادهم لهم، كما قــال تعــالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]

وقال تعالى: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ ﴾ [مريم: ٨١، ٨٢] .

وقال الخليل عليه السلام لقومه: ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٥]

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْءَانِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَٰلَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [سبأ]

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم].

وقوله: ﴿ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾ أي: عَاينوا عــذاب الله، وتقطّعت بهم الحيَلُ وأسباب الخلاص و لم يجدوا عن النار مَعْدلا [١]

وقال ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ :- والتبرؤ تكلف البراءة وهي التباعد مــن الأمــر الذي من شأن قُرْبه أن يكون مضراً ولذلك يقال تبارآ إذا أبعد كلٌ الآخر من تبعــةٍ محققة أو متوقعة .

و ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ ﴾ بالبناء إلى المجهول هم الذين ضللوا المشركين ونصبوا لهــم الأنصاب مثل عمرو بن لُحَيَ ، فقد أشعر قوله ﴿ٱتُّبِعُوا۟ ﴾ أنهم كانوا يَــدْعُون إلى متابعتهم ، وأيدَّ ذلك قوله بعده ﴿ فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ﴾ أي نجازيهم على إخلافهم .

ومعنى براءتهم منهم تنصلهم من مواعيد نفعهم في الآخرة الذي وعدوهم في الدنيا والشفاعة فيهم ، وصَرْفُهم عن الالتحاق بهم حين هَرَعُوا إليهم .

وجملة ﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ حاليَّة أي تبرءوا في حال رؤيتهم العــذاب ، ومعــنى رؤيتهم إياه أنهم رأوا أسبابه وعلموا أنه أُعِد لمن أَضلَّ الناسَ فجعلوا يتباعدون مــن أتباعهم لئلا يحق عليهم عذاب المضللين ، ويجوز أن تكون رؤية العذاب مجــازاً في إحساس التعذيب كالمجاز في قوله : ﴿ يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ [الأنعــام : ٤٩] فموقــع الحال هنا حسن جداً وهي مغنية عن الاستئناف الذي يقتضيه المقــام لأن الســامع يتساءل عن موجب هذا التبرؤ فإنه غريب فيقال رأوا العذاب فلما أريد تصويرالحال وتهويل الاستفظاع عدل عن الاستئناف إلى الحال قضاء لحق التهويل واكتفاءً بالحال

---

(١) تفسير القرطبي لسورة البقرة الآيات ((١٦٥ – ١٦٧)) .

عن الاستئناف لأن موقعهما متقارب ، ولا تكون معطوفة على جملة ﴿ تَبَرَّأَ ﴾ لأن معناها حينئذٍ يصير إعادةً لمعنى جملة : ﴿ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ ﴾ فتصير مجردَ تأكيد لها ويفوت ما ذكرناه من الخصوصيات .

وضمير ﴿وَرَأَوُاْ ﴾ ضميرٌ مبهم عائد إلى فريقي الذين اُتُّبعوا والذين اتَّبعوا .

وجملة ﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾ معطوفة على جملة ﴿ تَبَرَّأَ ﴾ أي وإذْ تقطعت بهم الأسباب ، والضمير المجرور عائد إلى كلا الفريقين .

والتقطع الانقطاع الشديد لأن أصله مطاوع قطّعهُ بالتشديد مضاعف قَطَع بالتخفيف ... تنبيهاً على إغاظة المتبوعين وإثارة حسرتهم وذلك عذاب نفساني يضاعِفُ العذاب الجثماني وقد نبه عليه قوله : ﴿ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ﴾

و ﴿لَوْ﴾ في قوله : ﴿ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً ﴾ مستعملة في التمني وهو استعمال كثير لحرف ﴿لَوْ﴾ وأصلها الشرطية حُذف شرطها وجوابُها واستعيرت للتمني بعلاقة اللزوم لأن الشيء العسير المَنال يكثر تمنيه ، وسَدَّ المصدر مسد الشرط والجواب ، وتقدير الكلام لو ثبتت لنا كرة لتبرأنا منهم وانتصب ما كان جواباً على أنه جواب التمني وشاع هذا الاستعمال حتى صار من معاني لو وهو استعمال شائع وأصله مجاز مرسل مركب وهو في الآية مرشح بنصب الجواب .....

والمعنى أنهم تمنوا أن يعودوا إلى الدنيا بعدما علموا الحقيقة وانكشف لهم سوء صنيعهم فيدعوهم الرؤساء إلى دينهم فلا يجيبوهم لَيشفوا غيظهم من رؤسائهم الذين خذلوهم ولتحصل للرؤساء خيبة وانكسار كما خيبوهم في الآخرة .

فإن قلت هم إذا رجعوا رجعوا جميعاً عالمين بالحق فلا يدعوهم الرؤساء إلى عبادة الأوثان حتى يمتنعوا من إجابتهم ، قلتُ باب التمني واسع فالأتباع تمنوا أن يعودوا إلى الدنيا عالمين بالحق ويعود المتبوعون في ضلالهم السابق وقد يقـال ألهـم الأتبـاع متبوعيهم بأنهم أضلوهم على بصيرة لعلمهم غالباً والأتباع مغروروون لجهلهم فهم إذا رجعوا جميعاً إلى الدنيا رجع المتبوعون على ما كانوا عليه من التضليل على علم بناء على أن ما رأوه يوم القيامة لم يزعهم لأنهم كانوا من قبل موقنين بالمصير إليه ورجع الأتباع عالمين بمكر المتبوعين فلا يطيعونهم .

وجملة ﴿ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ﴾ تذييل وفذلكة لقصـة تبَري المتبوعين من أتباعهم .

والإشارة في قوله : ﴿ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ ﴾ للإراءة المأخوذة مـن ﴿ يُرِيهِمُ ﴾ على أسلوب ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

والمعنى أن الله يريهم عواقب أعمالهم إراءً مثـل هـذا الإراء إذ لا يكـون إراءٌ لأعمالهم أوقعَ منه فهو تشبيه الشيء بنفسه باختلاف الاعتبار كأنه يُرام أن يـريهم أعمالهم في كيفية شنيعة فلم يوجد أشنعُ من هذه الحالة ، وهذا مثل الإخبار عـن المبتدأ بلفظه في نحو شِعْرِي شِعْرى ، أو بمرادفه نحو والسفاهة كاسمها ، وقد تقـدم تفصيله عند قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ .

والإراءة هنا بصرية ولذلك فقوله : ﴿ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ﴾ حال مـن ﴿ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ ومعنى ﴿ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ يريهم ما هو عواقب أعمـالهم لأن الأعمـال لا تدرك بالبصر لأنها انقضت فلا يحسُّون بها .

والحسرة حزن في ندامة وتلهف وفعله كفرِح واشتقاقها من الحَسْر وهو الكشف لأن الكشف عن الواقع هو سبب الندامة على ما فات من عدم الحيطة له .اهـ

وقوله : ﴿ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ حال أو اعتراض في آخر الكلام لقصد التذييل لمضمون﴿ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ﴾ لأنهم إذا كانوا لا يخرجون من النار تعيَّن أن تمنيهم الرجوع إلى الدنيا وحدوثَ الخيبة لهم من صنع رؤسائهم لا فائدة فيه إلاّ إدخالُ ألم الحسرات عليهم وإلاّ فهم باقون في النار على كل حال .اهـ (١)

وقال الجزائري رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

أخبر الله ﷻ أنه مع هذا البيان والوضوح يوجد ناس يتخذون من دون الله آلهة أصناماً ورؤساء يحبونهم كحبهم لله تعالى أي يسوون بين حبهم وحب الله تعالى ، والمؤمنون أشد منهم حباً لله تعالى ، كما أخبر تعالى أنه لو يرى لمشركون عند معاينتهم العذاب يوم القيامة لرأوا أمراً فظيعاً يعجز الوصف عنه ، ولعلموا أن القوة لله وأن الله شديد العذاب إذ تبرأ المتبعون وهم الرؤساء الظلمة دعاة الشرك والضلالة من متبوعيهم الجهلة المقلّدين وعاينوا العذاب أمامهم وتقطعت تلك الروابط التي كانت تربط بينهم ، وتمنى التابعون العودة إلى الحياة الدنيا لينتقموا من رؤسائهم في الضلالة فيتبرءوا منهم في الدنيا كما تبرءوا هم منهم في الآخرة ، وكما أراهم الله تعالى العذاب فعاينوه ، يريهم أعمالهم القبيحة من الشرك والمعاصي فتعظم حسرتهم ويشتد كربهم ويدخلون بها النار فلا يخرجون منها أبداً .

---

(١) انظر المصدر السابق .

*** من هداية الآيات :**

١- وجوب حب الله وحبّ كل ما يُحبّ عز وجل بحبه تعالى .

٢- من الشرك الحب مع الله تعالى ، ومن التوحيد الحب بحب الله ﷻ .

٣- يوم القيامة تنحل جميع الروابط من صداقة ونسب و لم تبق إلا رابطة الإيمان والأخوة فيه

٤- تبرؤ رؤساء الشرك والضلال ودعاة الشر والفساد ممن أطاعوهم في الـدنيا واتبعوهم على الظلم والشر والفساد وليس بنافعهم ذلك شيئاً . كما تقرر في الآيتين السابقتين بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة أن إله الناس أي ربهم ومعبودهم واحد وهو الله جل جلاله وعظم سلطانه أخبر تعالى أنه مع هذا البيان والوضوح يوجـد ناس يتخذون من دون الله آلهة أصناماً ورؤساء يحبونهم كحبهم لله تعالى أي يسوون بين حبهم وحب الله تعالى ، والمؤمنون أشد منهم حباً لله تعالى ، كما أخبر تعالى أنه لو يرى المشركون عند معاينتهم العذاب يوم القيامة لرأوا أمراً فظيعاً يعجز الوصف عنه ، ولعلموا أن القوة لله وأن الله شديد العذاب إذ تبرأ المتبعون وهـم الرؤسـاء الظلمة دعاة الشرك والضلالة من متبوعيهم الجهلة المقلّدين وعاينوا العذاب أمـامهم وتقطعت تلك الروابط التي كانت تربط بينهم ،وتمنى التابعون العـودة إلى الحيـاة الدنيا لينتقموا من رؤسائهم في الضلالة فيتبرءوا منهم في الدنيا كما تبرءوا هم منهم في الآخرة ، وكما أراهم الله تعالى العذاب فعاينوه ، يريهم أعمالهم القبيحة من الشـرك والمعاصي فتعظم حسرتهم ويشتد كربهم ويدخلون بها النار فلا يخرجون منها أبداً .

*من مشكاة النبوة : -

[١] عَنْ عَمْرِو بْنِ شُرَحْبِيلَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ قَالَ « أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ » . قُلْتُ إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ . قُلْتُ ثُمَّ أَيُّ قَالَ « ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ تَخَافُ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ » . قُلْتُ ثُمَّ أَيُّ قَالَ « ثُمَّ أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ »(١) . .

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في الفتح : قَالَ ابْنِ بَطَّال : غَرَضُ الْبُخَارِيِّ فِي هَذَا الْبَاب إِثْبَات نِسْبَة الأَفْعَال كُلّهَا لِلَّهِ تَعَالَى سَوَاء كَانَتْ مِنْ الْمَخْلُوقِينَ خَيْرًا أَوْ شَرًّا فَهِيَ لِلَّهِ تَعَالَى خَلْق وَلِلْعِبَادِ كَسْب ، وَلا يُنْسَبُ شَيْء مِنْ الْخَلْق لِغَيْرِ اللَّه تَعَالَى فَيَكُونُ شَرِيكًا وَنِدًّا وَمُسَاوِيًا لَهُ فِي نِسْبَة الْفِعْل إِلَيْهِ ، وَقَدْ نَبَّهَ اللَّه تَعَالَى عِبَاده عَلَى ذَلِكَ بِالآيَات الْمَذْكُورَة وَغَيْرهَا الْمُصَرِّحَة بِنَفْيِ الأَنْدَاد وَالآلِهَة الْمَدْعُوَّة مَعَهُ ، فَتَضَمَّنَتْ الرَّدّ عَلَى مَنْ يَزْعُم أَنَّهُ يَخْلُق أَفْعَاله ، وَقَالَ مَا حَذَّرَ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ أَوْ أَثْنَى عَلَيْهِمْ ، وَمِنْهَا مَا وَبَّخَ بِهِ الْكَافِرِينَ .(٢)

[٢] وروى البخاري ومسلم وغيرهما من أصحاب السنن والمسانيد عَنْ مُعَاذٍ ﷺ قَالَ : كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْرٌ فَقَالَ : ((يَا مُعَاذُ هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ)) قُلْتُ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ : ((فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ

---

(١) البخاري فتح : ٥٤٢/١٣ ك/ التوحيد ب/ قول الله تعالى ﴿ فلا تجعلوا لله أندادا ﴾ ح/ ٧٥٢٠ ط/ التوفيقية وانظر مسلم بشرح النووي :٢/ ٢٦١ -٢٦٢ ك/الإيمان ب/ بيان كون الشرك أقبح الذنوب ح/ ٨٦ ط/ دار المنار

(٢) البخاري فتح : ٥٤٢/١٣ ك/ التوحيد ب/ قول الله تعالى ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً ﴾ ح/ ٧٥٢٠ .

لا يُعَذِّبَ مَنْ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا)) فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَفَلا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ قَالَ : ((لا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا)) [١] .

[٣] عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((مَا أَحَدٌ أَصْــبَرُ عَلَــى أَذًى سَمِعَهُ مِنْ اللَّهِ يَدَّعُونَ لَهُ الْوَلَدَ ثُمَّ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ)) [٢].

من مظاهر الشرك

دعوة الأنبياء والمرسلين :-

إنك إن لن تجد في النفس من العيوب ،والنقائص مثل الشـرك في خفــاء مسـاربه ، وإسراعــه ،وتخليطه ،وتزيين أهله له ، واعتذارهم عنه محاولين التأويل ، والدفاع عـــن أنفسهم بأنهم لم يقصدوا شركاً ، ولا مضاهاة للكافرين ومـــن ثم كان لزاماً علـــى مـــن يهتم لسعادته في الدار الباقية أن يعتـــرف بحاجته الشديدة إلـــى معـــرفة الشـرك ومظاهره ،والإعتناء بالحديث عن ذرائعه لأجل أن يتقيه بالحجب الكثيفة من كل وجـــه ، وأن يسد الطرق الموصلة إليه ، ولو مـــن بعيد فلا يسري إلى جنانه ولا يتعلـــق بأركانـــه ولا يظهـــر منه شئ علـــى لسانه ، وليعلم الناصح الأمين المحـــدث الفذ الواعظ المؤثر أن أول شئ حـــذر منه الأنبياء ، والمرسلون ، والصالحون هو الشرك ، وقد واجههم السدنة ،والمدافعون عن الشرك بحرب ساخنة ،لا هوادة فيها ،وصبروا على ذلك حتى أتاهم نصر الله تعالى ،ونجا الموحدون المؤمنون مع الأنبياء والمرسلين ، ودمـــر علـــــى المشـــركين ، وجعلهم آية لمن خـــاف عذاب الآخرة ،ونكالاً لكل مـــن فرط فـــي التوحيد ، ومـــال

---

(١) البخاري فتح : ٦/٦٥ ك/ الجهاد والسير ب/ اسم الفرس والحمار ح/ ٢٨٥٦ وانظر مســلم نـــووي: ١/ ١٨٥ ك/ الإيمان ب/ الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً ح/ ٣٠ .

(٢) البخاري فتح : ١٣ /٤٠٠ ك/ التوحيد ب/ قول الله تعالى : ﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المـــتين)) ح/ ٧٣٧٨ .ومسلم نووي : ١٧ / ٢٨٧ ك/ صفة القيامة والجنة والنار ب/ لا أحد أصبر على أذى من الله ﷻ ح/ ٢٨٠٤

إلى الشرك ،وإن صغر هذا مـع انتقالهم من عذاب ، وخزي الدنيا، إلى نكال ، وعـذاب الحريق المهين ــ عياذاً بالله ــ

قال تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الزخرف]

هذا نكال الدنيا أما ما بعد الدنيا من عذابهم الذي التف حولهم فقد دلّ عليه القـرآن في مواضع أخرى .

قال تعالى : ﴿ ......وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [غافر]

وكقولـه تعـالى حكايـة عـن قـوم نـوح ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [هود]

وكقوله في سورة نوح ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [نوح] فلما أعرضـوا ،واستنكفوا وأبوا إلا العناد ،والشرك حاق بهم ما كانوا به يستهزئون ،وذهبوا إلى الجحيم غير مأسوف عليهم ....

وقوم هود ناداهم عليه السلام بالعبادة ،والتوحيد ﴿ أَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [هود] فقالوا(٦) عليه السلام : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [هود] فأجاهم عليه السلام وقد أعلن البراءة من شركهم ومما يعبدون ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ ﴾ [هود]

وكانت النتيجة التي ذكرها القرآن ناصعة البيان عظيمة الوضوح ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ﴾ [هود]

هكذا دمَّر الله عليهم ،ولاحقتهم اللعنة ،وسار هم الطرد من الرحمة في الأولى والآخرة ليستقروا في نار تلظى وما هم منها بمخرجين غير مأسوف عليهم ﴿ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المائدة] وهذا نبي الله صالح يدعو قومه ﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾[هود: ٦١] فيردون عليه باستكبار وجحود قائلين ﴿ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ ﴾ [هود] ويحذرهم بطش رهم ، وأن لا يمسوا الناقة بسوء وإلا مسهم عذاب قريب فيجحدون ، ويصرون إلا الشرك ، ونبذ الإيمان ،والعبادة خلفهم ظهريا ،ويقدمون على المعصية ،غير خائفين لا يبالون بوعد ولا بوعيد ،ولا تهديد ،وفي جرأة ،وقسوة يجتمعون على الكفر ، والإجرام ، وتعدي الحدود ، وتلحق بهم سنة الأولين من

أمثالهم ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ ﴾ [هود]

وتأتي النهاية الحتمية والباقية ، التي تنتظر كل كافر مشرك وكنود جاحد ،ولـو بعـد حين ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [هود] وقوم لوط كذبوا نبيهم وعصوا ربهم ،وجحدوا ،وفعلوا الفاحشة ،وأتوا الرجال شهوة مـن دون النساء ، و أسرفوا في ذلك ،ولم يرجعوا عن غيهم ،وعتوهم ،وضاق بهم نبيهم ذرعاً قـال لهـم :

﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ ﴾ [هود] وجـاءت الملائكـة إلـي نبـي الله لوط لتوضح له اقتـراب موعـدهم ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ ﴾ [هود]

وجاء الصباح لكن معه ما لا يتوقعه كافر حيث كان الجزاء مـن جنس العمـل ، والأخـذ كان أليما شـديداً ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾ [هود] وجاء الصباح لكن معه ما لا يتوقعه كافر حيث كان الجزاء من جنس العمل ، والأخذ كان أليما شديداً وذهبوا غير مأسوف عليهم ليكونوا عبرة أبد الدهر

وجاء شعيب عليه السلام ودعا قومه بنفس المنهج الإيماني التعبدي لإخوانـه السـابقين مـن الأنبياء ،والمرسـلين ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ

عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ﴿٨٤﴾ ﴾ [هود] وأجابوا بصلف وغرور ، وعجب ، وكفر ، واستنكاف : ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾ [هود]

وخوفهم عاقبة المكذبين قبلهم لعلهم يرجعون فيتذكرون : ﴿ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ ﴾ [هود]

لكن وللأسف الشديد واجهت هذه النصيحة قلوب صخرية كالحجارة أو أشد قسوة ،وهنا أعلن لهم عن اقتراب العذاب إن استمروا على ما هم فيه ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴿٩٣﴾ ﴾ [هود] ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾ [هود]

، ولا تظن أن هذا خاص بالعهود الماضية وما دامت الرسالات قد ختمت برسالة نبينا محمد ﷺ وقد انتهت قضية الأخذ بالذنب في دار الدنيا ؟ إن الأمر ليس كذلك قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٤﴾ ﴾ [المائدة]

وهذه الآية محكمة ليست منسوخة فماذا يفيد قوله تعالى ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ هل ذلك في الماضي أم أنه باق لقوله تعالى﴿ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ ﴾ [المائدة]

وقفة مهمة مع قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ .

وحتى ييسر الله تعالى عليك ذلك اليوم الـذي ﴿كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾ [الإنسان] وكان ﴿يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠﴾ [الإنسان] ينبغي أن تستحضر ما حدث لهؤلاء المشركين الظالمين من ذل ومهانة وفضيحة وعذاب حسي ومعنـوي ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا ۝١٠١﴾ [طه] فينبغي عليك أن تبرأ من أعمالهم وشركهم وأندادهم وأن تتولى الله ﷻ حباً وسمعاً وطاعة وإنابة وانقياداً واستسلاماً ويقيناً في آياته وأخباره وفيما وعـد وفيما أوعد أيضاً وهذا لقوله تعالى : ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٣١﴾ [الروم] وقولـه : ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ۝١٩﴾ [الحشر]

وعلى هذا فينبغي أن يكون حبك لله تعالى منبثقاً من تعظيمه وتوقيره وقدره حق قدره فيكون حبك له أعظم حب فكما أن الله تعالى لا ند له ولا شبيه ولا نظير ولا مثيـل في الأسماء والصفات والأفعال فينبغي أيضاً أن لا يشبه حبك له حباً قطُ فله الحب الأكمـل الأعظم من جميع الوجوه ﷻ وعليه فينبغي أن تعلم :

*** أن من أسباب محبة الله تعالى**

١- أن تحب ما أحب ﷻ وأن تحب من أحب .

إذا طالعت كتاب الله تعالى ، واستقرأت آيات التتريل متلمسا محابّه جل اسمه فإنه لابد لك بالضرورة أن تحب ما أحب الله تعالى من الصفات الطيبة التى مدح ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ۝٢٦﴾ [محمد] أصحابها ووعدهم عليها بجزيل الثواب ، والمعافاة من العقاب لأن الصادق في حبه يحب من أحب وما أحب ربه تعالى ويكره ما كره . ولـذلك فـإن الله

أحبط أعمال أناس خالفوا هذه القواعد مخالفة واضحة صـــارخة ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾ ﴾ [محمد] ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ﴾ [محمد] فإذا قــرأت قولــه تعــالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ [البقرة] أحببت هذا حبا عظيما وانضبطت عليه حتى يصير لك عادة ثابتة وشيمة لا تنفك عنك لكونها حفلة محبوبة لربك ســبحانه وتعــالى . وعليه فلا تكون إلا تائبا من ذنبك مستغفرا من عيبك رجّاعا لربك متطهرا طهارة باطنية وظاهرة خاصة أن النبي ﷺ بين أن الطهور شطر الإيمان كما في صحيح مسلم وغيره .

وإذا قرأت قوله تعالى ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [التوبة] أبغضت من وما أبغض ربك سبحانه وتعــالى إن الذنوب نجس ودنس ووسخ وعفن وهلكة في الدنيا والآخرة وإذا قرأت ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [آل عمران] أبغضت الظلم بشتى ميادينه وأشكاله وألوانه صغيرة كانــت أو كبيرة قليلة أو كثيرة لأن ولي نعمتك لا يحبه ثم بعد ذلك تترهت عن الظلــم ومــرذول الأخلاق إرضاءً لربك ليرضى عنك ويرزقك حبه وحب من أحبه وعملاً بقربك إلى حبه ﷻ وهكذا كلما مررت بآية من القرآن تخبرك عن دلائل حبه وبراهين رضــاه تلمســت مواطن الهدى والرضا وكنت عليه أحرص ما يكون ورمقت مواضع الردى فهربتَ منــها جهدك بكل سبيل تستطيع به الفرار مما لا يحب الله ولا يرضى .قال تعــالى﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ

ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [آل عمران] كما قال في نفس السورة ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [آل عمران] وقال ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [البقرة]

﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأنفال] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النحل] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الصف] فلتحب الصبر والصابرين والإحسان والمحسنين والتقوى والمتقين وتبغض ما يبغض الله ﷻ

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ ﴾ [لقمان] ، ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحديد] وهكذا يكون حالك وقلبك وجوارحك مع كتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ .

قال ابن القيم رحمه الله : ومن المعلوم قطعا أنك لا تتنافس إلا فى قرب من تحب قربه ، وحب قربه تبع لمحبة ذاته ، بل محبة ذاته أوجبت محبة القرب منه ، إذ فيها حياة القلوب ،ونعيم الأرواح ، وبهجة النفوس ، وقرة العيون ، وأعلى نعيم الدنيا والآخرة . قال تعالى : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الأنعام: ٥٢] وقال أحبابه وأولياؤه : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ ﴾ [الإنسان] وقال تعالى ﴿ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ [الليل] فجعل غاية أعمال الأبرار والمقربين والمحبين إرادة وجهه اهـ .

وقال ابن القيم رحمه الله : وكم فى السنة : **"أحب الأعمال الى الله كذا وكذا "** وإن الله يحب كذا .

[٤] عن عَبْدِ اللَّهِ قَالَ سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ ؟ قَالَ : ((الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا)) قَالَ : ثُمَّ أَيٌّ ؟ قَالَ : ((ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ)) قَالَ : ثُمَّ أَيٌّ ؟ قَالَ : ((الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)) قَالَ حَدَّثَنِي بِهِنَّ وَلَوْ اسْتَزَدْتُهُ لَزَادَنِي (١)

[٥] وَسُئِلَ ﷺ أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ قَالَ : ((إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ الْجِهَادُ ثُمَّ حَجٌّ مَبْرُورٌ)) وَكَانَ يَقُولُ : ((أَحَبُّ الْعَمَلِ إِلَى اللَّهِ مَا دَاوَمَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ وَإِنْ قَلَّ)) (٢)

[٦] عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى مَعْصِيَتُهُ)) (٣) وأضعاف أضعاف ذلك ، وفرحه العظيم بتوبة عبده الذى هو أشد فرح يعلمه العباد ، وهو من محبته للتوبة والتائب فلو بطلت مسألة المحبة لبطلت جميع مقامات الإيمان والإحسان ولتعطلت منازل السير الى الله ، فإنها روح كل مقام ومنزلة وعمل ، فإذا خلا منها فهو ميت لا روح فيه ، ونسبتها الى الأعمال كنسبة الإخلاص إليها ، بل هى حقيقة الإخلاص ، بل هي نفس الإسلام ، فإنه الاستسلام والحب والذل والطاعة لله ، فمن لا محبة له لا إسلام له البتة . بل هى حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله . فإن الإله ، هو الذي أله العباد حبا وذلا ، وخوفا ورجاء ، وتعظيما وطاعة له . . بمعنى ألهوه وهو الذي تأله القلوب ، أي تحبه وتذلُّ له . والعقول تحكم بوجوب تقديم محبة الله على محبة النفس والأهل والمال والولد وكل ما سواه وكل من لم يحكم عقله بهذا : فلا تعبأ بعقله ، فإن العقل والفطرة والشرعة والاعتبار والنظر تدعو كلها الى محبته سبحانه . بل إلى توحيده فى المحبة ، وإنما جاءت الرسل بتقرير ما فى الفطر والعقول . اهـ .

---

(١) البخاري فتح : ٢/ ١٠ ك/ مواقيت الصلاة ب/ فضل الصلاة لوقتها ح/ ٥٢٧ ومسلم نووي : ٢/ ٢٥٦ ك/ الإيمان ب/ بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال ح/ ٨٥ .

(٢) مسلم نووي : ٦ / ٤٠٨ ح/ ٧٨٢ ك/ الصياب ب/ صوم النبي ﷺ في غير رمضان .

(٣) أحمد في مسنده ح/ ٥٨٣٢ – ٥٨٣٩ .

وبناء على ما تقدم فلنبحث على ما يحب الله تعالى فنحبه محبةً وثيقـةً ونـدعو إليـه وعندها فإن الله لا يضيع عملا ولا مثقال ذرة من خير ولنتلمس ذلك فى السنة أيضا .

[٧] عن ابن عباس – رضى الله عنهما – أن رسول الله ﷺ قال : ((أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى اللَّهِ الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ))[١].

[٨] عَنْ ابْنِ عُمَرَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((أَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ عز وجل عَبْدُ اللَّـهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ))[٢]

[٩] عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّـهِ تَعَـالَى أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ)) قَالَ وَكَانَتْ عَائِشَةُ إِذَا عَمِلَتْ الْعَمَلَ لَزِمَتْهُ[٣]

[١٠] عَنْ الْأَسْوَدِ قَالَ قُلْتُ لِعَائِشَةَ حَدِّثِينِي بِأَحَبِّ الْعَمَلِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَتْ : ((كَانَ أَحَبُّ الْعَمَلِ إِلَيْهِ الَّذِي يَدُومُ عَلَيْهِ الرَّجُلُ وَإِنْ كَانَ يَسِيرًا))[٤] .

[١١] عن معاذ رضي الله عنه قال : ((أحب الأعمال إلى الله أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله))[٥]

[١٢] عن رجل من خثعم أن النبي ﷺ قال : ((أحب الأعمال إلى الله إيمان بالله ، ثم صلة الرحم ، ثم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكـر ، وأبغـض الأعمـال إلى الله : الإشراك بالله ، ثم قطيعة الرحم))[٦] .

[١٣] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((أَحَبُّ الْبِلَادِ إِلَى اللَّـهِ مَسَـاجِدُهَا وَأَبْغَضُ الْبِلَادِ إِلَى اللَّهِ أَسْوَاقُهَا))[٧].

---

(١) البخاري كتاب الإيمان ب/ الدين يسر

(٢) الترمذي ك/ الأدب عن رسول الله ﷺ ب/ ما جاء ما يستحب من الأسماء ح/ ٢٧٥٩ .

(٣) مسلم نووي : ٦ / ٤٠٨ ك/ صلاة المسافرين وقصرها ب / فضيلة العلم الدائم من قيام الليل وغيره .ح/ ٧٨٣ .

(٤) أحمد : ٦ / ١١٣ .

(٥) صحيح الجامع :١/٩٥ وهو حديث حسن .

(٦) مجمع الزوائد :١٥١/٨ وصحيح الترغيب :٣٢٣/٣ .

(٧) مسلم :١٣٢/٢ ك/ المساجد ومواضع الصلاة ب/ فضل الجلوس في مصلاة بعد الصبح ح/ ٦٧١ .

[١٤] عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ : ((.... يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الْجِهَادِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ ﷻ قَالَ كَلِمَةُ حَقٍّ تُقَالُ لِإِمَامٍ جَائِرٍ)) (١)

[١٥] عن الْمِسْوَرَ بْنَ مَخْرَمَةَ أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال : ((أَحَبُّ الْحَدِيثِ إِلَيَّ أَصْدَقُهُ))(٢)

[١٦] عن بن عمر – رضى الله عنهما – أن رسول الله ﷺ قال : ((أحب النـاس إلى الله أنفعهم ، وأحب الأعمال إلى الله ﷻ سرورٌ تدخله على مسلم ، أو تكشـفُ عنه كُربةً ، أو تقضى عنه دينا ، أو تطردُ عنه جوعاً ، ولأن أمشي مع أخي المسـلم في حاجةٍ أحبُ إليّ مِن أن أعتكف في المسجد شهراً ، ومن كف غضبه ستر الله عورتـه ، ومن كظم غيظا ، ولو شاء أنْ يُمضيه أمضاه ملأ الله قلبه رضاً يوم القيامة ، ومن مشى مع أخيه المسلم في حاجته حتى يُثبتها له ، أثبتَ الله تعالى قدمه يوم تزل الأقدام ، وإن سوء الخلق ليُفسد العملَ ، كما يُفسدُ الخلُّ العسلَ)) (٣)

[١٧] عن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : ((أحبُّ الطعام إلى الله تعالى مـا كثرت عليه الأيدي)) (٤)

[١٨] عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللَّـهِ أَرْبَعٌ سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ لَا يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ)) (٥).

[١٩] وعن أسامة بن شريك عن رسول الله ﷺ قال : ((أحـب عبـاد الله إلى الله أحسنهم خلقا)) (٦)

---

(١) صحيح الجامع :٩٦/١ وصحيح الترغيب :١٩٨/٣ ونسبه الألباني إلى أحمد والطبراني .

(٢) البخاري فتح : ٤/ ٦٠٣ ك/ الوكالة ب/ إذا وهب شيئاً لوكيل أو شفيع قوم جاز .ح/ ٢٣٠٨ .

(٣) الألباني في الصحيحة ٩٠٦ وحسنه .

(٤) حديث حسن أنظر صحيح الجامع ١٧١ والصحيحة ٨٩٥ .

(٥) أحمد : ٧/٥ مسلم نووي : ٢٨٠/١٤ ك/ الآداب ب/ كراهة التسمية بالأسماء القبيحة ح/ ٢١٣٧ .

(٦) صحيح الجامع (١٧٩) والصحيحة (٤٣٣)

سُورَةَ النساءِ

تمهيد

هذه سورة قرآنية مجسدة ، شاخصة ، بارزة ، يبين الله ﷺ فيها أغوار نفوس أهل الكتاب وما انطوت عليه هذه النفوس من جحود ونكران وتعنت وطغيان فقد نسوا من خلقهم من عدم وجعلهم شيئاً ولم يكونوا قبل ذلك شيئاً مذكورا ، وقابلوا نعمه بالجحود وقابلوا منهجه بالتكذيب ، فاستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير ، بل استبدلوا الكفر بالإيمان فآمنوا بالجبت ، والطاغوت ، وتولوا الكافرين بل زعموا زوراً وبهتاناً أنهم أقوم قيلاً ، وأهدى سبيلا، من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ومن كان هذا شأنه فهو الملعون حقاً ولن يجد له ناصراً ينصره ولا ولياً يتولاه ، وقد بلغوا من البخل أنهم لو كانوا من الملوك الأغنياء لبخلوا على الناس بالنقير والقطمير ، وبعد أن بين الله تبارك وتعالى هذه الطبائع الناثرة وتلك القلوب الجامحة وقد لعنهم لعناً كبيراً بجحودهم وكفرهم وحسدهم ثم بين في صورة شاخصة أخرى في صفحة من صفحات الدار الآخرة ما أعد لهم من عذاب محسوس يتناسب مع هذه النفوس ، وتلك القلوب فقد أعد لهم ناراً تلظى إنها تحرق جلودهم ولا تبقي ولا تذر شيئاً من لحومهم ولا عظامهم وكلما نضجت هذه الجلود بدلت جلوداً غيرها بقدرة القدير ليتذوقوا العذاب وأما المؤمنون الذين عملوا الصالحات وقابلوا نِعَم ربهم بالشكر والعرفان والذين سخر منهم أهل الكتاب ، والكافرون ، فإن لهم عند الله شأن آخر فقد هيئ لهم سبحانه بساتين وارفة الظلال ، تجري من تحتها الأنهار سوف يمكثون فيها أبداً ، ولا يبغون عنها حولا ، كما هيئ لهم ﷺ أزواجاً من الحور العين زيادة إلى أزواجهم الذين كانوا على الإيمان في الدنيا فجمعهم الله بهم ليدخلهم ظلاً ظليلاً بما كانوا يعملون .

قـال تعـالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾

***شرح الكلمات :**

﴿ الظلم ﴾ : وضع شيء في غير موضعه .

﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ : المثقال : الوزن مأخوذ من الثقل فكل ما يوزن فيـه ثقـل ، والذرة أصغر حجم في الكون حتى قيل إنه الهباء أو رأس النملة .

﴿حَسَنَةً ﴾ : الفعلة الجميلة من المعروف .

﴿يُضَٰعِفْهَا ﴾ : يريد فيها ضعفها .

﴿مِن لَّدُنْهُ﴾ : من عنده .

﴿أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ : جزاء كبيرا وثواباً عظيما .

﴿بِشَهِيدٍ﴾ : الشاهد على الشيء لعلمه به .

﴿يَوَدُّ﴾ : يحب .

﴿ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ ﴾ : يكونون تراباً مثلها .

﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ : أي لا يخفون كلاماً .

((المعنى العام))

قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ﴾ أي: فكيف الحال وكيف يصنعون إذا جئنا من كل أمة بشهيد ؛ يعني: بنبيها يشهد عليهم بما عملوا، ﴿وَجِئْنَا بِكَ ﴾ يا محمد، ﴿عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ شاهدًا يشهد على جميع الأمم على من رآه وعلى من لم يره.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا محمد بن يوسف، أنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن عبيدة، عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : ((اقرأ علي)) ، قلتُ: يا رسول الله أأقرأ عليكَ وعليكَ أنزل؟ قال: نعم فقرأت سورة النساء حتى إذا أتيتُ هذه الآية ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ قال: ((حَسْبُكَ الآن)) فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان .

قوله ﷻ : ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم القيامة، ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ ﴾ قرأ أهل المدينة وابن عامر "تسّوى " بفتح التاء وتشديد السين على معنى تتسوى، فأدغمت التاء الثانية في السين، وقرأ حمزة والكسائي بفتح التاء وتخفيف السين على حذف تاء التفعل كقوله تعالى ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [هود: ١٠٥] وقرأ الباقون بضم التاء وتخفيف السين على المجهول، أي: لو سُوِّيت بهم الأرضُ وصاروا هم والأرض شيئًا واحدًا.

وقال الكلبي : يقول الله ﷻ للبهائم والوحوش والطير والسباع: كُونُوا ترابًا فتسوى بهنَّ الأرض، فعند ذلك يتمنّى الكافر أن لو كان ترابًا كما قال الله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾ ﴾ [النبأ]

﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ قال عطاء: ودُّوا لو تُسوى بهم الأرضُ وأنهم لم يكونُوا كَتَمُوا أمرَ محمدٍ ﷺ ولا نَعْتَه. وقال الآخرون: بل هو كلامٌ مستأنف، يعـــني: ولا يكتمون الله حديثا لأن ما عملوا لا يخفى على الله ولا يقدرون على كتمانه. وقـــال الكلبي وجماعة: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ لأن جوارحَهم تشهدُ عليهم.

قال سعيد بن جبير: قال رجل لابن عباس رضي الله عنهما: إني أجد في القـــرآن أشياء تختلفُ عليّ، قال: هاتِ ما اختلفَ عليك، قال: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [المؤمنـــون] ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الطـــور] وقال: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ ، وقال "﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام] فقد كتَموا، وقـــال: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ [النازعات] فذكر خلق السماء قبل الأرض، ثم قـــال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت] فذكر في هذه الآية خلق الأرض قبـــل السماء، وقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ فكأنه كان ثم مضى؟ .

فقال ابن عباس رضي الله عنـــهما: فـــلا أنســـاب بينـــهم في النفخـــة الأولى قال الله تعـــالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمـــر: ٦٨] ، فلا أنسابَ عند ذلك ولا يتساءلُون، ثم في النفخة الآخرة

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الطور] وأما قوله: ﴿ مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ ، فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذُنوبَهم، فيقول المشركون: تعالوا نَقُلْ لم نكن مشركين، فيُختَمُ على أفواههم وتنطق أيديهم فعند ذلك عُرف أن الله لا يُكتَمُ حديثًا، وعنده ﴿ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ ﴾ ، و ﴿ خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ ، ثم خلق السماء ثم استوى إلى السماء فسوَّاهنَّ في يومين آخرَين ثم دحا الأرض، ودحيها : أن أخرجَ منها الماء والمرعى وخَلَقَ الجبالَ والآكامَ وما بينهما في يومَين آخرين، فقال: : خلق الأرضَ في يومَين فجُعِلت الأرضُ وما فيها من شيء في أربعةِ أيام، وخُلقَتِ السمواتُ في يومَين، ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ أي: لم يزل كذلك، فلا يختلف عليك القرآنُ فإن كُلًا من عند الله .

وقال الحسن: إنها مواطن، ففي موطن لا يتكلمون ولا تسمع إلا همسًا، وفي موطن يتكلمون ويكْذِبُون ويقولون: ما كنّا مشركين، وما كنّا نعمل من سوء، وفي موضع يعترفُون على أنفسهم.... . اهـ[1]

* معنى الآيات :

لما أمر تعالى في الآيات السابقة بعبادته والإحسان إلى من ذكر من عباده . وأمر بالإنفاق في سبيله ، وندد بالبخل والكبر والفخر ، وكتمان العلم ، وكان هذا يتطلب الجزاء بحسبه خيراً أو شراً ذكر في هذه الآية ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ ، ذكر عدله في المجازاة ورحمته ، فأخبر أنه عند الحساب لا يظلم عبده وزن ذرة أصغر شيء وذلك

---

(١) انظر تفسير البغوي لسورة النساء الآيات (٤١- ٤٢) .

بأن لا ينقص من حسناته حسنة ، ولا يزيد في سيئاته سيئة ، وإن توجد لدى مؤمن حسنة واحدة يضاعفها بأضعاف يعلمها هو ويعط من عنده بدون مقابل أجراً عظيما لا يقادر قدره فلله الحمد والمنة هذا ما تضمنته الآية الأولى (٤٠) أما الآية الثانية (٤١) فإنه تعالى ذكر الجزاء والحساب الدالة عليه السياق ذكر ما يدل على هول يوم الحساب وفظاعة الأمر فيه ، فخاطب رسوله ﷺ قائلا : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ ومعنى الكريمة فكيف تكون حال أهل الكفر والشر والفساد إذا جاء الله تعالى بشهيد من كل أمة ليشهد عليها فيما أطاعت وفيما عصت ليتم الحساب بحسب البينات والشهود والجزاء بحسب الكفر والإيمان والمعاصي والطاعات ، وجئنا بك أيها الرسول الخليل ﷺ شهيداً على هؤلاء أي على أمته ﷺ من آمن به ومن كفر إذ يشهد أنه بلغ رسالته وأدى أمانته ﷺ . هذا ما تضمنته الآية الثانية أما الآية الثالثة (٤٢) فإنه تعالى لما ذكر ما يدل على هول يوم القيامة في الآية (٤١) ذكر مثلا لذلك الهول وهو أن الذين كفروا يودون وقد عصوا الرسول لو يسوون بالأرض فيكونون تراباً حتى لا يحاسبوا ولا يجزوا بجهنم . وأنهم في ذلك اليوم لا يكتمون الله كلاما؛ إذ جوارحهم تنطق فتشهد عليهم . قال تعالى ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم يؤتى من كل أمة بشهيد ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ فيكونون تراباً مثلها . مرادهم أن يسووا هم الأرض فيكونون ترابا وخرج الكلام على معنى أدخلت رأسي في القلنسوة والأصل أدخلت القلنسوة في رأسي ؛ ولا عليهم بعد أن يختم على أفواههم ، كما قال تعالى من سورة يس ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [يس]

* من هداية الآيات :

١- بيان عدالة الله تعالى ورحمته ومزيد فضله .

٢- بيان هول يوم القيامة حتى إن الكافر ليود أن لو سويت به الأرض فكان تراباً

٣- معرفة رسول الله ﷺ بآثار الشهادة على العبد يوم القيامة... اهـ [١]

من مشكاة النبوة في معنى هذه الآيات :

[٢٠] عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا وَيُجْزَى بِهَا فِي الآخِرَةِ وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ بِهَا لِلَّهِ فِي الدُّنْيَا حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الآخِرَةِ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا ».[٢]

[٢١] عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ يَحْيَى بَعْضُ الْحَدِيثِ عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ قَالَ : قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ « اقْرَأْ عَلَيَّ » .قُلْتُ آقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ قَالَ « فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي » . فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّى بَلَغْتُ ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ قَالَ « أَمْسِكْ » . فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ [٣].

[٢٢] عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَبِّ . فَيَقُولُ هَلْ بَلَّغْتَ فَيَقُولُ نَعَمْ . فَيُقَالُ لأُمَّتِهِ هَلْ بَلَّغَكُمْ فَيَقُولُونَ مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ . فَيَقُولُ مَنْ يَشْهَدُ لَكَ فَيَقُولُ مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ . فَتَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ)) [٤]

---

(١) انظر تفسير الجزائري : ١/٣١٥ ، ٣١٦ تفسير سورة النساء الآيات (٤١-٤٢) ط/ دار الحديث .

(٢) مسلم : ١٧/ ٢٩٠ ك/صفة القيامة والجنة والنار ب/ جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة ، وتعجيل حسنات الكافر في الدنيا ح/ ٢٨٠٨ .

(٣) البخاري فتح :٨/١٠٧ ك/ التفسير ب/ ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ﴾ ح/ ٤٥٨٢.

(٤) البخاري فتح : ٦/٤١٣ ك/ أحاديث الأنبياء ب/ قول الله تعالى ﴿ إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه ..﴾ ح/ ٣٣٣٩ .

وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾ [النساء]

*** شرح الكلمات :**

﴿نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ : ندخلهم ناراً يحترقون بها .

﴿نَضِجَتْ جُلُودُهُم﴾ : اشتوت فتهرت وتساقطت .

﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ : ليستمر لهم العذاب مؤلماً .

﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ : غالباً ، يعذب من يستحق العذاب .

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ : تجري من خلال أشجارها وقصورها الأنهار .

﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ : من الأذى والقذى مطلقا .

﴿ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ : الظل الظليل ، الوارف الدائم لا حر فيه ولا برد فيه [(١)].

((المعنى العام))

وهذا من قبائح اليهود وحسدهم للنبي ﷺ والمؤمنين، أن أخلاقهم الرذيلة وطبعهم الخبيث، حملهم على ترك الإيمان بالله ورسوله، والتعوض عنه بالإيمان بالجبت والطاغوت، وهو الإيمان بكل عبادة لغير الله، أو حكم بغير شرع الله.

فدخل في ذلك السحر والكهانة، وعبادة غير الله، وطاعة الشيطان، كل هذا من الجبت والطاغوت، وكذلك حَمَلهم الكفر والحسد على أن فضلوا طريقة الكافرين بالله -عبدة الأصنام- على طريق المؤمنين فقال: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: لأجلهم تملقا لهم ومداهنة، وبغضا للإيمان: ﴿هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ أي: طريقا. فما أسمجهم وأشد عنادهم وأقل عقولهم! كيف سلكوا هذا المسلك الوخيم والوادي الذميم؟. هل ظنوا أن هذا يروج على أحد من العقلاء، أو يدخل عقلَ أحد من الجهلاء، فهل يُفَضَّل دين قام على عبادة الأصنام والأوثان، واستقام على تحريم الطيبات، وإباحة الخبائث، وإحلال كثير من المحرمات، وإقامة الظلم بين الخلق، وتسوية الخالق بالمخلوقين، والكفر بالله ورسله وكتبه، على دين قام على عبادة الرحمن، والإخلاص لله في السر والإعلان، والكفر بما يعبد من دونه من الأوثان والأنداد والكاذبين، وعلى صلة الأرحام والإحسان إلى جميع الخلق، حتى البهائم، وإقامة العدل والقسط بين الناس، وتحريم كل خبيث وظلم، والصدق في جميع الأقوال والأعمال، فهل هذا إلا من الهذيان، وصاحب هذا القول إما من أجهل الناس وأضعفهم عقلا وإما من أعظمهم عنادا وتمردا ومراغمة للحق، وهذا هو

---

(١) أنظر أيسر التفاسير للجزائري : ١/ ٣٢٥ تفسير سورة النساء الآيات (٥٦-٥٧) ط/ دار الحديث .

الواقع، ولهذا قال تعالى عنهم: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: طردهم عن رحمته وأحل عليهم نقمته. ﴿وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ أي: يتولاه ويقوم بمصالحه ويحفظه عن المكاره، وهذا غاية الخذلان.

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ﴾ أي: فيفضّلون من شاءوا على من شاءوا بمجرد أهوائهم، فيكونون شركاء لله في تدبير المملكة، فلو كانوا كذلك لشحوا وبخلوا أشد البخل، ولهذا قال: ﴿فَإِذًا﴾ أي: لو كان لهم نصيب من الملك ﴿لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ أي: شيئًا ولا قليلا. وهذا وصف لهم بشدة البخل على تقدير وجود ملكهم المشارك لملك الله. وأخرج هذا مخرج الاستفهام المتقرر إنكاره عند كل أحد.

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ أي: هل الحامل لهم على قولهم كونهم شركاءَ لله فيفضلون من شاءوا ؟ أم الحامل لهم على ذلك الحسدُ للرسول وللمؤمنين على ما آتاهم الله من فضله؟ وذلك ليس ببدع ولا غريب على فضل الله. ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا (٥٤)﴾ وذلك ما أنعم الله به على إبراهيم وذريته من النبوة والكتاب والملك الذي أعطاه من أعطاه من أنبيائه كـ "داود" و "سليمان" . فإنعامه لم يزل مستمرًا على عباده المؤمنين. فكيف ينكرون إنعامه بالنبوة والنصر والملك لمحمد ﷺ أفضل الخلق وأجلهم وأعظمهم معرفة بالله وأخشاهم له؟.

﴿فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ﴾ أي: بمحمد ﷺ فنال بذلك السعادة الدنيوية والفلاح الأخروي. ﴿وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾ عنادًا وبغيًا وحسدًا فحصل لهم من شقاء الدنيا

ومصائبها ما هو بعض آثار معاصيهم ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ تسعر على من كفر بالله، وجحد نبوة أنبيائه من اليهود والنصارى وغيرهم من أصناف الكفرة.

ولهذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ أي: عظيمة الوقود شديدة الحرارة ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم﴾ أي: احترقت ﴿بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ أي: ليبلغ العذاب منهم كل مبلغ. وكما تكرر منهم الكفر والعناد وصار وصفا لهم وسجية؛ كرر عليهم العذاب جزاء وفاقا، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي: له العزة العظيمة والحكمة في خلقه وأمره، وثوابه وعقابه.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: بالله وما أوجب الإيمانَ به ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من الواجبات والمستحبات ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي: من الأخلاق الرذيلة، والخَلْق الذميم، ومما يكون من نساء الدنيا من كل دنس وعيب ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ .اهـ(١)

[ليتجدد ذوقهم للعذاب وإحساسهم به ، وقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ تذييل المقصود منه إنفاذ الوعيد فيهم ، لأن العزيز الغالب لا يعجز عن إنفاذ ما توعد به أعداءه ، كما أن الحكيم في تدبيره يعذب أهل الكفر به والخروج عن طاعته هذا ما تضمنته الآية الأولى (٥٦) من وعيد لأهل الكفر ؛ وأما الآية الثانية (٥٧) فقد تضمنت البشرى السارة لأهل الإيمان وصالح الأعمال ، مع اجتناب الشرك والمعاصي فقال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي بعد

---

(١) تفسير السعدي [المجلد الواحد] ص ١٦٤ ،١٦٥ تفسير سورة النساء الآيات (٥١- ٥٧)ط/ التوفيقية

تركهم الشرك والمعاصي ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ يريد نساء من الحور العين مطهرات من كل ما يؤذي أو يُخل بحسنهن وجمالهن نقيات من البول والغائط ودم الحيض . وقوله تعالى : ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ وارفا كنيناً يقيهم الحر والبرد وحدث يوما رسول الله ﷺ عن الجنة فقال : « **في الجنة شجرة تسمى شجرة الخلد يسير الراكب في ظلها مائة سنة ما يقطع ظلها** » .

*** معنى الآيات:**

لما ذكر الإيمان والكفر في الآية السابقة ذكر تعالى في هاتين الآيتين الوعيد والوعد والوعيد لأهل الكفر والوعد لأهل الإيمان فقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا ﴾ يريد يدخلهم نار جهنم يحترقون فيها ويصطلون بها ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم ﴾ تهرت وسقطت بدلهم الله تعالى فوراً جلوداً غيرها.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ : يخبر تعالى عما يعاقب به في نار جهنم من كفر بآياته وصد عن رسله فقال ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ أي ندخلهم نارا دخولا يحيط بجميع أجرامهم وأجزائهم ثم أخبر عن دوام عقوبتهم ونكالهم فقال ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ قال الأعمش عن ابن عمر : إذا احترقت جلودهم بدلوا جلودا غيرها بيضاء أمثال القراطيس رواه ابن أبي حاتم وقال يحيى بن يزيد الحضرمي أنه بلغه في الآية قال : يجعل للكافر مائة جلد بين كل جلدين لون من العذاب ورواه ابن أبي حاتم وقال ابن

أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا علي بن محمد الطنافسي حدثنا حسين الجعفي عن زائدة عن هشام عن الحسن قوله : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم ﴾ الآية قال : تنضـجهم في اليوم سبعين ألف مرة قال حسين : وزاد فيه فضيل عن هشام عـن الحسـن ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم ﴾ كلما أنضجتهم فأكلت لحومهم قيل لهم عودوا فعادوا وقـال أيضا : ذكر عن هشام بن عمار حدثنا سعيد بن يحيى ــ يعني سعدان ــ حدثنا نافع مولى يوسف السلمي البصري عن نافع عن ابن عمر قال : قرأ رجل عند عمر هذه الآية ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾ فقال عمر : أعـدها علـي فأعادها فقال معاذ بن جبل : عندي تفسيرها تبدل في ساعة مائة مرة فقال عمـر : هكذا سمعت رسول الله ﷺ وقد رواه ابن مردويه عن محمد بن أحمد بن إبراهيم عن عبدان بن محمد المروزي عن هشام بن عمار به ورواه من وجه آخر بلفظ آخر فقال : حدثنا محمد بن إسحاق عن عمران حدثنا إبراهيم بن محمد بن الحـارث حـدثنا شيبان بن فروخ حدثنا نافع أبو هرمز حدثنا نافع عن ابن عمر قال : تلا رجل عند عمر هذه الآية : ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم ﴾ الآية قال : فقال عمر : أعدها علـي وثم كعب فقال أنا عندي تفسير هذه الآية قرأتها قبل الإسلام قال : فقال هاتها يـا كعب فإن جئت بها كما سمعت من رسول الله ﷺ صدقناك وإلا لم ننظر إليها فقال : إني قرأتها قبل الإسلام : كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها في السـاعة الواحدة عشرين ومائة مرة فقال عمر : هكذا سمعت من رسول الله ﷺ وقال الربيع بن أنس : مكتوب في الكتاب الأول : أن جلد أحدهم أربعون ذراعا وسنه تسعون ذراعا وبطنه لو وضع فيه جبل لوسعه فإذا أكلت النار جلودهم بدلوا جلودا غيرها وقد ورد في الحديث ما هو أبلغ من هذا قال الإمام أحمد : حَدَّثَنَا وَكِيعٌ حَدَّثَنِي أَبـو

يَحْيَى الطَّوِيلُ عَنْ أَبِي يَحْيَى القَتَّاتِ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنِ ابْنِ عُمَـرَ عَـنِ النَّبِـيِّ ﷺ قَـالَ: ((يَعْظُمُ أَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ حَتَّى إِنَّ بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِ أَحَدِهِمْ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةَ سَبْعِ مِائَةِ عَامٍ وَإِنَّ غِلَظَ جِلْدِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا وَإِنَّ ضِرْسَهُ مِثْلُ أُحُدٍ))(1) ... وقيل المـراد بقوله : ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم﴾ أي سرابيلهم حكاه ابن جرير وهو ضعيف لأنـه خلاف الظاهر .وقولـه : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ هذا إخبار عن مآل السعداء في جنات عدن الـتي تجري فيها الأنهار في جميع فجاجها ومحالها وأرجائها حيث شاءوا وأين أرادوا وهم خالدون فيها أبدا لا يحولون ولا يزولون ولا يبغون عنها حولا وقولـه : ﴿لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي من الحيض والنفاس والأذى والأخلاق الرذيلـة والصـفات الناقصة كما قال ابن عباس : مطهرة من الأقذار والأذى وكذا قال عطاء والحسـن والضحاك والنخعي وأبو صالح وعطية والسدي وقال مجاهد : مطهرة مـن البـول والحيض والنخام والبزاق والمني والولد وقال قتادة : مطهرة من الأذى والمـآثم ولا حيض ولا كلف وقوله ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ أي ظلا عميقا كثيرا غزيرا طيبـا أنيقا قال ابن جرير : حدثنا ابن بشار حدثنا عبد الرحمن وحدثنا ابن المثنى حدثنا ابن جعفـر قـالا : حـدثنا شـعبة قـال : سمعـت أبـا الضـحاك يحـدث [٢٣] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : ((إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لا يقطعها(2) - هِيَ شَجَرَةُ الْخُلْدِ)) اهـ (3)

---

(١) قال ابن كثير هذا الوجه تفرد به الإمام أحمد

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٥١) ومسلم (٢٨٢٦) وليس عندهما شجرة الخلد

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٥١٤/١ ، ٥١٥ تفسير سورة النساء الآيات (٥٦ - ٥٧) ط/ دار مصر للطباعة

*** من هداية الآيات :**

١- الكفر والمعاصي موجبات للعذاب الأخروي .

٢- بيان الحكمة في تبديل الجلود لأهل النار وهي أن يدوم إحساسهم بالعذاب .

٣- الإيمان والعمل الصالح مع ترك الشرك والمعاصي موجبات للنعيم الأخروى .

٤- الجنة دار النعيم خالية من كدرات الصفو والسعادة فيها . اهـ [1]

---

(١) انظر تفسير الجزائري : ١/ ٣٢٥ تفسير سورة النساء الآيات (٥٦- ٥٧) ط/ دار الحديث .

سُورَةُ الأنعام

قـــال تعـــالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَـٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأنعام: ٢١ - ٢٦]

* شرح الكلمات :

﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ : اختلق الكذب وزوّره في نفسه وقال .

﴿لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ : لا ينجون من عذاب الله يوم القيامة .

﴿ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ﴾ : استفهام توبيخي لهم .

﴿تَزْعُمُونَ﴾ : تدعون أنهم شركاء يشفعون لكم عند الله .

﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ : غاب عنهم و لم يحضرها ما كانوا يكذبونه (١).

[ولما كان التقدير : خسروا ففاقهم الإيمان ، لأنهم ظلموا بكتمان الشهادة ، فكان الظلم سبب خسرانهم ، فمن أظلم منهم! عطف عليه ما يؤذن بأنهم بدلوا كتابهم ،

---

(١) أيسر التفاسير للجزائري : ١/ ٤٦٢ تفسير سورة الأنعام الآيات (٢٠-٢٤) ط/ دار الحديث

أو نسبوا إليه ما ليس فيه ، فقال واضعاً للظاهر موضع ضميرهم لذلك : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ أي تعمد ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ كهؤلاء الذين حرفوا كتابهم ونسبوا إلى الله ما لم يقله ، زيادة كتبوها بأيديهم لا أصل لها،إضلالاً منهم لعباده ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ﴾ أي الآتي بها الرسل كالقرآن وغيره من المعجزات كالمشركين ، لا أحد أظلم منهم فهم لا يفلحون ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ أي فكيف بالأظلمين! .

ولما كان معنى هذا أنهم أكذب الناس ، دل عليه بكذبهم يوم الحشر بعد انكشاف الغطاء فقال : ﴿وَيَوْمَ﴾ أي اذكر كذبهم على الله وتكذيبهم في هذه الدار ، واذكر أعجب من ذلك ، وهو كذبهم في عالم الشهادة عند كشف الغطاء وارتفاع الحجب يوم ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ أي نجمعهم بما لنا من العظمة وهم كارهون صاغرون ﴿جَمِيعًا﴾ أي أهل الكتاب والمشركين وغيرهم ومعبوداتهم ، وأشار إلى عظمة ذلك اليوم وطوله ومشقته وهوله بقوله بأداة التراخي : ﴿ثُمَّ نَقُولُ﴾ أي بما لنا من العظمة التي انكشفت لهم أستارها وتبدت لهم بحورها وأغوارها توبيخاً وتنديماً ﴿لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾ أي سموا شيئاً من دوننا إلهاً وعبدوه بالفعل من الأصنام أو عزير أو المسيح أو الظلمة أو النور أو غير ذلك ، أو بالرضى بالشرك ، فإن الرضى بالشيء فعل له لا سيما إن انضم إليه تكذيب الحق والشهادة للمبطل بأن دينه خير ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ﴾ أضافهم إلى ضميرهم لتسميتهم لهم بذلك ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي أنهم شركاؤنا بالعبادة أو الشهادة بما يؤدي إليها ، ادعوهم اليوم لينقصوكم مما نريد من ضركم ، أو يرفعوكم مما نريد من وضعكم ، وسؤالهم هذا يجوز أن يكون مع غيبة الشركاء عنهم وأن يكون عند إحضارهم لهم ، فيكون الاستفهام عما كانوا يظنون من نفعهم ، فكأن غيبته غيبتهم .

ولما كان إخبارهم بغير الواقع في ذلك اليوم مستبعداً بعد رفع الحجاب عن الأهوال وإظهار الزلازل والأوحال . أشار إليه بأداة البعد فقال : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ ﴾ أي عاقبة مخالطتنا لهم بهذا السؤال وأمثاله من البلايا التي من شأنها أن يميل ما خالطته فتحيله – ولو أنه جبل – عن حاله بما ناله من قوارعه وزلزاله إلاّ كذبهم في ذلك الجمع ، وهو معنى قوله : ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾ ثباتاً منهم فيما هم عريقون فيه من وصف الكذب : ﴿وَٱللَّهِ﴾ فذكروا الاسم الأعظم الذي تندك لعظمته الجبال الشم ، وتنطق بأمره الأحجار الصم ، الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى التي ظهر لهم كثير منها في ذلك اليوم ، وأكدوا ذلك بذكر الوصف المذكر بتربيتهم ودوام الإحسان إليهم فقالوا : ﴿رَبِّنَا﴾ فلم يقنعوا بمجرد الكذب حتى أقسموا ، ولا بمجرد القسم حتى ذكروا الاسم الجامع والوصف المحسن ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ أي إن تكذيبهم لك أوصلهم إلى حد يكذبون فيه في ذلك اليوم بعد كشف الغطاء تطمعاً بما لا ينفعهم ، كما ترى الحائر المدهوش في الدنيا يفعل مثل ذلك فهو إيئاس من فلاح الجميع : المشركين وأهل الكتاب ، أو يكون المعنى تنديماً لهم وتأسيفاً : أنه لم يكن عاقبة كفرهم الذي افتتنوا به في لزومه والافتخار به والقتال عليه – لكونه دين الآباء – إلاّ جحوده والبراءة منه والحلف على الانتفاء من التدين به ، والمعنى على قراءتي النصب والرفع في « فتنة » على جعلها خبراً أو اسماً واحداً ، فمعنى قراء النصب : لم يكن شيء إلاّ قولهم – أي غير قولهم الكذب – فتنتهم ، أي لم يكن شيء فتنتهم إلاّ هذا القول ، فهذا القول وحده فتنتهم ، فنفى عن فتنتهم وسلب عنها كل شيء غير قولهم هذا ، فالفتنة مقصورة على قولهم الكذب ، والكذب قد يكون ثابتاً لغيرها ، أي إنهم يكذبون من غير فتنة ، بل في حال الرخاء ، وهذا بعينه معنى قراءة ابن كثير وابن عامر وحفص برفع فتنة ، أي لم تكن فتنتهم شيئاً غير كذبهم ، فقد نفيت

فتنتهم عن كل شيء غير الكذب ، فانحصرت فيه ، ويجوز أن يكون ثابتاً في حال غيرها - على ما مر ، وهذا التقدير نفيس عزيز الوجود دقيق المسلك اهـ [١]

*معنى الآيات :

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ هم المشركون بزعمهم أن الأصنام تشفع لهم عند الله ولذا عبدوها ، أو كذبوا بآياته وهم أهل الكتاب ، وأخبر أن الجميع في موقفهم المعادي للتوحيد والإسلام ظالمون ، وإن الظالمون لا يفلحون فحكم بخسران الجميع إلا من آمن منهم وعبد الله ووحده وكان من المسلمين وقوله تعالى في الآية (٢٢) ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ مشركين وأهل كتاب أي لا يفلحون في الدنيا ولا يوم نحشرهم وهو يوم القيامة لأنهم ظالمون ، ثم أخبر تعالى بمناسبة ذكر يوم القيامة أنه يسأل المشركين منهم فيقول لهم : ﴿ أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ أنهم يشفعون لكم في هذا اليوم ؟ ثم لم تكن نتيجة هذه الفتنة أي الاختبار إلا قولهم : ﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ يكذبون هذا الكذب لأنهم رأوا أن المشركين لا يغفر لهم ولا ينجون من النار . ثم أمر الله رسوله أن يتعجب من موقفهم هذا المخزي لهم فقال له :﴿ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ﴾ أما ربهم فهو عليم بهم ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ أي غاب فلم يروه . ﴿ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أي يكذبون اهـ [٢].

* صورة للمكذبين لما أحيط بهم :

هذه الجولة - أو هذه الموجة - عودة إلى مواجهة المشركين المكذبين بالقرآن الكريم ، المكذبين بالبعث والآخرة ، ولكنها لا تواجههم بتصوير تعنتهم وعنادهم؛

---

(١) انظر نظم الدرر للبقاعي تفسير سوره الأنعام الآيات (٢٢ - ٢٦)

(٢) انظر أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير ١/ ٦٣ ٤ تفسير سورة الأنعام الآيات (٢٢ - ٢٦) ط/ دار الحديث

ولا تواجههم بمصارع الغابرين من المكذبين من أسلافهم - كما سبق في سياق السورة - إنما تواجههم بمصيرهم في يوم البعث الذي يكذبون به؛ وبجزائهم في الآخرة التي ينكرونها .. تواجههم بهذا الجزاء وبذلك المصير في مشاهد حية شاخصة .. تواجههم به وهم محشورون جميعاً ، مسؤولون سؤال التبكيت والتأنيب ، وسؤال التشهير والتعجيب : ﴿ أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ وهم في رعب وفزع ، وفي تضعضع وذهول يقسمون بالله ويعترفون له وحده بالربوبية : ﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ ! . . وتواجههم به وهم موقوفون على النار ، محبوسون عليها ، وهم في رعب وفزع ، وفي ندم وحسرة يقولون : ﴿ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ وتواجههم به وهم موقوفون على ربهم ، وهم يتذاوبون من الخجل والندم ، ومن الروع والهول؛ وهو ﷻ يسألهم سبحانه : ﴿ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ﴾ فيجيبون في استخذاء وتذاوب : ﴿ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ﴾ فلا يجديهم هذا الاعتراف شيئاً : ﴿ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ ويواجهون به وهم قد خسروا أنفسهم وخسروا كل شيء إذن؛ وجاءوا يحملون أوزارهم على ظهورهم؛ وهم يجأرون بالحسرة على تفريطهم في الآخرة ، وأخذهم للصفقة الخاسرة!

مشهد وراء مشهد ، وكل مشهد يزلزل القلوب ، ويخلخل المفاصل ، ويهز الكيان ، ويفتح العين والقلب - عند من يشاء الله أن يفتح عينه وقلبه - على الحق الذي يواجههم به رسول الله ﷺ والكتاب الذي يكذبون به؛ بينما الذين أوتوا الكتاب من قبلهم يعرفونه كما يعرفون أبنائهم! ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

لقد تكرر في القرآن الكريم ذكر معرفة أهل الكتاب - وهم اليهود والنصارى - لهذا القرآن؛ أو لصحة رسالة محمد ﷺ وتنزيل هذا القرآن عليه من عند الله .. تكرر ذكر هذه الحقيقة سواء في مواجهة أهل الكتاب أنفسهم ، عندما كانوا يقفون مـن النبي ﷺ ومن هذا الدين وقفة المعارضة والإنكار والحرب والعداء ((وكان هذا غالباً في المدينة)) أو في مواجهة المشركين من العرب؛ لتعريفهم أن أهل الكتاب ، الذين يعرفون طبيعة الوحي والكتب السماوية ، يعرفون هذا القرآن ، ويعرفـون صـدق رسول الله ﷺ في أنه وحي أوحى به ربه إليه كما أوحى إلى الرسل من قبله .

وهذا الآية - كما رجحنا - مكية . وذكر أهل الكتاب فيها على هذا النحو - إذن - يفيد أنها كانت مواجهة للمشركين بأن هذا القرآن الذي ينكرونه ، يعرفـه أهل الكتاب كما يعرفون أبناءهم؛ وإذا كانت كثرتهم لم تؤمن به فـذلك لأنهـم خسروا أنفسهم ، فهم لا يؤمنون ..... والظلم هنا كناية عن الشرك . في صـورة التفظيع له والتقبيح . وهو التعبير الغالب في السياق القرآني عن الشرك . وذلك حين يريد أن يبشع الشرك وينفر منه . ذلك أن الشرك ظلم للحق ، وظلم للنفس ، وظلم للناس . هو اعتداء على حق الله ﷻ في أن يوحد ويعبد بلا شريك . واعتداء علـى النفس بإيرادها موارد الخسارة والبوار . واعتداء على الناس بتعبيدهم لغير ربهم الحق ، وإفساد حياتهم بالأحكام والأوضاع التي تقوم على أساس هذا الاعتداء . ومن ثم فالشرك ظلم عظيم ، كما يقول عنه رب العالمين . ولن يفلح الشرك ولا المشركون ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١]

والله ﷻ يقرر الحقيقة الكلية؛ ويصف الحصيلة النهائية للشرك والمشـركين - أو للظلم والظالمين - فلا عبرة بما تراه العيون القصيرة النظر ، في الأمد القريب ، فلاحاً ونجاحاً . . فهذا هو الاستدراج المؤدي إلى الخسار والبـوار . . ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ

ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ﴾ [النساء] وهنا يصور من عدم فلاحهم موقفهم يوم الحشر والحساب ، في هذا المشهد الحي الشاخص الموحي :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

إن الشرك ألوان ، والشركاء ألوان ، والمشركين ألوان .. وليست الصورة الساذجة التي تتراءى للناس اليوم حين يسمعون كلمة الشرك وكلمة الشركاء وكلمة المشركين : من أن هناك ناساً كانوا يعبدون أصناماً أو أحجاراً ، أو أشجاراً ، أو نجوماً ، أو ناراً ... الخ .هي الصورة الوحيدة للشرك!

وكذلك كانوا يزاولون اللون الثالث من الشرك بإقامتهم لأنفسهم – عن طريق الكهان والشيوخ – شرائع وقيماً وتقاليد ، لم يأذن بها الله .. وكانوا يدعون ما يدعيه بعض الناس اليوم من أن هذا هو شريعة الله!

وفي هذا المشهد – مشهد الحشر والمواجهة – يواجه المشركين – كل أنواع المشركين بكل ألوان الشرك – بسؤالهم عن الشركاء – كل أصناف الشركاء – أين هم؟ فإنه لا يبدو لهم أثر؛ ولا يكفون عن أتباعهم الهول والعذاب :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

والمشهد شاخص ، والحشر واقع ، والمشركون مسؤولون ذلك السؤال العظيم .. الأليم : ﴿ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

[وهنا يفعل الهول فعله . . هنا تتعرى الفطرة من الركام الذي ران عليها في الدنيا .. هنا ينعدم من الفطرة ومن الذاكرة – كما هو منعدم في الواقع والحقيقة – وجود الشركاء؛ فيشعرون أنه لم يكن شرك ، ولم يكن شركاء .. لم يكن لهذا كله من

وجود لا في حقيقة ولا واقع .. هنا « يفتنون » فيذهب الخبث ، ويسقط الركام – من فتنة الذهب بالنار ليخلص من الخبث والزبد – :

﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾

إن الحقيقة التي تجلت عنها الفتنة ، أو التي تبلورت فيها الفتنة ، هي تخليهم عن ماضيهم كله وإقرارهم بربوبية الله وحده؛ وتعريهم من الشرك الذي زاولوه في حياتهم الدنيا .. ولكن حيث لا ينفع الإقرار بالحق والتعري من الباطل .. فهو إذن بلاء هذا الذي تمثله قولتهم وليس بالنجاة .. لقد فات الأوان .. فاليوم للجزاء لا للعمل .. واليوم لتقرير ما كان لا لاسترجاع ما كان ..لذلك يقرر الله ﷻ ، معجباً رسوله ﷺ من أمر القوم ، أنهم كذبوا على أنفسهم يوم اتخذوا هؤلاء الشركاء شركاء ، حيث لا وجود لشركتهم مع الله في الحقيقة . وأنهم اليوم غاب عنهم ما كانوا يفترونه ، فاعترفوا بالحق بعد ما غاب عنهم الافتراء :﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ فالكذب منهم كان على أنفسهم؛ فهم كذبوها وخدعوها يوم اتخذوا مع الله شريكاً ، وافتروا على الله هذا الافتراء . وقد ضل عنهم ما كانوا يفترون وغاب ، في يوم الحشر والحساب!

هذا هو التأويل الذي أستريح إليه في حلفهم بالله يوم القيامة وهم في حضرته : أنهم ما كانوا مشركين . وفي تأويل كذبهم على أنفسهم كذلك . فهم لا يجرؤون يوم القيامة أن يكذبوا على الله ، وأن يحلفوا أنهم ما كانوا مشركين عامدين بالكذب على الله – كما تقول بعض التفاسير(١) – فهم يوم القيامة لا يكتمون الله حديثاً ..

---

(١) وقد مرَّ المعنى الآخر في تفسير مثل هذه الآية عن ابن عباس ومع هذا فهذا القول أيضاً من الوجاهة بمكان

إنما هو تعري الفطرة عن الشرك أمام الهول الرعيب؛ وانمحاء هذا الباطل الكـاذب حتى لا أثر له في حسهم يومذاك . اهـ [١]

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ :يقول تعالى مخبرًا عن المشركين: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾يوم القيامة فيسألهم عن الأصنام والأنداد التي كانوا يعبدونها من دونه قـائلا [لهم] ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ كما قال تعالى في سـورة القصـص:﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [القصص: ٦٢]وقولـه: ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ ﴾ أي: حجتهم. وقال عطاء الخراساني، عن ابن عباس: أي: معذرتهم. وكـذا قـال قتادة. وقال ابن جريج، عن ابن عباس: أي قيلهم. وكذا قال الضحاك.

وقال عطاء الخراساني: ثم لم تكن بليتهم حـين ابتلـوا ﴿إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ .وقال ابن جرير: والصواب ثم لم يكن قيلهم عند فتنتنا إياهم اعتذارا مما سلف منهم من الشرك بالله ﴿إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ .وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو يحيى الرازي، عن عمرو بن أبي قـيس، عـن مُطَرِّف، عن المنهال، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس قال: أتاه رجل فقال يا أبا عباس. سمعت الله يقول: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ قال : أما قوله: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فإنهم رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة، فقالوا: تعـالوا فلنجحـد، فيجحدون، فيختم الله على أفواههم، وتشهد أيديهم وأرجلـهم ولا يكتمـون الله حديثا، فهل في قلبك الآن شيء؟ إنه ليس من القرآن شيء إلا قد نزل فيه شـيء، ولكن لا تعلمون وجهه. وقال الضحاك، عن ابن عباس: هذه في المنافقين.

---

(١) انظر الظلال : ٢/ ١٠٦٤ تفسير سورة الأنعام الآيات (٢٠ – ٣٠) بتصرف

وفي هذا نظر، فإن هذه الآية مكية، والمنافقون إنما كانوا بالمدينة، والتي نزلت في المنافقين آية المجادلة: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [المجادلة: ١٨]، وهكذا قال في حق هؤلاء: ﴿ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ كما قال ﷻ: ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [غافر: ٧٣، ٧٤].اهـ

*** من هداية الآيات :-**

١- لم يمنع أهل الكتاب من الدخول في الإسلام إلا إيثار الدنيا على الآخرة .

٢- سبيان في عظم الجريمة الكاذب على الله المفتري والمكذب الجاحد به وبكتابه وبنبيه .

٣- تقرير عدم فلاح الظالمين في الحياتين .

٤- الشرك لا يغفر لصاحبه إذا لم يتب منه قبل موته .اهـ[1]

مشهد آخر مُروِّع : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأنعام]

وكذا قال القاسم بن مُخَيْمِرَةَ، وحبيب بن أبي ثابت، وعطاء بن دينار: إنها نزلت في أبي طالب. وقال سعيد بن أبي هلال : نزلت في عمومة النبي، ﷺ ، وكانوا عشرة، فكانوا أشد الناس معه في العلانية وأشد الناس عليه في السر. رواه ابن أبي حاتم.

وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ أي: ينهون الناس عن قتله.

---

(١) انظر أيسر التفاسير :١/ ٤٦٣ تفسير سورة الأنعام الآيات من (٢٠ - ٢٤) ط/ دار الحديث .

وقوله: ﴿ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ﴾ أي: يتباعــدون منــه ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: وما يهلكون بهذا الصنيع، ولا يعود وباله إلا عليهم، وما يشعرون.

قــال تعــالى : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾

[إنهما صفحتان متقابلتان : صفحة في الدنيا يرتسم فيها العنــاد والإعــراض؛ وصفحة في الآخرة يرتسم فيها الندم والحسرة .. يرسمها السياق القرآني ، ويعرضهما هذا العرض المؤثر الموحي؛ ويخاطب بهما الفطر الجاسية؛ ويهز بها هذه الفطر هزاً ، لعل الركام الذي ران عليها يتساقط ، ولعل مغاليقها الصلدة تتفتح ، ولعلها تفــيء إلى تدبر هذا القرآن قبل فوات الأوان .

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ﴾

والأكنة : هي الأغلفة التي تحول دون أن تتفتح هذه القلوب فتفقه؛

والوقر : الصمم الذي يحول دون هذه الآذان أن تؤدي وظيفتها فتسمع ..

وهذه النماذج البشرية التي تستمع؛ ولكنها لا تفقه ، كأن ليس لها قلوب تدرك؛ وكأن ليس لها آذان تسمع .. نماذج مكرورة في البشرية في كل جيل وفي كل قبيل ، في كل زمان وفي كل مكان .. إنهم أناسي من بني آدم .. ولكنهم يسمعون القــول

وكأنهم لا يسمعونه . كأن آذانهم صماء لا تؤدي وظيفتها . وكأن إدراكهم في غلاف لا تنفذ إليه مدلولات ما سمعته الآذان!

﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾

إنه المشهد المقابل لمشهدهم في الدنيا . . مشهد الاستخذاء والندامة والخزي والحسرة . في مقابل مشهد الإعراض والجدال والنهي والنأي والادعاء العريض!

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا عَلَى ٱلنَّارِ﴾

لو ترى ذلك المشهد! لو تراهم وقد حبسوا على النار لا يملكون الإعراض والتولي! ولا يملكون الجدل والمغالطة!

لو ترى لرأيت ما يهول! ولرأيتهم يقولون :﴿ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾

فهم يعلمون الآن أنها كانت « بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا »! وهم يتمنون لو يردون إلى الدنيا . وعندئذ فلن يكون منهم تكذيب بهذه الآيات ، وعندئذ سيكونون من المؤمنين! ولكنها ليست سوى الأماني التي لا تكون! على أنهم إنما يجهلون جبلتهم . فهي جبلة لا تؤمن . وقولهم هذا عن أنفسهم : إنهم لو ردوا لما كذبوا ولكانوا مؤمنين ، إنما هو كذب لا يطابق حقيقة ما يكون منهم لو كان لإجابتهم من سبيل! وإنهم ما يقولون قولتهم هذه ، إلا لأنه تكشف لهم من سوء عملهم وسوء مغبتهم ما كانوا من قبل يخفونه على أتباعهم ليوهموهم أنهم محقون ، وأنهم ناجون ، وأنهم مفلحون .

﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾

إن الله يعلم طبيعتهم؛ ويعلم إصرارهم على باطلهم؛ ويعلم أن رجفــة الموقــف الرعيب على النار هي التي أنطقت ألسنتهم بهذه الأماني وهذه الوعود ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾

ويدعهم السياق في هذا المشهد البائس ، وهذا الرد يصفع وجــوههم بالمهانــة والتكذيب! يدعهم ليفتح صفحتين جديدتين متقابلتين كذلك؛ ويرسم لهما مشهدين متقابلين :

أحدهما في الدنيا : وهم يجزمون بأن لا بعث ولا نشور ، ولا حساب ولا جزاء .

وثانيهما في الآخرة : وهم موقوفون على ربهم يسألهم عما هم فيه : ﴿ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ﴾ .. السؤال الذي يزلزل ويذيب .. فيجيبون إجابة المهــين الــذليل : ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ .. فيجبهون عندئذ بالجزاء الأليم بما كانوا يكفــرون .. ثم يمضــي السياق يرسم مشهدهم والساعة تأخذهم بغتة ، بعدما كذبوا بلقاء الله ، فتنتــابهم الحسرة؛ وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم! وفي النهاية يقرر حقيقة وزن الــدنيا والآخرة في ميزان الله الصــحيح : ﴿ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

وقضية البعث والحساب والجزاء في الدار الآخرة من قضايا العقيدة الأساســية ، التي جاء بها الإسلام؛ والتي يقوم عليها بناء هذه العقيدة بعد قضية وحدانية الألوهية

. والتي لا يقوم هذا الدين - عقيدة وتصوراً ، وخلقاً وسلوكاً ، وشريعة ونظاماً - إلا عليها .. وبها ..

إن هذا الدين الذي أكمله الله ، وأتم به نعمته على المؤمنين به ، ورضيه لهم ديناً - كما قال لهم في كتابه الكريم - هو منهج للحياة كامل في حقيقته ، متكامل متناسق في تكوينه .. « يتكامل » ويتناسق فيه تصوره الاعتقادي مع قيمه الخلقية ، مع شرائعه التنظيمية .. وتقوم كلها على قاعدة واحدة من حقيقة الألوهية فيه وحقيقة الحياة الآخرة .

فالحياة - في التصور الإسلامي - ليست هي هذه الفترة القصيرة التي تمثل عمر الفرد؛ وليست هي هذه الفترة المحدودة التي تمثل عمر الأمة من الناس؛ كما أنها ليست هي هذه الفترة المشهودة التي تمثل عمر البشرية في هذه الحياة الدنيا .

إن الحياة في - التصور الإسلامي - تمتد طولاً في الزمان ، وتمتد عرضاً في الآفاق ، وتمتد عمقاً في العوالم ، وتمتد تنوعاً في الحقيقة . . عن تلك الفترة التي يراها ويظنها ويتذوقها من يغفلون الحياة الآخرة من حسابهم ولا يؤمنون بها .

إن الحياة - في التصور الإسلامي - تمتد في الزمان ، فتشمل هذه الفترة المشهودة - فترة الحياة الدنيا - وفترة الحياة الأخرى التي لا يعلم مداها إلا الله؛ والتي تعد فترة الحياة الدنيا بالقياس إليها ساعة من نهار!

وتمتد في المكان ، فتضيف إلى هذه الأرض التي يعيش عليها البشر؛ داراً أخرى : جنة عرضها كعرض السماوات والأرض؛ وناراً تسع الكثرة من جميع الأجيال التي عمرت وجه الأرض ملايين الملايين من السنين!

وتمتد في العوالم ، فتشمل هذا الوجود المشهود إلى وجود مغيب لا يعلم حقيقته كلها إلا الله؛ ولا نعلم نحن عنه إلا ما أخبرنا به الله .اهـ[١]

*** وباختصار :**

الحشر : الجمع ، والمراد به جمعهم يوم القيامة لحسابهم على أعمالهم الدنيوية .

والمعنى : واذكر لهم أيها الرسول الكريم - ليعتبروا ويتعظوا - حالهم يوم نجمعهم جميعاً في الآخرة لنحاسبهم على أقوالهم وأفعالهم ، ثم نسألهم سؤال إفضاح لا إيضاح - كما يقول القرطبي - : أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون أنهم شـفعاء لكـى يدافعوا عنكم في هذا اليوم العصيب .

و﴿وَيَوْمَ﴾ منصوب على الظرفية بفعل مضمر بعده أي : ويوم نحشرهم كان كذا وكذا ، وحذف هذا الفعل من الكلام ليبقى على الإبهام الـذي هـو أدخـل في التخويف والتهويل ، وقيل إنه منصوب على أنه مفعول به بفعـل محـذوف قبلـه والتقدير ، واذكر يوم نحشرهم ، أي : اذكر هذا اليوم من حيث ما يقـع فيـه ، والضمير في ﴿ نَحْشُرُهُمْ ﴾ للذين افتروا على الله كذبا ، أو كذبوا بآياته .

وفائدة كلمة ﴿جَمِيعًا﴾رفع احتمال التخصـيص ، أي : أن جميـع المشـركين ومعبوداتهم سيحشرون أمام الله للحساب .

وكان العطف بثُم لتعدد الوقائع قبل هذا الخطاب الموجه للمشركين ، إذ قبـل ذلك سيكون قيامهم من قبورهم ، ويكون هول الموقف ، ويكون إحصاء الأعمار وقراءة كل امرئ لكتابه . . . الخ ، ثم يقول الله ﷻ ﴿لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ ووبخهم ﷻ بقوله : ﴿أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ﴾ مع أنهم محشورون معهم ،

(١) انظر الظلال : ٢/ ١٠٦٥ - ١٠٦٩ في ظلال سورة الأنعام الآيات (٢٩ - ٣٢) .

لأهم لا نفع يرجى من وجودهم معهم ، فلما كانوا كذلك نزلوا منزلة الغائب كما تقول لمن جعل أحداً ظهيراً يعينه في الشدائد إذا لم يعنه كوقد وقع في ورطة بحضرته أين فلان؟ فتجعله لعدم نفعه - وإن كان حاضراً - كالغائب .

ثم أخبر ﷻ عما يكون منهم من تخبط وحسرة فقال : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

الفتنة مأخوذة من الفتن ، وهو إدخال الذهب في النار لتعرف جودته من رداءته ، ثم استعمل في معان أخرى كالاختبار ، والعذاب ، والبلاء ، والكفر .

والمعنى : ثم لم تكن عاقبة كفرهم حين اختبروا بهذا السؤال ورأوا الحقائق ، وارتفعت الدعاوى إلا أن قالوا مؤكدين ما قالوا بالقسم الكاذب والله يا ربنا ما كنا مشركين . ظنا منهم أن تبرأهم من الشرك في الآخرة سينجيهم من عذاب الله كما نجا المؤمنين بفضله ورضوانه .

قال ابن عباس : يغفر الله ﷻ لأهل الإخلاص ذنوبهم . ولا يتعاظم عليه ذنب أن يغفره ، فإذا رأى المشركون ذلك قالوا : إن ربنا يغفر الذنوب ولا يغفر الشرك ، فتعالوا نقول : إنا كنا أهل ذنوب و لم نكن مشركين . فقال الله ﷻ : أما إذ كتموا الشرك فاختموا على أفواههم ، فتنطق أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ، فعندئذ يعرف المشركون أن الله لا يكتم حديثاً ، فذلك قوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [النساء: ٤٢]

ثم قال ﷻ : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

والمراد بالنظر هنا : التدبر والتفكير .

والمعنى : انظر - أيها العاقل - وتأمل كيف كذب هؤلاء المشركون على أنفسهم في قولهم والله ربنا وما كنا مشركين ، وغاب عن عملهم ما كانوا يفترونه في الدنيا من الأقوال الباطلة ، وما كانوا يفعلونه من جعلهم لله شركاء .اهـ [١]

*** من هداية الآيات : -**

١- بيان سنة الله تعالى في أن العبد إذا كره أحداً وأبغضه و تغالى في ذلك يصبح لا يسمع ما يقول له ، ولا يفهم معنى ما يسمع منه .

٢- شر دعاة الشر من يعرض عن الهدى ويأمر بالإعراض عنه ، وينهى من يقبل عليه

٣- سبب الشر في الأرض الكفر بالله ، وإنكار البعث والجزاء الآخر .

٤ تقرير مبدأ البعث والجزاء بذكر صور ومشاهد له .

٥- قبح الذنوب وأنها أسوأ حمل يحمله صاحبها يوم القيامة .

٦- حكم الله تعالى بالخسران على من كذب بلقائه فلم يؤمن ولم يعمل صالحا .

٧- الساعة لا تأتي إلا بغتة ، ولا ينافي ذلك ظهور علاماتها ، لأن الزمن ما بين العلامة والعلامة لا يعرف مقداره .

٨- نصيحة القرآن للعقلاء بأن لا يغتروا بالحياة الدنيا . ويهملوا شأن الآخــرة وهي خير للمتقين . اهـ [٢] .

---

(١) التفسير الوسيط د محمد سيد طنطاوي

(٢) انظر أيسر التفاسير للجزائري : ١ / ٤٦٥ تفسير سورة الأنعام الآيات (٢٥ – ٢٩) ط/ دار الحديث .

قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنعام]

* مع الآيات:

يذكر تعالى حال الكفار إذا وقفوا يوم القيامة على النار، وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال، ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال، فعند ذلك قالوا ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ يتمنون أن يردوا إلى الدار الدنيا، ليعملوا عملا صالحا، ولا يكذبوا بآيات ربهم ويكونوا من المؤمنين.

قال تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ أي: بل ظهر لهم حينئذ ما كانوا يخفون في أنفسهم من الكفر والتكذيب والمعاندة، وإن أنكروها، في الدنيا أو في الآخرة، كما قال قبل هذا بيسير ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ﴾ ويحتمل أنهم ظهر لهم ما كانوا يعلمونه من أنفسهم من صدق ما جاءت به الرسل في الدنيا، وإن كانوا يظهرون لأتباعهم خلافه، كما قال تعالى مخبرًا عن موسى أنه قال لفرعون: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

قال تعالى مخبرًا عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ﴾

ويحتمل أن يكون المراد بهؤلاء المنافقين الذين كانوا يظهـرون للنـاس الإيمـان ويبطنون الكفر، ويكون هذا إخبارا عما يكون يوم القيامة من كلام طائفـة مـن الكفار، ولا ينافي هذا كون هذه [السورة] مكية، والنفاق إنما كان من بعض أهـل المدينة ومن حولها من الأعراب، فقد ذكر الله وقوع النفاق في سورة مكية وهـي العنكبـوت، فقـال: ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [العنكبوت: ١١]؛ وعلى هذا فيكون إخبارًا عن حال المنافقين في الدار الآخرة، حين يعاينون العذاب يظهر لهم حينئذ غب ما كانوا يبطنون من الكفر والشقاق والنفاق، والله أعلم.

وأما معنى الإضراب في قوله: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ فهم ما طلبـوا العود إلى الدنيا رغبة ومحبة في الإيمان، بل خوفا من العذاب الذي عاينوه جزاء مـا كانوا عليه من الكفر، فسألوا الرجعة إلى الدنيا ليتخلصوا مما شاهدوا من النار؛ ولهذا قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ أي: في تمنيهم الرجعة رغبـة ومحبة في الإيمان.

ثم قال مخبرًا عنهم: إنهم لو ردّوا إلى الدار الدنيا، لعادوا لما نهوا عنه [من الكفـر والمخالفة] ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ أي: في قولهم: ﴿ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ و﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾أي: لعادوا لما نهوا عنه، إنهم لكاذبون ولقالوا: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ﴾ أي: ما هي إلا هذه الحياة الدنيا، ثم لا معاد بعدها؛ ولهذا قال: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ ثم قال ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: أوقفوا بين يديه قال: ﴿أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: أليس هذا المعـاد بحق وليس بباطل كما كنـتم تظنـون؟ ﴿ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ

تَكۡفُرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ أي: بما كنتم تكذبون به، فذوقوا اليوم مسّه ﴿أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الطور: ١٥]

﴿ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

يقول تعالى مخبرًا عن خسارة من كذب بلقاء الله وعن خيبته إذا جاءته الساعة بغتة، وعن ندامته على ما فرط من العمل، وما أسلف من قبيح الفعال ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا ﴾ وهذا الضمير يحتمل عَوْدُه على الحياة [الدنيا] وعلى الأعمال، وعلى الدار الآخرة، أي: في أمرها.

وقوله ﴿ وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ أي: يحملون. وقال قتادة: يعملون.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد، عن عمرو بن قيس، عن أبي مرزوق قال: ويُستقبل الكافر - أوالفاجر - عند خروجه من قبره كأقبح صورة رآها وأنتن ريحًا، فيقول: من أنت؟ فيقول: أو ما تعرفني؟ فيقول: لا والله إلا أن الله [قد] قَبَّحَ وجهك ونَتَّن ريحك. فيقول: أنا عملك الخبيث، هكذا كنت في الدنيا خبيث العمل منتنه، طالما ركبتني في الدنيا، هلم أركبك، فهو قوله: ﴿ وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

وقال أسباط: عن السُّدِّي أنه قال: ليس من رجل ظالم يموت فيدخل قبره إلا جاءه رجل قبيح الوجه، أسود اللون، منتن الرائحة عليه ثياب دنسة، حتى يدخل معه قبره، فإذا رآه قال: ما أقبح وجهك! قال: كذلك كان عملك قبيحًا قال: ما أنتن

ويحك! قال: كذلك كان عملك منتنًا ! قال: ما أدنس ثيابك، قـال: فيقـول: إن عملك كان دنسًا. قال له: من أنت؟ قال: أنا عملك! قال: فيكون معه في قبره، فإذا بعث يوم القيامة قال له: إني كنت أحملك في الدنيا باللذات والشهوات، وأنت اليوم تحملني. قال: فيركب على ظهره فيسوقه حتى يدخله النار، فـذلك قولـه: ﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ (١)

وقوله: ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ أي: إنما غالبـها كـذلك ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ اهـ (٢)

*** إن في ذلك لعبرة لمن يخشى :-**

[ويمضي السياق يصور حال فريق من المشركين؛ ويقرر مصيرهم في مشهد من مشاهد القيامة .. يصور حالهم وهم يستمعون القرآن معطلي الإدراك ، مطموسـي الفطرة ، معاندين مكابرين ، يجادلون رسول الله ﷺ وهم على هـذا النحـو مـن الاستغلاق والعناد ، ويدعون على هذا القرآن الكريم أنه أساطير الأولين؛ وينأون عن سماعه وينهون غيرهم عنه أيضاً .. يصور حالهم هكذا في الـدنيا في صـفحة ، وفي الصفحة الأخرى يرسم لهم مشهداً كئيباً مكروباً؛ وهم موقوفون على النار محبوسون عليها ، وهي تواجههم بهول المصير الرعيب؛ وهم يتهافتون متخاذلين؛ ويتـهاوون متحسرين؛ يتمنون لو يردون إلى الدنيا فيكون لهم موقف غير ذلك الموقف ، الذي انتهى بهم إلى هذا المصير . فيردون عن هذا التمني بالتصغير والتحقير .

---

(١) وهذا الأثر يشهد له من بعض الوجوه حديث البراء بن عازب في السنن وانظر صـحيح الجـامع : ٣٤٤/١ ح/ ١٦٧٦ وقال الألباني صحيح ونسبه إلى أحمد وأبي داود وابن خزيمة ، والمستدرك وسنن البيهقي عن البراء بن عازب .

(٢) انظر تفسير ابن كثير : ٢/ ١٣٠ ، ١٣١ تفسير سورة الأنعام الآيات (٢٧ – ٣٢) .

* تذكر الوقوف على الله وتقريره للمكذبين *

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ
بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟
يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا
ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾

* شرح الكلمات :

﴿وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ : جيء بهم ووقفوا على قضائه وحكمه تعالى فيهم .

﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ : أي إنه للحق والله .

﴿خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟﴾ : أي خسروا أنفسهم في جهنم .

﴿ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ : ساعة : البعث ليوم القيامة وبغتة : أي فجأة .

﴿يَٰحَسْرَتَنَا﴾ : الحسرة : التندم التحسر على ما فات ينادون حسرتهم زيادة في التألم والتحزن .

﴿أَوْزَارَهُمْ﴾ : أحمال ذنوبهم إذ الوزر الحمل الثقيل .

﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ : اللعب : العمل الذي لا يجلب درهماً للمعاش ، ولا حسنة للمعاد

وللهو : ما يشغل الإنسان عما يعنيه مما يكسبه خيراً أو يدفع عنه ضيراً .

*** معنى الآيات :**

يقول تعالى لرسوله : ولو ترى إذ أولئك لمنكرون للبعث القائلون : ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ ، لو تراهم وقد حبسوا لقضاء الله وحكمه فيهم وقيل لهم وهم يشاهدون أهوال القيامة وما فيها من حساب وجزاء وعذاب ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ أي الذي كنتم تكذبون فيسارعون بالإجابة قائلين ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ ، فيحلفون بالله تعالى تأكيداً لصحة جوابهم فيقال لهم : ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ لا ظلماً منا ولكن بسبب كفركم إذ الكفر منع من طاعة الله ورسوله ، والنفس لا تطهُر إلا على تلك الطاعة ، هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٣٠) أما الآية الثانية (٣١) فقد أعلن تعالى عن خسارة صفقة الكافرين الذين باعوا الإيمان بالكفر والتوحيد بالشرك ، والطاعة بالمعاصي فقال تعالى : ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ أي بالحياة بعد الموت وهذا هو سبب المحنة والكارثة ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ﴾ ساعة فناء هذه الحياة وإقبال الحياة الآخرة ﴿بَغْتَةً﴾ أي فجأة لم يكونوا يفكرون فيها لكفرهم بها ، وعندئذ صاحوا بأعلى أصواتهم معلنين عن تندمهم ﴿يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ أي في صفقتنا حيث اشترينا الكفر بالإيمان والشرك وبالتوحيد قال تعالى : ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾ من الجائز أن تصور لهم أعمالهم من الكفر والشرك والظلم والشر والفساد في صورة رجل قبيح أشوه فيحملونه على ظهورهم في عرصات القيامة وقد ورد به خبر . ولذا قال تعالى : ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي قبح ما يحملونه! وفي الآية (٣٢) الأخيرة يخبر تعالى مذكراً واعظاً ناصحاً فيقول يا عباد الله :﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ فانتبهوا فلا

تغتروا بما فيها من ملذات فإن نعيمها إلى زال ما شأنها إلا شأن من يلعب أو يلهو ، ثم لا يحصل على طائل من لعبه ولهوه ، أما الدار الآخرة فإنها خير ولكن للذين يتقون الشرك والشر . والماضي ، فما لكم مقبلين على الفاني معرضين عن الباقي ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .اهـ[1] .

إن هذا النص القرآني المبارك يبرز لنا وبجلاء صورة هؤلاء الأفاكين المكذبين وقد جمعوا يوم القيامة جمعاً ، وبرزوا لله جميعاً و لم يغادر منهم أحداً ، وقد جبهوا بما كانوا به يكذبون إذ كانوا في الحياة الدنيا ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الصافات] ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الجاثية] فلطالما سخروا وكذبوا واستهزءوا ترفعوا واستكبروا واستنكفوا عن قبول الحق فلما نفخ في الصور ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الزمر] وأدركوا أن وعد الله حق بل تلبثوا بما كانوا يوعدون : ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [النحل] ﴿ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الصافات] ساعتها قالوا : ﴿ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾ [الأنعام: ٣١] ﴿ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [يس] ونودي على الملائكة : ﴿ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الصافات] فإذا وقفوا على ربهم واستجوبوا وسئلوا والقيامة تحيط بهم بأحوالها وأهوالها العظام التي تكسر العظام سئلوا تبكيتاً وهم داخرون غاية في

---

(١) انظر أيسر التفاسير للجزائري : ١/ ٤٦٦ تفسير سورة الأنعام الآيات (٣١- ٣٢) ط/ دار الحديث .

الذلة والمهانة ﴿ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ﴾ [الأنعام: ٣٠] وهنا بعد أن كانوا منكرين له تماماً إذا هم يقسمون على أنه حق ولكن ولات حين مناص ولات حين أمان : ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [غافر] وسوف يسمعون ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنعام] ساعتها ستأخذهم الملائكة أخذاً مهيناً في أسرع ما يكون فإذا هم بالسلاسل موثقون وفي الأغلال غارقون وإلى أهوال الجحيم راحلون : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [يونس] ونتعلم من هذا أن لا إله إلا الله لا ينبغي أن تكون قولاً مجرداً من فحواه ومحتواه وإنما هي قول وتصديق يقين ، وعمل ، ومنهاج متكامل للحياة

* اليقين وعدم الريب : إن اليقين كما تحدث عنه أهل المعرفة بمنزلة الروح من الجسد تفاضل به العارفون وتسابق المتنافسون وشمر إليه العلماء الربانيون وإذا اختلط بالصبر اليقين كان النتاج إمامة في الدين قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [السجدة]ولا ينتفع بشرع الله إلا موقن أما من ارتاب وتردد كان في غيه يقاسي ألم الوحشة والبعاد وكان التيه والضلال له قريناً ، الفارق بين من أيقن وتردد كما بين الثرى والثريا قال تعالى : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الذاريات] وأما الأباعد المرتابون فهم في شكهم يترددون قال ﷻ :

﴿ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [التوبة] ودعواهم عناد وشك وجحود واستنكاف :

﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا

﴿نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ۝٣٢﴾ [الجاثية] وبداهةً فإن جزاءهم من جنس أعمالهم : ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ۝٣٤ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝٣٥﴾ [الجاثية]

لكن المؤمنين لهم وضع آخر ولقاء آخر وقيمة أخرى ومنزلة سامقة وخصائص ومميزات تميزهم عن أهل الغي والجحود : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ۝١٥﴾ [الحجرات] .

[٢٤] عن ابن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : ((**صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين ويهلك آخرها بالبخل والأمل**)) (١) .

[٢٥] وعنه - أيضاً - عن النبي ﷺ قال : ((**نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد ويهلك آخرها بالبخل والأمل**)) .

[٢٦] عبد الرحمن بن سمرة قال : حدثنا معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ : ((**ما على الأرض نفس تموت لا تشرك بالله شيئا تشهد أني رسول الله يرجع ذلك إلى قلب موقن إلا غفر الله لها**)) قال : فقلت : أأنت سمعت من معاذ فعنفني القوم فقال : دعوه فإنه لم يسيء القول نعم أنا سمعته من معاذ بن جبل و زعم معاذ أنه سمعه من رسول الله ﷺ. (٢)

وإذن فمعنى العلم هنا هو التصديق وعدم الريب وإلا فكم من حافظ لشروطها واعٍ للمتون وهو عار من الحق مليء بالغي شارد عن مدلولاتها بعيد عن مقتضياتها .

---

(١) صحيح الجامع (٣٨٤٦) .

(٢) مستدرك الحاكم : ١/٥١ ح/ ١٦ وقال هذا حديث صحيح وقد تداوله الثقاة و لم يخرجاه جميعاً بهذا اللفظ .

[٢٧] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قال رسول الله ﷺ : ((**أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّـــهُ وَأَنِّـــي رَسُولُ اللَّهِ لا يَلْقَى اللَّهَ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ فِيهِمَا إِلا دَخَلَ الْجَنَّةَ**))(١) .

قال القرطبي – المحدث- في كتابه " المفهم على صحيح مسلم " باب لا يكفي بمجـــرد التلفظ بالشهادتين بل لابد من استيقان القلب ، وهذه الترجمة تنبيه على فســـاد مـــذهب غلاة المرجئة القائلين بأن الـــتلفظ بالشـــهادتين كـــافٍ في الإيمـــان الصـــحيح وهـــو باطل قطعاً .(٢)

* وقال د / محمد سيد طنطاوي :

﴿ وَلَوْ ﴾ شرطية ، حذف جوابها لتذهب النفس في تصوره كل مذهب وذلـــك أبلغ من ذكره .

و ﴿ وُقِفُواْ ﴾ بالبناء للمفعول بمعنى : وقفهم غيرهم . يقال : وقف على الأطلال أي : عندها مشرفاً عليها ، ويقال وقف على الشيء عرفه وتبينه .

والمعنى : إنك أيها النبي الكريم – أو أيها الإنسان العاقل – لو اطلعت على هؤلاء المشركين عندما يقفون على النار ويشاهدون لهيبها وسعيرها . لرأيت شيئاً مروعـــاً مخيفاً يجعلهم يتحسرون على ما فرط منهم ، ويتمنون أن يعودوا إلى الدنيا ليصدقوا بآيات الله التي طالما كذبوها . وليكونوا من المؤمنين .

وعبر ﷻ بإذ التي تدل على الماضي – مع أن الحديث عما سيحصـــل لهـــم في الآخرة فكان يناسبه إذا – لإفادة تحقق الوقوع وتأكده ، وليتصور المستقبل على أنه موجود لا على أنه سيوجد ، وعطف بالفاء في قوله ﴿ فَقَالُواْ ﴾ للدلالة على أن أول

---

(١) مسلم ك/ الإيمان ب/ الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً . ح/ ٢٧ .

(٢) انظر فتح المجيد ح/ ٣٤ .

شيء يقع في قلوبهم حينئذ إنما هو الندم على ما سلف منهم ، وتمني الرجوع إلى الدنيا ليؤمنوا .

ثم يعقب ﷻ على قولتهم هذه فيما لو أجيبوا إلى طلبهم على سبيل الفرض والتقدير فيقول : ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنعام: ٢٨] .

بل هنا للإضراب عما يدل عليه تمنيهم من إدراكهم لقبح الكفر وسوء مغبته ، ولحقيقة الإيمان وحسن عاقبته .

والمعنى : ليس الأمر كما يوهمه كلامهم في التمني من أنهم يريدون العودة للهداية ، بل الحق أنهم تمنوا العودة إلى الدنيا بعد أن استقبلتهم النار بلهبها ، وبعد أن ظهر لهم ما كانوا يخفونه في الدنيا من أعمال قبيحة ، ومن أفعل سيئة ، وبعد أن بدا لهم ما كانوا يذكبون به ، وينكرون تحققه ، ولو أنهم ردوا إلى الدنيا بمتعها وشهواتها وأهوائها لعادوا لما نهوا عنه من التكذيب بالآيات ، والسخرية من المؤمنين ، وإنهم لكاذبون في كل ما يدعون .

فالآية الكريمة تصور ما طبع عليه هؤلاء الجاحدون من فجور وعناد وافتراء ، لأنهم حتى لو أجيبوا إلى طلبهم – على سبيل الفرض والتقدير – لما تخلوا عن كفرهم ومحاربتهم للأنبياء وللمصلحين .

ثم بين ﷻ بعض مفترياتهم في الدنيا واغترارهم بها فقال ﷻ : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ .

أي : أن هؤلاء الكافرين قد بلغ بهم الحب للدنيا والتعلق بها أنهم قالوا : ما الحياة التي تسمى حياة في نظرنا إلا هذه الدنيا التي نتمتع فيها بما نريد من شهوات وما نحن بمبعوثين ولا محاسبين بعد ذلك .

فالآية الكريمة تحكى عنهم أنهم ينكرون أي حياة سوى الحياة التي يعيشـونها ، وينفون وقوع البعث والحساب والثواب والعقاب نفياً مؤكداً بالباء وبالجملة الإسمية . ويرى جمهور المفسرين أن هذه الآية الكريمة تتمة للآية السابقة لها من حيث المعنى ، وأن قوله ﴿ وَقَالُوٓاْ ﴾ معطوف على ﴿لَعَادُواْ﴾ والتقدير ، ولو ردوا لعادوا لما نهـوا عنه من الكفـر وسـيء الأعمـال وقـالوا مـا الحيـاة إلا حياتنـا الـدنيا ، ويكون قوله ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ جملة اعتراضية مؤكدة لمعنى دعوتهم إلى ما كـانوا عليه إن عادوا إلى الدنيا ، إذ هي تكذيب لادعائهم أنهم لا يكذبون بآيات ربهم .

ثم بين ﷻ حالهم عندما يقفون ليستمعوا إلى ما يوجهه إليهم ربهم مـن تـوبيخ وتقريع بسبب كفرهم فقال : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ ﴾.

أي : قال لهم ﷻ أليس هذا البعث الذي تشاهدونه بأعينكم ثابتاً بالحق؟ وهنـا يجيبون خالقهم مصدقين لأن الواقع يحتم عليهم ذلك فيقولون - كما حكى القرآن عنهم - ﴿ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ ﴾ أي : قالوا : بلى يا ربنا إنه للحق الذي لا شك فيـه ، ولا باطل يحوم من حوله ، وأكدوا اعترافهم بالقسم شاهدين على أنفسهم بأنهم كـانوا كافرين في الدنيا .

وهنا يحكم الله فيهم بحكمه العادل فيقول : ﴿ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ أي : إذا كان الأمر كما ذكرتم وشهدتم على أنفسكم ، فانغمسوا في العذاب ذائقين لآلامه وأهواله بسبب كفركم بآيات الله ، وإنكاركم لهذا اليوم العصيب .

والذوق هنا كناية عن الإحساس الشديد بالعذاب بعد أن وقعوا فيه .

ثم صور ﷻ عاقبتهم السيئة ، وخسارتهم التي ليس بعدها خسارة فقال : ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ ﴾ .

أي : أن أولئك الكفار الذين أنكروا البعث والحساب قد خسروا أعز شـيء في هذه الحياة ، ومن مظاهر ذلك أنهم خسروا الرضا الذي سيناله المؤمنون من ربهم ، وخسروا العزاء الروحي الذي يغرس في قلب المؤمن الطمأنينة والصبر عند البلاء ، لأن المؤمن يعتقد أن ما عند الله خير وأبقى ، بخلاف الكافر فإن الدنيا منتهى آماله .

وإن هؤلاء الخاسرين سيستمرون في تكذيبهم بالحق وإعراضهم عنـه ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا ﴾ .

أي : حتى إذا جاءتهم الساعة مباغتة مفاجئة وهم في طغيانهم يعمهون ، اعتراهم الهم ، وحل بهم البلاء وقالوا : بعد أن سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا يا حسرتنا أقبلي فهذا أوانك ، فإننا لم نستعد لهذا اليوم ، بل أهملناه ولم نلتفت إليه . وعلى ذلك يكون المراد بالساعة يوم القيامة وما فيه من حساب .

وقيل : المراد بالساعة وقت مقدمات الموت ، فالكلام على حذف المضاف ، أي : جاءتهم مقدمات الساعة وهي الموت وما فيه من الأهوال . فلما كان الموت من مبادئ الساعة سمي باسمها ، ولذا قال ﷺ : ((مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَت قِيَامَتُه)) .

وسميت القيامة ساعة لسرعة الحساب فيها ، ولأنها تحمل أشد الأهوال ولأنها فاصلة بين نوعين من الحياة : فانية وأخرى باقية . اهـ

اعلم أخيَّ

١ - أن هذا القرآن في نظمه وإن كان يرسم صورة الكافرين الوإن كان زاجراً لهم ليعودوا ويتوبوا فإنه أيضاً وفي المقام الأول إنذار لنا كمسلمين وذلك حتى لا نتشبه بهم .

٢- ينبغي علينا أن نستغل إقامتنا على ظهر الأرض في طاعة الله ﷻ وعدم التخليط لأن المرء وإن كان من المؤمنين وقد خرق إيمانه بالموبقات فإنه نادم لا محالة

وإن كان ندماً نسبياً ألا فينبغي من تحقيق الإخلاص والقبول وعظيم الاستسلام والتوبة النصوح من السيئات ما علمنا منها وما لم نعلم ما ذكرنا منها وما نسينا .

إن الله ﷻ يحذرنا عاقبة المكذبين ومغبة الوقوع في شراك الظالمين فينبغي حزماً أن لا نركن إليهم وأن لا تؤثر فيها أهوائهم فنتبرأ منهم تمام البراءة حتى لا نكون معهم

٤- لمثل ما ذكر من النصوص ينبغي أن يتنافس المتنافسون وأن يهرع إلى الله المتسابقون فلا انتكاس ولا ارتكاس ولا تسويف فالأمر خطير والساعة آتية لا ريب فيها والله يبعث من في القبور : ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات]

٥- إن التحسر له ارتباط واضح بالتفريط فلا تفرط ولا تسوف حتى لا تتقطع نفسك في القيامة على التفريط حسرات : ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزمر] .

٦- اعلم أن العز في طاعة الله وأن الذل في معصيته فالتمس العز في الطاعة تعز وتفلح وتربح .

* الظالمون يستقبلون أليم السكرات وأهوال البرزخ :

تمهيد

إن كثيراً من الناس اليوم في هذا الطغيان المادي المسيطر يكاد يتناسى هذه الرحلة الآخرة من هذه الدنيا إلى عالم البرزخ شغلوا عنها بالأبناء والأموال والشهوات والملذات وكأنها منكور من القول تغافلوا عنها واتخذوها ظهرياً وتغابوا عن ذلك المصير : ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنعام] ولو علم القوم ماهية هذه الرحلة وما أعد الله تعالى فيها للظالمين من ملائكة شداد سود الوجوه تنزل من السماء لتنزع أرواح الظالمين نزعاً بلا هوادة كما تنزع قطعة الحرير من شجرة الشوك وتلك الندامة التي تكتنفهم ساعتها وهذه الحسرة التي تنشأ عندها ، لطار عنهم النوم وما

اكتحلت به أعينهم بل لطاروا فزعاً وشوقاً إلى من ينجيهم من تلك الكربات وهذه الملمات وتلك السكرات التي تغشاهم من كل اتجاه وكأنها الأمواج العاتية أحاطت بغريق مسكين ولو أنهم كانوا يوقنون في أن ملائكة الله ورسله إذ يرسلهم الله تعالى لقبض الأرواح الفاجرة العاتية حينما تقول الملائكة لهذه الأرواح من تلك الأرواح أخرجي إلى سخط من الله وغضب وحينما يخرج منها كأنت جيفة شمت على وجه الأرض وحينما يمر الملائكة بعدما نزعوا هذه الروح بملأ من الملائكة روح من هذه الروح الخبيثة فيسمونها بأقبح أسمائها التي كانت تسمى بها في الدنيا ولو علموا ما يحدث لها من الضرب والمهانة عند النزع ولو علموا أن أبواب السماء لا تنفتح لها ولا لمثلها لكونها روح سافلة ، وما كان لمثل هذه الروح أن تصعد في علو وإنما موضعها في أسفل سافلين :﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ ليرعوي ويترجر ويستقيم ويصطبر وإلا فهذا المصير ينتظره بنفس هذا القرآن البياني العجيب .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الأنعام: ٩٣ – ٩٤]

*** شرح الكلمات :**

﴿ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ : اختلق على الله كذباً قال عليه ما لم يقل ، أو نسب له ما هو منه براء

﴿ أُوحِىَ إِلَىَّ ﴾ : الوحي : الإعلام السريع الخفي بواسطة الملك وبغيره .

﴿ غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ ﴾ : شدائده عند نزع الروح .

﴿ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ ﴾ : للضرب وإخراج الروح .

﴿ عَذَابَ ٱلْهُونِ ﴾ : أي عذاب الذل والمهانة .

﴿فُرَٰدَىٰ﴾ : واحداً واحداً ليس مع أحدكم مال ولا رجال .

﴿ مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ ﴾ : ما أعطيناكم من مال ومتاع .

﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ : أي في دار الدنيا .

﴿ وَضَلَّ عَنكُم ﴾ : أي غاب . و ﴿تَزْعُمُونَ﴾ : تدعون كاذبين [1] .

---

(١) أيسر التفاسير : ٤٩٢/١ تفسير سورة الأنعام الآيات (٩٣-٩٤) ط/ دار الحديث .

*** معنى الآيات :**

ما زال السياق مع المشركين والمفترين الكاذبين على الله تعالى باتخاذ الأنداد والشركاء فقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ بأن ادَّعى أن الله نبأه وأنه نبيه ورسوله كما ادعى سعد بن أبي سرح بمكة ومسيلمة في بني حنيفة بنجد والعنسي باليمن : اللهم لا أحد هو أظلم منه ، وممن قال أوحى إلَي شيء من عند الله ، ولم يوح إليه شيء وممن قال : ﴿ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ من الوحي والقرآن ، ثم قال تعالى لرسوله : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ ﴾ يا رسولنا ﴿ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ ﴾ أي في شدائد سكرات الموت ، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ملك الموت وأعوانه ﴿بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ ﴾ بالضرب وإخراج الروح ، وهم يقولون لأولئك المحتضرين تعجيزاً وتعذيباً لهم : ﴿ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ ﴾ بسبب استكباركم في الأرض بغير الحق إذ الحامل للعذرة وأصله نطفة قذرة ، ونهايته جيفة قذرة ، استكباره في الأرض حقا إنه استكباراً باطلٌ لا يصح من فاعله بحال من الأحوال . هذا ما دلت عيه الآية الأولى (٩٣) أما الآية الثانية (٩٤) فإن الله تعالى يخبر عن حال المشركين المستكبرين يوم القيامة حيث يقول لهم ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ ﴾ أي واحد واحداً ﴿ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ ﴾ حفاة عراة غُرلاً ﴿ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ ﴾ أي ما وهبناكم من مال وولد ﴿ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ أي في دار الدنيا ، ﴿ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ ﴾ وأنتم كاذبون في زعمكم مبطلون في اعتقادكم ﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ أي انحل حبل الولاء بينكم ، ﴿ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ أي ما كنتم تكذبون به في الدنيا .

وفي الختام يجيء مشهد الاحتضار المكروب للمشركين : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾

وهو مشهد كئيب مكروب رعيب ؛ يجلله الهوان ويصاحبه التنديد والتأنيب . جزاء الاستكبار والإعراض والافتراء والتكذيب . اهـ [1] .

---

(١) انظر الظلال : ٢/ ١١٣٨ في ظلال سورة الأنعام الآيات (٩٣ – ٩٤) بتصرف .

* **وقال ابن عاشور :**

إن كان القول المقدّر في جملة ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ قولاً من قِبَل الله تعالى كان قوله ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾ عطفاً على جملة ﴿ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ﴾ ، أي يقال لهم حين دفعهم الملائكة إلى العذاب : أخرجوا أنفسكم ، ويقال لهم : لقد جئتمونا فرادى . فالجملة في محلّ النّصب بالقول المحذوف . وعلى احتمال أن يكون ﴿ غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ ﴾ حقيقة ، أي في حين النّزع يكون فعل ﴿ جِئْتُمُونَا ﴾ من التّعبير بالماضي عن المستقبل القريب ، مثل : قد قامت الصّلاة ، فإنّهم حينئذٍ قاربوا أن يرجعوا إلى مَحض تصرّف الله فيهم .

وإن كان القول المقدّر قولَ الملائكة فجملة : ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾ عطف على جملة : ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ فانتقل الكلام من خطاب المعتبِرين بحال الظّالمين إلى خطاب الظّالمين أنفسهم بوعيدهم بما سيقول لهم يومئذٍ .

فعلى الوجه الأوّل يكون ﴿جِئْتُمُونَا﴾ حقيقة في الماضي لأنّهم حينما يقال لهم هذا القول قد حصل منهم المجيء بين يدي الله . و (قد) للتّحقيق .

وعلى الوجه الثّاني يكون الماضي معبّراً به عن المستقبل تنبيهاً على تحقيق وقوعه ، وتكون (قد) ترشيحاً للاستعارة .

وإخبارهم بأنّهم جاءوا ليس المراد به ظاهر الإخبار لأنّ مجيئهم معلوم لهم ولكنّه مستعمل في تخطئتهم وتوقيفهم على صدق ما كانوا يُنذرون به على لسان الرّسول فينكرونه وهو الرّجوع إلى الحياة بعد الموت للحساب بين يدي الله . وقد يقصد مع هذا المعنى معنى الحصول في المِكنة والمصير إلى ما كانوا يحسبون أنّهم لا يصيرون إليه

، على نحو قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ ﴾ [النور : ٣٩] ، .....والضّمير المنصوب في ﴿ جِئْتُمُونَا ﴾ ضمير الجلالة وليس ضمير الملائكة بدليل قوله : ﴿ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ ﴾.

و ﴿ فُرَٰدَىٰ ﴾حال من الضّمير المرفوع في ﴿ جِئْتُمُونَا ﴾ أي منعزلين عن كلّ مـــا كنتم تعتزّون به في الحياة الأولى من مال وولد وأنصار ، والأظهر أنّ ﴿ فُرَٰدَىٰ ﴾ جمع فَرْدَان مثل سُكارى لسَكران . وليس فُرادى المقصورُ مرادفاً لفُرادَ المعدولِ لأنّ فُرادَ المعدولِ يدلّ على معنى فَرْداً فَرْداً ، مثل ثُلاث ورُباع من أسماء العدد المعدولة . وأمّا فرادى المقصور فهو جمع فردان بمعنى المنفرد، ووجه جمعه هنا أنّ كلّ واحد منـــهم جاء منفرداً عن ماله .

وقوله : ﴿ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ تشبيه للمجيء أريد منه معنى الإحياء بعد الموت الّذي كانوا ينكرونه فقد رأوه رأي العين ، فالكاف لتشبيه الخلق الجديـــد بـــالخلق الأوّل فهو في موضع المفعول المطلق . و (ما) المجرورة بالكاف مصدريّة . فالتّقدير : كخلْقِنا إيّاكم ، أي جئتمونا مُعَادَيْن مخلوقين كما خلقناكم أوّل مـــرّة ، فهـــذا كقوله تعالى : ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [ق : ١٥]

والتّخويل : التفضّل بالعطاء . قيل : أصله إعطاء الخَوَل بفتحتين وهو الخدم ، أي إعطاء العبيد . ثمّ استعمل مجازاً في إعطاء مطلق ما ينفع ، أي تركتم ما أنعمنا بـــه عليكم من مال وغيره . و (ما) موصولة ومعنى تركهم إيّاه وراء ظهورهم بعدُهم عنه تمثيلاً لحال البعيد عن الشّيء بمن بارحه سائراً ، فهو يترك من يبارحه وراءه حين مبارحته لأنّه لو سار وهو بين يديه لبلغ إليه ولذلك يمثّل القاصد للشّيء بأنّه بين يديه ، ويقال للأمر الّذي يهيّئه المرءُ لنفسه : قد قدّمه .

﴿ وَتَرَكْتُم ﴾ عطف على ﴿جِئْتُمُونَا﴾ وهو يبيّن معنى﴿فُرَٰدَىٰ﴾ إلاّ أنّ في الجملة الثّانية زيادة بيان لمعنى الانفراد بذكر كيفية هذا الانفراد لأنّ كلا الخبرين مستعمل في التّخطئة والتّندیم ، إذ جاءوا إلى القيامة وكانوا ينْفون ذلك المجيء وتركوا ما كـانوا فيه في الدّنيا وكان حالهم حال من ينوي الخلود . فبهذا الاعتبار عطفت الجملة و لم تفصل . وأبو البقاء جعل الجملة حالاً من الواو في ﴿ جِئْتُمُونَا ﴾ فيصير تـرك مـا خوّلوه هو محلّ التّنكيل .

وكذلك القول في جملة ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ﴾ أنّها معطوفة على ﴿جِئْتُمُونَا﴾ و ﴿ وَتَرَكْتُم ﴾ لأنّ هذا الخبر أيضاً مراد به التّخطئة والتّلهيف ، فالمشركون كانوا إذا اضطربت قلوبهم في أمر الإسلام علّلوا أنفسهم بأنّ آلهتهم تشفع لهم عند الله . وقد روى بعضهم : أنّ النّضر بن الحارث قال ذلك ، ولعلّه قاله استسخاراً أو جهلاً ، وأنّ الآية نزلت ردّاً عليه ، أي أن في الآية ما هو ردّ عليه لا أنّها نزلت لإبطال قوله لأنّ هذه الآيات متّصل بعضها ببعض ، وفي قوله : ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ﴾ بيان أيضاً وتقرير لقوله : ﴿ فُرَٰدَىٰ ﴾ .

وقوله : ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ﴾ تهكّم بهم لأنّهم لا شـفعاء لهـم فسـيق الخطاب إليهم مساق كلام من يترقّب ، أي يرى شيئاً فلم يره على نحو قوله في الآية الأخرى ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ﴾[النحـل : ٢٧] ، بناء على أنّ نفي الوصف عن شيء يدلّ غالباً على وجود ذلك الشّيء ، فكـان في هذا القول إيهام أنّ شفعاءهم موجودون سوى أنّهم لم يحضروا ، ولـذلك جـيء بالفعل المنفي بصيغة المضارع الدالّ على الحال دون الماضي ليشير إلى أنّ انتفاء رؤية

الشّفعاء حاصل إلى الآن ، ففيه إيهام أنّ رؤيتهم محتملة الحصول بعد في المستقبل ، وذلك زيادة في التهكّم .

وأضيف الشّفعاء إلى ضمير المخاطبين لأنّه أريد شفعاء معهودون ، وهم الآلهة الّتي عبدوها وقالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر : ٣]

﴿ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس : ١٨] . وقد زيد تقرير هذا المعنى بوصفهم بقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ ﴾ .

والزّعم : القول الباطل سواء كان عن تعمّد للباطل كما في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ [النساء : ٦٠] أم كان عن سوء اعتقاد كما هنا .اهـ (١)

* وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ أي: لا أحد أظلم ممن كـذب على الله، فجعل له شريكا أو ولدا، أو ادعى أن الله أرسـله إلى النـاس و لم يكـن أرسله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ ﴾ قال عِكْرِمـة وقتادة: نزلت في مسيلمة الكذاب [لعنه الله]

﴿ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ يعني: ومن ادعى أنه يعارض ما جاء من عند الله من الوحي مما يفتريه من القول، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأنفال: ٣١]،

---

(١) انظر التحرير والتنوير لابن عاشور تفسير سورة الأنعام الآيات (٩٣- ٩٤) .

قال الله: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ ﴾ أي: في سكراته وغمراته وكُرُباته، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي: بالضرب كما قال: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ﴾ [المائدة: ٢٨]، وقال: ﴿ وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ ﴾ الآية [الممتحنة: ٢].

وقال الضحاك، وأبو صالح: ﴿ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي: بالعذاب.

وكما قال ﷻ : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ [الأنفال: ٥٠] ؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي: بالضرب لهم حتى تخرج أنفسهم من أجسادهم؛ ولهذا يقولون لهم: ﴿ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ﴾ وذلك أن الكافر إذا احتضر بشرته الملائكة بالعذاب والنكال، والأغلال والسلاسل، والجحيم والحميم، وغضب الرحمن الرحيم، فتتفرق روحه في جسده، وتعصى وتأبى الخروج، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم، قائلين لهم: ﴿ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ أي: اليوم تهانون غاية الإهانة، كما كنتم تكذبون على الله، وتستكبرون عن اتباع آياته، والانقياد لرسله.

وقد وردت أحاديث [متواترة] في كيفية احتضار المؤمن والكافر، وهي مقررة عند قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧]... وقوله: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي: يقال لهم يوم معادهم هذا،

كما قـال ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الكهف: ٤٨]، أي: كما بدأناكم أعدناكم، وقد كنتم تنكرون ذلك وتستبعدونه، فهذا يوم البعث.

وقوله: ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ﴾ أي: من النعم والأموال التي اقتنيتموها في الدار الدنيا ﴿وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: ((**يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك ، إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس**)).

وقال الحسن البصري: يؤتى بابن آدم يوم القيامة كأنه بَذَج فيقول الله ﷻ، [له] أين ما جمعت؟ فيقول يا رب، جمعته وتركته أوفر ما كان، فيقول: فأين ما قدمت لنفسك؟ فلا يراه قدم شيئا، وتلا هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ تقريع لهم وتوبيخ على ما كانوا اتخذوا في [الدار] الدنيا من الأنداد والأصنام والأوثان، ظانين أن تلك تنفعهم في معاشهم ومعادهم إن كان ثَمَّ معاد، فإذا كان يوم القيامة تقطعت الأسباب، وانزاح الضلال، وضل عنهم ما كانوا يفترون، ويناديهم الرب ﷻ على رءوس الخلائق: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنعام: ٢٢] وقيل لهم:

﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الشعراء]؛

ولهذا قال هاهنا: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي: في العبادة، لهم فيكم قسط في استحقاق العبادة لهم.

ثم قال تعالى: ﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ قُرئ بالرفع، أي شملكم، وقُرئ بالنصب، أي: لقد انقطع ما بينكم من الوُصْلات والأسباب والوسائل ﴿ وَضَلَّ عَنكُم ﴾ أي: وذهب عنكم ﴿ مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ من رجاء الأصنام، كما قال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧]، وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [المؤمنون]، وقال ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٥] وقال ﴿ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾ [القصص: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنعام: ٢٢ -٢٤]، والآيات في هذا كثيرة جداً. اهـ

*** من هداية الآيتين :**

١- قبح الكذب عل الله تعالى في أي شكل ، وأن صاحبه لا أظلم منه قط .

٢- تقرير عذاب القبر ، وسكرات الموت وشدتها ، وفي الحديث : أن للموت سكرات .

٣- قبح الاستكبار وعظم جرمه .

٤- تقرير عقيدة البعث الآخرة الجزاء على الكسب في الدنيا .

٥- انعدام الشفعاء يوم القيامة إلا ما قضت السنة الصحيحة من شـــفاعة الـــنبي ﷺ والعلماء والشهداء بشروط هي : أن يأذن الله للشافع أن يشفع وأن يرضى عن المشفوع له (١).

[وينتهي الدرس الطويل المتلاحم الفقرات باستنكار الافتراء ممن يفتري على الله ، وادعاء من يزعم أنه يوحى إليه من الله ، وادعاء القدرة على تنزيل مثل ما أنزل الله . . وهي الدعاوى التي كان يدعيها بعض من يواجهون الدعوة الإسلامية ، وفيهم من ادعى الوحي وفيهم من ادعى النبوة .

* هل يستويان مثلا : -

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [الأنعام]

* شرح الكلمات :

﴿ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ ﴾ : شرح الصدر توسعته لقبول الحق وتحمل الوارد عليه مـــن أنوار الإيمان وعلامة ذلك ، الإنابة إلى دار الخلود ، والتجـــافي عـــن دار الغـــرور والاستعداد للموت قبل نزوله .

﴿حَرَجًا﴾ : ضيقاً لا يتسع لقبول الحق ، ولا لنور الإيمان .

---

(١) انظر أيسر التفاسير للجزائري : ١/ ٤٩٣ تفسير سورة الأنعام الآيات (٩٣ - ٩٤) ط/ دار الحديث

﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ﴾ : يصعب عليه قبول الإيمان حتى كأنه يتكلف الصعود إلى السماء

﴿ٱلرِّجْسَ﴾ : النَّجس ومالا خير فيه كالشيطان .

﴿فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ﴾ : بيناها وأوضحناها غاية البيان والتوضيح .

﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ : يذكرون فيتعظون .

﴿دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾ : الجنة ، والسلام اسم من أسماء الله تعالى فهي مضافة إلى الله تعالى

﴿ٱسْتَكْثَرْتُم﴾ : أي من إضلال الإنس وإغوائهم .

﴿ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ : انتفع كل منَّا بصاحبه أي تبادلنا المنافع بيننا حتى الموت

﴿أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ : أي الوقت الذي وقت لنا وهو أجل موتنا فمتنا .

﴿مَثْوَىٰكُمْ﴾ : مأواكم ومَقر بقائكم وإقامتكم .

﴿حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ : حكيم في وضع كل شيء في موضعه فلا يخلد أهل الإيمان في النار ، ولا يخرج أهل الكفر منها ، عليم بأهل الإيمان وأهل الكفران .

*** معنى الآيات :**

بعد ذلك البيان والتفصيل لطريق لهداية في الآيات من أول السورة إلى قوله تعالى حكاية عن المدعوين إلى الحق العادلين به الأصنام إذ قالوا : ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ أعلم تعالى عباده أن الهداية بيده وأن الإضلال كذلك يهدي من يشاء برحمته ويضل من يشاء بعدله ، وأن لكل من الهداية والإضلال سنناً تتبع في ذلك فمن طلب الهداية ورغب فيها صادقاً علم تعالى منه وسهل له طرقها وهيأ له أسبابها ، ومن ذلك أنه يشرح صدره لقبول الإيمان وأنواره فيؤمن ويسلم ويحسن فيكمل ويسعد ، ومن طلب الغواية ورغب فيها صادقاً علم الله تعالى ذلك

منه فهيأ له أسبابها وفتح له بابها فجعل صدره ضيقا حرجاً لا يتسع لقبول الإيمـان وحلول أنواره فيه حتى لكأنه يتكلف الصعود إلى السماء وما هو بقادر ، هذه سنته في الهداية والإضلال ، وقوله تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ أي كذلك الفعل في الهداية والإضلال يجعل الله الرجس أي يلقي بكل ما لا خير فيه على قلوبهم من الكبر والحسد والشرك والكفر والشيطان لقبول المحل لكل ذلك نتيجة خلوه من الإيمان بالله ولقائه .

وقوله تعالى ﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ﴾ يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ مشيراً إلى ما بيّنه من الهدى وهذا طريق ربك مستقيماً فاسلكه والزمه فإنه يفضي بك إلى كرامة ربك وجواره في جنات النعيم . وقوله : ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ يمتن تعالى وله الحمد والمنة بما أنعم به على هذه الأمة من تفصيل الآيـات حججـاً وبراهين وشرائع ليهتدي طالبوا الهدى المشـار إلـيهم بقولـه ﴿ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ فيذكرون فيؤمنون ويعملون فيكملون ويسعدون في دار السلام إذ قال تعالى ﴿ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم ﴾ أي متوليهم بالنصر والتأييد في الـدنيا والإنعـام والتكريم في الآخرة ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ من الصالحات . اهـ[1]

---

(١) انظر تفسير الجزائري :١/ ٥٠٧ ، ٥٠٨ تفسير سورة الأنعام الآيات (١٢٥ – ١٢٨) ط/ دار الحديث.

ونستفيد مما تقدم : -

١- أن طريق الله ﷻ واضح المعالم لا غبش عليه لا ريب فيه ولا التباس .

٢- ليس هناك منزلة بين الحق والضلال وبين الصراط السوي وسبل الضالين فإما هدى وإما هوى : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [يونس]

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام]

٣- إن الهدى له أسبابه فمن اتبع الأسباب بالضوابط الشرعية وأدمن طرق الباب سيفتح له أما من غفل ولها وتناسى وخالف السنن الكونية فإنه قد انزلقت به الأقدام إلى مهاوي الضلال : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [المؤمنون]

٤- الصدور لا يتحكم فيها إلا الله وإنما تنفسح وتنشرح بالإيمان والتقوى : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ [الزمر] فقد رزقه الله الانشراح والنور لقربه منه وإيمانه به .

[وينتهي الدرس الطويل المتلاحم الفقرات باستنكار الافتراء ممن يفتري على الله ، وادعاء من يزعم أنه يوحى إليه من الله ، وادعاء القدرة على تنزيل مثل ما أنزل الله . . وهي الدعاوى التي كان يدعيها بعض من يواجهون الدعوة الإسلامية ، وفيهم من ادعى الوحي وفيهم من ادعى النبوة .

*** هل يستويان مثلا : -**

﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾

وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ
وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ
ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ
مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [الأنعام]

* شرح الكلمات :

﴿ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ ﴾ : شرح الصدر توسعته لقبول الحق وتحمل الوارد عليه من أنوار الإيمان وعلامة ذلك ، الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزوله .

﴿حَرَجًا﴾ : ضيقاً لا يتسع لقبول الحق ، ولا لنور الإيمان .

﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ﴾ : يصعب عليه قبول الإيمان حتى كأنه يتكلف الصعود إلى السماء

﴿ ٱلرِّجْسَ ﴾ : النجس ومالا خير فيه كالشيطان .

﴿ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ ﴾ : بيناها وأوضحناها غاية البيان والتوضيح .

﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ : يذكرون فيتعظون .

﴿ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ : الجنة ، والسلام اسم من أسماء الله تعالى فهي مضافة إلى الله تعالى

﴿ٱسْتَكْثَرْتُم﴾ : أي من إضلال الإنس وإغوائهم .

﴿ ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ : انتفع كل منّا بصاحبه أي تبادلنا المنافع بيننا حتى الموت

﴿ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ : أي الوقت الذي وقت لنا وهو أجل موتنا فمتنا .

﴿ مَثْوَىٰكُمْ ﴾ : مأواكم ومقر بقائكم وإقامتكم .

﴿ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ : حكيم في وضع كل شيء في موضعه فلا يخلد أهل الإيمان في النار ، ولا يخرج أهل الكفر منها ، عليم بأهل الإيمان وأهل الكفران .

*** معنى الآيات :**

بعد ذلك البيان والتفصيل لطريق لهداية في الآيات من أول السورة إلى قوله تعالى حكاية عن المدعوين إلى الحق العادلين به الأصنام إذ قالوا : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾ أعلم تعالى عباده أن الهداية بيده وأن الإضلال كذلك يهدي من يشاء برحمته ويضل من يشاء بعدله ، وأن لكل من الهداية والإضلال سنناً تتبع في ذلك فمن طلب الهداية ورغب فيها صادقاً علم تعالى منه وسهل له طرقها وهيأ له أسبابها ، ومن ذلك أنه يشرح صدره لقبول الإيمان وأنواره فيؤمن ويسلم ويحسن فيكمل ويسعد ، ومن طلب الغواية ورغب فيها صادقاً علم الله تعالى ذلك منه فهيأ له أسبابها وفتح له بابها فجعل صدره ضيقا حرجاً لا يتسع لقبول الإيمان وحلول أنواره فيه حتى لكأنه يتكلف الصعود إلى السماء وما هو بقادر ، هذه سنته في الهداية والإضلال ، وقوله تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ أي كذلك الفعل في الهداية والإضلال يجعل الله الرجس أي يلقي بكل ما لا خير فيه على قلوبهم من الكبر والحسد والشرك والكفر والشيطان لقبول المحل لكل ذلك نتيجة خلوه من الإيمان بالله ولقائه .

وقوله تعالى ﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ﴾ يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ مشيراً إلى ما بيّنه من الهدى وهذا طريق ربك مستقيماً فاسلكه والزمه فإنه يفضي بك إلى كرامة ربك وجواره في جنات النعيم . وقوله : ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ يمتن تعالى وله الحمد والمنة بما أنعم به على هذه الأمة من تفصيل الآيات حججاً

وبراهين وشرائع ليهتدي طالبوا الهدى المشار إليهم بقوله ﴿ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ فيذكرون فيؤمنون ويعملون فيكملون ويسعدون في دار السلام إذ قال تعالى ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم ﴾أي متوليهم بالنصر والتأييد في الدنيا والإنعام والتكريم في الآخرة ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾من الصالحات . اهـ[1]

ونستفيد مما تقدم : -

٥- أن طريق الله ﷻ واضح المعالم لا غبش عليه لا ريب فيه ولا التباس .

٦- ليس هناك منزلة بين الحق والضلال وبين الصراط السوي وسبل الضالين فإما هدى وإما هوى : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [يونس]

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام]

٧- إن الهدى له أسبابه فمن اتبع الأسباب بالضوابط الشرعية وأدمن طرق الباب سيفتح له أما من غفل ولها وتناسى وخالف السنن الكونية فإنه قد انزلقت به الأقدام إلى مهاوي الضلال : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [المؤمنون]

٨- الصدور لا يتحكم فيها إلا الله وإنما تنفسح وتنشرح بالإيمان والتقوى : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ [الزمر] فقد رزقه الله الانشراح والنور لقربه منه وإيمانه به .

---

(١) انظر تفسير الجزائري :١/ ٥٠٧ ، ٥٠٨ تفسير سورة الأنعام الآيات (١٢٥ – ١٢٨) ط/ دار الحديث.

سُورَةُ الأَعراف

* الميزان من خلال نوافذ القرآن*

تمهيد

إن النفوس بطبيعتها تميل وتجنح إلى الطيش والبطش وإلى الظلم والطغيان ، وإنما جاء حديث القرآن عن الدار الآخرة ليكبت هذه الجموح وليوقف هذا الطغيان ، وإذ ما علمت النفس أن الله تعالى عليها رقيب ، فلا يغيب عنه من شيء وإن كان قليلاً زهيداً ولا حتى الهباء المنثور ، بل ولا السر ومكنون الصدور ، وإذا تيقن العبد من الحساب خاف العذاب وإذا أيقن بالموت خاف الفوت .

ويأتي هنا عرض هذه الصورة الشاخصة لترى من خلالها شمول السؤال للجميع حتى الأنبياء : ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ ﴾ حيث قال تعالى : ﴿ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [المائدة] وهكذا يكون في أول الأمر ، ثم يأتي دور تقرير الأنبياء بما كان من أقوامهم : ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ [المائدة]

ويأتي دور الميزان والقسط فيه ليتوقف كل امرئ عند أي أمر يقدم عليه أهو من الحق والبر والخير والقسط فينشط له ويقدم عليه أم أنه من الظلم والجور والشر فيتخلى

عنه ويهرب من مغبته لأن الوزن آت لا ريب فيه فلو رجحت الحسنات على السيئات فذلك الفوز الكبير وإن كانت الأخرى فرجحت السيئات وأحاطت بصاحبها الخطيئات فذلك الخسران العظيم.

يقول الله ﷻ : ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

* معنى الكلمات :

﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ﴾ : أي العدل .

﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ : أي بالحسنات فأولئك هم المفلحون بدخول الجنة .

﴿ خَسِرُوا أَنفُسَهُم ﴾ : بدخولهم النار والاصطلاء بها أبداً .

﴿ مَعَايِشَ ﴾ : جمع معيشة بمعنى العيش الذي يعيشه الإنسان .

﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ : أي شكراً قليلاً والشكر ذكر النعمة للمنعم وطاعته بفعل محابه وترك مكارهه .

* المعنى العام :

[... ثم ذكر الجزاء على الأعمال، فقال: ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا

﴿ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ أي: والوزن يوم القيامة يكون بالعدل والقسط، الذي لا جور فيه ولا ظلم بوجه.

﴿ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ بأن رجحت كفة حسناته على سيئاته ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ أي: الناجون من المكروه، المدركون للمحبوب، الذين حصل لهم الربح العظيم، والسعادة الدائمة.

﴿ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ بأن رجحت سيئاته، وصار الحكم لها، ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم ﴾ إذ فاتهم النعيم المقيم، وحصل لهم العذاب الأليم ﴿ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ﴾ فلم ينقادوا لها كما يجب عليهم ذلك.اهـ (١)

* قولـــــه ﷻ : ﴿ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ ﴾ يخبر تعالى أنه إذا جمع الخلائق لفصل القضاء مؤكداً الخبر بالقسم أنه يسأل كل أمة أو جماعة أو فرد أرسل إليهم رسله يسألهم عن مدى إجابتهم دعوة رسله إليهم ، فهل آمنوا بما جاءهم به الرسل ، وأطاعوهم فيما بلغوهم ، من التوحيد والعبادة والطاعة والانقياد ، كما يسأل الرسل أيضاً هل بلغوا ما ائتمنهم عليه من رسالاته المتضمنة أمر عباده بالإيمان به وتوحيده وطاعته في أمره ونهيه ، ثم يقصُّ تعالى على الجميع بعلمه كل ما كان منهم من ظاهر الأعمال وباطنها ، ولا يستطيعون إخفاء شيء أبداً ، ولم يكن سؤاله لهم أولاً ، إلا من باب إقامة الحجة وإظهار عدالته ﷻ فيهم ، ولتوبيخ من يستحق التوبيخ منهم ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ عنهم حينما كانوا

---

(١) انظر تفسير السعدي [المجلد الواحد] ص ٢٨١ تفسير سورة الأعراف آيات (٨ – ٩) ط/ التوفيقية.

في الدنيا يعملون فكل أعمالهم كانت مكشوفة ظاهرة له تعالى ولا يخفى عليه منــها شيء وهو السميع البصير .

هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٦) والثانية (٧) أما الآيتان الثالثة الرابعة فقــد أخبر تعالى أنه بعد سؤالهم وتعريفهم بأعمالهم ينصب الميزان وتوزن لهم أعمالهم فمن ثقلت موازين حسناته أفلح بالنجاة من النار ودخول الجنة دار السلام ومن خفَّــت لقلة حسناته وكثرة سيئاته خسر نفسه بإلقائه في جهنم ليخلد في عذاب أبــدي ، وعلل تعالى لهذا الخسران في جهنم بقوله ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ أي يكذبون ويجحدون ، وأطلق الظلم وأريد به التكذيب والجحود لأمرين هما :

أولاً : اكتفاء بحرف الجر الباء إذ لا تدخل على ظلم ولكن علــى كــذب أو جحد يقال كذب به وجحد به ولا يقال ظلم به ولكن ظلمه وهــذا مــن بــاب التضمين وهو سائغ في لغة العرب التي نزل بها القرآن .

وثانياً : أنهم بدل أن يؤمنوا بالآيات وهي واضحات كذبوا بها فكانوا كأنهم ظلموا الآيات ظلماً حيث لم يؤمنوا بها وهي بينات ..اهـــ [١]

***وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ : -**

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَالْوَزْنُ﴾ أي: للأعمال يوم القيامة ﴿الْحَقُّ﴾ أي: لا يظلم تعالى أحدا، كما قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧) ﴾ [الأنبياء]

---

(١) أيسر التفاسير للجزائري : ١/ ٥٣٠ – ٥٣١ تفسير سورة الأعراف آيات (٦ – ٩) ط/ دار الحديث.

وقال تعـالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [النسـاء : ٤٠] وقـال تعـالى: ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾ ﴾ [القارعة]

وقال تعـالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [المؤمنون : ١٠١ -١٠٣] .

* ما الذي يوضع في الميزان يوم القيامة *

والذي يوضع في الميزان يوم القيامة:-

قيل: الأعمال وإن كانت أعراضًا، إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساما.

[٢٨] قال البغوي : يروى هذا عن ابن عباس كما جاء في الصحيح من أن "البقرة" و "آل عمران" يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان -أو: غيَايَتان -أو فِرْقَان من طير صَوَافّ. من ذلك في الصحيح قصة القرآن وأنه يأتي صاحبه في صورة شاب شاحب اللّون، فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا القرآن الذي أسهرت ليلك وأظمأت نهارك .

[٢٩] وفي حديث البراء، في قصة سؤال القبر: ((**فيأتي المؤمن شابٌّ حسن اللون طيّب الريح، فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا عملك الصالح**)) وذكر عكسه في شأن الكافر والمنافق.

وقيل: يوزن كتاب الأعمال :

[٣٠] كما جاء في حديث البطاقة، في الرجل الذي يؤتى به ويوضع له في كفّة تسعة وتسعون سجلا كل سِجِلّ مَدّ البصر، ثم يؤتى بتلك البطاقة فيها: "لا إلـه إلا الله" فيقول: يا رب، وما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول الله تعالى: إنك لا تُظلَم. فتوضع تلك البطاقة في كفة الميـزان. قـال رسـول الله ﷺ : "**فَطاشَت السجلات، وثَقُلَتِ البطاقة**".[رواه الترمذي بنحو من هذا وصححه] .

وقيل: يوزن صاحب العمل : -

[٣١] كما في الحديث: ((**يُؤتَى يوم القيامة بالرجل السَّمِين، فلا يَزِن عند الله جَنَاح بَعُوضَة**)) ثم قرأ: ﴿**فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا**﴾.

[٣٢] وفي مناقب عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: ((**أتعجبون من دِقَّة ساقَيْه، فوالذي نفسي بيده لهما في الميزان أثقل من أُحُدٍ**)) .

وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحا، فتـارة تـوزن الأعمال، وتارة توزن محالها، وتارة يوزن فاعلها، والله أعلم..ا هـ

* عقيدة أهل السنة في الوزن يوم القيامة *

ومن عدل الحكيم المنان ، الوقوف للعرض والميزان ، فلا ظلم هناك ولا بهتان ، ولا تجزى إلا بما كنت تعمل يا إنسان ، فلن ترى فيه عملاً غير ما كان ، فـوالله لا ظلم هناك ولا حرمان

قال الحكمي رَحِمَهُ اللهُ :

والوزن بالقسط فلا ظلـم ولا يؤخذ عبد بسوى مـا عمـلا
فبين نـاج راجـح ميزانـه ومقـرف أوبقـهُ عدوانـه

﴿وَٱلْوَزْنُ﴾ لأعمال العباد (بالقسط) العدل (فلا ظلم) على أحد يومئذ ، لأن الحاكم فيه هو العدل الحكيم الذي حرم الظلم على نفسه وجعله على عباده محرماً فلا يهضم أحد من حسناته (ولا يؤخذ عبد بسوى ما عملا). [١]

قال الله ﷻ : ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ [٢] وقال ﷻ: ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [٣]

وقال ﷻ : ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [٤] وقال تعالى : حكاية عن لقمان : ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [٥] وقال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ [٦]

[٣٣] والإيمان بالميزان يوم القيامة كما جاء : ((يوزن العبد يوم القيامة فلا يزن جناح بعوضة)) .

---

(١) معارج القبول ص ٦٨٨

(٢) غافر : ١٧

(٣) يس : ٥٤

(٤) الأنبياء : ٤٧

(٥) لقمان : ١٦

(٦) النساء : ٤٠

[٣٤] و عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ وَقَالَ اقْرَءُوا (فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا) »(١) .

وتوزن أعمال العباد كما جاء في الأثر .

[٣٥] من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَـانِ عَلَى اللِّسَانِ ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ سُبْحَانَ اللَّـهِ وَبِحَمْـدِهِ ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ » (٢)، والإيمان به والتصديق به والإعراض عن مـن رد ذلـك وترك مجادلته .

والميزان هو : ما تقدر به الأشياء خفة وثقلاً .

وأهل السنة والجماعة على إثبات ميزان حقيقي له كفتان ومن أدلتهم .

قال تعالى : ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَـيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (٣)

[٣٦] وقال رسول الله ﷺ : « الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ وَالْحَمْـدُ لِلَّـهِ تَمْـلأُ الْمِيزَانَ...». (٤)

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ح ٤٧٢٩ ، ومسلم ٢٧٥٨

(٢) أدلة ذلك ما أخرجه البخاري (٦٤٠٦) ، ومسلم (٢٦٩٤)

(٣) الأنبياء : ٤٧

(٤) مسلم ح ٢٢

* تنبيه *

الكفار لا توزن أعمالهم ؛ لأنه ليست لهم حسنات معتبرة ، تنفعهم في الثواب أصلاً ، وإنما يحاسبون ((بمعنى عد الأعمال ، وإحصائها ، وعرضها عليهم ، لا بمعنى إثبات حسنات نافعة لهم في ثواب يوم القيامة تقابل سيئاتهم)) .[١]

وحسابهم بهذا المعنى العقاب ، فعقاب من كثرت سيئاته أعظم من عقاب من قلّتْ سيئاته ...فكان الحساب لبيان مراتب العذاب ، لا لأصل دخول الجنة .[٢]

قال الإمام أحمد ابن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ في رسالته لمسدد بن مسرهد : ((والميزان حق)) .

وفي رسالته محمد بن عوف الطائي رَحِمَهُ اللَّهُ : ((وأن العباد يوزنون بأعمالهم فمنهم من لا يزن جناح بعوضة)) .

قال زهير بن عباد رَحِمَهُ اللَّهُ : كل من أدركت من المشايخ مالك ،وسفيان ، وفضيل ، وعيسى بن يونس ، وابن المبارك ، و وكيع بن الجراح كانوا يقولون : الميزان حق .

قال ابن وضاح رَحِمَهُ اللَّهُ : سألت يحي بن معين عنه فقال : حق .

قال أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ :ووزن الأعمال بالميزان يوم القيامة حق .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : ((وتنصب الموازين ، فتوزن فيها أعمال العباد))

---

(١) درء تعارض العقل والنقل :٢٢٩/٥ .

(٢) مجموع الفتاوى :٣٠٥/٤ ، ٣٠٦

* كيف توزن الموازين : -

يقول الله تعالى : ﴿مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (١)

يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ : أما قوله تعالى : ﴿مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ وهذا أدنى ما يثاب عليه المرء بالنسبة للحسنة و إلا فإن الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، لكن أدنى ما يكون أن له عشرة أمثالها .

وعلم من قوله تعالى : ﴿ مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ ﴾ ﴿ وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ ﴾ أنه لو كان هناك ما يبطل الحسنات فإنها لا تنفعه مثل أن يرتد الإنسان والعياذ بالله تعالى فإنه لا تنفعه الحسنات ولو فعلها في الدنيا ؛ لأن الله قال : ﴿ مَن جَاء ﴾ فلابد أن تكون الحسنات واصلة إلى الإنسان يوم القيامة ، وكذلك أيضاً من جاء بالسيئة فإن الإنسان قد يعمل السيئة ثم يتوب منها فلا يكون أتى بها . (٢) اهـ (٣)

* الصورة الشاخصة للموقف الرهيب *

وبينما المشهد معروض في الدنيا ، وقد أخذ الله المكذبين ببأسه ، فاعترفوا_وهم يعاينون بأس الله أنهم كانوا ظالمين؛ وتكشف لهم الحق فعرفوه ، ولكن حيث لا تجدي معرفة ولا اعتراف ، ولا يكف بأس الله عنهم ندم ولا توبة . فإن الندم قد فات موعده ، والتوبة قد انقطعت طريقها بحلول العذاب ..

---

(١) الأنعام : ١٦٠

(٢) شرح عقيدة أهل السنة والجماعة : ص ٣٤٦

(٣) انظر الجواهر الحسان في معالم الإيمان ص ٤٤٧- ٤٥١ بتصرف يسير .

بينما المشهد هكذا معروضاً في الدنيا إذا السياق ينتقل ، وينقل معه السامعين من فوره إلى ساحة الآخرة . بلا توقف ولا فاصل . فالشريط المعروض موصول المشاهد ، والنقلة تتخطى الزمان والمكان ، وتصل الدنيا بالآخرة ، وتلحق عذاب الدنيا بعذاب الآخرة؛ وإذا الموقف هناك في لمحة خاطفة : ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ .

إن التعبير على هذا النحو المصور الموحي ، خاصية من خواص القرآن .. إن الرحلة في الأرض كلها تطوى في لمحة . وفي سطر من كتاب . لتلتحم الدنيا بالآخرة؛ ويتصل البدء بالختام! فإذا وقف هؤلاء الذين تعرضوا لبأس الله في هذه الأرض وقفتهم هناك للسؤال والحساب والجزاء ، فإنه لا يكتفي باعترافهم ذاك حين واجهوا بأس الله الذي أخذهم وهم غارون :﴿ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴾..ولكنه السؤال الجديد ، والتشهير بهم على الملأ الحاشد في ذلك اليوم المشهود : ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ ﴾

فهو السؤال الدقيق الوافي ، يشمل المرسل إليهم ويشمل المرسلين .. وتعرض فيه القصة كلها على الملأ الحاشد؛ وتفصل فيه الخفايا والدقائق! .. يسأل الذين جاءهم الرسل فيعترفون . ويسأل الرسل فيجيبون . ثم يقص عليهم العليم الخبير كل شيء أحصاه الله ونسوه! يقصه عليهم ﷻ بعلم فقد كان حاضراً كل شيء . وما كان ﷻ غائباً عن شيء .. وهي لمسة عميقة التأثير والتذكير والتحذير!

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ إنه لا مجال هنا للمغالطة في الوزن؛ ولا التلبيس في الحكم؛ ولا الجدل الذي يذهب بصحة الأحكام والموازين . ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فقد ثقلت في ميزان الله الذي يزن بالحق . وجزاؤها إذن هو الفلاح .. وأي فلاح بعد النجاة من النار ، والعودة إلى الجنة ، في نهاية الرحلة المديدة ، وفي ختام المطاف الطويل؟

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ فقد خفت في ميزان الله الذي لا يظلم ولا يخطئ . وقد خسروا أنفسهم . فماذا يكسبون بعد؟ إن المرء ليحاول أن يجمع لنفسه . فإذا خسر ذات نفسه فما الذي يبقى له؟ لقد خسروا أنفسهم بكفرهم بآيات الله : ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ والظلم .. يطلق في التعبير القرآني ويراد به الشرك أو الكفر : ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣] ولا ندخل هنا في طبيعة الوزن وحقيقة الميزان - كما دخل فيه المتجادلون بعقلية غير إسلامية في تاريخ الفكر « الإسلامي »! . . فكيفيات أفعال الله كلها خارجة عن الشبيه والمثيل . مذ كان الله سبحانه ليس كمثله شيء . . وحسبنا تقرير الحقيقة التي يقصد إليها السياق . . من أن الحساب يومئذ بالحق ، وأنه لا يظلم أحد مثقال ذرة ، وأن عملاً لا يبخس ولا يغفل ولا يضيع .اهـ [١] .

ونستفيد مما تقدم : -

١-وزن الأعمال والأقوال بميزان الشرع قبل ميزان يوم القيامة .

٢-الشرك أعظم مدمر للأعمال والأقوال الصالحة فيجب أن تقطع شجرته من أصلها

---

(١) انظر الظلال : ٣/ ١٢٦٠ ، ١٢٦١ في ظلال سورة الأعراف الآيات (٦ - ٩) .

٣-التماس الأعمال والأقوال التي تثقل الميزان والمحافظة عليها والدعوة إليها .

٤-الذكر والدعاء ثقل في الميزان وبه يرضى الرحمن .

٥-ليس يوجد في الميزان أفضل من خلق حسن فليهتم بذلك .

٦-حقوق العباد التي يتهاون بها تؤثر في الميزان سلباً وتمحق الحسنات .

* الظالمون بين آهات الموت والسكرات وآلام البرزخ*

تمهيد :-

إن مما ينشده العالم كله من أفراد أجمع إزاحة الأحزان والهروب منها والفرار من الخوف لأن ذلك هو المنغص الحقيقي الذي يقض مضجع الناس ويؤرقهم ويعكر صفوهم ، ويجهد فكرهم ويكدر عيشهم وربما هدم لذاتهم ، وكسر ظهورهم ، وهنا قد لاح لك الطريق إلى الأمن والفرح في عنصرين اثنين هامين التوى والإصلاح والله مع المتقين : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النحل] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [التوبة] ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [الأعراف]

﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأعراف]

لما أخرج الله بني آدم من الجنة، ابتلاهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب عليهم يقصون عليهم آيات الله ويبينون لهم أحكامه، ثم ذكر فضل من استجاب لهم، وخسارة من لم يستجب لهم فقال: ﴿ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ ما حرم الله، من الشرك والكبائر والصغائر، ﴿ وَأَصْلَحَ ﴾ أعماله الظاهرة والباطنة ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ من الشر الذي قد

يخافه غيرهم ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما مضى، وإذا انتفى الخوف والحزن حصل الأمن التام، والسعادة، والفلاح الأبدي.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ أي: لا آمنت بها قلوبهم، ولا انقادت لها جوارحهم، ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ كما استهانوا بآياته، ولازموا التكذيب بها، أهينوا بالعذاب الدائم الملازم.اهـ (١)

يقول الله ﷻ : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾

* معاني الكلمات *

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ : الظلم وضع الشيء في غير موضعه ، ولذا المشرك ظالم لأنه وضع العبادة في غير موضعها حيث عبد بها من لا يستحقها .

﴿نَصِيبُهُم﴾ : ما قدر لهم في كتاب المقادير .

---

(١) انظر تفسير السعدي [المجلد الواحد] ص ٢٨٦، تفسير سورة الأعراف آيات (٣٥- ٣٦) .

﴿رُسُلُنَا﴾ : المراد بهم ملك الموت وأعوانه .

﴿ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ﴾ : غابوا عنا فلم نرهم و لم نجدهم .

﴿ فِيٓ أُمَمٍ ﴾ : أي في جملة أمم .

﴿ٱدَّارَكُوا﴾ : أي تداركوا ولحق بعضهم بعضا حتى دخلوها كلهم .

﴿ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ ﴾ : الاتباع قالوا للرؤساء في الضلالة وهم المتبوعون .

﴿ تَكۡسِبُونَ ﴾ : من الظلم والشر والفساد .

﴿ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ ﴾ : أي يدخل الجمل في ثقب الإبرة .

﴿ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ : الذين أجرموا على أنفسهم فافسدوها بالشرك والمعاصي .

﴿مِهَادٞ﴾ : فراش يمتهدونه من النار .

﴿غَوَاشٖ﴾: أغطية يتغطون بها من النار كذلك .

* المعنى العام *

﴿ فَمَنۡ أَظۡلَمُ ﴾ أي: لا أحد أظلم ﴿مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ بنسبة الشريك له، أو النقص له، أو التقول عليه ما لم يقل، ﴿أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ﴾ الواضحة المبينة للحق المبين، الهادية إلى الصراط المستقيم، فهؤلاء وإن تمتعوا بالدنيا، ونالهم نصيبهم مما كان مكتوبا لهم في اللوح المحفوظ، فليس ذلك بمغن عنهم شيئا، يتمتعون قليلا ثم يعذبون طويلا ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ ﴾ أي: الملائكة الموكلون بقبض أرواحهم واستيفاء آجالهم.

﴿قَالُوٓاْ﴾ لهم في تلك الحالة توبيخا وعتابا ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ من الأصنام والأوثان، فقد جاء وقت الحاجة إن كان فيها منفعة لكم أو دفع مضرة.

﴿ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا ﴾ أي: اضمحلوا وبطلوا، وليسوا مغنين عنا من عذاب اللّـه مـن شيء , ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾ مستحقين للعذاب المهين الـدائم.

فقالت لهم الملائكة : ﴿ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ﴾ أي: في جملة أمم ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ أي: مضوا على ما مضيتم عليه من الكفر والاستكبار، فاسـتحق الجميع الخزي والبوار، كلما دخلت أمة من الأمم العاتية النار ﴿لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ كما قال تعـالى: ﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [العنكبوت]

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا ﴾ أي: اجتمع في النار جميع أهلها، من الأولـين والآخرين، والقادة والرؤساء والمقلدين الأتباع.

﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ ﴾ أي: متـأخروهم، المتبعـون للرؤسـاء ﴿لِأُولَىٰهُمْ ﴾ أي: لرؤسائهم، شاكين إلى الله إضلالهم إيـاهم: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: عذهم عذابا مضاعفا لأهم أضلونا، وزينوا لنا الأعمال الخبيثة.

﴿قَالَ ﴾الله ﴿لِكُلٍّ ﴾منكم ﴿ضِعْفٌ﴾ ونصيب من العذاب.

﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ ﴾ . أي: الرؤساء، قالوا لأتباعهم: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ أي: قد اشتركنا جميعا في الغي والضلال، وفي فعـل أسـباب العذاب، فأي: فضل لكم علينا؟ ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ ولكنه مـن

المعلوم أن عذاب الرؤساء وأئمة الضلال أبلغ وأشنع من عذاب الأتباع، كما أن نعيم أئمة الهدى ورؤسائه أعظم من ثواب الأتباع، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل: ٨٨] فهذه الآيات ونحوها، دلت على أن سائر أنواع المكذبين بآيات اللّه، مخلدون في العذاب، مشتركون فيه وفي أصله، وإن كانوا متفاوتين في مقداره، بحسب أعمالهم وعنادهم وظلمهم وافترائهم، وأن مودتهم التي كانت بينهم في الدنيا تنقلب يوم القيامة عداوة وملاعنة.اهـ (١)

* يُخبر تعالى بأنه لا أظلم ولا أجهل ولا أضل ممن يفترى على الله الكذب فيقول اتخذ ولداً أو أمر بالفواحش ، أو حرم كذا وهو لم يحرم ، أو كذب بآياته التي جاءت بها رسله فجحدها وعاند في ذلك وكابر ، فهؤلاء المفترون المكذبون يخبر تعالى أنه ﴿يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي ما كُتب لهم في اللوح المحفوظ من خير وشر وسعادة أو شقاء ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ أي ملك الموت وأعوانه ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ . يقولون لهم ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي تعبدون من أولياء؟ فيجيبون قائلين : ﴿ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾ أي غابوا فلم نرهم . قال تعالى : ﴿وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾ ويوم القيامة يقال لهم ﴿ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ في النار ، فيدخلون . ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ فلعن المشركون بعضهم بعضاً . واليهود والنصارى كذلك ، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا﴾ أي تلاحقوا وتم دخولهم النار أخذوا يشتكون ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا﴾

---

(١) انظر تفسير السعدي [المجلد الواحد] صـ٢٨٦ ، ٢٨٧ تفسير سورة الأعراف بتصرف .

أي يا ربنا ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ عن صراطك فلم نعبـدك ﴿فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ أي مضاعفاً ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ ، فأجابهم الله تعالى بقوله ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ لكل واحدة مـنكم ضعف من العذاب ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ ، إذ الدار دار عذاب فهو يتضاعف علـى كل من فيهـا ، وحينئـذ ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾ أي مـن الشـرك والافتـراء علـى الله والتكذيب بآياته ، ومجانبة طاعته وطاعة رسوله .

هذا ما دلت عيه الآيات الثلاث أما الآيتان الرابعة والخامسة فإن الرابعة قررت حكماً عظيما وهو أن الذين كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها فلم يؤمنوا و لم يعملوا الصالحات وعاشوا على الشرك والشر والفساد هؤلاء إذا مات أحدهم وعرجـت الملائكة بروحه إلى السماء لا تفتح له أبواب السماء ، ويكون مآلهم النار كما قال تعالى ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ فعلق دخولهم الجنـة علـى مستحيل وهو دخول الجمل في ثقب الإبرة ، والمعلق على مستحيل مستحيل . قال تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ على أنفسهم حيـث أفسـدوها بالشـرك والمعاصي . هذا ما تضمنته الآية الرابعة ، وهي قولـه تعـالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾

أما الخامسة فقد تضـمنت الخـبر التـالي : ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أي أغطية من النار وكما جزى تعالى هـؤلاء المكـذبين المسـتكبرين

والمجرمين يجزي بعدله الظالمين لأنفسهم حيث لوثوها وخبثوها بأوضار الذنوب والآثام .اهـ (١)

* خصومات من قلب جهنم *

* صورة شاخصة من حين الاحتضار وحتى القرار للكفار في قعر النار *

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ .

لأن التكذيب والاستكبار عن الاستسلام لعهد الله وشرعه يلحق المستكبرين بوليهم إبليس في النار؛ حيث يحق وعد الله : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأعراف: ١٨] ومن هنا يأخذ السياق في عرض مشهد الاحتضار - عند نهاية الأجل المشار إليه في نهاية الجولة الماضية : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٣٤] .. ثم مشهد الحشر والحساب . ومشهد الفصل والجزاء ,كأنها تفصيل لذلك الإجمال عن شأن المتقين المستكبرين؛ وتصوير لحال المتقين وحال المستكبرين؛ بعد الأجل المعلوم . تصوير على طريقة القرآن الفريدة التي تستحضر المشهد حياً متحركاً يراه قارئ القرآن وسامعه؛ ويشهده ، بكل كينونته .

لقد عني المنهج القرآني بمشاهد القيامة . . البعث والحساب ، والنعيم والعذاب . . عناية واضحة . فلم يعد ذلك العالم الذي وعده الله الناس ، بعد هذا العالم الحاضر ، موصوفاً فحسب ، بل عاد مصوراً محسوساً ، وحياً متحركاً ، وبارزاً شاخصاً . . وعاش المسلمون في ذلك العالم عيشة كاملة . رأوا مشاهده وتأثروا بها ، وخفقت قلوبهم تارة ، واقشعرت جلودهم تارة ، وسرى في نفوسهم الفزع مرة ،

---

(١) أيسر التفاسير للجزائري : ١/ ٥٤٢ ، ٥٤٣ تفسير سورة الأعراف الآيات (٣٥ - ٤١) .

وعاودهم الاطمئنان أخرى ، ولاح لهم من بعيد لفح النار ، ورفت إليهم من الجنة أنسام! ومن ثم باتوا يعرفون ذلك العالم تمام المعرفة قبل اليوم الموعود . اهـ[١] .

* ها نحن أولاء أمام مشهد هؤلاء الذين افتروا على الله كذباً أو كذبوا بآياته؛ وقد جاءتهم رسل ربهم من الملائكة يتوفونهم ، ويقبضون أرواحهم . فدار بين هؤلاء وهؤلاء حوار : ﴿قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ أين دعاويكم التي افتريتم على الله؟ وأين آلهتكم التي توليتم في الدنيا ، وفتنتم بها عما جاءكم من الله على لسان الرسل؟ أين هي الآن في اللحظة الحاسمة التي تسلب منكم فيها الحياة؛ فلا تجدون لكم عاصماً من الموت يؤخركم ساعة عن الميقات الذي أجله الله؟

ويكون الجواب هو الجواب الوحيد ، الذي لا معدى عنه ، ولا مغالطة فيه :

﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ غابوا عنا وتاهوا! فلا نحن نعرف لهم مقراً ، ولا هم يسلكون إلينا طريقاً! . . فما أضيع عباداً لا تهتدي إليهم آلهتهم ، ولا تسعفهم في مثل هذه اللحظة الحاسمة! وما أخيب آلهة لا تهتدي إلى عبادها . في مثل هذا الأوان!

﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ وكذلك شهدناهم من قبل في سياق السورة عندما جاءهم بأس الله في الدنيا : ﴿فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٥] فإذا انتهى مشهد الاحتضار ، فنحن أمام المشهد التالي ، وهؤلاء المحتضرون في النار! . . ويسكت السياق عما بينهما ، ويسقط الفترة بين الموت والبعث والحشر . وكأنما يؤخذ هؤلاء المحتضرون من الدار إلى النار!

﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا

---

(١) انظر الظلال : ٣/ ١٢٨٨ في ظلال سورة الأعراف الآيات (٣٤ - ٣٦) ط/ دار الشروق .

فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾ انضموا إلى زملائكم وأوليائكم من الجن والإنس . . هنا في النار . . أليس إبليس هو الذي عصى ربه؟ وهو الذي أخرج آدم من الجنة وزوجه؟ وهو الذي أغوى من أغوى من أبنائه؟ وهو الذي أوعده الله أن يكون هو ومن أغواهم في النار؟ . . فادخلوا إذن جميعاً . . ادخلوا سابقين ولاحقين . . فكلكم أولياء . . وكلكم سواء!

ولقد كانت هذه الأمم والجماعات والفرق في الدنيا من الولاء بحيث يتبع آخرها أولها؛ ويملي متبوعها لتابعها . . فلننظر اليوم كيف تكون الأحقاد بينها ، وكيف يكون التنابز فيها : ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾!

فما أبأسها نهاية تلك التي يلعن فيها الابن أباه؛ ويتنكر فيها الولي لمولاه!

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا﴾ وتلاحق آخرهم وأولهم ، واجتمع قاصيهم بدانيهم ، بدأ الخصام والجدال ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ وهكذا تبدأ مهزلتهم أو مأساتهم! ويكشف المشهد عن الأصفياء والأولياء ، وهم متناكرون أعداء؛ يتهم بعضهم بعضاً ، ويلعن بعضهم بعضاً ، ويطلب له من ﴿رَبَّنَا﴾ شر الجزاء . . من ﴿رَبَّنَا﴾ الذين كانوا يفترون عليه ويكذبون بآياته؛ وهم اليوم ينيبون إليه وحده ويتوجهون إليه بالدعاء! فيكون الجواب استجابة للدعاء . ولكن أية استجابة؟! ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ لكم ولهم جميعاً ما طلبتم من مضاعفة العذاب!

وكأنما شمت المدعو عليهم بالداعين ، حينما سمعوا جواب الدعاء ، فإذا هـم يتوجهون إليهم بالشماتة . . كلنا سـواء . . في هـذا الجـزاء : ﴿ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ وبهذا ينتهي ذلك المشهد الساخر الأليم ، ليتبعه تقرير وتوكيد لهذا المصير الذي لـن يتبدل – وذلك قبل عرض المشهد المقابل للمؤمنين في دار النعيم – :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ ودونك فقف بتصورك ما تشاء أمام هذا المشهد العجيب . . مشهد الجمل تجاه ثقب الإبرة . فحين يفتح ذلك الثقب الصغير لمرور الجمل الكبير ، فانتظر حينئذ – وحينئذ فقط – أن تفتح أبواب السماء لهؤلاء المكذبين ، فتقبل دعاءهم أو توبتهم – وقد فات الأوان – وأن يدخلوا إلى جنات النعيم! أما الآن ، وإلى أن يلج الجمل في سم الخياط ، فهم هنا في النار ، التي تداركوا فيها جميعاً وتلاحقوا؛ وتلاوموا فيها وتلاعنوا ، وطلب بعضهم لبعض سوء الجزاء ، ونالوا جميعاً ما طلبه الأولياء للأولياء!

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ ثم إليك هيئتـهم في النـار : ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ ﴾ فلهم من نار جهنم من تحتـهم فـراش ، يـدعوه – للسخرية – مهاداً ، وما هو مهد ولا لين ولا مريح! – ولهم من نار جهنم أغطيـة تغشاهم من فوقهم!

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ والظالمون هم المجرمون . والظالمون هم المشركون المكذبون بآيات الله ، المفترون الكذب على الله . . كلها أوصاف مترادفة في تعبير القرآن . اهـ [1] .

فوائد :-

١- ينبغي أن تكون الصحة لله وفي سبيله حتى تثمر وتؤتي أكلها وتكون سبباً في ظل المرء في كل في كل العرش يوم لا ظل إلاّ ظله ﷻ .

٢- قد رأيت قرناء السوء لما جمعتهم القيامة ثم تداركوا في النار لعنت كل أمة أختها أما المؤمنون فيشفعهم الله في إخوانهم فتنبه .

٣- الموقن لا ينبغي أن ينسى هذه الصورة الشاخصة للقيامة لأنها ذكرى لمن كان له قلب

* نسيم الجنة ونداء أهلها لأصحاب النار في موقف مهيب *

تمهيد :-

آيات واضحات المعاني تكشف لك عن أحداث القيامة في صفحة جديدة مع أهل الرضا والرضوان ، فالله تعالى جعل طاعتهم على قدر طاقتهم و لم يكلفهم فوق ذلك أبداً ، فلما جمعهم تعالى في القيامة جمع الكرام ونزع الغل من قلوبهم استعداداً لدخول دار المتقين لأنه لا يدخلها أحد إلا تطهر أولاً ، وجاء النبيﷺ واستفتح الباب ففتح له ثم دخلها أهلها كل بحسبه ، وكما كانوا أهل الحمد في الدنيا فهم أهل الحمد في الآخرة .

قال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ

---

(١) المصدر السابق .

وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن
سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا
بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ
تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ
قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ
ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا
عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ
اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ
يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى
وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ
جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ
خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

* شرح الكلمات *

﴿ إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ : طاقتها وما تتحمله وتقدر عليه من العمل .

﴿وَنَزَعْنَا ﴾: أي أقلعنا وأخرجنا ، ﴿ مِّنْ غِلٍّ﴾ : أي من حقد وعداوة .

﴿ هَدَانَا لِهَٰذَا ﴾ : أي للعمل الصالح في الدنيا الذي هذا جزاؤه وهو الجنة .

﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾: أي بسبب أعمالكم الصالحة من صلاة وصيام وصدقات وجهاد

﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ ﴾ : أي أعلن بأعلى صوته أن لعنة اتلله على الظالمين .

﴿ لَّعْنَةُ اللَّهِ ﴾ : أي أمره بطرد الظالمين من الرحمة إلى العذاب .

﴿ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ : سبيل الله الإسلام والصد : الصرف فهم صرفوا أنفسهم وصرفوا غيرهم .

﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ : يطلبون الشريعة أن تميل مع ميولهم وشهواتهم فتخدم أغراضهم .

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ﴾ : أي بين أهل الجنة وأهل النار حاجز فاصل وهو سور الأعراف

﴿ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ ﴾ : سور بين الجنة والنار قال تعالى من سورة الحديد ﴿فضرب بينهم بسور ﴾ .

﴿ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَـٰهُمْ ﴾ : أي كل من أهل الجنة أهل الجنة بعلاماتهم .

﴿ صُرِفَتْ أَبْصَـٰرُهُمْ ﴾ : أي نظروا إلى الجهة التي فيها أصحاب النار .

بسيماهم : السيما العلامة الدالة على من هي فيه .

﴿ جَمْعُكُمْ ﴾ : أي للمال وللرجال كالجيوش .

﴿ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ﴾ : إشارة إلى ضعفاء المسلمين وهم في الجنة .

﴿ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ : أي من الطعام والشراب .

﴿حَرَّمَهُمَا ﴾ : منعهما .

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَـٰهُم ﴾ : أي أهل مكة أولاً ثم سائر الناس .

﴿ بِكِتَـٰبٍ ﴾: القرآن العظيم .

﴿ فَصَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ : بيناه على علم منّا فبيّنا حلاله وحرامه ووعده ووعيده وقصصه ومواعظه .

﴿ تَأْوِيلَهُۥ ﴾ : تأويل ما جاء في الكتاب من وعد ووعيد أي عاقبة ما أنذروا به

﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ : أي ذهب و لم يعثروا عليه .اهـــ [١]

* المعنى العام *

لما ذكر الله تعالى عقاب العاصين الظالمين، ذكر ثواب المطيعين فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ بقلوبهم ﴿ وَعَـمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ بجوارحهم، فجمعوا بين الإيمان والعمل، بين الأعمال الظاهرة والأعمال الباطنة، بين فعل الواجبات وترك المحرمات، ولما كـــان قوله: ﴿ وَعَـمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ لفظا عاما يشمل جميع الصالحات الواجبة والمســتحبة، وقد يكون بعضها غير مقدور للعبد، قال تعالى: ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ أي: بمقدار ما تسعه طاقتها، ولا يعسر على قدرتها، فعليها في هذه الحال أن تتقي اللّـــه بحسب استطاعتها، وإذا عجزت عن بعض الواجبات التي يقدر عليها غيرها سقطت عنها كما قال تعالى: ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾ ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ ﴿ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ فلا واجب مـــع العجز، ولا محرم مع الضرورة .

﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ﴾ أي: المتصفون بالإيمان والعمـــل الصـــالح ﴿ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ أي: لا يحولون عنها ولا يبغون بها بدلا لأنهم يرون فيها من أنواع اللذات وأصناف المشتهيات ما تقف عنده الغايات، ولا يطلب أعلى منه.

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ وهذا من كرمه وإحسانه على أهل الجنـــة، أن الغل الذي كان موجودا في قلوبهم، والتنافس الذي بينهم، أن اللّه يقلعه ويزيله حتى يكونوا إخوانا متحابين، وأخلاء متصافين.

---

(١) انظر أيسر التفاسير للجزائري : ١/ ٥٤٣ – ٥٤٧ تفسير سورة الأعراف الآيات (٤٢ – ٥٣)

قال تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحجر: ٤٧] ويخلق الله لهم من الكرامة ما به يحصل لكل واحد منهم الغبطة والسرور، ويرى أنه لا فوق ما هو فيه من النعيم نعيم. فبهذا يأمنون من التحاسد والتباغض، لأنه قد فقدت أسبابه.

وقوله: ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ﴾ أي: يفجرونها تفجيرا، حيث شاءوا، وأين أرادوا، إن شاءوا في خلال القصور، أو في تلك الغرف العاليات، أو في رياض الجنات، من تحت تلك الحدائق الزاهرات.

أنهار تجري في غير أخدود، وخيرات ليس لها حد محدود ولهذا لما رأوا ما أنعم الله عليهم وأكرمهم به ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا ﴾ بأن من علينا وأوحى إلى قلوبنا، فآمنت به، وانقادت للأعمال الموصلة إلى هذه الدار، وحفظ الله علينا إيماننا وأعمالنا، حتى أوصلنا بها إلى هذه الدار، فنعم الرب الكريم، الذي ابتدأنا بالنعم، وأسدى من النعم الظاهرة والباطنة ما لا يحصيه المحصون، ولا يعده العادون، ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ أي: ليس في نفوسنا قابلية للهدى، لولا أنه تعالى منَّ بهدايته واتباع رسله.

﴿ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾ أي: حين كانوا يتمتعون بالنعيم الذي أخبرت به الرسل، وصار حق يقين لهم بعد أن كان علم يقين لهم، قالوا لقد تحققنا، ورأينا ما وعدتنا به الرسل، وأن جميع ما جاءوا به حق اليقين، لا مرية فيه ولا إشكال،

﴿ وَنُودُوا ﴾ تهنئة لهم، وإكراما، وتحية واحتراما، ﴿ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا ﴾ أي: كنتم الوارثين لها، وصارت إقطاعا لكم، إذ كان إقطاع الكفار النار، أورثتموها ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

قال بعض السلف: أهل الجنة نجوا من النار بعفو الله، وأدخلوا الجنة برحمة الله، واقتسموا المنازل وورثوها بالأعمال الصالحة وهي من رحمته، بل من أعلى أنـــواع رحمته. ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

يقول تعالى لما ذكر استقرار كل من الفريقين في الدارين، ووجدوا ما أخبرت به الرسل ونطقت به الكتب من الثواب والعقاب: أن أهل الجنة نادوا أصحاب النار بأن قالوا: ﴿أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا﴾ حين وعدنا على الإيمان والعمل الصـــالح الجنـــة فأدخلناها وأرانا ما وصفه لنا ﴿فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ﴾ علـــى الكفـــر والمعاصـــي ﴿حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ﴾ قد وجدناه حقا، فبين للخلق كلهم، بيانا لا شك فيه، صدق وعد الله، ومن أصدق من الله قيلا وذهبت عنهم الشكوك والشبه، وصار الأمـــر حـــق اليقين، وفرح المؤمنون بوعد الله واغتبطوا، وأيس الكفار من الخير، وأقروا أنفسهم بأنهم مستحقون للعذاب ، ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: بين أهل النار وأهل الجنة، بأن قال: ﴿أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ﴾ أي: بُعْدُه وإقصاؤه عن كل خير ﴿عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إذ فتح الله لهم أبواب رحمته، فصدفوا أنفسهم عنها ظلما، وصدوا عن سبيل اللّـــه بأنفســـهم، وصدوا غيرهم، فضلوا وأضلوا.

والله تعالى يريد أن تكون مستقيمة، ويعتدل سير الســـالكين إليـــه، وهـــؤلاء يريدونها ﴿عِوَجٗا﴾ منحرفة صادة عن سواء السبيل، ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ وهـــذا الذي أوجب لهم الانحراف عن الصراط، والإقبال على شهوات النفوس المحرمة، عدم

إيمانهم بالبعث، وعدم خوفهم من العقاب ورجائهم للثواب، ومفهوم هذا النداء أن رحمة الله على المؤمنين، وبرّه شامل لهم، وإحسانه متواتر عليهم.

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ .

أي: وبين أصحاب الجنة وأصحاب النار حجاب يقال له: ﴿ ٱلْأَعْرَافِ ﴾ لا من الجنة ولا من النار، يشرف على الدارين، وينظر مِنْ عليه حالُ الفريقين، وعلى هذا الحجاب رجال يعرفون كلا من أهل الجنة والنار ﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾، أي: علاماتهم، التي بها يعرفون ويميزون، فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوهم ﴿ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أي: يحيونهم ويسلمون عليهم، وهم - إلى الآن - لم يدخلوا الجنة، ولكنهم يطمعون في دخولها، و لم يجعل الله الطمع في قلوبهم إلا لما يريد بهم من كرامته.

﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ ورأوا منظرا شنيعا، وهَوْلا فظيعا ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فأهل الجنة إذا رآهم أهل الأعراف يطمعون أن يكونوا معهم في الجنة، ويحيونهم ويسلمون عليهم، وعند انصراف أبصارهم بغير اختيارهم لأهل النار، يستجيرون بالله من حالهم هذا على وجه العموم.

ثم ذكر الخصوص بعد العموم فقال: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ ﴾ وهم من أهل النار، وقد كانوا في الدنيا لهم أبهة وشرف، وأموال وأولاد،

فقال لهم أصحاب الأعراف، حين رأوهم منفردين في العذاب، بلا ناصر ولا مغيث: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ﴾ في الدنيا، الذي تستدفعون به المكاره، وتتوسلون بـــه إلى مطالبكم في الدنيا، فاليوم اضمحل، ولا أغني عنكم شيئا، وكذلك، أي شيء نفعكم استكباركم على الحق وعلى من جاء به وعلى من اتبعه.

ثم أشاروا لهم إلى أناس من أهل الجنة كانوا في الدنيا فقراء ضعفاء يستهزئ بهم أهل النار، فقالوا لأهل النار: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ الذين أدخلهم الله الجنة ﴿ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾ احتقارا لهم وازدراء وإعجابا بأنفسكم، قد حنثتم في أيمانكم، وبدا لكم من الله ما لم يكن لكم في حساب، ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ بما كنتم تعملـــون، أي: قيل لهؤلاء الضعفاء إكراما واحتراما: ادخلوا الجنة بأعمالكم الصالحة ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ فيما يستقبل من المكاره ﴿وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ على ما مضى، بل آمنون مطمئنون فرحون بكل خير.

وهذا كقوله تعـــالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ٣٠﴾ [المطففين: ٢٩ – ٣٠] إلى أن قال﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ٣٤ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٣٥﴾ [المطففين: ٣٤ – ٣٥] .

واختلف أهل العلم والمفسرون من هم أصحاب الأعراف وما أعمالهم؟

والصحيح من ذلك أنهم قوم تساوت حســناتهم وســيئاتهم فــلا رجحــت ســيئاتهم فدخلوا النار ولا رجحت حسناتهم فدخلوا الجنـــة فصـــاروا في الأعـــراف مـــا شـــاء الله ثم إن الله تعالى يدخلهم برحمته الجنة فإن رحمته تسبق وتغلب غضبه ورحمته وســـعت كل شيء [١] .

---

(١) انظر تفسير السعدي ص ٢٨٩ تفسير سورة الأعراف الآيات (٤٦ – ٤٩) .

* نداء من أهل النار لأهل الجنة يرجون السقيا والطعام *

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ .

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ : يخبر تعالى بما يخاطب أهل الجنة أهل النار إذا استقروا في منازلهم، وذلك على وجه التقريع والتوبيخ: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ﴾ ﴿أَن﴾ هاهنا مفسِّرة للقول المحذوف، و ﴿قَدْ﴾ للتحقيق، أي: قالوا لهم: ﴿ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ ﴾ كما أخبر تعالى في سورة "الصافات" عن الذي كان له قرين من الكفار: ﴿ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الصافات]

(....وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يستطعمونهم ويستسقونهم ؛ وقال الثوري، عن عثمان الثقفي، عن سعيد بن جبير في هذه الآية قال: ينادي الرجل أباه أو أخاه فيقول: قد احترقت، أفض علي من الماء. فيقال لهم: أجيبوهم. فيقولون: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ وروي من وجه آخر عن سعيد، عن ابن عباس، مثله سواء ؛ وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ يعني: طعام الجنة وشرابها ؛ وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا نصر بن علي، أخبرنا موسى بن المغيرة، حدثنا أبو موسى الصفَّار في دار عمرو بن

مسلم قال: سألت ابن عباس -أو: سئل -: أي الصدقة أفضل؟ فقال: قال رسول الله ﷺ : ((**أفضل الصدقة الماء، ألم تسمع إلى أهل النار لما استغاثوا بأهل الجنة** قالوا: ﴿ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ ؛ وقال أيضا: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن أبي صالح قال: لما مرض أبو طالب قالوا له: لو أرسلتَ إلى ابن أخيك هذا، فيرسل إليك بعنقود من الجنة لعله أن يشفيك به. فجاءه الرسول وأبو بكر عند النبي ﷺ ، فقال أبو بكر: إن الله حرمهما على الكافرين)) .

ثم وصف تعالى الكافرين بما كانوا يعتمدونه في الدنيا من اتخاذهم الدين لهوا ولعبا، واغترارهم بالدنيا وزينتها وزخرفها عما أمروا به من العمل للدار الآخرة.

قوله : ﴿ فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا ﴾ أي: نعاملهم معاملة من نَسيهم؛ لأنه تعالى لا يشذ عن علمه شيء ولا ينساه، كما قال تعالى: ﴿ فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ﴾ [طه] وإنما قال تعالى هذا من باب المقابلة، كما قال: ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة] وقال: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [طه] وقال تعالى: ﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ [الجاثية] ؛ وقال العوْفي، عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا ﴾ قال: نسيهم الله من الخير، ولم ينسهم من الشر.وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: نتركهم، كما تركوا لقاء يومهم هذا. وقال مجاهد: نتركهم في النار. وقال السُّدِّي: نتركهم من الرحمة، كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا.

وفي الصحيح أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ((**ألم أزوجــك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل، وأذرْك ترأس وتَرْبَع؟ فيقول: بلى. فيقول: أظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا. فيقول الله: فاليوم أنساك كمــا نسيتني**)) .

* تجسيد الأحداث من قلب القيامة *

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ ﴾

وها نحن أولاء نلتفت إلى الجانب الآخر نســمع الجــواب ملــؤه التــذكير الألــيم المريــر :﴿ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ ﴾ .

ثم إذا صوت البشر عامة يتوارى ، لينطق رب العزة والجلالة ، وصاحب الملك والحكــــم :﴿ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ .

وهكذا تتوالى صفحات المشهد جيئة وذهوباً .. لمحة في الآخرة ولمحة في الدنيا . لمحة مع المعذبين في النار ، المنسيين كما نسوا لقاء يومهم هذا وكما جحدوا بآيات الله ، وقد جاءهم بها كتاب مفصل مبين . فصله الله ﷻ على علم – فتركوه واتبعوا الأهواء والأوهام والظنون .. ولمحة معهم – وهم بعد في الدنيا – ينتظرون مآل هذا

الكتاب وعاقبة ما جاءهم فيه من النذير؛ وهم يُحذّرون أن يجيئهم هذا المآل . فالمآل هو ما يرون في هذا المشهد من واقع الحال!

إنها خفقات عجيبة في صفحات المشهد المعروض؛ لا يجليها هكذا إلا هذا الكتاب العجيب!

وهكذا ينتهي ذلك الاستعراض الكبير؛ ويجيء التعقيب عليه متناسقاً مع الابتداء تذكيراً بهذا اليوم ومشاهده ، وتحذيراً من التكذيب بآيات الله ورسله ، ومن انتظار تأويل هذا الكتاب فهذا هو تأويله ، حيث لا فسحة لتوبة ، ولا شفاعة في الشدة ، ولا رجعة للعمل مرة أخرى .اهـ[(١)]

من ثمرات الآيات :

١- ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ﴾ فعلى المرء أولاً إصلاح القلوب بالإخلاص والتقوى وطريق ذلك اللجوء إلى فاطر القلوب ومقلبها مع الأخذ بالأسباب .

٢- لا فصل بين الإيمان والعمل ومن فرق بينهما فقد فرّغ الإيمان من محتواه الحقيقي واتبع سبيل غير المؤمنين من المرجئة وأشياعهم.

٣- إن دخول الجنة ابتداء إنما هو برحمة الله تعالى ومنّه ولولاه تعالى ما تحقق ذلك .

٤- إن واهب الهدى الذي يقود إلى الجنة هو الله فينبغي أن يحمد على ذلك أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً .

٥- إن الارتقاء في الدنيا درجات بسبب زيادة الإيمان واليقين .

---

(١) انظر الظلال : ٣/ ١٢٩٤ في ظلال سورة الأعراف آيات (٥١- ٥٣) ط/ دار الشروق .

٦- إنه لا يهدي إلى الجنة إلا من هدى إلى صراط مستقيم .

٧-هذه النداءات المصورة في القرآن العظيم إنما هي تذكير للمسلم حتى ينشد عن الهداية وأسبابها ﴿ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ ﴾ [البقرة].

٨- إن هذه الصورة الشاخصة وتلك المناقشات يوم القيامة ليزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم بما قدمت أيديهم من خير وفرحهم بموعود الله تعالى وأيضاً ليزداد أهل النار حسرة إلى حسرتهم .

٩- إن من أعظم الحجب عن الله تعالى الصدُ عن سبيله فإنه يورد الموارد .

١٠ - لا تحقرن من المعروف شيئاً لأن أهل الأعراف ما قعد بهم عن دخول الجنة مع الداخلين إلا لأن الحسنات تساوت مع السيئات فوقفوا ينتظرون قضاء الله فيهم .

١١- لا تحقرن صغار الذنوب فإنهن إن اجتمعن على العبد أهلكنه فكن حذراً واعلم أن الجبال من الحصى والسيل يتجمع من القطرات فتنبه .

من مشكاة النبوة : -

[٣٧] روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : ((... فَيَقُولُ أيْ فُلْ أَلَمْ أُكْرِمْكَ وَأُسَوِّدْكَ وَأُزَوِّجْكَ وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالإِبِلَ وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ فَيَقُولُ بَلَى أَيْ رَبِّ. فَيَقُولُ أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلاَقِيَّ فَيَقُولُ لاَ. فَيَقُولُ فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي))[١] .

قوله : (فَيَقُولُ أيْ فُلْ) هو بضم الفاء وإسكان اللام , ومعناه يا فلان , وهو ترخيم على خلاف القياس , وقيل : هي لغة بمعنى فلان حكاها القاضي . ومعنى (وَأُسَوِّدْكَ) أجعلك سيدا على غيرك . قوله تعالى : (وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ) أما (تَرْأَسُ) فبفتح التاء وإسكان الراء وبعدها همزة مفتوحة , ومعناه رئيس القوم وكبيرهم . وأما (تَرْبَعُ) فبفتح التاء والباء الموحدة هكذا رواة الجمهور , وفي رواية ابن ماهان (ترتع) بمثناة فوق بعد الراء , ومعناه بالموحدة تأخذ المرباع الذي كانت ملوك الجاهلية تأخذه من الغنيمة , وهو ربعها , يقال : ربعتهم أي أخذت ربع أموالهم , ومعناه ألم أجعلك رئيسا

---

(١) مسلم نووي : ١٨ / ٤٠٦ – ٤٠٧ ك/ الزهد ح/ ٢٩٦٨ (جزء حديث) .

مطاعا . وقال القاضي بعد حكايته نحو ما ذكرته عندي أن معناه تركتك مستريحا لا تحتاج إلى مشقة وتعب من قولهم : أربع على نفسك أي ارفق بها . ومعناه بالمثناة تتنعم , وقيل : تأكل , وقيل : تلهو , وقيل : تعيش في سعة . قوله تعالى : (فَإِنِّي أَنسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي) أي أمنعك الرحمة كما امتنعت من طاعتي .[١]

---

(١) مسلم نووي : ١٨ / ٤٠٦ – ٤٠٧ ك/ الزهد ح/ ٢٩٦٨ (جزء حديث) .

سُورَةُ الأَنفَال

تمهيد :-

إن الله تعالى يُسلي أوليائه بهذا التريل خاصة عندما يكشر الباطل عـن أنيابـه فينتعش ، وينفش حتى يظن الغافل عديم الخبرة به أنه قد أحاط بالحق فأصابه بـيقين لكن الشواهد الشرعية والسنن الربانية تضيف وتقرر غير ذلك لأن انتفاش الباطـل أشبه ما يكون بالدخان الذي يعلو في جو السماء يبدو أول وهلة في الأفـق كأنـه شيء مذكور وما هي إلا أوقات أو لحظات سريعات فيصير أثراً وكأنه لم يوجـد أصلاً ، فإذا رأيت أهل الباطل قد اجتمعوا وأنفقوا كثيراً من أمـوالهم صـداً عـن الصراط السوي يبغونها عوجاً فلا تظن أن الله تعالى تارك أهل الحق لبطش المـبطلين ولكن يمهلهم ردحاً من الزمن حتى يظنون أنهم قد وصلوا إلى هدفهم وبلغـوا مـا يشتهون ثمَّ دمّر على باطلهم وأطاح بهـم بعـد أن اسـتدرجهم فمكـر بهـم :

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

[الأنبياء] فسوف تكون النفقات حسرات عليهم ولكن أين من يفقه ويوقن ويعل للحق عملاً متواصلاً ؟ !!

يقول الله ﷻ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأنفال]

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ الآية .

لمّا شرح أحوال الكفّار في طاعاتهم البدنية ، أتبعها بشرح أحوالهم في الطّاعات الماليّة

قال مقاتل والكلبيُّ : نزلت في المُطعمين يوم بدر ، وكانوا اثني عشر رجلاً من كبار قريش ، كان يطعم كلٌ واحد منهم كل يوم عشر جزر .

وقال سعيدُ بن جبيرٍ : نزلت في أبي سفيان وإنفاقه المال على حرب محمد يوم أحد ، وكان قد استأجر ألفين من الأحابيش سوى من استجاش من العربِ ، وأنفق عليهم أربعين أوقية ، والأوقية : اثنان وأربعون مثقالا ، هكذا قاله الزمخشريُّ . ثُم بيَّن تعالى أنهم إنّما ينفقون المال : ﴿ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ أي : غرضهم من الإنفاق الصد عن اتباع محمد ﷺ وهو سبيل الله ، وإن لم يكن عندهم كذلك .

قال : ﴿ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ﴾ أي : أنَّ هذا الإنفاق يكون عاقبته حسرة؛ لأنَّهُ يذهب المال ولا يحصل المقصودُ ، بل يغلبون في آخر الأمر . ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ وإنَّما خصَّ الكفار ، لأن فيهم من أسلم .

قوله ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ ﴾ والمعنى : ليميزَ اللَّهُ الفريق الخبيث من الكُفَّارِ من الفريق الطَّيب من المؤمنين ، فيجعل الفريق الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً ، أي : يجمعهم ويضمُّهم حتَّى يتراكموا .

﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ﴾ إشارةً إلى الفريق الخبيثِ ، وقيل : المرادُ في جهاد الكفار ، كإنفاقِ أبي بكر وعثمان في نصرة الرسول ﷺ ، فيضم تعالى تلك الأموال الخبيثة بعضها إلى بعض فيلقيها في جهنَّم ، ويعذبهم بها ، كقوله تعالى : ﴿ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ﴾ [التوبة : ٣٥] فاللاَّمُ في قوله ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ ﴾ على

القول الأوَّلِ متعلقة بقوله تعالى : ﴿يُحْشَرُونَ﴾ أي : يحشرون ليميز اللَّهُ الفريق الخبيث من الفريق الطيب ، وعلى القول الثاني متعلقة بقولـه : ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ و ﴿وَيَجْعَلَ﴾ يحتمل أن تكون تصييريةً ، فتنصبَ مفعولين ، وأن تكون بمعنى الإلقاء ، فتتعدَّى لواحد ، وعلى كلا التقديرين ف ﴿بَعْضَهُ﴾ بدل بعضٍ من كل ، وعلى القول الأوَّلِ يكون ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في موضع المفعول الثَّاني ، وعلى الثَّاني يكون متعلقاً بنفس الجَعْل ، نحو قولك : ألقَيْتَ متاعك بعضه على بعض .

وقال أبو البقاءِ ، بعد أن حكم عليها بأنَّها تتعدَّى لواحدٍ :

وقيل : الجار والمجرور حالٌ تقديره : ويجعل الخبيث بعضه عالياً على بعض؟ .

ويقال : مَيَّزْتُه فتميَّزَ ، ومزتُــه فانمازَ،... قوله ﴿فَيَرْكُمَهُ﴾ نسقٌ على المنصوبِ قبله ، والرَّكْمُ جمعك الشَّيء فوق الشيء ، حتى يصير رُكَاماً مركوماً كما يُركم الرمل والسحاب ، ومنه : ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ والمُرْتكَم : جَادَّة الطريق للرَّكْم الذي فيه أي : ازدحام السَّابلة وآثارهم ، و﴿جَمِيعًا﴾ حالٌ ، ويجوزُ أن يكون توكيداً عند بعضهم ثم قال تعالى : ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ إشارة إلى الذين كفرُوا .اهـ[(١)]

وقـال تعـالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا ۙ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنفال] .

قال الكلبي : خاف أن يأخذه جبريل عليه السلام ويعرف حاله فلا يطيعوه.

وقيل: معناه إني أخاف الله أي أعلم صدق وعده لأوليائه لأنه كان على ثقة من أمره.

---

(١) انظر تفسير ابن عادل تفسير سورة الأنفال الآيات (٣٦- ٣٧) .

﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ وقيل: معناه إني أخاف الله عليكم والله شديد العقاب. وقيل: انقطع الكلام عند قوله أخاف الله ثم يقول ﴿ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾

[٣٨] أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أنا زاهر بن أحمد، أنا أبو إسحاق الهاشمي، أنا أبو مصعب، عن مالك، عن إبراهيم بن أبي علية، عن طلحة بن عبيد الله بن كريز أن رسول الله ﷺ قال: « مَا رُئِيَ الشَّيْطَانُ يَوْمًا هُوَ فِيهِ أَصْغَرُ وَلاَ أَدْحَرُ وَلاَ أَحْقَرُ وَلاَ أَغْيَظُ مِنْهُ فِي يَوْمِ عَرَفَةَ وَمَا ذَاكَ إِلاَّ لِمَا رَأَى مِنْ تَنَزُّلِ الرَّحْمَةِ وَتَجَاوُزِ اللَّهِ عَنِ الذُّنُوبِ الْعِظَامِ إِلاَّ مَا أُرِيَ يَوْمَ بَدْرٍ ». قِيلَ وَمَا رَأَى يَوْمَ بَدْرٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ « أَمَا إِنَّهُ قَدْ رَأَى جِبْرِيلَ يَزَعُ الْمَلاَئِكَةَ ».(١)

فوائد من الآيات :-

١- ينبغي على أهل الحق أن يكونوا يقظين في موعود الله بالنصر والظفر .

٢- إذا كان أهل الغي ينفقون من حُرِّ مالهم لضرب الحق وأهله فأين المنفقون الباذلون من بعض أموالهم لينتفع الله بهم كي لا يلاموا في الجنات .

٣- بذل الكفار إلى زوال وبذل المؤمنين مبارك فيه وأثره طيب نافع بإذن الله تعالى .

٤- لا يستوي الخبيث والطيب ولو كثر أهل الخبيث فعاقبة أمرهم خسر .

٥- الدنيا دار اختبار والآخرة دار جزاء فاعمل لأن الله سيميز الخبيث من الطيب لا محالة فاثبت واعمل وأخلص .

---

(١) انظر موطأ مالك ك/ الحج ب/ جامع الحج ح /٩٥٠ .

قال تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٩- ٥٠]

قوله تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ شك ونفاق، ﴿ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ﴾ يعني: غر المؤمنين دينهم، هؤلاء قوم كانوا مستضعفين بمكة قد أسلموا، وحبسهم أقرباؤهم من الهجرة، فلما خرجت قريش إلى بدر، أخرجوهم كرها، فلما نظروا إلى قلة المسلمين ارتابوا وارتدوا، وقالوا: غر هؤلاء دينهم، فقتلوا جميعا، منهم: قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة المخزوميان، والحارث بن زمعة بن الأسود بن المطلب، وعلي بن أمية بن خلف الجمحي، والعاص بن منبه بن الحجاج. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: ومن يسلم أمره إلى الله ويثق به، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ قوي يفعل بأعدائه ما يشاء، ﴿حَكِيمٌ﴾

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ ﴾ يا محمد، ﴿إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ﴾ أي: يقبضون أرواحهم. اختلفوا فيه، قيل: هذا عند الموت، تضرب الملائكة وجوه الكفار وأدبارهم بسياط النار .

وقيل: أراد الذين قتلوا من المشركين ببدر كانت الملائكة يضربون، ﴿وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ قال سعيد بن جبير ومجاهد: يريد أستاههم، ولكن الله حيي يكني. قال ابن عباس : كان المشركون إذا أقبلوا بوجوههم إلى المسلمين ضربت الملائكة وجوههم بالسيوف، وإذا ولو أدركتهم الملائكة فضربوا أدبارهم.

وقال ابن جريج : يريد ما أقبل منهم وما أدبر، أي: يضربون أجسادهم كلها، والمراد بالتوفي: القتل. ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ أي: وتقول لهم الملائكة: ذوقوا

عذاب الحريق. وقيل: كان مع الملائكة مقامع من حديد يضربون بها الكفار، فتلتهب النار في جراحاتهم، فذلك قوله تعالى: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ، وقال الحسن: هذا يوم القيامة تقول لهم خزنة جهنم: ذوقوا عذاب الحريق. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يقولون لهم ذلك بعد الموت.

ثم يقول الله ﷻ: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ ۙ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الأنفال: ٥١ – ٥٢]

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك الضرب الذي وقع بكم، ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: بما كسبت أيديكم، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ كفعل آل فرعون وصنيعهم وعادتهم، معناه: أن عادة هؤلاء في كفرهم كعادة آل فرعون. قال ابن عباس: هو أن آل فرعون أيقنوا أن موسى نبي من الله فكذبوه، كذلك هؤلاء جاءهم محمد ﷺ بالصدق فكذبوه، فأنزل الله بهم عقوبة كما أنزل بآل فرعون.

﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: ﴿قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ أراد: أن الله تعالى لا يغير ما أنعم على قوم حتى يغيروا هم ما بهم، بالكفران وترك الشكر، فإذا فعلوا ذلك غير الله ما بهم، فسلبهم النعمة.اهـ

***صورة ضرب الملائكة للكفار قبل الموت :-**

وإن كنا - كما قلنا ... لا ندري كيف تضرب الملائكة فوق الأعناق وكل بنان . ولكن جهلنا بالكيفية لا يدعونا إلى تأويل هذا النص عن مدلوله الظاهر؛ وهو أن هناك أمراً من الله للملائكة بالضرب ، وأن الملائكة ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم: ٦] وتكون هاتان الآيتان هنا تذكيراً بما كان يوم بدر؛ وتكملة لحكاية فعل الملائكة فيه بالذين كفروا ..

كما أن هاتين الآيتين قد تعنيان حالة دائمة كلما توفت الملائكة الذين كفروا .. في يوم بدر وفي غيره .. ويكون قوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ .. موجهاً توجيه الخطاب لكل من يرى ، كما يكثر مثل هذا الأسلوب في التوجيه إلى المشاهد البارزة التي من شأنها أن يتوجه إليها كل من يرى ..

وسواء كان هذا أو ذاك . فالتعبير القرآني يرسم صورة منكرة للذين كفروا ، والملائكة تستل منهم أرواحهم في مشهد مهين؛ يضيف المهانة والخزي ، إلى العذاب والموت : ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ ..ثم يتحول السياق من صيغة الخبر إلى صيغة الخطاب : ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ ليرد المشهد حاضراً كأنه اللحظة مشهود؛ وكأنما جهنم بنارها وحريقها في المشهد وهم يدفعون إليها دفعاً مع التأنيب والتهديد : ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ وأنتم إنما تلاقون جزاء عادلاً ، تستحقونه بما قدمت أيديكم :

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ وهذا النص - بما يعرضه من مشهد ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ - يثير في النفس سؤالاً : تُرى هذا تهديد من الملائكة للذين كفروا

بعذاب المستقبل المقرر لهم - كأنه واقع بهم - بعد البعث والحساب؟ أم إنهم يلاقون عذاب الحريق بمجرد توفيهم؟ ..

وكلاهما جائز ، لا يمنع مانع من فهمه من النص القرآني .. ولا نحب أن نزيد شيئاً على هذا التقرير .. فهو أمر من أمور الغيب الذي استأثر الله بعلمه؛ وليس علينا فيه إلا اليقين بوقوعه . وهو واقع ماله من دافع . أما موعده فعلم ذلك عند علام الغيوب .

وننتقل من هذه الوقفة الخاطفة ، مع السياق في انتقاله إلى تقرير الحقيقة الكلية وراء هذا المشهد .. إن أخذ الذين كفروا بالمهانة والعذاب ، سنة ماضية لا تتخلف ولا تتبدل؛ فهذا هو المصير المحتوم الذي جرت به السنة من قديم :﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ﴾

إن الله ﷻ لا يكل الناس إلى فلتات عابرة ، ولا إلى جزاف لا ضابط له .. إنما هي سنته يمضي بها قدره .. وما أصاب المشركين في يوم بدر ، هو ما يصيب المشركين في كل وقت؛ وقد أصاب آل فرعون والذين من قبلهم :﴿ كَفَرُوا بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾. اهـ (١)

* من هداية الآيات :

١- تقرير عذاب القبر بتقرير العذاب عند النزع .

٢- هذه الآية نظيرها آية الأنعام ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الأنعام: ٩٣] أي بالضرب .

---

(١) انظر الظلال :٣/ ١٥٣٤ ، ١٥٣٥ في ظلال سورة الأنفال آيات (٥٠ - ٥٢) .

٣- تنـــزه الخالق ﷻ عن الظلم لأحد .

٤- سنة الله تعالى في أخذ الظالمين وإبدال النعم بالنقم .

٥- لم يكن من سنة الله تعالى في الخلق تغيير ما عليه الناس من خير أو شر حتى يكونوا هم البادئين .

٦- التنديد بالظلم وأهله ، وأنه الذنب الذي يطلق على سائر الذنوب اهـــ [١] .

((يا ليت قومي يعلمون))

ليت الغافلين من المسلمين ينظرون إلى واقع المجرمين في القرآن حال حياتهم وعند الموت ليعلموا أن الأجر جد خطير ، وأن الأمر جد خطير ، وأن المعاصي تذهب بالمرء لتوقعه في مستنقع آسن من الذل والهوان في الدنيا وعند الموت وبعـــده : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ ﴾ و ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ﴾[آل عمران: ١١٢] وأما عند الموت فآهٍ من الثبور والويل الذي يعتريهم إذا أحاطت بهم الملائكة لتستلّ أرواحهم الخبيثة مع الضرب والتأنيب والبشرى بدخول النار إبان الموت ليسكنوا عذاب الحريق بعد قضاء الحياة القصيرة مباشرة .

إن كتاباً مباركاً يفصل هذا ينبغي أن يحظى بغاية من الاهتمام والاستفادة من أحكامه وأخباره ومواعظه وقصص وليعلم المسلم أن الطاعة طريق أكيد إلى العز في الدنيا والآخرة فالله تعالى كتب العزة لمن أطاعه وقضى بالذلة والمهانة على من عصاه .

إن الثقة بالله تعالى أزكى أمل والتوكل عليه تعالى أو في عمل فليكن المسلم دائم التوكل على الله والاعتصام بالله فهو العزيز الحكيم ومن توكل عليه كفاه لأن له الدنيا والآخره وله شيء فالتوكل عليه عصمة ونجاة وتفريج للكرب ومغفرة للذنب وتيسير للعسير ووقاية من كيد الكافرين .

---

(١) انظر أيسر التفاسير للجزائري : ١/ ٦٣٥ تفسير سورة الأنفال آيات (٥٠ – ٥٢) ط/ دار الحديث.

سُورَةُ التَّوْبَةِ

تمهيد :-

إن التصورات البادئة قد تتأخر بأصحابها كثيراً إلى الوراء ، وذلك لأن ما عندها من فكر مبناه الخرص والتخمين وليس منبثقاً من قاعدة صلبة مبناها اليقين ولذلك فقد ظنوا ظناً مجرداً أن بعض الأعمال الفرعية والتي توارثوها كابراً عن كابر ظنوا أنها تساوي الإيمان والجهاد وجاءت الآيات لتوضح معالم الطريق وأن الناس ليسوا في ميزان الله سواء فالمشركون أعمالهم كسراب لا يبقى لها أثر ينفع وإن كثرت القربات وكل امرئ بحسب ما عنده من إيمان راسخ وعلم نافع وعمل دؤب صالح فالمؤمنون المجاهدون بما خولهم الله من مال ، الذين باعوا أنفسهم لله ولم يتراجعوا في تلك الصفقة المباركة لهم أجر عظيم عند الله تعالى حيث سبقتهم البشرى من الله تعالى برحمته وجنته دار إقامته حيث يمكثون فيها أبد الآبدين ولا يبغون عنها حولاً ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الحجر] ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الكهف]وعلى هذا فالقرب من الله وارتفاع الدرجات ليس بمجرد التصور العاري من الشرع ولكن له ضوابط شرعية معلومة بالضرورة .

قال تعالى : ﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [التوبة]

*** شرح الكلمات :**

﴿سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾ : مكان يوضع فيه الماء في المسجد الحرام ويسقى منه الحجاج مجاناً.

﴿ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾: هنا عبارة عن بنائه وصيانته وسدانة البيت فيه .

﴿ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ : إذ عمارة المسجد الحرام مع الشرك والكفر لا تساوى شيئاً

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾: أي المشركين لا يهديهم لما فيه كمالهم وسعادتهم

﴿ وَرِضْوَٰنٍ ﴾ : أي رضا الله ﷻ عنهم .

﴿ نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾ : أي دائم لا يزول ولا ينقطع .

*** معنى الآيات :**

ما زال السياق في الرد على من رأي تفضيل عمارة المسجد الحرام بالسقاية والحجابة والسدانة على الإيمان والهجرة والجهاد فقال موبخاً لهم ﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ في حكم الله وقضائه بحال من الأحوال ، والمشركون ظالمون كيف يكون لعمارتهم للمسجد الحرام وزن أو قيمة تذكر ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ بعد هذا التوبيخ والبيان للحال أخبر تعالى أن ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ هم ﴿ أَعْظَمُ دَرَجَةً ﴾ ممن آمنوا و لم يستكملوا هذه الصفات الأربع ، وأخبر تعالى أنهم هم الفائزون بالنجاة من النار ودخول الجنة ، وأعظم من هذا ما جاء في قوله : ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ ﴾ وهي الجنة ﴿ وَرِضْوَٰنٍ ﴾ منه تعالى وهو أكبر نعيم ﴿ وَجَنَّٰتٍ ﴾ أي بساتين

في الملكوت الأعلى ﴿ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾ لا يحول ولا يزول وأنهم خالدون فيها لا يخرجون منها أبداً ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ لا يقادر قدره جعلنا الله تعالى منهم وحشرنا في زمرتهم . اهـ [١] .

وقال السعدي : ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾.

﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم ﴾ جودا منه، وكرما وبرا بهم، واعتناء ومحبة لهم، ﴿ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ ﴾ أزال بها عنهم الشرور، وأوصل إليهم بها كل خير. ﴿ وَرِضْوَٰنٍ ﴾ منه تعالى عليهم، الذي هو أكبر نعيم الجنة وأجله، فيحل عليهم رضوانه، فلا يسخط عليهم أبدا .

﴿ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾ من كل ما اشتهته الأنفس، وتلذ الأعين، مما لا يعلم وصفه ومقداره إلا اللّه تعالى، الذي منه أن اللّه أعد للمجاهدين في سبيله مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، ولو اجتمع الخلق في درجة واحدة منها لوسعتهم.

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ﴾ لا ينتقلون عنها، ولا يبغون عنها حِوَلا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ لا تستغرب كثرته على فضل اللّه، ولا يتعجب من عظمه وحسنه على من يقول للشيء كن فيكون.اهـ

---

(١) انظر أيسر التفاسير للجزائري : ١/ ٦٥٦ ، ٦٥٧ تفسير سورة التوبة الآيات (١٩ – ٢٢)ط/ دار الحديث .

*** من هداية الآيات :**

١- أكمل المؤمنين وأعلاهم درجة ، وأقربهم من الله منزلة من جمع الصفات الـثلاث المذكورة في الآية (٢٠) وهي الإيمان والهجرة والجهاد في سبيل الله بالمال والنفس .

٢- فضل الهجرة والجهاد .

٣- تفاوت أهل الجنة في علو درجاتهم .

٤- حرمان الظالمين المتوغّلين في الظلم من هداية الله تعالى .ا هـ نفس المصدر

* الكنز واحتراق الجنوب والجباه والظهور *

تمهيد : -

إن من وكله الله تعالى بأمانة فغير وبدل وظلم وتعدى فليس عقوبته عقوبة عاديـة إن كان ممن رزق العلم ، لأنه يعلم ما لا يعلم غيره وعلى هذا فكما أن العلماء لهم أجر وفير وثواب جزيل أيضاً فتقصيرهم مشين ومصابهم عظـيم : ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الصـف] ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [البقـرة] وإن كانت هذه الآية قـد تعرضـت للأحبار والرهبان ففيها إشارة للعلماء أن لا يغيروا ولا يبدلوا ولا يشتروا بالفتـاوى ثمنـاً قليلاً فيضلون ويضلون ويصدون عن السبيل أولئك الذين يأكلون أموال الناس بالباطـل ويصدون عن السبيل فبشرهم بعذاب فظيع مهين موجع وأيضاً هؤلاء الذين آتاهم الله من فضله فوسع عليهم من صنوف الأموال التي كنزوها وجحدوا نعمة الله تعالى وأكلـوا في بطونهم حق المحاويج والمساكين الذي قدّر الله حقهم في أموال الأغنياء إن هؤلاء الكانزون الذين استودعوا أموال المحاويج في بطونهم سيجدون غب هذا يوم تتحول النعمـة الـتي استخلفهم الله فيها إلى نقمة بل إلى عذاب عظيم حيث يحمى على هذه الأموال من معادن

الذهب والفضة وتكوى بها جنوبهم وظهورهم وجباههم جزاء لشحهم في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضي بين العباد ثم يُرى سبيله إما إلى جنة وإما إلى نار

قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [التوبة]

*** شرح الكلمات:**

﴿ بِٱلۡبَٰطِلِ ﴾ : أي بدون حق أباح لهم أكلها .

﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ ﴾ : أي يصرفون أنفسهم وغيرهم عن الإسلام الذي هو السبيل المفضي بالعبد إلى رضوان الله تعالى .

﴿ يَكۡنِزُونَ ﴾ : يجمعون المال ويدفنونه حفاظاً عليه ولا يؤدون حقه .

﴿ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ ﴾ : هما النقدان المعروفان .

﴿ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ : أي حيث رضا الله كالجهاد وإطعام الفقراء والمساكين .

﴿ فَبَشِّرۡهُم ﴾ : أي أخبرهم بعذاب أليم : أي موجع .

﴿ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا ﴾ : لأنها تحول إلى صفائح ويحمى عليها ثم تكوى بها جباههم .

﴿ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ ﴾ : أي يقال لهم عند كيهم بها : هذا ما كنزتم لأنفسكم توبيخاً لهم وتقريعاً .

* مـع الآيـات *

هذا تحذير من الله تعالى لعباده المؤمنين عن كثير من الأحبـار والرهبـان، أي: العلماء والعباد الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، أي: بغير حق، ويصدون عـن سبيل الله، فإنهم إذا كانت لهم رواتب من أموال الناس، أو بذل الناس لهـم مـن أموالهم فإنه لأجل علمهم وعبادتهم، ولأجل هداهم وهدايتهم، وهؤلاء يأخذونها ، ويصدون الناس عن سبيل الله، فيكون أخذهم لها على هذا الوجه سحتا وظلما، فإن الناس ما بذلوا لهم من أموالهم إلا ليدلوهم إلى الطريق المستقيم.

ومن أخذهم لأموال الناس بغير حق، أن يعطوهم ليفتوهم أو يحكموا لهم بغير ما أنزل الله، فهؤلاء الأحبار والرهبان، ليحذر منهم هاتان الحالتان: أخذهم لأمـوال الناس بغير حق، وصدهم الناس عن سبيل الله.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ ﴾ أي: يمسكونها ﴿ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي: طرق الخير الموصلة إلى الله، وهذا هو الكنـز المحرم، أن يمسكها عن النفقة الواجبة، كأن يمنع منها الزكاة أو النفقات الواجبة للزوجات، أو الأقارب، أو النفقة في سبيل الله إذا وجبت.

﴿ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾ ثم فسره بقوله: ﴿ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا ﴾ أي: على أموالهم، ﴿ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ فيحمى كل دينار أو درهم على حدته .

﴿ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ ﴾ في يوم القيامة كلما بـردت أعيدت في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ويقال لهم توبيخا ولوما: ﴿ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴾ فما ظلمكم ولكنكم ظلمـتم أنفسكم وعذبتموها بهذا الكتر.

وذكر الله في هاتين الآيتين، انحراف الإنسان في ماله، وذلك بأحد أمرين:

إما أن ينفقه في الباطل الذي لا يجدي عليه نفعا، بل لا يناله منه إلا الضرر المحض، وذلك كإخراج الأموال في المعاصي والشهوات التي لا تعين علـى طاعـة اللّـه، وإخراجها للصد عن سبيل الله ؛ وإما أن يمسك ماله عن إخراجه في الواجبـات، و "النهي عن الشيء، أمر بضده اهـ (١) .

يا أيها الذين صَدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، إن كثيرًا من علماء أهل الكتاب وعُبَّادهم ليأخذون أموال الناس بغير حق كالرشوة وغيرها، ويمنعون الناس من الدخول في الإسلام، ويصدون عن سبيل الله. والذين يمسكون الأموال، ولا يؤدون زكاتها، ولا يُخرجون منها الحقوق الواجبة، فبشِّرهم بعذاب موجع. ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

يوم القيامة توضع قطع الذهب والفضة في النار، فإذا اشتدت حرارتها أُحرقـت بها جباه أصحابها وجنوبهم وظهورهم. وقيل لهم توبيخًـا: هـذا مـالكم الـذي أمسكتموه ومنعتم منه حقوق الله، فذوقوا العذاب الموجـع؛ بسـبب كنـزكم وإمساككم. اهـ(٢)

* من هداية الآيتين *

١- بيان حقيقة علماء اليهود والنصارى ، وهي أنهم ماديون بـاعوا آخـرتهم بدنياهم يحاربون الإسلام ويصدون عنه للمحافظة على الرئاسة وللأكل على حساب الإسلام

---

(١) انظر تفسير السعدي [المجلد الواحد] ص٣٤٣ ، تفسير سورة التوبة الآيات (٣٤ – ٣٥) ط/التوفيقية .

(٢) انظر التفسير الميسر لسورة التوبة الآيات (٣٤- ٣٥) .

٢- حرمة أكل أموال الناس بالباطل .

٣- حرمة جمع المال وكنزه وعدم الإنفاق منه .

٤- المال الذي تؤدى زكاته كل حول لا يقال له كنـز ولو دفن تحت الأرض .

٥- بيان عقوبة من يكنـز المال ولا ينفق منـه في سـبيل الله وهـي عقوبـة شديدة اهـ[١]

من مشكاة النبوة :-

وحيث أن هذه الآية صورت لنا مانعي الزكاة وما يحدث لهم بسبب منعهم هذا الحق الواجب الذي فرضه الله عليهم فكان حتماً علينا أيضاً أن نذكر بطائفة مباركة من أحاديث البشير النذير لتكمل الفائدة .

[٣٩] عن أبي هُرَيْرَةَ قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلا فِضَّةٍ لا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا إِلا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَالإِبِلُ قَالَ وَلا صَاحِبُ إِبِلٍ لا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا وَمِنْ حَقِّهَا حَلَبُهَا يَوْمَ وِرْدِهَا إِلا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ بُطِحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ أَوْفَرَ مَا كَانَتْ لا يَفْقِدُ مِنْهَا فَصِيلا وَاحِدًا تَطَؤُهُ بِأَخْفَافِهَا وَتَعَضُّهُ بِأَفْوَاهِهَا كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أُولاهَا رُدَّ عَلَيْهِ أُخْرَاهَا فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ قَالَ وَلا صَاحِبُ بَقَرٍ وَلا غَنَمٍ لا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا إِلا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ بُطِحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ لا يَفْقِدُ مِنْهَا شَيْئًا لَيْسَ فِيهَا عَقْصَاءُ وَلا جَلْحَاءُ وَلا عَضْبَاءُ تَنْطَحُهُ بِقُرُونِهَا وَتَطَؤُهُ بِأَظْلافِهَا كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ

(١) انظر تفسير الجزائري : ١/٦٦٥ تفسير سورة التوبة الآيات (٣٤- ٣٥) ط/ دار الحديث .

أُولَاهَا رُدَّ عَلَيْهِ أُخْرَاهَا فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ...)) (١)

[٤٠] عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ قَالَ : « مَا مِنْ صَاحِبِ إِبِلٍ لاَ يُؤَدِّى حَقَّهَا ». وَلَمْ يَقُلْ « مِنْهَا حَقَّهَا ». وَذَكَرَ فِيهِ « لاَ يَفْقِدُ مِنْهَا فَصِيلاً وَاحِدًا ». وَقَالَ « يُكْوَى بِهَا جَنْبَاهُ وَجَبْهَتُهُ وَظَهْرُهُ ».(٢)

[٤١] عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ « مَا مِنْ صَاحِبِ إِبِلٍ وَلاَ بَقَرٍ وَلاَ غَنَمٍ لاَ يُؤَدِّى حَقَّهَا إِلاَّ أُقْعِدَ لَهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِقَاعٍ قَرْقَرٍ تَطَؤُهُ ذَاتُ الظِّلْفِ بِظِلْفِهَا وَتَنْطَحُهُ ذَاتُ الْقَرْنِ بِقَرْنِهَا لَيْسَ فِيهَا يَوْمَئِذٍ جَمَّاءُ وَلاَ مَكْسُورَةُ الْقَرْنِ ». قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا حَقُّهَا قَالَ « إِطْرَاقُ فَحْلِهَا وَإِعَارَةُ دَلْوِهَا وَمَنِيحَتُهَا وَحَلَبُهَا عَلَى الْمَاءِ وَحَمْلٌ عَلَيْهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ مِنْ صَاحِبِ مَالٍ لاَ يُؤَدِّى زَكَاتَهُ إِلاَّ تَحَوَّلَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ يَتْبَعُ صَاحِبَهُ حَيْثُمَا ذَهَبَ وَهُوَ يَفِرُّ مِنْهُ وَيُقَالُ هَذَا مَالُكَ الَّذِي كُنْتَ تَبْخَلُ بِهِ فَإِذَا رَأَى أَنَّهُ لاَ بُدَّ مِنْهُ أَدْخَلَ يَدَهُ فِي فِيهِ فَجَعَلَ يَقْضَمُهَا كَمَا يَقْضَمُ الْفَحْلُ ». (٣)

[٤٢] عَنْ أَبِى ذَرٍّ قَالَ انْتَهَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ جَالِسٌ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ. فَلَمَّا رَآنِي قَالَ « هُمُ الأَخْسَرُونَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ ». قَالَ فَجِئْتُ حَتَّى جَلَسْتُ فَلَمْ أَتَقَارَّ أَنْ قُمْتُ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِدَاكَ أَبِى وَأُمِّي مَنْ هُمْ قَالَ « هُمُ الأَكْثَرُونَ أَمْوَالاً إِلاَّ مَنْ قَالَ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا – مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ – وَقَلِيلٌ مَا هُمْ مَا مِنْ صَاحِبِ إِبِلٍ وَلاَ بَقَرٍ وَلاَ غَنَمٍ لاَ يُؤَدِّى زَكَاتَهَا إِلاَّ جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْظَمَ مَا كَانَتْ وَأَسْمَنَهُ تَنْطَحُهُ بِقُرُونِهَا وَتَطَؤُهُ بِأَظْلاَفِهَا كُلَّمَا نَفِدَتْ أُخْرَاهَا عَادَتْ عَلَيْهِ أُولاَهَا حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ ».(٤)

---

(١) مسلم نووي : ٧ / ٥٣ ك/ الزكاة ب/ إثم مانع الزكاة ح/ ٩٨٧

(٢) نفس المصدر السابق [٢٥] .

(٣) مسلم نووي : ٧ / ٥٩ ك/ الزكاة ب/ إثم مانع الزكاة ح (٩٨٨) [٢٨] .

(٤) مسلم نووي : ٧/ ٦٠ ك/ الزكاة ب/ تغليظ عقوبة من لا يؤدي الزكاة ح/ ٩٩٠ ط/ دار المنار .

الصدقة فكاك من النار :

[٤٣] عن سنان بن كعب الكندي ، عن أنس ﷺ ، أن النبي ﷺ قال : ((**افتدوا مِنْ النَّار وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَة**)) (١)

[٤٤] وعن عدي بن حاتم ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((**اتقوا النَّار وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَة**)) وشق التمرة : أي نصفها أو جانبها وهو ما يدل على الأجر على العمل وإن قل

[٤٥] وفي فتح الباري أورد الحافظ عدة أحاديث في الباب منها : حَدِيث فَضَالَة بْن عُبَيْد مَرْفُوعًا ((**اجْعَلُوا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ النَّارِ حِجَابًا وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَة**)) وَلِأَحْمَدَ مِنْ حَدِيث اِبْن مَسْعُود مَرْفُوعًا بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ : ((**لِيَتَّقِ أَحَدُكُمْ وَجْهَهُ النَّار وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَة**)) وَلَهُ مِنْ حَدِيث عَائِشَة بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ ((**يَا عَائِشَة ، اِسْتَتِرِي مِنْ النَّارِ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَة ، فَإِنَّهَا تَسُدُّ مِنْ الْجَائِعِ مَسَدَّهَا مِنْ الشَّبْعَان**)) ، وَلِأَبِي يَعْلَى مِنْ حَدِيث أَبِي بَكْر الصِّدِّيق نَحْوُهُ وَأَتَمُّ مِنْهُ بِلَفْظ ((**تَقَعُ مِنْ الْجَائِعِ مَوْقِعهَا مِنْ الشَّبْعَان**)) وَكَأَنَّ الْجَامِعَ بَيْنَهُمَا فِي ذَلِكَ حَلَاوَتهَا . وَفِي الْحَدِيثِ الْحَثّ عَلَى الصَّدَقَة بِمَا قَلَّ وَمَا جَلَّ ، وَأَنْ لَا يَحْتَقِرُ مَا يَتَصَدَّقُ بِهِ ، وَأَنَّ الْيَسِيرَ مِنْ الصَّدَقَةِ يَسْتُرُ الْمُتَصَدِّق مِنْ النَّارِ .(٢)

* الإيمان وخصاله سبيل إلى الجنة*

تمهيد : -

إن ميادين الطاعات كثيرة ، وكل ميدان له خصائصه وله على القلوب تأثير بقدر ما فيه من إخلاص واتباع ، ومن أمثل الطاعات التي تميز المؤمنين من المنافقين من الكافرين الولاء والحب لله وفي الله تلك التي صعدت بأصحابها منازل عالية ودرجات سامقة فهي لب الإيمان وأصله ، وهي التي تجعل الإنسان مؤثراً آخرته على دنياه يعيش لغيره ودينه

(١) ابن خزيمة في صحيحه : ٤/ ٩٤ .

(٢) فتح الباري : ٣/ ٣٣٤ .

وإخوانه لا يحيا لنفسه فقط وأن من عاش لنفسه فقط مات لا قيمة له ولا ذكر كان ثم لم يكن شيئاً مذكوراً لأن الدين جاء ناهياً عن الأنانية وحب الملذات وإهمال الآخرين ، وجاء داعياً إلى الولاء والحب فمن وفق لهذا فليعلم أن الرحمة تنتظره والجنة تشتاق إليه :

﴿ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ [التوبة: ٧١] ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾ [التوبة] لكن هذه الرحمة وتلك الجنة أعدت لمن تزيد بخلال حميدة وخصال فريدة ذكرها الله ﷻ ضمن قضية الولاء والحب :

﴿ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [التوبة] فهل اشتقت للجنة وهل أعددت نفسك للرحمة إذاً فأقبل ولا تُدْبِر ، وسابق ولا تُسوِّف قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [الأعراف]

قال تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾ [التوبة: ٧١ – ٧٢]

*** شرح الكلمات :**

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ : أي الصادقون في إيمانهم بالله ورسوله ووعد الله ووعيده .

﴿ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ : أي يتولّى بعضهم بعضاً في النّصرة والحماية والمحبة والتأييد .

﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ : أي يؤدونها في خشوع وافية الشروط والأركـان والسنن والآداب .

﴿ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ : أي يخرجون زكاة أموالهم الصامتة كالدراهم والدنانير والمعشرات ، والناطقة كالأنعام : الإبل والبقر والغنم .

﴿ فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ : أي إقامة دائمة لا يخرجون منها ولا يتحولون عنها .

﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ : أي رضوان الله الذي يحله عليهم أكبر من كل نعيم في الجنة .

قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ : لما ذكر ﷻ صفات المنافقين الذميمة ، عطف بذكر صفات المؤمنين المحمودة فقال : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ .

أي : يتناصرون ويتعاضدون كما جاء في الحديث الصحيح : ((**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا**)) وفى الصحيح - أيضا - : ((**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سـائر الجسـد بالحمى والسهر**)) .

وقال ﷻ هنا ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ بينما قـال في المنـافقين ﴿ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ للإشعار بأن المؤمنين في تناصرهم وتعاضدهم وتراحمهم مـدفعون بـدافع العقيدة الدينية التي ألفت بين قلوبهم ، وجعلتهم أشبه ما يكون بالجسد الواحد ، أما المنافقون لا توجد بينهم هذه الروابط السامية ، وإنما الذي يوجد بينهم هو التقليـد واتباع الهوى ، والسير رواء العصبية الممقوتة ، فهم لا ولاية بينهم ، وإنما الذي بينهم هو التقليد وكراهية ما أنزل الله على رسول الله ﷺ .

وقوله ﴿ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ . . . ﴾ بيان للآثار التي تترتب على تلك الولاية الخاصة ، وتفصيل للصفات الحسنة التي تحلى بها المؤمنون والمؤمنات

أي : أن من صفات هؤلاء المؤمنين والمؤمنات الذين جمعتهم العقيدة الدينية على التناصر والتراحم . . من صفاتهم ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ أي يأمرون بكل خير دعا إليه الشرع ، وينهون عن كل شر تأباه تعاليم الإسلام الحنيف

وقوله : ﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي : يؤدونها في أوقاتها بإخلاص وخشوع .

وقوله : ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ أي : يعطونها لمستحقيها بدون منٍّ أو أذى . .

وقوله : ﴿ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ أي : في سائر الأحوال بــدون ملــل أو انقطاع أو تكاسل . .

وقوله : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ بيان للجزاء الطيب الذي ادخره الله ﷻ لهم .

أي : أولئك المؤمنون والمؤمنات المتصفون بتلك الصفات السامية ، سيرحمهم الله ﷻ برحمته الواسعة ، إنه ﷻ ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يعجزه شيء ﴿حَكِيمٌ ﴾ في كل أفعاله وتصرفاته اهــ .

قال صاحب الكشاف : والسين هنا مفيد لوجود الرحمة ، فهي تؤكد الوعــد ، كما تؤكد الوعيد كما في قولك : سأنتقم منك يوما ، تعنى أنــك لا تفــوتني وإن تباطأ ذلــك ، ونحــوه : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾ [مريم: ٩٦] ثم فصل ﷻ مظاهر رحمتــه للمــؤمنين والمؤمنــات

أصحاب تلك الصفات السابقة فقـــال : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ .

أي : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ﴾ بفضله وكرمـــه ﴿ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ أي : من تحت بساتينها وأشجارها وقصورها ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ في تلك الجنات خلودا أبديا .

ووعدهم كذلك ﴿ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً ﴾ أي : منازل حسنة ، تنشرح لها الصدور وتستطيبها النفوس .

وقوله : ﴿ فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ﴾ أي في جنات ثابتة مستقرة . يقال : فلان عـــدن بمكان كذا ، إذا استقر به وثبت فيه ، ومنه سمي المعدن معدنا لاستقراره في بـــاطن الأرض .

وقيل : إن كلمة ﴿ عَدْنٍ ﴾ علم على مكان مخصوص في الجنة ، أي في جنـــات المكان المسمى بهذا الإسلام وهو ﴿ عَدْنٍ ﴾ .

ثم بشرهم ﷻ بما هو أعظم من كل ذلك فقال : ﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾

أي أن المؤمنين والمؤمنات ليس لهم هذه الجنات والمساكن الطيبة فحسب وإنما لهم ما هو أكبر من ذلك وأعظم وهو رضا الله - تعالى - عنهم ، وتجليـــه علـــيهم ، وتشرفهم بمشاهدة ذاته الكريمة ، وشعورهم بأنهم محل رعاية الله وكرمه .

والتنكير في قوله : ﴿وَرِضْوَٰنٌ﴾ للتعظيم والتهويل ، وللإشـــارة إلى أن الشـــيء اليسير من هذا الرضا الإلهي على العبد ، أكبر من الجنات ومن المساكن الطيبة ، ومن كل حطام الدنيا .

[٤٦] روى الشيخان عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : " إن الله ﷻ يقول لأهله الجنة : ((**يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك . فيقول : هل رضيتم؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا رب ، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك؟ فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون : يا ربنا وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول : أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا**)) .

[٤٧] وروى البزار في مسنده عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : ((**إذا دخل أهل الجنة الجنة ، قال الله – تعالى – هل تشتهون شيئا فأزيدكم؟ ، قالوا : يا ربنا وما خير مما أعطيتنا ؟ قال : رضواني أكبر**)) .

وقوله : ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ أي : ذلك الذي وعد الله به المؤمنين والمؤمنات في جنات ومساكن طيبة ، ومن رضا من الله عنهم ، هو الفوز العظيم الذي لا يقاربه فوز ، ولا يدانيه نعمى ، ولا يسامي شرفه شرف . .

وبهذا نرى أن هاتين الآيتين الكريمتين قد بشرتا المؤمنين والمؤمنات بأعظم البشارات ، ووصفتهم بأشرف الصفات ، وقابلت بين جزائهم وبين جزاء الكفار والمنافقين ، بما يحمل العاقل على أن يسلك طريق المؤمنين ، وعلى أن ينهج نهجهم ، ويتحلى بأوصافهم . . . وبذلك يفوز بنعيم الله ورضاه كما فازوا ، ويسعد كما سعدوا ، وينجو من العذاب الذي توعد الله به المنافقين والكافرين : بسبب إصرارهم على الكفر والنفاق ، وإيثارهم الغيّ على الرشد .

*** من هداية الآيتين :**

١- بيان صفات المؤمنين والمؤمنات والتي هي مظاهر إيمانهم وأدلته .

٢- أهمية صفات أهل الإيمان وهي الولاء لبعضه بعضاً ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إقامة الصلاة ، إيتاء الزكاة ، طاعة الله ورسوله .

٣- بيان جزاء أهل الإيمان في الدار الآخرة وهو النعيم المقيم في دار الإسلام .

٤- أفضلية رضا الله تعالى على سائر النعيم .

٥- بيان معنى الفوز وهو النجاة من النار ، ودخول الجنة .

نصيحة في قضية الولاء :

إن الحب في الله لابد أن يتوفر في الولاء ، بل هو عموده الأساسي الذي ينبني عليه بعد ذلك لوازم هذا الولاء ، وتوابع هذا الحب ، وهذا الحب مكانه ومقره القلب الذي هـو مكان العاطفة ، ومنبت الإحساس والمشاعر وهو شيء خَفيٌّ لا يطلع عليه أحد إلا خالقه عالم الغيب والشهادة ، ولذا كان عطاء الله تعالى للعبد على قدر إخلاصه في هذه المحبة لله ولرسوله ولعباده المؤمنين فلابد أن تجرد هذه المحبة لله وتصفى وتنقى من أي شائبة شرك ، أ غبار رياء ، أو تكدير نفاق ، يحبط العمل عياذاً بالله ...وهذا الولاء لا يقتصر على مجرد الحب الأجوف الذي لا روح فيه ولا حياة ، بل لابد له من أن يظهر ويتضح في سـلوك المؤمن وقوله وعمله حتى تكون حركات المؤمن وسكناته وهمساته وكل حياتـه عنوانـاً وترجمة لهذا الحب الذي في القلب .

* السبق الحقيقي وجزاء السابقين عند الكريم المنان *

﴿ وَالسَّٰبِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَٰجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [التوبة: ١٠٠]

فهذه الآية الكريمة قد مدحت ثلاث طوائف من المسلمين المعاصرين للعهد النبوي

الطائفة الأولى ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ﴾ وهم الذين تركوا ديارهم وأموالهم بمكة ، وهاجروا إلى الحبشة ، ثم إلى المدينة من أجل إعلاء كلمة الله واستمروا في المدينة مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى أن تم الفتح ودخل الناس في دين الله أفواجا .

وقيل المراد بهم : الذين صلوا إلى القبلتين ، وقيل : الذين شهدوا غزوة بدر .

والطائفة الثانية : السابقون الأولون من الأنصار ، وهم الذين بايعوا النبي ﷺ قبل أن يهاجر إليهم إلى المدينة بيعة العقبة الأولى والثانية .

وكانت بيعة العقبة الأولى في السنة الحادية عشرة من البعثة ، وكان عدد المشتركين فيها سبعة أفراد .

أما بيعة العقبة الثانية فكانت في السنة الثانية عشرة من البعثة ، وكان عدد المشتركين فيها سبعين رجلا وامرأتين .

ثم يلي هؤلاء أولئك المؤمنون من أهل المدينة الذين دخلوا في الإسلام على يد مصعب بن عمير ، قبل وصول الرسول ﷺ إليها .

ثم يلي هؤلاء جميعا أولئك الذين آمنوا بالنبي ﷺ بعد مقدمه إلى المدينة .

والطائفة الثالثة : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٍ ﴾ أي : الذين اتبعوا السابقين في الإسلام من المهاجرين والأنصار ، اتباعا حسنا في أقوالهم وأعمالهم وجهادهم ونصرتهم لدعوة الحق .

قال الألوسي ما ملخصه : وكثير من الناس ذهب إلى أن المراد بالسابقين الأولين : جميع المهاجرين والأنصار . ومعنى كونهم سابقين : أنهم أولون بالنسبة إلى سائر المسلمين .

روى عن حميد بن زياد قال : قلت يوما لمحمد بن كعب القرظي ، ألا تخبرني عن الصحابة فيما كان بينهم من الفتن؟ فقال لي : إن الله - تعالى - قد غفر لجميعهم ، وأوجب لهم الجنة في كتابه ، محسنهم ومسيئهم ، فقلت له : وفى أي موضع أوجب لهم الجنة ، فقال : سبحانه!! ألم تقرأ قوله . تعالى - : ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ .... ﴾ الآية فقد أوجب . سبحانه لجميع الصحابة الجنة وشرط على تابعيهم أن يقتدروا بهم في أعمالهم الحسنة وألا يقولوا فيهم إلا حسنا لا سوءاً .

وقوله : ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ بيان لسمو مترلتهم ، وارتفاع مكانتهم .

أي : رضى الله عنهم في إيمانهم وإخلاصهم ، فتقبل أعمالهم ، ورفع درجاتهم وتجاوز عن زلاتهم ، ورضوا عنه ، بما أسبغه عليهم من نعم جليلة ، وبما ناله منه . سبحانه . من هداية وثواب .

ثم ختم سبحانه الآية الكريمة ببيان ما هيأه لهم في الآخرة من إكرام فقال :

﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾

أي : أنه - سبحانه - بجانب رضاه عنهم ورضاهم عنه في الدنيا ، قد أعد لهم - سبحانه - في الآخرة جنات تجرى من تحت أشجارها الأنهار خالدين فيها خلودا أبديا وذلك الرضا والخلود في الجنات من الفوز العظيم الذي لا يقاربه فوز ، ولا تدانيه سعادة .

قال الإمام ابن كثير رحمه الله : أخبر الله - تعالى - في هذه الآية " أنه قد رضى عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان . فيا ويل من أبغضهم ، أو سبهم ، أو أبغض أو سب بعضهم ، ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول ، وخيرهم وأفضلهم أعنى الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي

قحافة ، فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ، ويبغضونهم ويسبونهم ، عياذا بالله من ذلك ، وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة وقلوبهم منكوسة ، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن إذ يسبون من رضى الله عنهم ؟

وأما أهل السنة فإنهم يترضون عمن رضي الله عنه ، ويسبون من سبه الله ورسوله ، ويوالون من يوالى الله ، ويعادون من يعادى الله ، وهم متبعون لا مبتدعون ، وهؤلاء هم حزب الله المفلحون ، وعباده المؤمنون .

وبهذا نرى أن هذه الآية الكريمة قد مدحت السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بإحسان ، وذلك لقوة إيمانهم ، وصفاء نفوسهم وإيثارهم ما عند الله على هذه الدنيا وما فيها . . اهـ[1] .

* التجارة الرابحة التي لا تخسر أبداً *

تمهيد :

وبالمناسبة الطيبة لهذه الآية الطيبة نُذكِّر بفضل الجهاد في سبيل الله وبعض ثماره المباركة حيث أن كتاب الله فسرته سنة نبيه ﷺ وجلَّت معانيه حتى تعم الفائدة .

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾ [التوبة: ١١١]

* شرح لكلمات :

﴿ٱلْجَنَّةَ﴾ : هي دار السلام التي أعدها الله تعالى للمتقين .

---

(١) انظر التفسير الوسيط لتفسير سورة التوبة الآية (١٠٠) .

﴿ يُقَٰتِلُونَ ﴾ : أي الكفار والمشركين .

﴿ وَعۡدًا﴾ : أي وعدهم وعداً حقاً .

﴿ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ ﴾ : أي مذكوراً في التوراة والإنجيل والقرآن .

﴿ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ ﴾ : أي لا أحد أوفى بعهده من الله تعالى .

﴿ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ : أي ذلك البيع هو الفوز العظيم .

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ﴾ : أي من الشرك والنفاق والمعاصي .

﴿ ٱلۡعَٰبِدُونَ ﴾ : أي المطيعون لله في تذلل وخشوع مع حبهم لله وتعظيمهم له .

﴿ ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ : أي الصائمون والخارجون في سبيل الله لطلب علم أو تعليمه أو جهاد لأعدائه .

﴿ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ ﴾ : أي بعبادة لله الله تعالى وتوحيده فيها .

﴿ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾ : أي عن الشرك والمعاصي .

﴿ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ ﴾ : أي القائمون عليها العاملون بها .

﴿ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ : أي بالجنة دار السلام .

*** معنى الآيات :**

لما ذكر تعالى حال المتخلفين عن الجهاد فضل الجهاد ترغيباً فيه وفيما أعد لأهله فقـــال ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ ﴾ وهذا هو الْمُثَمَن الذي أعطى الله تعالى فيه الثمن وهو الجنة ، وقوله ﴿ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ ﴾ أي أعداء الله المشركين ﴿وَيُقۡتَلُونَ ﴾ أي يستشـــهدون في

معارك القتال وقوله ﴿ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ ﴾ تقريراً له وتثبيتاً وقوله ﴿ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ ﴾ استفهام بمعنى النفي أي لا أحد مطلقا أوفى بعهده إذا عاهد من الله المؤمنون ببيعكم الذي بايعتم الله تعالى بـه أي فسروا بذلك وافرحوا وذلك البيع والاستبشار هو الفوز العظيم إلي لا فوز خير ولا أعظم منه .

وقوله ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَٱلۡحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ هو ذكر لأوصاف أهل البيع وتحديد لهم فهم الموصوفون بتسع صفات الأولى التائبون أي من الشـرك والمعاصي والثانية العابدون وهم المطيعون لله طاعة ملؤها المحبة لله تعالى والتعظيم له والرهبة منه والثالثة الحامدون لله تعالى في السراء والضراء وعلى كل حال والربعـة السائحون وهم الصائمون كما في الحديث والذين يخرجون في سبيل الله لطلب علم أو غزو أو تعليم أو دعوة إلى الله تعالى لِيُعْبَد ويوحَّد ويُطاع في أمره ونهيه والخامسة السادسة الراكعون الساجدون أي المقيمون الصلاة المكثرون من نوافلها كأنهم دائماً في ركوع وسجود والسابعة والثامنة الآمرون بالمعروف وهو الإيمان بالله وتوحيـده وطاعته وطاعة رسوله والناهون عن المنكر وهو الكفر به تعالى والشرك في عبادتـه ومعصية رسوله محمد صلى الله عليه وسلم والتاسعة الحافظون لحـدود الله بالقيـام عليها وعملها بعد العلم بها وقوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ وهم أهل الإيمـان الصادق الكامل المستحقون لبشرى الرسول ﷺ بالنصر والتأييد في الدنيا والنجاة من النار ودخول الجنة يوم القيامة اللهم اجعلنا منهم يا رب العالمين .

*** من هداية الآيات : -**

قال الفخر الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ : أعلم الله - تعالى - لما شرع في شرح فضائح المنافقين وقبائحهم لسبب تخلفهم عن غزوة تبوك ، فلما تمم ذلك الشرح والبيان وذكر أقسامهم وفرع كل قسم ما كان لائقا به ، عاد إلى بيان فضيلة الجهاد وحقيقته فقال - تعالى - : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الآية .

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ : " نزلت هذه الآية في البيعة الثانية ، وهى بيعة العقبة الكبرى وهى التي أناف فيها رجال الأنصار على السبعين ، وذلك أنهم احتمعوا إلى رسول الله ﷺ عند العقبة ، فقال عبد الله بن رواحة للنبي ﷺ : اشترط لربك ولنفسك ما شئت ، فقال النبي ﷺ : أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشكروا به شيئا ، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم قالوا : فإذا فعلنا فمالنا؟ قال : " لكم الجنة " قالوا : ربح البيع ، لا نقيل ولا نستقبل فترلت هذه الآية " .

ثم هي بعد ذلك عامة في كل مجاهد في سبيل الله من أمة محمد ﷺ إلى يوم القيامة . تتمثل في الثواب الذي منحه الله ﷻ للمجاهدين في سبيله .

فقد صور ﷻ جهاد المؤمنين ، وبذل أموالهم وأنفسهم فيه ، وإثابته ﷻ لهم على ذلك بالجنة ، صور كل ذلك بالبيع والشراء .

أي : أن الله - تعالى - وهو المالك لكل شيء ، قد اشترى من المجاهدين أنسهم وأموالهم التي بذلوها في سبيله ، وأعطاهم في مقابل ذلك الجنة .

قال أبو السعود : الآية الكريمة ترغيب للمؤمنين في الجهاد .. وقد بلوغ في ذلك على وجه لا مزيد عليه ، حيث عبّر عن قبول الله - تعالى - من المؤمنين أنفسهم وأموالهم التي بذلوا في سبيله - تعالى - وإثباته إياهم بمقابلتها الجنة بالشراء على

طريقة الاستعارة التبعية . ثم جعل المبيع الذي هو العمدة والمقصد في العقد : أنفس المؤمنين وأموالهم ، والثمن الذي هو الوسيلة في الصفقة : الجنة .

و لم يجعل الأمر على العكس بأن يقال : إن الله باع الجنة من المؤمنين بأنفســهم وأموالهم؛ ليدل على أن المقصد في العقد هو الجنة ، وما بله المؤمنون في مقابلتها من الأنفس والأمول وسيلة إليها ، إيذانا بتعليق كمال العناية بهم وبأموالهم .

ثم إن لم يقل " بالجنة " بل قال : ﴿ بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ مبالغــة في تقريــر وصول الثمن إليهم " واختصاصه بهم " فكأنه قيل : بالجنة الثابتة لهم ، المختصة بهم

وقوله : ﴿ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَ ﴾ جملة مستأنفة جيء بها لبيان الوسيلة التي توصلهم إلى الجنة وهى القتال في سبيل الله .

أي : أنهم يقاتلون في سبيل الله ، فمنهم من يَقْتل أعداء الله ، ومنهم من يُقْتَــل على أيدي هؤلاء الأعداء ، وكلا الفريقين القاتل والمقتول جزاؤه الجنة .

وقرأ حمزة والكسائي ﴿ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَ ﴾ بتقديم الفعل المبنى للمفعول على الفعل المبنى للفاعل .

وهذه القراءة فيها إشارة إلا أن حرص هؤلاء المؤمنين الصادقين على الاستشهاد أشد من حرصهم على النجاة من القتل؛ لأن هذا الاستشهاد يوصــلهم إلى جنــة عرضها السماوات والأرض ، وإلى الحياة الباقية الدائمة ..

وقوله : ﴿ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ ﴾ تأكيد للــثمن الذي وعدهم الله به .

أي : أن هذه الجنة التي هي جزاء المجاهدين ، قد جعلها ﷻ تفضلا منه وكرما ، حقا لهم عليه ، وأثبت لهم ذلك في الكتب السماوية التي أنزلها على رسله .

قال الألوسي ما ملخصه : قوله : ﴿ وَعۡدًا عَلَيۡهِ ﴾ مصدر مؤكد لمضمون الجملة وقوله ﴿حَقًّا﴾ نعت له ، وقوله ﴿ عَلَيۡهِ﴾ في موضع الحال من قوله ﴿ حَقًّا ﴾ لتقدمه عليه ، وقوله : ﴿ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ ﴾ متعلق بمحذوف وقع نعتا لقوله ﴿ وَعۡدًا ﴾ أيضاً .

أي : وعدا مثبتاً في التوراة والإنجيل كما هو مثبت في القرآن فالمراد إلحاق ما لا يعرف بما يعرف . إذ من المعلوم ثبوت هذا الحكم في القرآن . ثم إن ما في الكتابين إما أن يكون أمة محمد ﷺ اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بذلك ، أو أن من جاهد بنفسه وماله . من حقه ذلك ، وفى كلا الأمرين ثبوت موافق لما في القرآن ..

وقوله : ﴿ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ ﴾ جملة معترضة مسوقة لتأكيد مضمون ما قبلها من حقية الوعد وتقريره : والاستفهام للنفي .

أي : لا أحد أوفى بعهده من الله – تعالى – لأنه إذا كان خلف الوعد لا يكاد يصدر من كرام الخلق مع إمكان صدوره منهم ، فكيف يكون الحال من جانب الخالق ﷻ المنزه عن كل نقص ، المتصف بكل كمال .

وقوله : ﴿ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ تحريض على القتال ، وإعلام لهم بأنهم رابحون في هذه الصفقة .

والاستبشار : الشعور بفرح البشرى ، شعورا تنبسط له أسارير الوجه .

أي : إذا كان الأمر كذلك فافرحوا ببيعكم الذي بايعتم به غاية الفرح ، وارضوا به نهاية الرضى ، فإن ذلك البيع هو الفوز العظيم الذي لا فوز أعظم منه .

قال بعض العلماء : ولا ترى ترغيبا في الجهاد أحسن ولا أبلغ من هذه الآية لأنه أبرزه في صورة عقد عقده رب العزة ، وثمنه مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا

خطر على قلب بشر ، ولم يجعل المقعود عليه كونهم مقتولين فقط بل إذا كانوا قاتلين أيضاً لإعلاء كلمته ، ونصر دينه ، وجعله مسجلا في الكتب السماوية ، وناهيك به من صك .

وجعل وعده حقاً ، ولا أحد أوفى من وعده فنسيئته أقوى من نقد غيره ، وأشار إلى ما فيه من الربح والفوز العظيم وهو استعارة تمثيلية ، حيث صور جهاد المؤمنين ، وبذل أموالهم وأنفسهم فيه وإثابة الله لهم على ذلك الجنة ، بالبيع والشراء وأتى بقوله : ﴿ يُقَـٰتِلُونَ ﴾ . . بيانا لمكان التسليم وهو المعركة وإليه الإشارة بقوله ﷺ : ((الجنة تحت ظلال السيوف)) ، ثم أمضاه بقوله ﴿ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

ويروى عن الحسن البصري أنه قرأ هذه الآية فقال : انظروا إلى كرم الله . تعالى . أنفس هو خالقها ، وأموال هو رازقها ، ثم يكافئنا عليها متى بذلناها في سبيله بالجنة

ثم وصف الله – تعالى – هؤلاء المؤمنين الصادقين بجملة من الأوصاف الكريمة .

((من فضائل الشهداء))

الجنة أعدها الله للشهداء الصادقين والمجاهدين المخلصين قال الله تعالى :

﴿ لَـٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ ﴾ [التوبة]

يقول الله تعالى إذا تخلف المنافقون عن الجهاد فالله ﷻ غني عن العالمين وسوف يستبدلهم ويأتي بقوم آخرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم فإن تخلف هؤلاء الأفاكون فلله عباد خلص اختصهم بفضله سيقومون بهذا الدور الفعال وهم الرسول والذين معه من المؤمنين والصادقين

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت] غـير كسالى ولا مترددين ولا متثاقلين ، بل قاموا لربهم فرحين مستبشرين، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ الذين ظفروا بأعلى المطالب ، وأكمـل الرغائـب ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [آل عمران] فتبا لمـن لم ينـافس في ذلك ويسابق فيه ليفوز بما فاز أولئك الأكارم .

[٤٨] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ « تَكَفَّلَ اللَّهُ لِمَنْ جَاهَدَ فِـي سَـبِيلِه ، لاَ يُخرِجُهُ من بيته إِلاَّ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَتَصْدِيقُ كَلِمَاتِه ، أَنْ يُدْخِلَـهُ الْجَنَّـةَ ، أَوْ يَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ ، مَعَ مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ » (١)

قال دكتور موسى شاهين : ((تَكَفَّلَ اللَّهُ لِمَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ)) أي : سـارع بثوابه وحسن جزائه ، وقيل معناه : أجاب إليه ، وقيل معناه : تكفل بالمطلوب .. أي أوجب على نفسه والتزم له الجنة بفضله وكرمه سبحانه وتعالى وهذا الضمان والكفالة موافق لقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ ﴾ .

[٤٩] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « تَضَمَّنَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِه لاَ يُخرِجُهُ إِلاَّ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَإِيمَانًا بِي وَتَصْدِيقًا بِرُسُلِي فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَـهُ الْجَنَّةَ أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِه الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ نَائِلاً مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَـةٍ. وَالَّـذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِه مَا مِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلاَّ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَة كَهَيْئَتِه حِينَ كُلِمَ لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ وَرِيحُهُ مِسْكٌ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِه لَوْلاَ أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْـلِمِينَ مَـا

---

(١) البخاري : ٤/١٠٤ ، ٩/ ١١٦ ومسلم : ٣٤/٦ والنسائي :٦/ ١٦ .

قَعَدْتُ خِلاَفَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَبَدًا وَلَكِنْ لاَ أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلَهُمْ وَلاَ يَجِدُونَ سَعَةً وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أَغْـزُو فِـي سَبِيلِ اللَّهِ فَأُقْتَلُ ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ » (١) .

إن المسلم ينبغي أن يضع النية الصالحة والصدق مع الله نصب عينيه فـلا يسـكن ولا يتحرك إلا لله لأن الله تعالى خلقه من أجل تحقيق هذه العبودية ووعده على ذلك بالثواب العظيم ، لكن الشرط أن لا يكون الباعث على الحركة الرياء أو السمعة أو الصيت الحسن والذكر الباقي في الناس فمن صفى قصده وخرج طاعةً لربه جهـاداً في سـبيله تعـالى وتصديقاً برسله ، وإيماناً بربه ، وانقياداً له وإذعاناً واستسلاماً فأجره علـى الله ، فلـئن سلمه الله ورجع رجع غانماً مغفوراً له بعد أن نصر الحق وأدى ما عليه ولـئن توفـاه الله تعالى فإنه أعد له مساكنه في الجنة .

﴿ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٍۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾ [الصف] وأما عـن كرامتـه في القيامة فحدث ولا حرج فإن الله تعالى يبعثه بدلائل التضحية والسمع والطاعـة فـالكلم والجرح يأتي غضاً كأنه جرح الحين اللون لون الدم والريح ريح المسك ولذلك فإن رسول الله ﷺ أقسم أنه ود أن يقاتل في سبيل الله فيقتل ثم يعود فيغزو ثم يقتل ﷺ .

الجهاد في سبيل الله من الأعمال التي لا تدانيها أعمال .

[٥٠] عن سعيد بن المسيب عن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ – وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِهِ – كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَـائِمِ ، وَتَوَكَّلَ اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِهِ بِأَنْ يَتَوَفَّاهُ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ، أَوْ يَرْجِعَهُ سَالِمًا مَعَ أَجْـرٍ

(١) أحمد ٢/٢٣١ و٢/٢٨٤ والبخاري ١/١٥ و٧/١٢٥ ومسـلم ٦/٣٣ و٣٤ وابـن ماجـة ح ٢٧٥٣ والنسائي ٨/١١٩

أوْ غَنِيمَةٍ » وفى رواية معمر :((**مثل المجاهد في سبيل الله ، والله أعلم بمـن يجاهـد في سبيله كمثل الصائم ، القائم ، الخاشع ،الراكع ، الساجد**)) [١]

فانظر إلى قيمة الأعمال ووزنها عند من شرعها وفرضها هو وحـده الـذي يرفـع الدرجات ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ ﴾ [غافر: ١٥]

وهو الذي قال : ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ [الأنعام: ٨٣]

وهو القائل : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ﴾ [الأحقاف: ١٩]

﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [التوبة]

قال الجمل ما ملخصه : ذكر الله – تعالى – في هذه الآيـة تسـعة أوصـاف للمؤمنين ، الستة الأولى منها تتعلق بمعاملة الخالق ، والوصفان السابع والثامن يتعلقان بمعاملة المخلوق ، والوصف التاسع يعم القبيلتين .

وقوله : ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ﴾ فيه وجوه من الأعراب منها : أنه مرفوع على المدح . فهو خبر لمبتدأ محذوف وجوباً للمبالغة في المدح أي : المؤمنون المذكورون التائبون ، ومنها أن الخبر هنا محذوف ، أي : التائبون الموصوفون بهذه الأوصاف من أهل الجنة

والمعنى : ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ﴾ عن المعاصي وعن كل ما نهـت عنـه شـريعة الله ، ﴿ٱلْعَٰبِدُونَ ﴾ لخالقهم عبادة خالصة ولجهة ،﴿ٱلْحَٰمِدُونَ ﴾ له ﷻ في السـراء والضراء ، وفى المنشط والمكره ، وفى العسر واليسـر ، ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ في الأرض

---

(١) البخاري ٤/١٨ والنسائي ٦/١٧

للتدبر والاعتبار وطاعة الله[١] . والعمل على مرضاته ﴿ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ﴾ لله ﷻ عن طريق الصلاة التي هي عماد الدين وركنه الركين ﴿ٱلْأَٰمِرُونَ ﴾ غيرهم ﴿ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي : بكل ما حسنه الشرع ﴿ وَٱلنَّاهُونَ ﴾ له ﴿ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ الذي تأباه الشرائع والعقول السليمة ، ﴿ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ أي : لشرائعهم وفرائضه وأحكامه وآدابه .. هؤلاء المتصفون بتلك الصفات الحميدة ، بشرهم . يا محمد . بكل ما يسعدهم ويشرح صدورهم ، فهم المؤمنون حقاً ، وهم الذين أعد الله – تعالى – لهم الأجر الجزيل ، والرزق الكريم .

و لم يذكر ﷻ المبشر به في قوله : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، للإشارة إلى أنه أمر جليل لا يحيط به الوصف ، ولا تحده العبارة .

و لم يذكر ﷻ في الآية لهذه الأوصاف متعلقاً ، فلم يقل ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ﴾ من كذا ، لفهم ذلك من المقام ، لأن المقام في مدح المؤمنين الصادقين الذين أخلصوا نفوسهم لله ، تعالى . فصاروا ملتزمين طاعته في كل أقوالهم وأعمالهم .

وعبر عن كثرة صلاقم وخشوعهم فيها بقوله . ﴿ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ﴾ للإشارة إلى أن الصلاة كأنها صفة ثابتة من صفاقم ، وكأن الركوع والسجود طابع مميز لهم بين الناس ؛ وإنما عطف النهى عن المنكر على الأمر

---

(١) وقد سبق أن بعض أهل العلم اختار أن السياحة هنا بمعنى الصيام وهذا الذي نميل إليه وأما تفسير صاحب الجمل للسياحة بالضرب في الأرض فقد قدره الله ﷻ في آيات أخر كقوله : ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظرون.....﴾ وقوله ﴿ أفلم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض ﴾ ﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا ﴾ وسيأتي بيان هذا أيضاً للمفسر نفسه ولغيرة .

بالمعروف للإيذان بأنهما فريضة واحدة لتلازمهما في الغالب ، أو لما بينهما من تباين إذ الأمر بالمعروف طلب فعل ، والنهى عن المنكر طلب ترك أو كف .

هذا الذي ذكرناه رأي لبعض العلماء . ومنهم من يرى أن المراد هم الصائمون ومنهم من يرى أن المراد هم : المجاهدون .

قال الآلوسي : وقوله : ﴿ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ﴾ أي الصائمون . فقد أخـرج ابـن مردوية عن أبي هريرة أن النبي ﷺ سئل عن ذلك فأجاب بما ذكر ، وإليـه ذهـب جماعة من الصحابة والتابعين . وجاء عن عائشة : ((**سياحة هذه الأمة الصيام**)) .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد أن السائحين هم المهاجرون ، وليس في أمـة محمد ﷺ سياحة إلا الهجرة .

وعن عكرمة أنهم طلبة العمل ، لأنهم يسيحون في الأرض لطلبه .

وقيل : هم المجاهدون في سبيل الله ، لما أخرج الحاكم وصححه والطبراني وغيرهما ، [٥١] عن أبي أمامة أن رجلا استأذن رسول الله ﷺ في السياحة فقـال : ((**إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله**)) [١] ؛ و الذي نراه أقرب إلى الصواب أن المـراد بالسائحين هنا : السائرون في الأرض لمقصد شريف ، وغرض كريم . كتحصـيل العلم ، والجهاد في سبيل الله ، والتدبر في ملكوته ﷻ والتفكر في سننه في كونـه ، والاعتبار بما اشتمل عليه هذا الكون من عجائب .

---

(١) قد أورده الألباني في صحيح الجامع من حديث أبي أمامة قال رسول الله ﷺ : ((إن سياحة أمتي الجهاد في سـبيل الله)) [صحيح الجامع (٢٠٩٣) ونسبه لأبي داود والحاكم والبيهقي وقال الألباني : صحيح ، وهذا الحديث على هذا النحو يتلاءم مع نص الآية ومع هذا فخلاف أهل العلم في معنة السياحة خلاف سائغ معتبر والأمر يسير .

ولعل ما يؤيد ذلك أن لفظ ﴿ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ﴾ معناه السائرون ، لأنه مأخوذ من السيح وهو الجري على وجه الأرض ، والذهاب فيها . وهذه المادة تشعر بالانتشار ، يقال : ساح الماء أي جرى وانتشر .

وما دام الأمر كذلك فمن الأولى حملا للفظ على ظاهره ، ما دام لم يمنع مانع من ذلك ، وهنا لا مانع من حمل اللفظ على حقيقته وظاهره .

أما الأحاديث والآثار التي استشهد بها من قال بأن المراد بالسائحين الصائمون فقد ضعفها علماء الحديث .

[٥٢] قال صاحب المنار : وأقول : وروى ابن جرير من حديث أبي هريرة مرفوعاً وموقوفاً حديث : ((**السائحون هم الصائمون**)) (١) لا يصح رفعه ..

وفضلا عن كل هذا ، فإن تفسير السائحين بأنهم السائرون في الأرض لكل مقصد شريف ، وغرض كريم ... يتناول الجهاد في سبيل ، كما يتناول الرحلة في طلب العلم ، وغير ذلك من وجوه الخير . اهـ(٢)

[إن الدخول في الإسلام صفقة بين متبايعين . . الله ﷻ فيها هو المشتري والمؤمن فيها هو البائع . فهي بيعة مع الله لا يبقى بعدها للمؤمن شيء في نفسه ولا في ماله يحتجزه دون الله ﷻ ودون الجهاد في سبيله لتكون كلمة الله العليا ، وليكون الدين

---

(١) ضعيف : انظر شعب الإيمان للبيهقي : ٨ / ٩٤ ح/٣٤٣٠ وقال الألباني في " السلسلة الضعيفة والموضوعة " ٨ / ٢٠٧ : ضعيف أخرجه الحاكم (٢/ ٣٣٥) عن جنيد بن حكيم الدقاق : حدثنا حامد ابن يحيى البلخي : حدثنا سفيان بن عيينة ، عن عمرو بن دينار ، عن عبيد بن عمير ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :سئل رسول الله ﷺ عن السائحين ، فقال : "هم الصائمون" . وقال :"صحيح على شرط الشيخين ، و لم يخرجاه ، على أنه مما أرسله أكثر أصحاب ابن عيينة ، و لم يذكروا أبا هريرة في إسناده" ! ووافقه الذهبي ! أقول [الألباني] : وليس صحيح الإسناد ... فإن البلخي هذا ، وإن كان ثقة ؛ فلم يخرج له الشيخان شيئاً . والدقاق ؛ قال الدارقطني : "ليس بالقوي" . فأنى له الصحة !

(٢) انظر التفسير الوسيط ، تفسير سورة التوبة الآية (١١٢) .

كله لله . فقد باع المؤمن لله في تلك الصفقة نفسه وماله مقابل ثمن محدد معلوم ، هو الجنة : وهو ثمن لا تعدله السلعة ، ولكنه فضل الله ومنّه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) ﴾ [التوبة]

* والذين باعوا هذه البيعة ، وعقدوا هذه الصفقة هـم صـفوة مختـارة ، ذات صفات مميزة . . منها ما يختص بذوات أنفسهم في تعاملها المباشر مع الله في الشعور والشعائر؛ ومنها ما يختص بتكاليف هذه البيعة في أعناقهم من العمل خارج ذواتهم لتحقيق دين الله في الأرض من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقيام على حدود الله في أنفسهم وفي سـواهم :﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢) ﴾ والآيات التالية في السياق تقطع ما بين المؤمنين الذين باعوا هذه البيعة وعقدوا هذه الصفقة ، وبين كل من لم يـدخلوا معهم فيها - ولو كانوا أولى قربى - فقد اختلفت الوجهتان ، واختلف المصيران ، فالذين عقدوا هذه الصفقة هم أصحاب الجنة ... اهـ[(١)]

* من ثمرات الآيات :

١- بيان فضل الله تعالى ومننه على عباده المؤمنين حيـث وهبـهم أرواحهـم وأموالهم واشتراها منهم .

---

(١) انظر الظلال : ٣/ ١٧١٣، ١٧١٤ في ظلال سورة التوبة الآية (١١٢) ط/ دار الشروق .

٢- فضل الجهاد والاستشهاد في سبيل الله .

٣- على المؤمن أن شعر نفسه أن بدنه وماله لله تعـالى وأن عليـه رعايتـهما وحفظهما حتى ترفع راية الجهاد ويطالب إمام المسلمين بالنفس والمال فيقدم نفسـه وماله إذ هما وديعة الله تعالى عنده .

٤- على المؤمن أن يتعاهد نفسه ليرى هل هو متصف بهذه الصفات التسع أولاً فإن رأي نقصاً كمله وإن رأي كمالاً حمد الله تعالى عليه وحفظه وحافظ عليـه . اهـ[١]

---

(١) انظر أيسر التفاسير للجزائري :١/ ٧٠٨ تفسير سورة التوبة الآية (١١٢) ط/ دار الحديث .

سُورَةُ يُونُس

﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ
أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ
هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ
عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ
أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ
لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ
وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا
وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ
ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا
كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم
بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ
وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ۞ وَلَوْ
يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا

يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ
أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ
زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا
وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ
جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ
عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ
بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي
أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ
وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ
﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ
شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً
فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ
يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ
فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ
مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾
هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا

بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ
ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ
إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ
ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ
أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا
لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾
[يونس] (١)

*** معاني الكلمات:**

﴿الٓر﴾ : هذه السورة الرابعة من السور المفتتحة بالحروف المقطعة تكتب آلـر وتقرأ ألفْ ، لام ، را .

﴿ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ : أي القرآن العظيم .

﴿ ٱلْحَكِيمِ ﴾ : القائل بالحكمة والقرآن مشتمل على الحِكَم فهو حكيم ومحكم أيضاً

﴿ عَجَبًا﴾ : العجب ما يتعجب منه .

﴿ رَجُلٍ مِّنْهُمْ ﴾ : هو محمد ﷺ.

﴿ قَدَمَ صِدْقٍ ﴾ : أي أجراً حسناً بما قدموا في حياتهم من الإيمان وصالح الأعمال

---

(١) نظراً لأن الآيات الكريمة تتخللها مقاطع تدل على الموضوع الذي وضعت له فقد كتبت الآيات من أول السورة على هذا النحو لتعرف المناسبة لما قبل الآية وما بعدها وليستفيد القارئ من التقدمة .

﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ : أي القرآن .

﴿ لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ : أي بين ظاهر لا خفاء فيه في كذبهم وادعائهم الباطل .

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ﴾ : أي معبودكم الحق الذي يجب أن تعبدوه وحده هو الله .

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ : أي أوجدها من العدم حيث كانت عدماً فأصبحت عوالم

﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ : هي الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة .

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ : أي استوى استواء يليق به ﷻ فلا يقال كيف؟

﴿ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ﴾ : أي لا يشفع أحد يوم القيامة إلا من بعد أن يأذن له .

﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ : أي أتستمرون في جحودكم وعنادكم فلا تذكرون .

﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ : أي بعد الفناء والبلى وذلك يوم القيامة .

﴿ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ : أي من ماء أُحمي عليه وغلى حتى أصبح حميماً يشوي الوجوه

﴿ جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً ﴾ : أي جعلها تضيء على الأرض .

﴿ وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾ : أي جعل القمر بنور الأرض وهو الذي خلق ضوء الشمس ونور القمر

﴿ وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ ﴾ : أي قدر القمر منازل والشمس كذلك .

﴿ لِتَعْلَمُوا۟ ﴾ : أي قدرها منازل ليعلم الناس عدد السنين والحساب .

﴿يَتَّقُونَ ﴾ : أي [يخافون] مساخط الله وعذابه وذلك بطاعته وطاعة رسوله .

﴿ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ﴾ : أي لا ينتظرون ولا يؤملون في لقاء الله تعالى يوم القيامة

﴿ وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ : أي بدلاً عن الآخرة فلم يفكروا في الدار الآخرة .

﴿ وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا ﴾ : أي سكنوا إليها وركنوا فلم يروا غيرها حياة يُعمل لها .

﴿ غَٰفِلُونَ ﴾ : لا ينظرون إليها ولا يفكرون فيها .

﴿ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ : أي النار هي المأوى الذي يأوون إليه وليس لهم سواها .

﴿ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ﴾ : أي بأن يجعل لهم بإيمانهم نوراً يهتدون به إلى الجنة

﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ ﴾ : أي يطلبون ما شاءوا بكلمة سبحانك اللهم .

﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ : أي آخـر دعـائهم : الحمد لله رب العالمين .

﴿ ٱلشَّرَّ ﴾ : كل ما فيه ضرر في العقل أو الجسم أو المال والولد ، الخير عكسه : ما فيه نفع يعود على الجسم أو المال أو الولد .

﴿ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ : لهلكوا وماتوا .

﴿فَنَذَرُ﴾ : أي نترك .

﴿ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ : أي في ظلمهم وكفرهم يترددون لا يخرجون منه كالعميان .

﴿ ٱلضُّرُّ ﴾ : المرض وكل ما يضر في جسمه ، أو ماله أو ولده .

﴿ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ ﴾ : مضى في كفره وباطله كأن لم يكن ذاك الذي دعا بكشف ضره .

﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ﴾ : مثل ذلك النسيان بسرعة لما كان يدعو لكشـفه ، زيـن للمسرفين إسرافهم في الظلم والشر .

﴿ٱلْقُرُونَ﴾ : أي أهل القرون .

﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ : بالحجج والآيات على صدقهم في دعوتهم .

﴿ خَلَٰٓئِفَ ﴾ : أي لهم ، تخلفونهم بعد هلاكهم .

﴿لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ﴾ : أي لا يؤمنون بالبعث والدار الآخرة .

﴿ تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ ﴾ : أي من جهة نفسي .

﴿ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ ﴾ : أي لا أعلمكم به .

﴿ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ﴾ : أي أربعين سنة قبل أن يوحى إليّ .

﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ : المفسدون لأنفسهم بالشرك والمعاصي .

﴿ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ ﴾ : أي إن لم يعبدوه .

﴿ وَلَا يَنفَعُهُمۡ ﴾ : أي إن عبده .

﴿ أَتُنَبِّـُٔونَ ﴾ : أتعلّمون وتخبرون الله .

﴿ سُبۡحَٰنَهُۥ ﴾ : أي تتريها له .

﴿ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ : أي به معه من الأصنام .

﴿ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ ﴾ : أي على دين واحد هو الإسلام .

﴿ فَٱخۡتَلَفُواْ ﴾ : أي تفرقوا بأن بُقى بعض على التوحيد وبعض على الشرك .

﴿كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ ﴾ : بإبقائهم إلى آجالهم ومجازاتهم يوم القيامة .

﴿ ءَايَةٞ ﴾ : خارقة كناقة صالح عليه السلام.

﴿ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ ﴾ : أي إن علم الآية متى تأتي من الغيب والغيب لله وحده فلا أنا ولا أنتم تعلمون إذاً فانتظروا إنا معكم من المنتظرين .

﴿ رَحۡمَةٗ ﴾ : أي مطر بعد قحط أو صحة بعد مرض أو غنى بعد فاقة .

﴿ ضَرَّآءَ ﴾ : حالة من الضر بالمرض والجدب والفقر .

﴿ مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ ﴾ : أي استهزاء بها وتكذيب .

﴿ إِنَّ رُسُلَنَا ﴾ : أي الحفظة من الملائكة .

﴿ يُسَيِّرُكُمۡ ﴾ : أي يجعلكم تسيرون بما حولكم من مراكب وما يسر لكم من أسباب

﴿ بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ ﴾ : أي مناسبة لسير السفن موافقة لغرضهم .

﴿ رِيحٌ عَاصِفٞ ﴾ : أي شديدة تعصف بالشجر فتقتلعه والبناء فتهدمه .

﴿ أُحِيطَ بِهِمۡ ﴾ : أي أحدق بهم الهلاك من كل جهة .

﴿ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ﴾ : أي يظلمون مجانبين للحق والاعتدال .

﴿ مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ : أي صفتها المنطبقة عليها المُتفقة معها .

﴿ كَمَآءٍ ﴾ : أي مطر .

﴿ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ ﴾ : أي بسببه نبات الأرض أي اشتبك بعضه ببعض .

﴿ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ ﴾ : كالبر وسائر الحبوب والفواكه والخضر .

﴿ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ ﴾ : أي من الكلأ والعشب عادة وإلا قد يعلف الحيوان الشعير .

﴿ زُخۡرُفَهَا ﴾ : أي نضرها وبهجتها .

﴿ وَٱزَّيَّنَتۡ ﴾ : أي تجملت بالزهور .

﴿ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ ﴾ : أي متمكنون من تحصيل حاصلاتها الزراعية

﴿ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا ﴾ : أي قضاؤنا بإهلاكها وتدميرها عقوبة لأصحابها .

﴿ حَصِيدٗا ﴾ : أي كأنها محصودة بالمنجل ليس فيها شيء قائم .

﴿ حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ﴾ : أي كأن لم تكن موجودة غانية بالأمس .

﴿ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ ﴾ : أي نبينها .

﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ ﴾ : دار السلام : الجنة والله يدعو إليها عباده ليأخذوا بالأهبة لدخولها وهي الإيمان والعمل الصالح وترك الشرك والمعاصي (١)

* بين يدي السورة الكريمة *

السورة كلها لُحْمَةٌ واحدة ، يصعب تقسيمها إلى مقاطع : شأنها في هذه الخاصية شأن سورة الأنعام ... مع تميز كل سورة بشخصيتها وطابعها الخاص - فهي تتدفق في هيئة موجات متوالية؛ تنصب بمؤثراتها الموحية على القلب البشري ، ... إلى عرض المشاهد الكونية التي تتجلى فيها ألوهية الله سبحانه .. إلى عرض مشاهد القيامة . إلى عرض أحوال البشر في مواجهة الأحداث التي تمر بهم . إلى عرض مصارع الغابرين .. إلى آخر ما سبقت الإشارة إليه من الموضوعات والمؤثرات التي تحتويها السورة .

وإذا جاز تقسيم السورة إلى مقاطع مميزة . فإن أكثر من نصفها الأول يعد مقطعاً واحداً يتدفق بهذه الموجات المتتابعة . ثم تجيء قصة نوح - ومن بعده في اختصار - وقصة موسى والإشارة إلى قصة يونس؛ فتؤلف مقطعاً آخر ....في السورة فتؤلف المقطع الأخير .

ونظراً لطبيعة السورة هذه فسنحاول عرضها موجة موجة - أو مجموعة من الموجات المتناسقة - كما هي طبيعتها المتميزة ....ويتطرق من عرض هذه الآيات الكونية إلى الغافلين عنها ، الذين لا يرتقبون لقاء الله مدبر كل شيء ، وما ينتظر

---

(١) أيسر التفاسير للجزائري : ١/ ٧١٩ - ٧٣١ ط/ دار الحديث .

هؤلاء الغافلين من سوء المصير؛ وما ينتظر المؤمنين في الجانب الآخر من نعيم مقيم، ويسجل حكمة تأجيل المصير إلى يومه الموعود، وعدم تعجيل الشر للنـــاس كمـــا يستعجلون هم الخير في هذه الدنيا ولو عجل لهم بالشر كما يســتعجلون بـــالخير لانتهى الأجل وأخذوا بذنوبهم دون إمهال .

ومن ثَمَّ وصف لطبيعة البشر في تلقيهم للشر والخير . وضراعتهم إلى الله عند مس الأذى، ونسيانهم له عند كشف الضر؛ ولجاجهم فيما كانوا من قبل فيـــه، دون اعتبار بالقرون الخالية التي سارت في الطريق ذاته، ولقيــت مصــارعها في ذلـــك الطريق! ومع أن مصارع الغابرين كانت واضحة للعرب الذين يدعوهم الرسول ﷺ فإن المكذبين كانوا يطلبون إلى الرسول أن يأتي لهم بقرآن غير هذا القرآن أو يبـــدل بعضه اهـــ [1]

* التفسير الإجمالي *

﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿١﴾ ﴾

﴿ ألف . لام . را ﴾ أَلِفْ لاَمْ رَا وَتُقرأُ مُقَطَّعَةً . اللهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ ، هـــذِهِ هِـــيَ آيَاتُ القُرآنِ المُحْكَمِ الذي أَحْكَمَهُ اللهُ فِي أُسْلُوبِهِ وَمَعَانِيهِ ، وَبَيَّنَهُ لِعِبَادِهِ .

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾ يَسْــتَنْكِرُ اللهُ تَعَالَى تَعَجُّبَ الكُفَّارِ مِنْ إِرْسَالِ الْمُرْسَلِينَ مِنَ البَشَرِ ، فَيَقُولُ : عَجِيبٌ أَمْرُ هَؤُلاءِ الكُفَّـــارِ أَنْ يُنكِرُوا إِنْزَالَ الوَحْيِ عَلَى رَجُلٍ مِنْ جِنسِهِمْ ، وَأَنْ يَعُدُّوا ذَلِكَ أَمْراً عَجِيباً يَتَفَكَّهُونَ بِهِ . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَمَّا بَعَثَ مُحَمَّداً ﷺ رَسُولاً أَنْكَرَتِ العَرَبُ ذَلِكَ ،

(١) انظر الظلال : ٣/ ١٧٥٨ في ظلال سورة يونس ط/ دار الشروق .

أَوْ مَنْ أَنْكَرَهُ مِنْهُمْ ، فَقَالُوا : اللهُ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَكُونَ رَسُولُهُ بَشَراً مِثْلَ مُحَمَّدٍ ﷺ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى قَوْلَهُ : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا . . . ﴾ .

وَمَهَمَّةِ الرَّسُولِ هِيَ أَنْ يُنْذِرَ الكَافِرِينَ بِعَذَابِ جَهَنَّمَ ، إِذَا اسْتَمَرُّوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ ، وَأَنْ يُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ سَبَقَتْ لَهُمُ السَّعَادَةُ بِمَا قَدَّمُوهُ مِنَ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ : مِنْ صَوْمٍ وَصَلاَةٍ وَتَسْبِيحٍ وَأَمْرٍ بِمَعْرُوفٍ ، وَنَهْيٍ عَنْ مُنْكَرٍ ، وَجِهَادٍ لِلْكَافِرِينَ...أَمَّا الكَافِرُونَ فَقَدْ قَالُوا : إِنَّ هَذَا الرَّسُولَ لَسَاحِرٌ ظَاهِرُ السِّحْرِ ﴿مُّبِينٌ﴾ ، يُؤَثِّرُ فِي النُّفُوسِ ، وَيَجْذِبُهَا إِلَى الإِيمَانِ بِاللهِ ، وَاحْتِقَارِ الحَيَاةِ وَلَذَّاتِهَا فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَهُمُ الكَاذِبُونَ فِي ذَلِكَ .

قواعد مهمة في السعادة:

١- اعلم أنك إذا لم تعش في حدود يومك تشتت زهنك واضطربت عليك أمورك وكثرت همومك وغمومك وهذا معنى ((إذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح)) .

٢- انسَ الماضي بما فيه ، فالاهتمام بما مضى حمق وجنون .

٣- لا تشتغل بالمستقبل فهو في عالم الغيب ، ودع التفكر فيه حتى يأتي .

٤- لا تهتز من النقد واثبت ، واعلم أن النقد يساوي قيمتك .

٥- الإيمان بالله والعمل الصالح هو الحياة الطيبة السعيدة .

٦- من أراد الاطمئنان والهدوء والراحة فعليه بذكر الله ﷻ .

٧- على العبد أن يعلم أن كل شيء بقضاء وقدر .

٨- واطن نفسك على تلقي أسوء الفروض .

٩- لا تنتظر شكراً من أحد .

١٠-كل قضاء للمسلم خير له .

١١- عليك بالعمل الجاد المثمر واهجر الفراغ .

١٢- كل ما يصيبك فهو كفارة للذنوب ...اهـ بتصرف [١] .

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣ ﴾

﴿السَّمَٰوَٰتِ﴾ : يُخبِرُ اللهُ تَعالَى أنَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ جَمِيعاً ، وأنَّهُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا ، وَمَا فِيهِما فِي سِتَّةِ أيَّامٍ ، وَلَمَّا أَتَمَّ خَلْقَ الوُجُودِ اسْتَوَى عَلى العَرْشِ اسْتِوَاءً يَلِيقُ بِعَظَمَتِه وَجَلاَلِه ، يُدَبِّرُ أَمْرَ الكَوْنِ وَالخَلاَئِقِ وَلاَ يُشْغِلُهُ شَأْنٌ مِنْ شَأْنٍ ، وَلاَ يَتَبَرَّمُ بِإِلْحَاحِ المُلِحِّينَ ، وَلاَ يُلْهِيهِ الكَبِيرُ عَنِ الصَّغِيرِ ، وَلاَ يَشْفَعُ أَحَدٌ عِنْدَهُ إلاَّ بِإِذْنِه سُبْحَانَهُ ، وَهُوَ رَبُّكُمْ فَأَفْرِدُوهُ بِالعِبَادَةِ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، وَلاَ يُسْتَنْكَرُ مِنْ رَبِّ هَذا الخَلْقِ ، وَمُدَبِّرِه أَنْ يُفِيضَ مَا شَاءَ مِنْ عِلْمِه عَلَى مَنِ اصْطَفَى مِنْ خَلْقِه ، يَهْدِيهِمْ بِهِ لِمَا فِيهِ صَلاَحُهُمْ وَكَمَالُهُمْ ، أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ يَا أَيُّها المُشْرِكُونَ فِي أَمْرِكُمْ؟ فَكَيْفَ تَعْبُدُونَ مَعَ اللهِ آلِهَةً غَيْرَهُ ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ المُتَفَرِّدُ بِالخَلْقِ؟

﴿اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ اسْتِوَاءً يَلِيقُ بِجَلاَلِه .

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ۝٤ ﴾

يُخبِرُ اللهُ تَعالَى أنَّهُ الخَلاَّقُ العَظِيمُ ، وأَنَّ الخَلاَئِقَ تَرْجِعُ إِلَيْهِ يَوْمَ القِيَامَةِ ، وأَنَّهُ تَعالَى لاَ يَتْرُكُ مِنْهُمْ أَحَداً حَتَّى يُعِيدَهُ كَمَا كَانَ بَدَأَهُ ، وَهَذَا وَعْدٌ مِنْهُ حَقٌّ لاَ مِرْيَةَ فِيه ، وَلاَ شَكَّ . ثُمَّ ذَكَرَ تَعالَى أَنَّهُ كَمَا بَدَأَ الخَلْقَ أَوَّلَ مَرَّةٍ يُعِيدُهُ . وَفِي يَوْمِ القِيَامَةِ يَجْزِي الَّذِينَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، مِنَ المُؤْمِنِينَ ، بِالعَدْلِ (بِالقِسْطِ) وَيُوَفِّيهِمْ

(١) انظر كتاب لا تحزن للدكتور عائض القرني صـ١٤٢ ، ١٤٣ ـــــ

جَزَاءَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، كَمَا يَجْزِي الذِينَ كَفَرُوا عَلَى كُفْرِهِمْ بِعَدْلِهِ التَّامِّ ، وَسَيَكُونُ شَرَابُهُمْ مِنْ مَاءٍ شَدِيدِ الحَرَارَةِ ، وَسَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً . اهـ

وقال الجزائري رَحِمَهُ اللَّهُ : مما تعالجه السور المكية قضايا التوحيد والوحي والبعث الآخر وسورة يونس افتتحت بقضية الوحي أي إثباته وتقريره من الله لرسوله محمد ﷺ قال تعالى : ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ أي هذه آيات القرآن الكريم المحكم آياته المشتمل على الحكم الكثيرة حتى لكأنه الحكيم الذي يضع كل شيء في موضعه وقوله تعالى : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ ﴾ أي أكان ايحاؤنا إلى محمد عبدنا ورسولنا وهو رجل من قريش عجباً لأهل مكة يتعجبون منه؟ والموحى به هو : ﴿أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾ ، أي خوفهم عاقبة الشرك والكفر والعصيان .

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ أي بأن لهم قدم صدق عند ربهم وهو الجزاء الحسن لما قدموا من الإيمان وصالح الأعمال يتلقونه يوم يلقون ربهم في الدار الآخرة فلما أنذر وبشر ﷺ قال الكفرون هذا سحر مبين ومرة قالوا : ساحر مبين وقولهم هذا لمجرد دفع الحق وعدم قبوله لا أن ما أنذر به وبشر هو سحر ، ولا المنذر المبشر هو ساحر وإنما هو المجاحدة والعناد والمكابرة من أهل الشرك والكفر والباطل والشر والفساد .اهـ

* من هداية الآيات *

١- تقرير عقيدة الوحي بشهادة الكتاب الموحى به .

٢- إثبات نبوة محمد ﷺ وتقريرها بالوحي إليه .

٣- بيان مهمة الرسول ﷺ وهي النذارة والبشارة .

٤- بشرى أهل الإيمان والعمل الصالح بما أعد لهم عند ربهم .

٥- عدم تورع أهل الكفر عن الكذب والتضليل .اهـ

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ ﴾

يُخبِرُ اللهُ تَعَالَى عَمَّا خَلَقَ مِنَ الآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِه ، وَعَظِيمِ سُلْطَانِه ، وَأَنَّهُ جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً ، وَجَعَلَ القَمَرَ نُوراً ، وَهَكَذا فَاوَتَ تَعَالَى بَيْنَ ضِيَاءِ الشَّمْسِ ، وَبَيْنَ نُورِ القَمَرِ ، وَقَدَّرَ لِلقَمَرِ مَنَازِلَ (وَهِيَ ٢٨ مَنْزِلاً) ، لِيَعْرِفَ النَّاسُ عَدَدَ السِّنِينَ وَالحِسَابَ ، وَلَمْ يَخْلُقِ اللهُ ذَلِكَ الخَلْقَ عَبَثاً وَبَاطِلاً وَتَسْلِيَةً ، وَإِنَّمَا خَلَقَهُ بِالْحَقِّ ، وَهُوَ تَعَالَى يُفَصِّلُ الآيَاتِ الدَّالَّةَ عَلَى أُلُوهِيَّتِه ، وَكَمَالِ قُدْرَتِه لِكَيْ يَتَدَبَّرَهَا الخَلْقُ

(وَقِيلَ إِنَّ الضَّوْءَ مَا كَانَ مِنْ ذَاتِ الشَّيءِ كَالشَّمْسِ وَالنَّارِ ، وَالنُّورِ مَا كَانَ مُكْتَسَباً مِنْ خَارِجِ الشَّيءِ كَالقَمَرِ يَسْتَمِدُّ نُورَهُ مِنْ ضَوءِ الشَّمْسِ) .

﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ ﴾ صَيَّرَ القَمَرَ ذَا مَنَازِلَ يَسِيرُ فِيهَا .

* إن طريقة القرآن في إثبات عالم الغيب من البعث والحشر والنشر والصراط والميزان والعرض والجنة والنار يثبت ذلك بأسلوب حكيم منطقي هادئ هادف مسلمات بدهيات يصعد بعضها فوق بعض إذ يسلط الضوء على آلائه وآياته في صفحات الكون الفسيح سواءٌ كان العلوي منه والسفلي آمراً تعالى وتقدس اسمه بالنظر في هذه الآيات وتلك البراهين الساطعة ، فليل يعقبه نهار ، وشمس يتلوها قمر ، أرض ذات فجاجا ، وسماء ذات فأبراج ، وبحار ذات أمواج ، وسراج وهاج ، وآيات في الخلق والتدبير وفي الأحياء والأموات ، وآلاء في شتّى الميادين مصاحبة لجميع المخلوقات إن من وسعت قدرته كل ذلك على هذا النحو المدهش فإنه فالق الحب والنوى مخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي فالق الإصباح وجاعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً إن هذا لدليل واضح بيِّن على صدق وعده في الدار الآخرة فمن أحيا هنا أحيا هناك وهو على كل شيء قدير وفيما ذكر دلالة

صريحة على أنه ينبغي أن تستفيد من آثار قدرة الله في عالم الشهادة لتؤمن بعالم الغيب إجمالاً وتفصيلاً ، قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ ﴾ [الحج] ﴿ إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ﴾

إنَّ فِي تَعاقُبِ الليْلِ وَالنَّهارِ ، إذَا ذَهَبَ هَذا جاءَ ذَاكَ ، لاَ يَتأَخَّرُ عَنْهُ ، وَفِي تَقارُضِهِمَا الطُّولَ وَالقصرَ ، يَطُولُ هذا وَيَقْصرُ ذَاكَ ، وَفِيمَا خَلَقَ اللهُ فِي هَذا الكَوْنِ العَظِيمِ الوَاسعِ ... لَدلاَئلَ عَظِيمَةً عَلَى وُجُودِ الصَّانِعِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ ، وَحِكْمَتِه لِمَنْ يَخْشَوْنَ اللهَ ، وَيَخافُونَ سُخْطَهُ وَعِقَابَهُ (يَتَّقُونَ) .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾

إنَّ الذينَ لاَ يُؤمِنُونَ بالبَعْث وَلِقَاءِ اللهِ فِي الآخِرَةِ ، وَاعْتَقَدُوا وَاهِمِينَ أَنَّ الحَيَاةَ الدُّنْيا هِيَ مُنْتَهاهُمْ ، وَلَيسَ بَعْدَهَا حَيَاةٌ ، فَاطْمَأَنُّوا بِهَا ، وَلَم يَعْمَلُوا لِمَا بَعْدَهَا ، وَغَفَلُوا عَنْ آياتِ اللهِ الدَّالَةِ عَلَى البَعْثِ وَالحِسَابِ .

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ ﴾

فَهؤُلاَءِ سَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُم جَهَنَّمَ يَوْمَ القِيَامَةِ ، لِيَصْلِيَهُمْ بنيرانِهَا ، وَسَيَجْعَلُهَا مَأْوَى لَهُمْ وَمَنْزِلاً ، جَزَاءً لَهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ بِرَبِّهِمْ ، وَعَلَى مَا اكْتَسَبُوا فِي دُنْيَاهُمْ مِنَ المَعَاصِي وَالآثَامِ وَالخَطَايَا وَالإِجْرَامِ . اهـ

وقال الجزائري رَحِمَهُ اللَّهُ : وقوله : ﴿ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ أي لم يخلق هذه الحياة الدنيا وهذه العوالم فيها عبثاً فتفنى وتبلى بعد حين ولا شيء وراء ذلك

بل ما خلق ذلك إلا بالحق أي من أجل أن يأمر وينهى ثم يجزي المطيع بطاعته والعاصي بعصيانه وفي هذا تأكيد لقضية البعث والجزاء أيضاً .

وقوله : ﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي هذا التفصيل المشاهد في هذا السياق.

﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ إذ هم الذين ينتفعون به أما الجهلة فلا ينتفعون بهذا التفصيل والبيان وقوله تعالى في الآية الأخيرة ﴿ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي بالطول والقصر والضياء والظلام ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من أفلاك وكواكب ورياح وأمطار وما خلق في الأرض من إنسان وحيوان وبر وبحر وأنهار وأشجار وجبال وَوِهاد ﴿ لَءَايَٰتٍ﴾ أي علامات واضحة دالة على الخالق المعبود بحق وعلى جلاله وجماله وكماله وعظيم قدرته وقوة سلطانه فيُعبد لذلك بحبه غاية الحب وبتعظيمه غاية التعظيم وبرهبته و الخشية منه غاية الرهبة والخشية ويذكر فلا يُنسى ويشكر فلا يُكفر ويطاع فلا يُعصى وقوله تعالى ﴿لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ خص أهل التقوى بالآيات فيما ذكر من مظاهر خلقه وقدرته لأنهم هم الذين حقاً يبصرون ذلك ويشاهدونه لصفاء أرواحهم وطهارة قلوبهم ونفوسهم أما أهل الشرك والمعاصي فهم في ظلمة لا يشاهدون معها شيئاً والعياذ بالله . اهـ

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾

أَمَّا الذينَ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَاتَّقَوْهُ ، وَتَبَصَّرُوا بِمَا خَلَقَ اللهُ فِي الكَوْنِ ، فَزَادَهُمْ ذَلِكَ إِيمَاناً وَيَقِيناً ، وَعَمِلُوا مَا أَمَرَهُمْ بِهِ رَبُّهُمْ مِنْ صَالِحَاتِ الأَعْمَالِ ، فَإِنَّ إِيمَانَهُمْ

وَأَعْمَالَهُمُ الصَّالِحَات سَتَكُونُ لَهُمْ نُوراً يَهْدِيهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلَى طَرِيقِ الجَنَّـةِ الَّتِـي وَعَدَهُمْ بِهَا رَبُّهُمْ ، وَهِيَ جَنَّةُ رِفهِ[١] وَنَعِيمِ تَجْرِي الأَنْهَارُ فِي جَنَبَاتِهَا .

﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ .

يَبْدَؤُونَ كُلَّ دُعَاءٍ وَثَنَاءٍ عَلَى اللهِ بِكَلِمَةِ ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ ﴾ أيْ تَقْدِيساً وَتَنْزِيهاً لَكَ يَا رَبُّ . وَيُجِيبُهُمْ رَبُّهُمْ بِكَلِمَةِ ﴿سَلَٰمٌ﴾ وَهِيَ تَدُلُّ عَلَى السَّلاَمَةِ مِـنْ كُـلِّ مَكْـرُوهٍ ، وَتُحَيِّيهِمُ المَلاَئِكَةُ بِقَوْلِهِمْ ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ ، وَيُحَيِّي بَعْضُهُمْ بَعْضاً بِكَلِمَةِ سَلاَمٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي آيَـةٍ أُخْـرَى : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ﴾ وَفِي آخِرِ كُلِّ حَالٍ مِنْ أَحْوَالِهِمْ ، مِنْ دُعَاءٍ يُنَاجُونَ بِهِ رَبَّهُمْ ، أَوْ مَطْلَبٍ يَطْلُبُونَهُ مِنْ إِحْسَانِهِ وَكَرَمِهِ يَقُولُونَ : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

وَجَاءَ فِي الحَدِيثِ : ((**إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ إِذَا قَالُوا سُبْحَانَكَ اللَّهُـمَّ أَتَـاهُمْ مَـا يَشْتَهُونَ**))

وَدَعْوَاهُمْ أَي : دُعَاؤُهُمْ .[٢]

وقـال الجزائري : ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ : أي بأن يجعل لهم بإيمانهم نوراً يهتدون به إلى الجنة .

---

(١) من الرفاهية .

(٢) بعض أهل العلم استدل من هذا النص المبارك على أن أهل الجنة إذا تاقت أنفسهم لشيء يشتهونه في الجنة فقد ذلله الله تعالى لهم بقولهم ((سبحانك اللهم)) وعلى هذا فالكلمة تطلق على الـدعاء ((دعـواهم)) — وتطلق على تحقيق أمنياتهم داخل الجنة بسبب هذه اللفظة المباركة وصدق النبي ﷺ إذ قال : ((مَـنْ قَـالَ سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ. غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ)) [الترمذي]

﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ ﴾ : أي يطلبون ما شاءوا بكلمة سبحانك اللهم .

﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ : أي آخر دعائهم : الحمد لله رب العالمين .

معنى الآيات

بعد تقرير الوحي والألوهية في الآيات السابقة ذكر تعالى في هذه الآيات الثلاث الكريمة بيان جزاء كل ممن كذب بلقاء الله فلم يرجُ ثواباً و لم يخشَ عقاباً ورضـــيَ بالحياة الدنيا واطمأن بها ، وممن آمن بالله ولقائه ووعده ووعيده فآمن بذلك وعمل صالحاً فقال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا ﴾ أي سكنت نفوسهم إليها وركنوا فعلاً إليها ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴾ أي آياته الكونية في الآفاق والقرآنية وهي حُجج الله تعالى وأدلته الدالة على وجــوده وتوحيده ووحيه وشرعه غافلون عنها لا ينظرون فيها ولا يفكرون فيما تدل على إنهماكهم في الدنيا حيث أقبلوا عليها وأعطوها قلوبهم ووجوهم وكل جوارحهم . هؤلاء يقول تعالى في جزائهم ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ أي من الظلم والشر والفساد . ويقول تعالى في جزاء من آمن بلقائه ورجا مـــا عنــده ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم ﴾ أي إلى طريـــق الجنـــة ﴿بِإِيمَٰنِهِمْ ﴾ أي بنور إيمـــانهم فيـــدخلوها ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ . ونعيم الجنة روحاني وجسماني فالجسماني يحصـــلون عليـــه بقـــولهم : سبحانك اللهم ، فإذا قال أحدهم هذه الجملة ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ ﴾ حضر لديه كـــل مُشتهى له . والروحاني يحصلون عليه بسلام الله تعالى عليهم وملائكتـــه ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ

﴿فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ . وإذا فرغوا من المآكل والمشارب قالوا : الحمد لله رب العالمين : وهذا معنى قوله ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ أي دعاؤهم أي صيغة طلبهم ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي دعائهم ﴿أَنِ﴾ أي أنه : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ .

* هداية الآيات *

* من هداية الآيات :

١- التحذير من نسيان الآخرة والإقبال على الدنيا والجري وراء زخارفها .

٢- التحذير من الغفلة بعدم التفكر بالآيات الكونية والقرآنية إذ هذا التفكير هو سبيل الهداية والنجاة من الغواية .

٣- الإيمان والعمل الصالح مفتاح الجنة والطريق الهادي إليها .

٤- نعيم الجنة روحاني وجسماني وهو حاصل ثلاث كلمات هي :

سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام . وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين اهـ

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾

لاَ أَحَدَ أَكْثَرُ ظُلْماً ، وَلاَ أَشَدُّ إِجْرَاماً مِنْ رَجُلٍ تَقَوَّلَ عَلَى اللهِ ، وَكَذَبَ عَلَيْهِ ، وَزَعَمَ أَنَّهُ مُرْسَلٌ مِنَ اللهِ ، وَلَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ ، وَلاَ أَظْلَمَ مِنْ رَجُلٍ كَفَرَ بِاللهِ ، وَكَذَّبَ بِمَا يَرَاهُ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ ، وَبِمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رُسُلِهِ ، وَلاَ يُفْلِحُ المُجْرِمُونَ الذِينَ يَلْقَوْنَ رَبَّهُمْ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا كَافِرِينَ .

لاَ يُفْلِحُ المُجْرِمُونَ - لاَ يَفُوزُونَ بِمَطْلُوبٍ .

﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [يونس:٢٦]

يُخبِرُ اللهُ تَعالَى أنَّ الذينَ يَستَجيبُونَ لِدَعْوَةِ اللهِ ، ويُحْسِنُونَ العَمَلَ في الحَيَاةِ الدُّنيا ، سَيَكُونُ جَزاؤُهُمُ الحُسْنَى مِنَ اللهِ في الدَّارِ الآخِـرَةِ ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾ ، وَسَيُضَاعِفُ اللهُ لَهُمْ ثَوابَ أَعْمَالِهِمْ ﴿وَزِيَادَةٌ﴾، وَسَـيُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ ، وَسَيُعْطِيهِمْ مَا لاَ عَيْنَ رَأَتْ ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ .

[٥٣] وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ في تَفْسيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ : ((**الحُسْنَى الجَنَّةُ . وَالزِّيَادَةُ النَّظَرُ إِلَـى وَجْـهِ اللهِ** ﷻ)) (١) . وَلاَ يَغْشَـى وُجُوهَهُمْ قَتَامٌ أَسْوَدُ ، مِمَّا يَعْتَرِي وُجُوهَ الكَفَرَةِ ، مِنَ القَتَرَةِ وَالغَبَرَةِ ، وَلاَ يَلْحَـقُ بِالمُؤْمِنِينَ صَغَارٌ وَلاَ هَوَانٌ وَلاَ ذِلَّةٌ .

اعلم أن للحسنات آثار على الوجه وفي القلب وعلى الجوارح وفي الدنيا بعامة ، وأن للسيئات أيضاً آثاراً على الوجه وفي القلب وفي الدنيا بعامة ، وعلى الإنسـان المسلم أن يسارع في الخيرات وأن يجتنب السيئات فإن ألَمَّ بشيء منها فعليه أن يتوب من قريب ليغفر الله له القريب ، وفي هذا المضمار ألَّفَ ابن القيم كتابه الماتع " الداء والدواء " فارجع إليه (فضلاً) فنسأل الله تعالى أن يشملنا وأن يعمنا بعفوه ورحمته وحلمه ، وستره ، فرحمته أوسع من ذنوبنا ، وستره أرحب من عيوبنا ، وهو الستير الحليم الرؤف الرحيم .

---

(١) مسند إسحاق بن راهوية :٣/ ٧٩٤ ح/ ١٤٢٥ .

وَقَالَ اللهُ تَعَالَى يَصِفُ المُؤْمِنِينَ فِي آيَةٍ أُخْرَى ﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ ﴾ [الإنسان :١١] ﴿ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ ﴾ - لاَ يَغْشَى وُجُوهَهُمْ وَلاَ يَعْلُوهَا .﴿قَتَرٌ﴾ - غُبَارٌ أَسْوَدُ .

﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

أَمَّا المُجْرِمُونَ الذينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَكَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى سَيَجْزِيهِمْ عَلَى السَّيِّئَةِ بِمِثْلِهَا مِنْ عِقَابٍ فِي الآخِرَةِ ، دُونَ زِيَادَةٍ أَوْ مُضَاعَفَةٍ ، وَتَعْتَرِيهِمْ ﴿وَتَرْهَقُهُمْ﴾ ذِلَّةٌ مِنْ مَعَاصِيهِمْ ، وَيَعْلُوهُمُ الخَوْفُ مِنْهَا ، وَلَنْ يَجِدُوا ، فِي ذَلِكَ اليَوْمِ ، مَنْ يَعْصِمُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ ، وَتُصْبِحُ وُجُوهُهُمْ سُوداً مِنَ الغَمِّ وَالكَآبَةِ ، كَأَنَّمَا عَلَتْهَا قِطَعٌ مِنْ ظَلاَمِ اللَّيْلِ الحَالِكِ ، وَهَؤُلاَءِ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ يَدْخُلُونَهَا وَيَخْلُدُونَ فِيهَا أَبَداً .

﴿عَاصِمٍ﴾ أي : مَانِعٌ يَمْنَعُ سُخْطَهُ وَعَذَابَهُ .

﴿أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ﴾ أي : كُسِيَتْ وَأُلْبِسَتْ .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ .

وَاذْكُرْ يَا مُحَمَّدُ لِمَنْ أَحْسَنُوا فِي الدُّنْيَا ، وَلِمَنْ أَسَاؤُوا فِيهَا ، أَهْوَالَ يَوْمِ القِيَامَةِ ، يَوْمَ يَحْشُرُ اللهُ أَهْلَ الأَرْضِ جَمِيعاً ، مِنْ إِنْسٍ وَجِنٍّ ، وَمِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ ، ثُمَّ يَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا : الزَمُوا أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ مَكَاناً مُعَيَّناً لاَ تَبْرَحُونَهُ حَتَّى تَنْظُرُوا مَا يُفْعَلُ بِكُمْ ، وَيُفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ شُرَكَائِكُمْ فِيمَا كَانَ سَبَبَ عِبَادَتِكُمْ إِيَّاهُمْ ،

وَالْحُجَّة التي يُدْلِي بِهَا كُلُّ فَرِيقٍ . ثُمَّ يُفَرِّقُ اللهُ بَيْنَ الشُّرَكَاءِ ، وَبَيْنَ مَنْ أَشْرَكُوهُمْ مَعَ اللهِ ، وَيُمَيِّزُ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ ، لِتَقْطِيعِ مَا كَانَ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيا مِنْ صِلاَتٍ وَرَوَابِطَ ، وَقَالَ الشُّرَكَاءُ لِمَنْ أَشْرَكُوا : مَا كُنْتُمْ تَخُصُّونَنَا بِالعِبَادَةِ ، وَإِنَّمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَهْوَاءَكُمْ وَشَيَاطِينَكُمْ .

﴿مَكَانَكُمْ﴾ أي : الزَمُوا مَكَانَكُمْ .

﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ أي : فَفَرَّقْنا بَيْنَهُمْ ، وَقَطَعْنا وَصْلَهُمْ .

﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾

بعد أن ذكر تعالى في الآية السابقة أنه يدعو إلى دار السلام ذكر جزاء من أجاب الدعوة ومن لم يجبها فقال للذين أحسنوا فآمنوا وعبدوا الله بما شرع ووحدوه تعالى في عبادته وربوبيته وأسمائه وصفاته فهؤلاء جزاؤهم الحسنى وهي الجنة وزيادة وهي النظر إلى وجهه الكريم في دار السلام ، وأنهم إذا بعثوا لا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة كما يكون ذلك لمن لم يجب دعوة الله تعالى ، وقرر جزاءهم ووضحه بقوله : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ وذكر جزاء من أعرض عن الدعوة ورفضها فأصر على الكفر والشرك والعصيان فقال ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا﴾ فالذين كسبوا سيآت الشرك والمعاصي فأساء ذلك إلى نفوسهم فدساها وخبثها جزاؤهم جهنم وترهقهم ذلة في عرصات القيامة وليس لهم من الله من عاصم يعصمهم من عذاب الله . كأنما وجوههم لسوادها قد أغشيت قطعاً من الليل مظلماً وقوله تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ تقرير لمصيرهم والعياذ بالله وهو ملازمة النار وعدم الخروج منها بخلودهم فيها .

هذا ما دلت عليه الآيتان الأولى (٢٦) والثانية (٢٧) أما الآيات الثالثة والرابعة والخامسة فإنها تضمنت عرضاً سريعاً لحشر الناس يوم القيامة ، والمراد بذلك تقرير عقيدة الإيمان باليوم الآخر فقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ أي في عرصات القيامة ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ أي بنا آلهة عبدوها دوننا ﴿مَكَانَكُمْ ﴾ أي قفوا لا تبرحوا مكانكم ﴿أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ ، ثم يزايل الله تعالى أي يفرق بينهم وهو معنى قوله تعالى ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ ولا شك أنهم يقولون ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين ندعو من دونك فلذا ذكر تعالى ردهم عليهم في قوله ﴿وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴾ أي لأننا ما كنا نسمعكم ولا نبصركم ولا أمرناكم بعبادتنا وهذا قول كل من عُبد من دون الله من سائر الأجناس ﴿ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ أي والله ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴾ غير شاعرين بحال من الأحوال بعبادتكم .

قال تعالى : ﴿هُنَالِكَ﴾ أي في ذلك الموقف الرهيب ﴿تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ﴾ أي تختبر ما قدمت في دنياها وتعرفه هل هو ضارٌ بها أو نافع لها ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ هكذا يجدون أنفسهم أمام مولاهم ومالك أمرهم ومعبودهم الحق والذي طالما كفروا به وتنكروا له وجحدوا آياته ورسله ﴿وَضَلَّ﴾ أي غاب عنهم ما كانوا يفترونه من الأكاذيب ... والأباطيل من تلك الأصنام التي سموها آلهة وعبدوها وندموا يوم لا ينفع الندم وجزاهم بما لم يكونوا يحتسبون اهـ .

إن هذا الكتاب العظيم ليرسم لنا هذا المشهد العظيم في ذلك اليوم العظيم : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦ ﴾ [المطففين]ولقد وصف الله ذلك اليوم بـ ﴿يَوْمٌ

ٱلْفَصْلِ ﴾ وهكذا تجتمع الخصوم وهكذا يثبتون في مكانٍ ما بأمر رهم تبارك وتعالى فلا يتحركون منه انتظار ما يحدث لهم من الفصل ، حوارات ساخنة ، وخصومات طاحنة لأهم التقوا في الدنيا على غير الحق بعيداً عن دين الله تعالى ومنهاجه المبارك ووقفوا هنالك لفصل القضاء وهم لا يكتمون الله حديثاً لأهم لا يستطيعون ذلك : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ ﴾ [الطارق] فيبعثر من في القبور ويحصل ما في الصدور ، وساعتها يكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضاً ومأواهم النار ومالهم من نصير ينصرهم ولا واقٍ يقيهم ولا وليٌّ يدفع عنهم إذ قالوا عن أنفسهم وأحوالهم : ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الشعراء]

وصدق الله إذ قال : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ ﴾ [ص] وقال الخليل عليه السلام كما حكى القرآن العظيم : ﴿ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [العنكبوت]

وعلى هذا فينبغي أن نتقي الشرك بأشكاله وألوانه العملي والقولي والقلبي ، وأن نهتم بإرساء قواعد التوحيد الخالص وأن نلتقي على الحب في الله ولله فتلك هي أداة النجاة : ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزخرف] فاللهم اجعلنا من المتقين وأدخلنا برحمتك في عبادك المخلصين الصالحين غير خزاي ولا مفتونين .

* من هداية الآيات :

١- بيان فضل الحسنة وما تعقبه من نيل الحسنى .

٢- بيان سوء السيئة وما تورثه من حسرة وندامة وما توجبه من خسران .

٣- تقرير معتقد البعث والجزاء بعرض صادق واضح له .

٤- تبرؤ من عُبد من دون الله من عابدين وسواء كان المعبود ملكاً أو إنساناً أو جاناً أو شجراً أو حجراً الكل يتبرأ من عابديه ويستشهد الله تعالى عليه .

٥- في عرصات القيامة تعلم كل نفس ما أحضرت ، وما قدمت وأخرت وتبلو ما أسلفت فتعرف وأنى لها أن تنتفع بما تعرف اهـ

﴿ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

ويُصرُّ الشُّركَاءُ الذينَ كَانَ المُشْرِكُونَ يَعْبُدونَهُمْ مِنْ دُونِ الله ، عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَشْعُرُونَ بِعبَادَتِهِمْ إِيَّاهُمْ ، وَلاَ يَعْلَمُونَ بِهَا ، وَيَقُولُونَ لَهُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَنَا وَنَحْنُ لاَ نَدْرِي بِكُمْ ، وَاللهُ شَهِيدٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، إِنَّا مَا دَعَوْنَاكُمْ إِلَى عِبَادَتِنَا ، وَلاَ أَمَرْنَاكُمْ بِهَا ، وَلاَ رَضِينَا مِنْكُمْ بِذَلِكَ . وَفِي هَذا تَبْكِيتٌ عَظِيمٌ لِلَّذِينَ عَبَدُوا مَعَ اللهِ غَيْرَهُ .

﴿ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

فِي ذَلِكَ المَوْقِفِ تَعْلَمُ كُلُّ نَفْسٍ مَا قَدَّمَتْ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ، وَتَلْقَى جَزَاءَهُ ، وَفِي هَذا المَوْقِفِ المَهُولِ يُوقِنُ المُشْرِكُونَ بِوَحْدَانِيَّةِ اللهِ تَعَالَى ، وَيَبْطُلُ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَهُ ، فَلاَ يَجِدُونَ أَحَداً يُنْقِذُهُمْ ، أَوْ يَنْصُرُهُمْ مِنْ بَأْسِ اللهِ .

﴿تَبْلُوا۟﴾ أي تَخْتَبِرُ أَوْ تَعْلَمُ أَوْ تَعَايِنُ .

* الحشر وما أدراك ما الحشر *

الحشر لغة : الجمع ، حشر الناس أي جمعهم ومنه قوله تعالى : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [النمل] وقوله تعالى: ﴿ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ ﴾ [الأعراف].

وفي الاصطلاح : هو سوق الخلائق بعد بعثهم ونشرهم أحياء من قبورهم للعرض والحساب وفصل القضاء .

قال القزويني : والحكمة في الحشر فضيحة العاصي ، وإظهار فضل الطائع ،لأن الإكرام والإهانة بين الملأ يكون أرفع للمطيع وأحط للعاصي ، وبقدر درجة الاجتماع يكون الصعود والهبوط فكيف بهذا المشهد العظيم يجتمع فيه الأولون والآخرون .قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [غافر]

أرض المحشر

إن الأرض ستتبدل وتتغير وهذا منصوص عليه . قال تعالى :﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [إبراهيم] ولأن هذه الأرض سوف تكون مع الجبال هباءاً منبثا قال تعالى : ﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ

لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ﴿٦﴾ ﴾ [الواقعة]

[٥٤] ولقد ذكر البخاري في صحيحه من حديث سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ لَيْسَ فِيهَا عَلَمٌ لأَحَدٍ » (١).

فهذه الآيات يدل ظاهرها على تغيير هذه الأرض التي نحن عليها الآن وتبديلها بأخرى يوم القيامة والسماء يوم القيامة لها أحوال عديدة فتطوى وتكور وتنشق وتصير وردة كالدهان وتكون ألواناً كالدهان و، وواهية كالمهل ، وقد قال أحد العلماء أن السماء تنشق أولاً ، ثم تصير وردة كالدهان ، وواهية وكالمهل ، وتكور الشمس والقمر وسائر النجوم .

[هذا الدرس كله لمسات وجدانية متتابعة ، تنتهي كلها إلى هدف واحد : مواجهة الفطرة البشرية بدلائل توحيد الله وصدق الرسول ، واليقين باليوم الآخر . والعدل فيه .

لمسات وجدانية تأخذ النفس من أقطارها ، وتأخذ بها إلى أقطار الكون ، في جولة واسعة شاملة . جولة من الأرض إلى السماء . ومن آفاق الكون إلى آفاق النفس . ومن ماضي القرون إلى الحاضر القريب . ومن الدنيا إلى الآخرة . . في سياق . .

وفي الدرس الماضي لمسات من هذه ، وجولات من هذه . . ولكنها في هذا الدرس أظهر . . فمن معرض الحشر ، إلى مشاهد الكون ، إلى ذات النفس ، إلى التحدي بالقرآن ، إلى التذكير بمصائر المكذبين من الماضين . ومن ثم لمحة عابرة من الحشر في مشهد جديد ، إلى تخويف من المفاجأة بالعذاب في صورة موحية للحس

---

(١) مختصر البخاري للمنذري تحقيق الألباني ك/صفة القيامة ب/ صفة الأرض يوم القيامة ح/ ١٩٤٧

بالتوحس ، إلى تصوير علم الله الشامل الذي لا يند عنه شيء ، إلى بعض آيات الله في الكون ، إلى الإنذار بما ينتظر المفترين على الله يوم الحساب . .

إنها جملة من اللمسات العميقة الصادقة ، لا تملك فطرة سليمة التلقي ، صحيحة الاستجابة ، ألا تستجيب لها ، وألا تتذاوب الحواجز والموانع فيها دون هذا الفيض من المؤثرات المستمدة من الحقائق الواقعة ، ومن فطرة الكون وفطرة النفس وطبائع الوجود . .

لقد كان الكفار صادقين في إحساسهم بخطر القرآن على صفوفهم وهم يتناهون عن الاستماع إليه خيفة أن يجرفهم تأثيره ويزلزل قلوبهم! وهم يريدون أن يظلوا على الشرك صامدين!

﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ كانت آخر آية في الدرس السابق : ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ فهنا يبين عن قواعد الجزاء للمهتدين ولغير المهتدين . ويكشف عن رحمة الله وفضله ، وعن قسطه وعدله في جزاء هؤلاء وهؤلاء .

فأما الذين أحسنوا . أحسنوا الاعتقاد ، وأحسنوا العمل ، وأحسنوا معرفة الصراط المستقيم ، وإدراك القانون الكوني المؤدي إلى دار السلام . . فأما هؤلاء فلهم الحسنى جزاء ما أحسنوا ، وعليها زيادة من فضل الله غير محدودة : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ وهم ناجون من كربات يوم الحشر ، ومن أهوال الموقف

قبل أن يفصل في أمر الخلق : ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ والقتر : الغبار والسواد وكدرة اللون من الحزن أو الضيق . والذلة : الانكسار والمهانة أو الإهانة . فلا يغشى وجوههم قتر ولا تكسو ملامحهم الذلة . . والتعبير يوحي بأن في الموقف من الزحام والهول والكرب والخوف والمهانة ما يخلع آثاره على الوجوه ، فالنجاة من هذا كله غنيمة ، وفضل ، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي أصحاب هذه المترلة العالية البعيدة الآفاق ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ وملاكها ورفاقها ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ .

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ فكانت هي الربح الذي خرجوا به من صفقة الحياة! هؤلاء ينالهم عدل الله ، فلا يضاعف لهم الجزاء ، ولا يزاد عليهم السوء . ولكن :

﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا﴾ . . ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ . .

تغشاهم وتركبهم وتكرههم .

﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ يعصمهم ويمنعهم من المصير المحتوم ، نفاذاً لسنة الله الكونية فيمن يحيد عن الطريق ، ويخالف الناموس [الوحي] . .

ثم يرسم السياق صورة حسية للظلام النفسي والكدرة التي تغشى وجه المكروب المأخوذ المرعوب :﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ كأنما أخذ من الليل المظلم فقطع رقعاً غشيت بها هذه الوجوه! وهكذا يغشى الجو كله ظلام من ظلام الليل المظلم ورهبة من رهبته ، تبدو فيه هذه الوجوه ملفعة بأغشية من هذا الليل البهيم . . ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ . المبعدون في هذا الظلام والقتام ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ . . ملاكها ورفاقها ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ . ولكن أين الشركاء والشفعاء؟ وكيف لم يعصموهم من دون الله ؟ هذه هي قصتهم في يوم الحشر العصيب :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

هذه هي قصة الشفعاء والشركاء في مشهد من مشاهد القيامة ، مشهد حي أبلغ من الإخبار المجرد بأن الشركاء والشفعاء لن يعصموا عبادهم من الله ، ولن يملكوا لهم خلاصاً ولا نجاة . هؤلاء هم محشورون جميعاً . . الكفار والشركاء . . وهم كانوا يزعمونهم شركاء لله ، ولكن القرآن يسميهم ﴿شُرَكَاؤُهُم﴾ تهكماً من وجهة ، وإشارة إلى أنهم من صنعهم هم ولم يكونوا يوماً شركاء لله ؛ هؤلاء هم جميعاً كفاراً وشركاء . يصدر إليهم الأمر : ﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ قفوا حيث أنتم . ولا بد أن يكونوا قد تسمروا في أماكنهم! فالأمر يومئذ للنفاذ . ثم فرق بينهم وبين شركائهم وحجز بينهما في الموقف : ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ وعندئذ لا يتكلم الذين كفروا ولكن يتكلم الشركاء يتكلمون ليبرئوا أنفسهم من الجريمة . جريمة أن عبدهم هؤلاء الكفار مع الله ، أو من دون الله ، وإعلان أنهم لم يعلموا بعبادتهم إياهم ولم يشعروا ، فهم إذن لم يشتركوا في الجناية ، ويشهدون الله وحده على ما يقولون : ﴿وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ هؤلاء هم الشركاء الذين كانوا يعبدون . هؤلاء هم ضعاف يطلبون البراءة من إثم أتباعهم . ويجعلون الله وحده شهيداً ، ويطلبون النجاة من إثم لم يشاركوا فيه! عندئذ ، وفي هذا الموقف المكشوف ، تختبر كل نفس ما أسلفت من عمل ، وتدرك عاقبته إدراك الخبرة والتجربة . اهـ [(١)]

---

(١) انظر الظلال :٣/ ١٧٧٨ – ١٧٨٠ في ظلال سورة يونس الآيات (٢٦ – ٣٠) ط/ دار الشروق .

سُورَةُ هُودٍ

تمهيد :-

إن الإنسان المسلم الذي آمن بهذا القرآن ينبغي أن يتعامل معه وهو الكتاب العزيز الذي أحكمه الله ﷻ على أنه رسائل مباركة من لدن حكيم عليم ، القارئ أو السامع لها ينبغي أن يعتبرها موجهة إليه شخصياً فإما أن يكون خيراً يؤمر الله به أو يحثه عليه ويبين له ثمراته ويبين له نتائجه الطيبة في الدنيا والآخرة ؛ وإما أن يكون شراً ينهاه الله تعالى عنه ويخوفه منه ويبين له من خلاله آثاره المؤلمة ونبحاته المرهقة ذلك ليتجنبه ، ويكون أبعد ما يكون منه وفي هذه القصة التي ذكرها الله ﷻ عن مصارع المكذبين ومآل الغابرين ينبغي أن يكون لنا فيها العبرة والاعتبار هنا يقتضي أن يعلم المسلم أنه إذا تولاه الله ﷻ على قوم ينبغي أن يأخذ بأيديهم إلى مرضاة الله تعالى ومحابه اتصالاً وانضباطاً واستقامة ،واتباعاً لخير الخلق الذين هداهم الله لأن كل امرئ يحشر مع من أحب وتولى قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾ ﴾ [النساء]

فهل يستوي هذا الذي حشر تحت لواء النبي ﷺ فشرب من حوضه المبارك وشفعه تعالى فيه وفرح قلبه بلقائه ﷺ مع باقي النبيين والمرسلين ، والصديقين والشهداء والصالحين هل يستوي هذا مع من يحشر مع فرعون يتقدمه حتى يورده النار بما فيها من إهانة وعذاب مؤلم موجع مع البقاء السرمدي فيها وعلى ذلك

فلينظر المرء أين يسير وكيف يسير وقبل أن يضع قدمه ينبغي أن يعلم أين وضعها فالأمر جدٌ لا استخفاف فيه ولا لعب وليعلم:

[٥٥] أن النبي ﷺ قال : ((إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ))(١) .

[٥٦] كما قال : ((لا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الخَالِقِ)) (٢) فانظر من تتولى وبمن تتأسى : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾ [الإسراء]

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ [هود: ٦٩ - ١٠١]

معاني الكلمات

﴿ فِى هَٰذِهِۦ ﴾ الدنيا لعنة المؤمنين ويوم القيامة لعنة الملائكة أو لعنة الدنيا الغرق ولعنة الآخرة النار .

(١) [جزء حديث] البخاري فتح : ١٣/١٣٧ ك/ الأحكام ب/ السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية ح/ ٧١٤٥ ط/ التوفيقية ومسلم نووي : ١٢/٥٣٣ ك/ الإمارة ب/ وجوب طاعة الأمراء في غير معصية ح/ ١٨٤٠ من حديث علي .وانظر سنن النسائي ت/الألباني ك/ البيعة ب/ جزاء من أمر بمعصية فأطاع ح/ ٤٢٠٥ . وانظر صحيح سنن أبي داود للألباني ح/ ٢٣٦٠ .

(٢) انظر مشكاة المصابيح للألباني : ٢/٣٤١ ح/ ٣٦٩٦ وذكره في صحيح الجامع ح/ ٧٥٢٠ .

﴿ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾ العون المعان ، أو الرفد الزيادة لأنهم زيدوا على الغرق[١] بالنار ، أو ذم لشرابهم فيها لأن الرِفد بالكسر ما في القدح من الشراب ، والرَفد بالتفح القدح

﴿نَقُصُّهُۥ﴾ نخبرك ، أو نتبع بعضه بعضاً .

﴿قَآئِمٞ﴾ عامر

﴿وَحَصِيدٞ﴾ خاوي

﴿تَتۡبِيبٖ﴾ تخسير ، أو هلاك ، أو شر .اهـ[٢]

المعنى العام

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يعني بحججنا والبراهين التي أعطيناه الدالة على صدقه ونبوته ﴿وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾ يعني ومعجزة باهرة ظاهرة دالة على صدقة أيضاً قال بعض المفسرين المحققين سميت الحجة سلطاناً لأن صاحب الحجة يقهر من لا حجة معه كالسلطان يقهر غيره ، وقال الزجاج : السلطان هو الحجة وسمي السلطان سلطاناً لأنه حجة الله في الأرض ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ يعني أتباعه وأشراف قومه ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ﴾ يعني ما هو عليه من الكفر وترك الإيمان بما جاءهم به موسى ﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾ يعني وما طريق فرعون وما هو عليه بسديد ولا حميد العاقبة ولا يدعو إلى خير ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ﴾ يعني كما تقدم قومه فأدخلهم البحر في الدنيا كذلك يتقدم قومه يوم

---

(١) وهذا من قبيل قوله تعالى حكاية عن هلاك قوم نوح :﴿ مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً﴾ فقد أخذوا من الإغراق إلى الإحراق مباشرةً .

(٢) انظر تفسير العز ابن عبد السلام تفسير سورة هود الآيات (٩٦ – ١٠١) .

القيامة فيدخلهم النار ويدخل هو أمامهم ، والمعنى كما كان قدوتهم في الضلال والكفر في الدنيا فكذلك هو قدوتهم وإمامهم في النار ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴾ يعني : وبئس الدخل المدخول فيه وقيل شبه الله تعالى فرعون في تقدمه على قومه إلى النار بمن يتقدم على الوارد إلى الماء وشبه أتباعه بالواردين بعده ولما كان ورود الماء محموداً عند الواردين لأنه يكسر العطش قال في حق فرعون وأتباعه فأوردهم النار وبئس الورد المورود لأن الأصل فيه قصد الماء واستعمل في ورود النار على سبيل الفظاعة ﴿ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ ﴾ يعني في هذه الدنيا ﴿لَعْنَةً﴾ يعني طرداً وبعداً عن الرحمة ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ يعني وأتبعوا لعنة أخرى يوم القيامة مع اللعنة التي حصلت لهم في الدنيا ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴾ يعني بئس العون المعان وذلك أن اللعنة في الدنيا رفد للعنة في الآخرة وقيل معناه بئس العطاء المعطى وذلك أن ترادف عليهم لعنتان لعنة في الدنيا ولعنة في الآخرة .اهـــ(١)

[وخاتمة ذلك القصص هذه الإشارة إلى قصة موسى مع فرعون ، لتسجيل نهاية فرعون وملئه ، ونهاية قومه الذين ائتمروا بأمره . وتتضمن هذه الإشارة العابرة إيماءات كثيرة إلى وقائع القصة التي لم تذكر هنا ، كما تضم مشهداً من مشاهد القيامة الحية المتحركة . وهذا وذلك إلى تقرير مبدأ رئيسي من مبادئ الإسلام ؛ مبدأ التبعة الفردية التي لا يسقطها اتباع الرؤساء والكبراء . ويبدأ المشهد المعروض هنا بإرسال موسى بالآيات مزوداً بقوة من الله وسلطان ، إلى فرعون ذي السلطان وكبراء قومه ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ﴾ . ويجمل السياق خطوات القصة كلها ليصل إلى نهايتها ، فإذا هم

---

(١) انظر تفسير الخازن لتفسير سورة هود الآيات (٩٦ – ١٠١) .

يتبعون أمر فرعون ، ويعصون أمر الله . على ما في أمر فرعون من حماقة وجهل وشطط : ﴿فَاتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ ولما كانوا تبعاً لفرعون في هذا الأمر ، يمشون خلفه ، ويتبعون خطواته الضالة بلا تدبر ولا تفكر ، ودون أن يكون لهم رأي ، مستهينين بأنفسهم ، متخلين عن تكريم الله لهم بالإرادة والعقل وحرية الاتجاه واختيار الطريق . . لما كانوا كذلك فإن السياق يقرر أن فرعون سيقدمهم يوم القيامة ويكونون له تبعاً :﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾وبينما نحن نسمع حكاية عن الماضي ووعداً عن المستقبل ، إذا المشهد ينقلب ، وإذا المستقبل ماض قد وقع ، وإذا فرعون قد قاد قومه إلى النار وانتهى :﴿ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ ﴾ !!

أوردهم كما يورد الراعي قطيع الغنم . ألم يكونوا قطيعاً يسير بدون تفكير؟ ألم يتنازلوا عن أخص خصائص الآدمية وهي حرية الإرادة والاختيار؟ فأوردهم النار . ويا بئساه من ورد لا يروي غلة ، ولا يشفي صدى ، إنما يشوي البطون والقلوب :

﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ وإذا ذلك كله . قيادة فرعون لهم ، وإيرادهم موردهم . . إذا ذلك كله حكاية تروى،ويُعلق عليها:﴿ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ﴾ويُسخر منها ويُتهكم عليها : ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾..

فهذه النار هي الرفد والعطاء والمنة التي رفد بها فرعون قومه !!! ألم يعد السحرة عطاء جزيلاً ورفداً مرفوداً . . فها هو ذا رفده لمن اتبعه . . النار . . وبئس الورد المورود . وبئس الرفد المرفود!

وذلك من بدائع التعبير والتصوير في هذا الكتاب العجيب . .اهـ[1] .

---

(١) انظر الظلال :٤/ ١٩٢٤ ، ١٩٢٥ في ظلال سورة هود (٩٦ – ١٠١) ط/ دار الشروق .

والخلاصة

*انتهى أمرهم وزالت آثارهم ، كأنهم لم يقيموا في ديارهم ، ونطق حالهم بما يجب أن يتنبه له ويعتبر به كل عاقل ، ألا هلاكاً لمدْين ، وبُعداً من رحمة الله كما بَعدت ثمود من قبلهم .

*ولقد أرسلنا موسى مؤيَّداً بمعجزاتنا الدالة على صدقه ، وبالبرهان المبين ذي السلطان القاهر على النفوس .

*أرسلناه إلى فرعون وكبار رجاله ، فكفر به فرعون وأمر قومه أن يتبعوه في الكفر ، فاتّبعوا أمر فرعون ، وخالفوا أمر موسى ، وما أمر فرعون بسديد حسن النتائج حتى يستحق أن يُتّبع .

* يتقدم قومه يوم القيامة ويقودهم كما قادهم في الدنيا ، فيوردهم النار حتماً ، يصْلَونها ويتجرعون غُصص عذابها ، وقُبح هذا المورد الذي يشربون منه ماء حميماً؛ ليطفئ ظمأهم ، فيقطّع أمعاءهم .

*وهم في هذه الدنيا قد تبعتهم لعنة من الله والملائكة والناس ، ويوم القيامة تتبعهم كذلك اللعنة ، لأنها عطاؤهم ، وإنه لعطاء قبيح يثير الشعور بالذنب ، ويقال فيه : بئس هذا العطاء المعطى لهؤلاء .

* ذلك القَصَص - أيها النبي - هو بعض أخبار القرى التي أهلكناها ، نقصُّها عليك لتعظ بها قومك ، وتطمئن إلى نصر الله لك ، بعض هذه القرى كالزرع القائم على ساقه ، ليشهدوا بما حصل ، وبعضها عَافى الأثر ، كالزّرع الذي حصد .

من هداية الآيات

١- من كتب الله شقاءه لا يؤمن بالآيات بل يردها ويكذب بها حتى يهلك .

٢- قوة الحجج وكثرة البراهين لا تستلزم إذعان الناس وإيمانهم .

٣- التحذير من اتباع رؤساء الشر وأئمة الفساد والضلال .

٤- ذم موارد الباطل والشر والفساد .

٥- شر المعذبين من جمع له بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة . اهـ [(١)]

((أهل السعادة وأهل الشقاوة))

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۖ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [هود: ١٠٣ - ١٠٩]

شرح الكلمات

﴿لَآيَةً﴾ : أي علامة على أن الذي عذّب في الدنيا قادر على أن يعذب في الآخرة .

﴿ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ : أي يشهد جميع الخلائق وهو يوم القيامة .

﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ : أي أجل الدنيا المعدود الأيام والساعات .

﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ : أي إلا بإذن الله تعالى .

﴿شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ : أي فمن أهل الموقف من هو شقي أزلاً وسيدخل النار ، ومنهم سعيد أزلاً وسيدخل الجنة .

---

(١) الجزائري : ٢/ ٤٥ تفسير سورة هود الآيات (٩٦ – ١٠١) ط/ دار الحديث .

﴿زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ : أي صوت شديد وهو الزفير وصوت ضعيف وهو الشهيق .

﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ : أي غير مقطوع بل هو دائم أبداً .

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ : أي في شك من بطلان عبادة هؤلاء المشركين

﴿نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ : ما قدر لهم من خير أو شر رحمة أو عذاب .

معنى الآيات

[قوله تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أي إن في أخذ الله تعالى للأمم الظالمة وتعذيبها بأشد أنواع العذاب آية أي علامة واضحة على أن من عذّب في الدنيا قادر على أن يعذب في الآخرة فالمؤمنون بلقاء الله تعالى يجدون فيما أخبر تعالى به من إهلاك الأمم الظالمة آية هي عبرة لهم فيواصلون تقواهم لله تعالى حتى يلاقوه وهم به مؤمنون ولأوامره ونواهيه مطيعون . وقوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ أي ذلك الذي فيه عذاب الآخرة هو يوم القيامة حيث يجمع فيه الناس لفصل القضاء ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ إذا تشهده الخلائق كلها وقوله تعالى ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾ أي وما يؤخر يوم القيامة إلا لإكمال عمر الدنيا المعدود السنين والأيام بل والساعات ؛ وقوله تعالى ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ أي يوم القيامة ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ أي بإذن الله تعالى وقوله ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ أي والناس فيه ما بين شقي وسعيد ، وذلك عائد إلى ما كتب لكل إنسان من شقاوة أو سعادة في كتاب المقادير ، أولاً ، ولما كسبوا من خير وشر ثانياً . وقوله تعالى ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟﴾ أي في حكم الله وقضائه ففي النار لهم فيها زفير وهو صوت شديد وشهيق وهو صوت ضعيف والصوتان متلازمان إذ هما كأول النهيق وآخره عند

الحمار . وقوله تعالى ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أي في النار ﴿ مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ أي مدة دوامهما ، وقوله ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ أن لا يخلد فيها وهم أهل التوحيد ممن ماتوا على كبائر الذنوب . وقوله تعالى ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ أي إن ربك أيها الإنسان فعال لما يريد إذا أرد شيئا فعله لا يحل بينه وبين فعله . وقوله ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ ﴾ أي حكم الله تعالى بسعادهم لما وفقهم الله من الإيمان والعمل الصالح وترك الشرك والمعاصي ﴿ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ إذ إرادة الله مطلقة لا تحد إلا بمشيئته العليا وقوله ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ أي عطاء من ربك لأهل طاعته غير مقطوع أبداً وهذا دليل خلودهم فيها أبدا .اهـ (1) .

وقال صاحب الظلال : والتعقيب الأول في هذا الدرس تعقيب مباشر على القصص ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ والتعقيب الثاني يتخذ مما نزل بالقرى من عذاب موحياً بالخوف من عذاب الآخرة الذي يعرض في مشهد شاخص من مشاهد يوم القيامة : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ

---

(١) تفسير الجزائري : ٢/ ٤٧ ، ٤٨ تفسير سورة هود الآيات (١٠٣ – ١٠٩) ط/ دار الحديث .

﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ
﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ
رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ يليه تعقيب آخر مستمد من عاقبة القرى ومن مشهد القيامة لتقرير أن المشركين الذين يواجههم محمد ﷺ شأنهم شأن من قبلهم في الحالين . وإذا كان عذاب الاستئصال لا يقع عليهم في الأرض ، فذلك لكلمة سبقت من ربك إلى أجل كما أجل العذاب لقوم موسى مع اختلافهم فيما جاءهم من كتاب . ولكن هؤلاء وهؤلاء سيوفون أعمالهم على وجه التأكيد . فاستقم أيها الرسول على طريقتك أنت ومن تاب معك ، ولا تركنوا إلى الذين ظلموا وأشركوا ، وأقم الصلاة واصبر ، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين . اهـــ [(١)]

من هداية الآيات

١- فضل وفضيلة الإيمان بالآخرة .

٢- حتمية البعث الآخر وأنه لا شك فيه .

٣- الشقاوة والسعاة مضى بهما القضاء والقدر قبل وجود الأشقياء والسعداء .

٤- عجز كل نفس عن الكلام يوم القيامة حتى يؤذن لها به .

٥- إرادة الله مطلقة ، لو شاء أن يخرج أهل النار لأخرجهم منها ولو شاء أن يخرج أهل الجنة لأخرجهم إلا أنه حكم بما أخبر به وهو العزيز الحكيم .اهـــ [(٢)] .

---

(١) انظر الظلال : ٤/ ١٩٢٦ ، ١٩٢٧ في ظلال سورة هود الآيات (١٠٠ – ١٠٨) .

(٢) الجزائري : ٢/ ٤٩ تفسير سورة هود الآيات (١٠٠ – ١٠٨) ط/ دار الحديث .

سُورَةُ الرَّعْد

﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ
جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾
۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الرعد]

بين يدي السورة :

تبدأ السورة بقضية عامة من قضايا العقيدة : قضية الوحي بهذا الكتاب ، والحق الذي اشتمل عليه . وتلك هي قاعدة بقية القضايا من توحيد لله ، ومن إيمان بالبعث ، ومن عمل صالح في الحياة . فكلها متفرعة عن الإيمان بأن الآمر بهذا هو الله ، وأن هذا القرآن وحي من عنده سبحانه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم :أ هـ الظلال .

شرح الكلمات:

﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ : أي للذين آمنوا وعملوا الصالحات الجنة .

﴿ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ ﴾ : أي لم يؤمنوا به و لم يطيعوه .

﴿ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ﴾ : وهي المؤاخذة بكل ذنب عملوه لا يغفر لهم منه شيء .

﴿ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ : أي الفراش الذي أعدوه لأنفسهم وهو جهنم .اهـ[1]

---

(١) انظر أيسر التفاسير للجزائري : ١٠٩/٢ ، تفسير سورة الرعد الآيات (١ – ١٨) ط/ دار الحديث .

* هل يستويان مثلا *

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : - لَّما بيّن تعالى الحق من الباطل ذكر أن الناس على قسمين: مستجيب لربه، فذكر ثوابه، وغير مستجيب فذكر عقابه فقال: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ﴾ أي: انقادت قلوبهم للعلم والإيمان وجوارحهم للأمر والنهي، وصاروا موافقين لربهم فيما يريده منهم، فلهم ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: الحالة الحسنة والثواب الحسن ؛ فلهم من الصفات أجلها ومن المناقب أفضلها ومن الثواب العاجل والآجل ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ﴾ بعد ما ضرب لهم الأمثال وبين لهم الحق، بأن لهم الحالة غير الحسنة، فـ ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من ذهب وفضة وغيرها، ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾ من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم وأنى لهم ذلك ؟!!

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ وهو الحساب الذي يأتي على كل ما أسلفوه من عمل سيئ وما ضيعوه من حقوق الله وحقوق عباده قد كتب ذلك وسطر عليهم وقالوا: ﴿يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف]﴿وَ﴾ بعد هذا الحساب السيئ ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ الجامعة لكل عذاب، من الجوع الشديد، والعطش

الوجيع، والنار الحامية والزقوم والزمهرير، والضريع وجميع ما ذكره الله من أصناف العذاب ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ أي: المقر والمسكن مسكنهم.اهـ (١)

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله : يخبر تعالى عن مآل السعداء والأشقياء فقال: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ﴾ أي: أطاعوا الله ورسوله، وانقادوا لأوامره، وصدقوا أخباره الماضية والآتية، فلهم ﴿الْحُسْنَى﴾ وهو الجزاء الحسن كما قال تعالى مخبرًا عن ذي القرنين أنه قال: ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨)﴾ [الكهف] وقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ أي لم: يطيعوا الله ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي: في الدار الآخرة، لو أن يمكنهم أن يفتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهباً ومثله معه لافتدوا به، ولكن لا يتقبل منهم؛ لأنه تعالى لا يقبل منهم يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ أي: في الدار الآخرة، أي: يناقشون على النقير والقطمير، والجليل والحقير، ومن نوقش الحساب عذب؛ ولهذا قال: ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ اهـ

قال الشيخ أبو بكر الجزائري :- ما زال السياق في تقرير التوحيد والتنديد بالكفر والشرك ففي هذه الآية الكريمة ضرب الله تعالى مثلاً للحق والباطل ، للحق في بقائه ، والباطل في اضمحلاله وتلاشيه فقال : ﴿أَنْزَلَ﴾ أي الله ﴿مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾

---

(١) انظر تفسير السعدي [المجلد الواحد] ص٤٣٧ ، تفسير سورة الرعد الآية (١٨) ط/ التوفيقية .

فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾ أي بحسب كبرها وصغرها لأن الوادي قد يكون كبيراً وقد يكون صغيراً ، ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ ﴾ أي حمل سيل الماء في الوادي ﴿زَبَدًا رَّابِيًا﴾ أي غثاء و وضراً على سطح الماء ، هذا مثل مائي ، ومثل ناري قال فيه ﷻ : ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ﴾ أي ومما يوقد عليه الصاغة والحدادون ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ ﴾ أي طلباً للحلية ، ﴿أَوْ مَتَٰعٍ﴾ أي طلباً لمتاع يتمتع به الأواني إذ الصائغ أو الحداد يضع الذهب أو الفضة أو النحاس في البوتقة وينفخ عليها بالكير فيعلو ما كان فاسداً غير صالح على صورة الزبد وما كان صالحاً يبقى في البوتقة وهو الذي يصنع منه الحيلة والمتاع ، وقوله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي المذكور من الأمور الأربعة مثلي الحق وهما الماء والجوهر ومثلي الباطل وهما زبد الماء وزبد الجوهر ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ﴾ أي باطلاً مرمياً به يرميه السيل إلى ساحل الوادي فيعلق بالأشجار والأحجار ويرميه الصائغ عن بوتقته ، وأما ما ينفع الناس من الماء للسقي والري فيمكث في الأرض ، وكذا ما ينفع من الحلي والمتاع يبقى في بوتقة الصائغ والحداد وقوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ أي مثل هذا المثل الذي ضربه للحق في بقائه والباطل في ذهابه وتلاشيه وإن علا وطغى في بعض الأوقات ، ﴿يَضْرِبُ﴾ أي بين الأمثال ، ليعلموا فيؤمنوا ويهتدوا فيكملوا ويسعدوا .

هذا ما تضمنته الآية الأولى (١٧) وأما الآية الثانية (١٨) فقد أخبر تعالى بوعد له ووعيد أما وعده فلأهل طاعته بأن لهم الحسنى الجنة وأما وعيده فلأهل معصيته وهو أسوأ وعيد وأشده ، فقال تعالى في وعده : ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ وقال في وعيده : ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ

جَمِيعًا﴾ أي من مال ومتاع ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ أيضاً لافتدوا به من العذاب الذي تضمنه هذا الوعيد الشديد ، ويعلن عن الوعيد فيقول ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي الأشقياء ﴿لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ﴾ وهو أن يحاسبوا على صغيرة وكبيرة في أعمالهم ولا يغفر لهم منها شيء ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ﴾ أي مقرهم ومكان إيوائهم ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ أي الفراش جهنم لهم .اهـ[1]

* من صفات أولي الألباب *

((عرض لصفات أهل الجنة وصفات أهل النار))

﴿۞ أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ١٩ – ٢٤]

لقد تضمنت هذه الآيات مقارنة ومفاضلة بين شخصيتين : الأولى شخصية مؤمن صالح كحمزة بن عبد المطلب والثانية شخصية كافر فاسد كأبي جهل المخزومي وبين ما لهما من جزاء في الدار الآخرة ، مع ذكر صفات كل منهما ، تلك الصفات المقتضية لجزائهما في الدار الآخرة قال تعالى : ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾ فيؤمن به بعد العلم ويستقيم على منهجه في عقيدته وعبادته ومعاملاته وسلوكه كله . هذه

---

(١) تفسير الجزائري : ٢/ ١١١ ، ١١٢ تفسير سورة الرعد الآيات (١٧، ١٨) ط/ دار الحديث .

الشخصية الأولى ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ لم يعلم الحق و لم يؤمن به و لم يفعـل بمـا أنـزل إلى الرسول ﷺ من الشرع

والجواب قطعاً أهما لا يستويان ولا يكونان في ميزان العدل والحق متساويين وقولـه تعالى : ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي يتعظ بمثل هذه المقارنة أصحاب العقول المدركـة للحقائق ، والمفرقة بين المتضادات كالحق والباطل والخير والشر والنافع والضار . وقولـه تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ ﴾ هذا مشروع في بيان صفاهم المقتضية إنعامهم وإكرامهم نـذكر لهم ثماني صفات هي كالتالي :

(١) الوفاء بالعهود وعدم نقضـها : ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴾ إذ لا دين لمن لا عهد له .

(٢) وصل ما أمر الله به أن يوصل من الإيمـان والإسـلام والإحسـان والأرحـام : ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ .

(٣) خشية الله المقتضية لطاعته : ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ .

(٤) الخوف من سوء الحساب يوم القيامة المقتضي لمحاسبة النفس على الصغيرة والكبيرة : ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ .

(٥) الصبر طلباً لمرضاة الله على الطاعات وعن المعاصي ، وعلـى الـبلاء : ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ .

(٦) إقامة الصلاة وهي أداؤها في أوقاها جماعة بكامل الشـروط والأركـان والسـنن والآداب : ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ .

(٧) الإنفاق مما رزقهم الله في الزكاة والصدقات الواجبة والمندوبة : ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ .

(٨) دفع السيئة بالحسنة فيدرءون سيئة الجهل عليهم بحسنة الحلم ، وسيئة الأذى بحسنة الصبر ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي العاقبة المحمودة وفسرها بقوله ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أي إقامة لا ظعن منه يدخلونها هم ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ والصلاح هنا الإيمان والعمل الصالح . وقوله : ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ هذا عند دخولهم الجنة تدخل عليهم الملائكة تهنئهم بسلامة الوصول وتحقيق المأمول وتسلم عليهم قائلة : ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ أي بسبب صبركم والإيمان والطاعة ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ . هذه تهنئة الملائكة لهم وأعظم بها تهنئة وأبرك بها بركة اللـــهم اجعلني منهم ووالدي وأهل بيتي والمسلمين أجمعين .[1]

* **وقال ابن الجوزي رحمه الله :**

﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٩) ﴾

قولـــه تعـــالى : ﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٩) ﴾ قال ابن عباس : نزلت في حمزة ، وأبي جهل . ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ أي : إنما يتّعظ ذوو العقول . والتذكّر : الاتعاظ .

﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) ﴾

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ ﴾ في هذا العهد قولان :

أحدهما : أنه ما عاهدهم عليه حين استخرجهم من ظهر آدم .

---

(١) انظر تفسير الجزائري لسورة الرعد الآيات (٢٠ – ٢٤) .

والثاني : ما أمرهم به وفرضه عليهم .

﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ﴾ أي : على ما أُمروا به ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ أي : طلباً لرضاه ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أتمّوها ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ﴾ من الأموال في طاعة الله قال ابن عباس : يريد بالصلاة : الصلوات الخمس ، وبالإنفاق : الزكاة .

قوله تعالى : ﴿وَيَدْرَءُونَ ﴾ أي : يدفعون ﴿بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾ . وفي المراد بهما خمسة أقوال :

أحدها : يدفعون بالعمل الصالح الشرَّ من العمل ، قاله ابن عباس .

والثاني : يدفعون بالمعروف المنكر ، قاله سعيد بن جبير .

والثالث : بالعفو الظلمَ ، قاله جُوَيبر .

والرابع : بالحلم السفهَ ، كأنهم إذا سُفه عليهم حَلُموا ، قاله ابن قتيبة .

والخامس : بالتوبة الذنبَ ، قاله ابن كيسان .

قوله تعالى : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ قال ابن عباس : يريد : عقباهم الجنة ، أي : تصير الجنة آخر أمرهم .

قوله تعالى : ﴿وَمَن صَلَحَ ﴾ وقرأ ابن أبي عبلة : «صلُح» بضم اللام . ومعنى ﴿صَلَحَ﴾ آمن ، وذلك أن الله تعالى ألحق بالمؤمن أهله المؤمنين إكراماً له ، لتقرَّ عينه

هم . ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ قال ابن عباس : بالتحية من الله والتحفة والهدايا .

قوله تعالى : ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ قال الزجاج : أُضمر القول هاهنا ، لأن في الكلام دليلاً عليه . وفي هذا السلام قولان :

أحدهما : أنه التحية المعروفة ، يدخل الملَك فيسلّم وينصرف . قال ابن الأنباري : وفي قول المسلّم : سلام عليكم ، قولان :

- أحدهما : أن السلام : الله ﷻ، والمعنى : الله عليكم ، أي : على حفظكم .

- والثاني : أن المعنى : السلامة عليكم ، فالسلام جمع سلامة .

والثاني: أن معناه : إنما سلّمكم الله تعالى من أهوال القيامة وشرّها بصبركم في الدنيا . وفيما صبروا عليه خمسة أقوال :

أحدها : أنه أمر الله ، قاله سعيد بن جبير .

والثاني : فضول الدنيا ، قاله الحسن .

والثالث : الدِّين .

والرابع : الفقر ، رويا عن أبي عمران الجَوني .

والخامس : أنه فقد المحبوب ، قاله ابن زيد .

* من هداية الآيات *

١- المؤمن حي يبصر ويعلم ويعمل والكافر ميت أعمى لا يعلم ولا يعمل .

٢- الاتعاظ بالمواعظ يحصل لذي عقل راجح سليم .

٣- فضل هذه الصفات الثمانية المذكورة في هذه الآيات . أولها الوفاء بعهد الله وآخرها درء السيئة بالحسنة .

٤- تفسير عقبى الدار وأنها الجنة .

٥- بيان أن الملائكة تهنئ أهل الجنة عند دخولها . اهـ (١)

* تلك عقبى الذين اتقوا *

﴿ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الرعد: ٣٥]

يقول تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ﴾ الذين تركوا ما نهاهم الله عنه، ولم يقصروا فيما أمرهم به، أي: صفتها وحقيقتها ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ﴾ أنهار العسل، وأنهار الخمر، وأنهار اللبن، وأنهار الماء التي تجري في غير أخدود، فتسقى تلك البساتين والأشجار فتحمل من جميع أنواع الثمار.

﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ﴾ دائم أيضا، ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ﴾ أي: عاقبتهم ومآلهم التي إليها يصيرون، ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ فكم بين الفريقين من الفرق المبين؟!! اهـ (٢).

---

(١) انظر تفسير الجزائري : ١١٢ تفسير سورة الرعد الآيات (٢٠ - ٢٤) ط/ دار الحديث .

(٢) انظر تفسير السعدي[المجلد الواحد] ص ٤٤١ تفسير سورة الرعد الآية (٣٥) ط/ التوفيقية .

من هداية الآيات : -

١- تقرير التوحيد إذ الأصنام لا تحفظ ولا ترزق ولا تحاسب ولا تجزي ، والله هو القائم على كل نفس فهو الإله الحق وما عداه فآلهة باطلة لا حقيقة لها إلا مجرد أسماء .

٢- استمرار الكفار على كفرهم هو نتيجة تزيين الشيطان لهم ذلك فصدهم عن السبيل .

٣- ميزة القرآن الكريم في الجمع بين الوعد والوعيد إذ بهما تمكن هداية الناس .[١]

---

(١) انظر تفسير الجزائري : ٢/١١٨ تفسير سورة الرعد الآية (٣٥) .

سُورَةُ إِبْرَاهِيم

﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ
رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي
ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٌ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ٢ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ
ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ
بَعِيدٖ ٣﴾

* تفسير بعض الكلمات *

﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ يعني القرآن .

﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : من الشك إلى اليقين .

الثاني : من البدعة إلى السنّة .

الثالث : من الضلالة إلى الهدى

الرابع : من الكفر إلى الإيمان

﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : بأمر ربهم ، قاله الضحاك .

الثاني : بعلم ربهم .

﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ فروى مِقْسم عن ابن عباس قال : كان قوم آمنوا بعيسى ، وقوم كفروا به ، فلما بعث محمد ﷺ آمن به الذين كفروا بعيسى ، وكفر به الذين آمنوا بعيسى ، فنــزلت هذه الآية .

قوله ﷻ : ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يختارونها على الآخرة ، قاله أبو مالك .

الثاني : يستبدلونها من الآخرة ، ذكره ابن عيسى ، والاستحباب هو التعرض للمحبة . ويحتمل ما يستحبونه من الحياة الدنيا على الآخرة وجهين :

أحدهما : يستحبون البقاء في الحياة الدنيا على البقاء في الآخرة .

الثاني : يستحبون النعيم فيها على النعيم في الآخرة .

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قال ابن عباس : عن دين الله .

ويحتمل : عن محمد ﷺ .

﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يرجون بمكة غير الإسلام ديناً ، قاله ابن عباس .

الثاني : يقصدون بمحمد ﷺ هلاكاً ، قاله السدي .

ويحتمل وجهاً ثالثاً : أن معناه يلتمسون الدنيا من غير وجهها لأن نعمة الله لا تستمد إلا بطاعته دون معصيته .

والعِوَج بكسر العين : في الدين والأمر والأرض وكل ما لم يكن قائماً . والعوج بفتح العين : في كل ما كان قائماً كالحائط والرمح .اهـ [١].

---

(١) انظر تفسير الماوردي لسورة إبراهيم الآيات (١ – ٣) .

* بين يدي السورة المباركة (١) *

هذه السورة مكية كلها في قول الجمهور ، وعن ابن عباس وقتادة ، هي مكية إلا من قوله : ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ الآية إلى قوله ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ ﴾ وارتباط أول هذه السورة بالسورة قبلها واضح جداً ، لأنه ذكر فيها : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا ﴾ [الرعد: ٣١] ثم ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ [الرعد: ٣٧] ثم ﴿ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [الرعد: ٤٣] فناسب هذا مع قوله ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ ﴾. وأيضاً فإنهم لما قالوا على سبيل الاقتراح ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ [الرعد: ٢٧] وقيل له : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ [الرعد: ٢٧] أنزل ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ ﴾. كأنه قيل : أو لم يكفهم من الآيات ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ هي الضلال إلى النور وهو الهدى اهـ (٢)

[هذا الكتاب المؤلف من جنس هذه الأحرف ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ ﴾ . لم تنشئه أنت . أنزلناه إليك لغاية : ﴿ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ . .

لتخرج هذه البشرية من الظلمات . ظلمات الوهم والخرافة . وظلمات الأوضاع والتقاليد . وظلمات الحيرة في تيه الأرباب المتفرقة ، وفي اضطراب التصورات والقيم والموازين . . لتخرج البشرية من هذه الظلمات كلها إلى النور . النور الذي يكشف

---

(١) لقد أوردت هذه المقدمة و التمهيد الطويلين لعلاقة موضوع الكتاب بما أوردت ولأن فيه نفعاً ملموساً بإذن الله .

(٢) البحر المحيط مقدمة سورة إبراهيم .

هذه الظلمات . يكشفها في عالم الضمير وفي دنيا التفكير . ثم يكشـفها في واقـع الحياة والقيم والأوضاع والتقاليد .

والإيمان بالله نور يشرق في القلب ، فيشرق به هذا الكيان البشري ، المركب من الطينة الغليظة ومن نفخة روح الله . فإذا ماخلا من إشراق هذه النفخة ، وإذا مـا طمست فيه هذه الإشراقة استحال طينة معتمة . طينة من لحـم ودم كالبهيمـة ، فاللحم والدم وحدهما من جنس طينة الأرض ومادها . لولا تلك الإشـراقة الـتي تنتفض فيه من روح الله ، يرقرقها الإيمان ويجلوها ، ويطلقها تشف في هذا الكيـان المعتم ، ويشف بها هذا الكيان المعتم .

والإيمان بالله نور تشرق به النفس ، فترى الطريق . ترى الطريق واضحة إلى الله ، لا يشوبها غبش ولا يحجبها ضباب . غبش الأوهام وضباب الخرافات . أو غـبش الشهوات وضباب الأطماع . ومتى رأت الطريق سارت على هدى لا تتعثـر ولا تضطرب ولا تتردد ولا تحتار .

والإيمان بالله نور تشرق به الحياة ، فإذا الناس كلهم عباد متساوون . تربط بينهم آصرهم في الله وتتمحض دينونتهم له دون سواه ، فلا ينقسمون إلى عبيد وطغاة . وتربطهم بالكون كله رابطة المعرفة . معرفة الناموس المسير لهذا الكون وما فيه ومن فيه . فإذا هم في سلام مع الكون وما فيه ومن فيه .

والإيمان بالله نور . نور العدل . ونور الحرية . ونور المعرفة . ونور الأنس بجوار الله ، والاطمئنان إلى عدله ورحمته وحكمته في السراء والضراء . ذلك الاطمئنـان الذي يستتبع الصبر في الضراء والشكر في السراء على نور من إدراك الحكمة في البلاء .

والإيمان بالله وحده إلهاً ورباً . منهج حياة كامل لا مجرد عقيدة تغمر الضـمير وتسكب فيه النور . . منهج حياة يقوم على قاعدة العبودية لله وحده ، والدينونـة لربوبيته وحده ، والتخلص من ربوبيات العبيد ، والاستعلاء على حاكمية العبيد .

وفي هذا المنهج من المواءمة مع الفطرة البشرية ، ومع الحاجات الحقيقية لهذه الفطرة ، ما يملأ الحياة سعادة ونوراً وطمأنينة وراحة . كما أن فيه من الاستقرار والثبات عاصماً من التقلبات والتخبطات التي تتعرض لها المجتمعات التي تخضع لربوبية العبيد ، وحاكمية العبيد ، ومناهج العبيد في السياسة والحكم وفي الاقتصاد والاجتماع ، وفي الخلق والسلوك ، وفي العادات والتقاليد . . وذلك فوق صيانة هذا المنهج للطاقة البشرية أن تبذل في تأليه العبيد ، ...

وإن وراء هذا التعبير القصير : ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ لآفاقاً بعيدة لحقائق ضخمة عميقة في عالم العقل والقلب . وفي عالم الحياة والواقع ، لا يبلغها التعبير البشري ولكنه يشير!﴿ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ . فليس في قدرة الرسول إلا البلاغ ، وليس من وظيفته إلا البيان . أما إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، فإنما يتحقق بإذن الله ، وفق سنته التي ارتضتها مشيئته ، وما الرسول إلا رسول!

﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾

فالصراط بدل من النور . وصراط الله : طريقه ، وسنته ، وناموسه[وحيه] الذي يحكم الوجود وشريعته التي تحكم الحياة . والنور يهدي إلى هذا الصراط ، أو النور هو الصراط . وهو أقوى في المعنى . فالنور المشرق في ذات النفس هو المشرق في ذات الكون . هو السنة . هو الناموس . هو الشريعة . والنفس التي تعيش في هذا النور لا تخطئ الإدراك ولا تخطئ التصور ولا تخطئ السلوك . فهي على صراط مستقيم .. ﴿صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾. . مالك القوة القاهر المسيطر المحمود المشكور .

والقوة تبرز هنا لتهديد من يكفرون ، والحمد يبرز لتذكير من يكفرون ، ثم يعقبها التعريف بالله سبحانه . إنه مالك ما في السماوات وما في الأرض ، الغني عن الناس ،

المسيطر على الكون وما فيه ومن فيه :﴿ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ . .

فمن خرج واهتدى فذاك . ولا يذكر عنه شيئاً هنا ، إنما يمضي السياق إلى تهديد الكافرين ينذرهم بالويل من عذاب شديد . جزاء كفرهم هذه النعمة . نعمة إرسال الرسول بالكتاب ليخرجهم من الظلمات إلى النور . وهي النعمة الكبرى التي يقوم لها شكر إنسان . فكيف بالكفران : ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ ثم يكشف عن صفة تحمل معنى العلة لكفر الكافرين بنعمة الله التي يحملها رسوله الكريم :﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ ﴾فاستحباب الحياة الدنيا على الآخرة يصطدم بتكاليف الإيمان؛ ويتعارض مع الاستقامة على الصراط . وليس الأمر كذلك حين تستحب الآخرة ، لأنه عندئذ تصلح الدنيا ، ويصبح المتاع بها معتدلاً ، ويراعى فيه وجه الله . فلا يقع التعارض بين استحباب الآخرة ومتاع هذه الحياة .

إن الذين يوجهون قلوبهم للآخرة ، لا يخسرون متاع الحياة الدنيا كما يقوم في الأخيلة المنحرفة فصلاح الآخرة في الإسلام يقتضي صلاح هذه الدنيا .اهـ [(١)].

* المعنى العام *

قوله تعالى : ﴿الٓر﴾ الله اعلم بمراده وقوله : ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ أي هذا كتاب عظيم القدر أنزلناه إليك يا رسولنا لتخرج الناس من الظلمات أي من الظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم الشرعي ، وذلك ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ أي بتوقيفه ومعونته ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ أي إلى طريق العزيز الغالب الحميد أي المحمود بآلائه

---

(١) انظر الظلال :٤/٢٠٨٥ ، ٢٠٨٦ تفسير سورة إبراهيم الآيات (١ – ٣) ط/ دار الشروق .

وأفضاله على عباده وسائر مخلوقاته ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ خلقاً وملكاً وتصريفاً وتدبيراً ، هذا هو الله صاحب الموصل إلى الإسعاد والإكمال البشري ، والكافرون معرضون بل ويصدون عنه فويل لهم من عذاب شديد ، الكافرون ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي يفضلون الحياة الدنيا فيعملون للدنيا ويتركون العمل للآخرة لعدم إيمانهم بها ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ أنفسهم وغيرهم أيضا ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي الإسلام ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ﴾ أي معوجة إنهم يريدون من الإسلام إن يوافقهم في أهوائهم وما يشتهون حتى يقبلوه ويرضوا به دنيا قال تعالى : ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ إنهم بهذا السلوك المتمثل في إيثار الدنيا على الآخرة والصد على الإسلام ، ومحاولة تسخير الإسلام لتحقيق أطماعهم وشهواتهم في ضلال بعيد لا يمكن لصاحبه أن يرجع منه إلى الهدى اهـ[1]

* من هداية الآيات *

١- إقامة الحجة على المكذبين بالقرآن الكريم ، إذ هو مؤلف من الحروف المقطعة مثل آلر وطسم وآلم وحم ، ولم يستطيعوا بمثله بل بسورة مثله .

٢- بيان أن الكفر ظلام ، والإيمان نور .

٣- بيان الحكمة في إرسال الله تعالى الرسل بلغات أقوامهم .

٤- تقرير أن الذي يخلق الهداية هو الله وأما العبد فليس له أكثر من الكسب .

٥- فضيلة التذكير بالخير والشكر ليشكر الله ويتقى .

٦- فضيلة الصبر والشكر .اهـ[2].

---

(١) انظر أيسر التفاسير للجزائري :٢/١٢٣ ، ١٢٤ تفسير سورة إبراهيم الآيات (١- ٣) ط/دار الحديث .

(٢) انظر المصدر السابق .

* عقوبات أعداء الرسل *

تمهيد :

هذه الآيات فيها من السلوى للمركروبين المحزونين الذين ابتلوا بانتفاش الباطل وتسليط الأعداء ما يرطب القلب ويشرح الصدر إذ إن الله ﷻ رقيبٌ لا يغيب عنه شيء في السماوات ولا في الأرض وهو يعلم صدق أولياءه وكذب أعداءه ولإن ترك ﷻ الأعداء ردحاً من الدهر يكيدون لأوليائه فليس هذا مطلق التسلط على الأولياء ، وإنما هو في حدود ترسيخ الإيمان لهم ومضاعفة الأجر ورفع الدرجات وعلى النحو الآخر هو استدراج للكافرين ولكن إذا وصل الأمر إلى حد بعيد لا طاقة معه على الصبر فإن الله تعالى يحسم المسألة بحكمه وحكمته ، وهنا تتجلى قدرة الله ﷻ وعنايته بالمؤمنين المحتسبين ، لقد كاد الكفار للأنبياء ومن معهم من المؤمنين كيداً عظيماً طويلاً ومكراً مستطيراً ، فلما بلغ الأمر إلى المساومة على أن يدخلوهم في ملتهم ، أو يخرجوهم من أرضهم نزلت البشارات من السماء برداً وسلاماً للأنبياء والأولياء ، ولتكون أيضاً صوت عذاب على الأباعد الأعداء فالله من ورائهم محيط ، يبطل كيدهم ويدحض مكرهم ويشتت شملهم ويمزق عددهم ، يجعل تدبيرهم تدميرا ، ثم يطهر الأرض منهم بعد أن قتّلهم لتصبح الأرض ميراثاً لأوليائه : ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [الأعراف] ولكن هل يتحقق هذا لكل مسلم وإن كان من المخلطين البعيدين عن المنهج ؟! بالطبع لا ، ولكن قد أعد الله هذا لقوم مخصوصين بخصائص بينة المعالم واضحة تمام الوضوح وهي : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ [إبراهيم] والأعجب من ذلك أن الله أعد لهم عذاباً غليظاً ، فالنار تحيط بهم وأعد لهم ذلك الشراب الصديد يتجرعه أحدهم فلا يكاد يسيغه ، ومن عظيم الأمر يحيط به الموت من كل مكان ، لكن لم يقض الله تعالى عليه بالموت فيضاعف له العذاب .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ
فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ
ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾
مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ
ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟
عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾ [إبراهيم: ١٣ -١٨]

* معاني الكلمات *

﴿مَقَامِى﴾ مقامه بين يدي . ﴿وَعِيدِ﴾ عذابي أو زواجر القرآن .

﴿ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ ﴾ الرسل بطلب النصر ، أو الكفار استفتحوا بالبلاء .

﴿جَبَّارٍ﴾ متكبر . ﴿عَنِيدٍ﴾ معاند للحق ، أو بعيد عنه .

﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ ﴾ من بعد هلاكه جهنم ، أو أمامه جهنم .

﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ من جسده لشدة آلامه ، أو يأتيه أسباب الموت عن يمين وشمال وفوق وتحت وقدام وخلف ، أو تأتيه شدائد الموت من كل مكان .

﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ ﴾ فيه الوجهان المذكوران . ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ الخلود في النار .

﴿ مَّثَلُ ﴾ أعمال ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ في حبوطها وبطلانها وأنه لا يحصل منها على شيء بالرماد المذكور ﴿عَاصِفٍ﴾ شديدة وصف اليوم بالعصوف لوقوعه فيه كما يقال

يوم حار ويوم بارد أو أراد عاصف الريح فحذف لتقدم ذكر الريح ، أو العصوف من صفة الريح المذكورة فلما جاء بعد اليوم أتبع إعرابه .اهـ [١]

((تحليل الآيات))

وقال البقاعي في كتابه "نظم الدرر" :- ولما انقضت هذه المحاورة وقد علم منها كل منصف ما عليه الرسل من الحلم والعلم والحكمة ، وما عليه مخالفهم من الضلال والجهل والعناد ، وكان في الكلام ما ربما أشعر بانقضائه ، ابتدأ تعالى عنهم محاورة أخرى ، عاطفاً لها على ما مضى ، فقال :﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ ﴾ مستهينين بمن قصروا التجاءهم عليه ، مؤكدين لاستشعارهم بإنكار من رأى مدافعة الله عن أوليائه لقولهم : والذي يحلف به! ليكونن أحد الأمرين : ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ ﴾ أي التي لنا الآن الغلبة عليها ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾ بأن تكفوا عن معارضتنا كما كنتم قبل دعوى الرسالة ، فإطلاق ملتهم على السكوت عنهم من إطلاق اسم الكل على الجزء على زعمهم مثل ﴿ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ ﴾ [نوح:٧] وهو مجاز مرسل ، فصبروا على ذلك كما أخبروا به توكلاً على ربهم واستمروا على نصيحتهم لهم بدعائهم إلى الله ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ ﴾ أي كلمهم في خفاء بسبب توعد أممهم لهم ، مختصاً لهم بذلك ﴿رَبُّهُمْ ﴾ المحسن إليهم الذي توكلوا عليه ، تسكيناً لقلوبهم وتسلية لنفوسهم... قوله: ﴿لَنُهْلِكَنَّ ﴾ بما لنا من العظمة المقتضية لنفوذ الأمر؛ والإهلاك : إذهاب الشيء إلى حيث لا يقع عليه الإحساس ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي العريقين في الظلم ، وربما تبنا على بعض من أخبرنا عنه بأنه كفر ، وهو من لم يكن عريقاً في كفره الذي هو أظلم الظلم ﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ﴾ أي دونهم ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ أي مطلقها وخصوص أرضهم ، وأشار إلى عدم الخلود بالجار فقال

---

(١) انظر تفسير العز بن عبد السلام لتفسير سورة إبراهيم الآيات (١٣ – ١٨) .

: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ بأن نورثكموها سواء قدرناهم على إخراجكم أم لا ، فكأنه قيل : هل ذلك خاص بهم؟ فقيل : لا ، بل ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الأمر العالي المـــرام ﴿لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي﴾ أي المكان الذي يقوم فيه من أحاسبه : ماذا تكون عاقبته فيه ، وهو أبلغ مـــن : خـــافني ، ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ لا بد أن أهلك ظالمه وأسكنه أرضه بعده ، فاستبشروا بذلك الوعد مـــن الله تعالى ﴿ وَٱسۡتَفۡتَحُواْ ﴾ على أعدائهم فـــأفلحوا وأنجحـــوا ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾ فأهلكناهم كلهم ، وكان لنا الغنى والحمد بعد إهلاكهم كما كـــان قبلـــه؛ والعنـــاد : الامتناع من الحق مع العلم به كبراً وبغياً ، من عَنَدَ عن الحق عنوداً ، والجبرية : طلب علو المنـــزلة بما ليس وراءه غاية في الصفة ، فهو ذم للعبد من حيث إنه طالب ما ليس لـــه؛ ثم أتبعه ما هو كدليل على خيبته من أن سيره إلى ما أمامه من العذاب ، فهو واقـــع فيـــه لا محالة وهو لا يشعر ، وعبر عن غفلته عنه بقوله : ﴿ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ ﴾ أي لا بد أنه يتبوأها

ولما كان المرجع وجود السقي للصديد مطلقاً ، بني للمفعول قولـــه : ﴿وَيُسۡقَىٰ﴾ أي فيها ﴿وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ﴾ وهو غسالة أهل النار كقيحهم ودمائهم ﴿ يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ أي يتكلف بلعه شيئاً فشيئاً لمرارته وحرارته ، فيغص به ويلقى منه من الشدة ما لا يعلـــم قدره إلا الله ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ ولا يقرب من إساغته ، فإن الإساغة جر الشيء في الحلق على تقبل النفس ﴿وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ ﴾ أي أسبابه التي لو جاءه سبب منها في الدنيا لمات ﴿مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾ والمكان : جوهر مهيأ للاستقرار ، فهو كناية عن أنه يحصل له من الشدائد ما يميت من قضى بموته ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖ﴾ أي بثابت له الموت أصلاً .اهـــ

***وقال السمرقندي** :قوله تعالى : ﴿ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ يقول : من قدامهم يعـــني : بعـــد المـــوت . ويقـــال : مـــن بعـــدهم جهـــنم . ويقـــال : يعـــني : أمامـــه .

كقوله تعالى : ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ ﴾ [الكهف] يعني : أمامهم .

ثم قال : ﴿ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴾ يعني : بماء يسيل من جلودهم من القيح والدم . ويقال : ماء كهيئة الصديد .

قوله تعالى : ﴿ يَتَجَرَّعُهُ ﴾ يعني : يرددن[1] في حلقه ﴿ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ ﴾ يقول ولا يقدر على ابتلاعه لكراهيته ويقال يجتره ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ يعني : غم الموت ، وألمه ، وطعمه ، من كل مكان من جسده . ويقال : من كل ناحية ، ومن كل عرق ، ومن كل موضع شعرة يجد مرارة الموت ﴿ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ ، يعني : لا يموت أبداً ﴿ وَمِن وَرَائِهِ ﴾ يعني : من بعد الصديد ﴿ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ يعني : شديد لا يُفتَّرُ عنه . اهـ

تمهيد:

إن أي عمل صالح ليس يقبل عند الله تعالى إلا بشرطين أساسين وركنين هامين وهما الإخلاص والاتباع وقد جمعهما الله تعالى في كلمات معدودات من كتابه العظيم إذ قال ﷻ : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف] فالله الله في الإخلاص والاتباع وإلا كانت الأعمال الصالحة عرضة للضياع .

---

(١) يتردد صعوداً وهبوطاً .

﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ ﴿١٧﴾﴾

تصوير هذا المشهد السابق:

والمشهد هنا عجيب . إنه مشهد الخيبة لكل جبار عنيد . مشهد الخيبة في هذه الأرض . ولكنه يقف هذا الموقف ، ومن ورائه تخايل جهنم وصورته فيها ، وهو يُسقى من الصديد السائل من الجسوم . يُسقاه بعنف فيتجرعه غصباً وكرهاً ، ولا يكاد يسيغه ، لقذارته ومرارته ، والتعزز والتكره باديان نكاد نلمحهما من خلال الكلمات! ويأتيه الموت بأسبابه المحيطة به من كل مكان ، ولكنه لا يموت ، ليستكمل عذابه . ومن ورائه عذاب غليظ . .

إنه مشهد عجيب ، يرسم الجبار الخائب المهزوم ووراءه مصيره يخايل له على هذا النحو المروّع الفظيع . وتشترك كلمة ﴿غَلِيظٞ﴾ في تفظيع المشهد ، تنسيقاً له مع القوة الغاشمة التي كانوا يهددون بها دعاة الحق والخير والصلاح واليقين .

وفي ظل هذا المصير يجيء التعقيب مثلاً مصوراً في مشهد يضرب الذين كفروا؛ ولفتة إلى قدرة الله على أن يُذهب المكذبين ويأتي بخلق جديد . اهـ [1]

---

(١) انظر الظلال : ٤/ ٢٠٩٣ ، ٢٠٩٤ في ظلال سورة إبراهيم الآيات (١٣ – ١٨) .

* مثل حي لأعمال الكافرين *

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

((وقفة بلاغية إعرابية))

قال الإمام الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : اعلم أنه – تعالى – لما ذكر أنواع عذاهم في الآية المتقدمة ، بين في هذه الآية وهى قوله – تعالى – ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ ﴾ أن أعمالهم بأسرها ضائعة باطلة ، لا ينتفعون بشيء منها . وعند هذا يظهر كمال خسرالهم ، لأهم لا يجدون في القيامة إلا العقاب الشديد وكل ما عملوه في الدنيا وجدوه ضائعاً باطلاً " .

والمثل : النظير والشبيه . ثم أطلق على القول السائر المعروف ، لمماثلة مضربه بمورده ، ولا يكون إلا فيما فيه غرابة ، ثم استعير للصفة ، أو الحال ، أو القصة إذا كان لها شأن عجيب ، وفيها غرابة .

والمراد بأعمال الذين كفروا في الآية الكريمة : ما كانوا يقومون به في الدنيا من أعمال حسنة كإطعام الطعام ، ومساعدة المحتاجين ، وإكرام الضيف ، إلى غير ذلك من الأعمال الطيبة .

والرماد : ما يتبقى من الشيء بعد احتراق أصله ، كالمتبقي من الخشب أو الحطب بعد احتراقهما .

والعاصف : من العصف وهو اشتداد الريح ، وقوة هبوبها .

قال الجمل : وقوله : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ..... ﴾ فيه أوجه للإعراب :

أحدها وهو مذهب سيبويه : أنه مبتدأ محذوف الخبر تقديره : فيما يتلى عليكم مثل الذين كفروا ، وتكون الجملة من قوله ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ . . . ﴾ مستأنفة جواب لسؤال مقدر ، كأنه قيل : كيف مثلهم . . ؟ فقيل : كيت و كيت .

والثاني : أن يكون ﴿ مَّثَلُ ﴾ مبتدأ و ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾ مبتدأ ثان ، و ﴿كَرَمَادٍ﴾ خبر المبتدأ الثاني ، والمبتدأ الثاني وخبره خبر المبتدأ الأول . . . "

والمعنى : حال أعمال الذين كفروا في حبوطها وذهابها وعدم انتفاعهم بشيء منها في الآخرة ، كحال الرماد المكدس الذي أتت عليه الرياح العاصفة ، فمحقته وبددته ، ومزقته تمزيقاً لا يجرى معه اجتماع .

فالآية الكريمة تشبيه بليغ لما يعمله الكافرون في الدنيا من أعمال البر والخير .

ووجه الشبه : الضياع والتفرق وعدم الانتفاع في كل ، فكما أن الريح العاصف تجعل الرماد هباء منثورا ، فكذلك أعمال الكافرين في الآخرة تصير هباء منثوراً ، لأنها أعمال بنيت على غير أساس من الإيمان وإخلاص العبادة لله - تعالى - .

ووصف ﷻ اليوم بأنه عاصف - مع أن العصف شدة الريح - للمبالغة في وصف زمانها - وهو اليوم - بذلك : ما يقال : يوم حار ويوم بارد ، مع أن الحر والبرد فيهما وليس منهما .

وقوله - سبحانه - ﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ بيان للمقصود من التشبيه ، وهو أن هؤلاء الكافرين ، لا يقدرون يوم القيامة ، على الانتفاع بشيء مما فعلوه في الدنيا من أفعال البر والخير ، لأن كفرهم أحبطها فذهب سدى دون أن يستفيدوا منها ثواباً ، أو تخفف عنهم عذاباً اهـ (١)

---

(١) انظر التفسير الوسيط لسورة إبراهيم الآيات (١٨ — ٢١) .

وقال الإمام ابن كثير ما ملخصه : " هذا مثل ضربة الله - تعالى - لأعمال الكفار الذين عبدوا مع الله غيره ، وكذبوا رسله ، وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح ، فانهارت وعدموها وهم أحوج ما كانوا إليها ......

كما قال ﷻ : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٣] وكما قال تعالى - ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ﴾ [آل عمران: ١١٧] واسم الإشارة في قوله ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ يعود إلى ما دل عليه التمثيل من بطلان أعمالهم ، وذهاب أثرها .

أي : ذلك الحبوط لأعمالهم ، وعدم انتفاعهم بشيء منها ، هو الضلال البعيد .

أي : البالغ أقصى نهايته ، والذي ينتهي بصاحبه إلى الهلاك والعذاب المهين .

ووصف ﷻ الضلال بالبعد ، لأنه يؤدى إلى خسران لا يمكن تداركه ، ولا يرجى الخلاص منه .

ثم بين ﷻ بعد ذلك ، بعض مظاهر قدرته التي لا يعجزها شيء فقال ﷻ: ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ﴾

واسم الإشارة في قوله ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ يعود إلى ما دل عليه التمثيل من بطلان أعمالهم ، وذهاب أثرها .

أي : ذلك الحبوط لأعمالهم ، وعدم انتفاعهم بشيء منها ، هو الضلال البعيد .

أي : البالغ أقصى نهايته ، والذي ينتهي بصاحبه إلى الهلاك والعذاب المهين .

ووصف ﷻ الضلال البعيد ، لأنه يؤدى إلى خسران لا يمكن تداركه ، ولا يرجى الخلاص منه .اهـ [(١)].

---

(١) انظر المصدر السابق .

* البروز الكبير في اليوم العظيم *

﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ (٢١) ﴾

﴿ وَبَرَزُوا ﴾ أي: الخلائق ﴿لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ حين ينفخ في الصور فيخرجون من الأجداث إلى ربهم فيقفون في أرض مستوية قاع صفصف، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا، ويبرزون له لا يخفى [عليه] منهم خافية، فإذا برزوا صاروا يتحاجون، وكل يدفع عن نفسه، ويدافع ما يقدر عليه، ولكن أنى لهم ذلك؟

فيقول ﴿الضُّعَفَاءُ ﴾ أي: التابعون والمقلدون ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ وهم: المتبوعون الذين هم قادة في الضلال: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ أي: في الدنيا، أمرتمونا بالضلال، وزينتموه لنا فأغويتمونا، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أي: ولو مثقال ذرة، ﴿قَالُوا ﴾ أي: المتبوعون والرؤساء و ﴿قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ﴾ فلا يغني أحد أحدا، ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا ﴾ من العذاب ﴿أَمْ صَبَرْنَا ﴾ عليه، ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ أي: من ملجأ نلجأ إليه، ولا مهرب لنا من عذاب الله. اهـ

(هذه صورة حيّة لموقف هؤلاء المجرمين وأتباعهم والحوارِ بينهم ، فحين يقفون جميعاً بين يدي الله يوم القيامة ، يقول الضعفاءُ التابعون للزعماءِ المستكبرين : لقد كُنا تابعين لكم في تكذيب الرسُل ومحاربتهم ، فهل تدافعون عنا اليومَ في هذا الموقف الرهيب؟ فيقول المستكبرون : لو أن الله هدانا لأرشدناكم ، ولكن ليس بيدِنا أيةُ حيلة ، ولي لنا مهربٌ ولا خلاصٌ مما نحن فيه جميعا ، وسِيّان الجزعُ والصبر ، فلا نجاةَ لنا من عذاب الله . اهـ

*** الشيطان يعترف لأوليائه بالحقيقة ويتبرأ منهم ***

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

أي: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ الذي هو سبب لكل شر يقع ووقع في العالم، مخاطبا لأهل النار ومتبرئا منهم ﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ﴾ ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ ﴾ على ألسنة رسله فلم تطيعوه، فلو أطعتموه لأدركتم الفوز العظيم، ﴿وَوَعَدتُّكُمْ ﴾ الخير ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ أي: لم يحصل ولن يحصل لكم ما منيتكم به من الأماني الباطلة.

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ﴾ أي: من حجة على تأييد قولي، ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ أي: هذا نهاية ما عندي أني دعوتكم إلى مرادي وزينته لكم، فاستجبتم لي اتباعا لأهوائكم وشهواتكم، فإذا كانت الحال بهذه الصورة ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ﴾ فأنتم السبب وعليكم المدار في موجب العقاب، ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ ﴾ أي: بمغيثكم من الشدة التي أنتم بها ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ﴾ كل له قسط من العذاب.

﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾ أي: تبرأت من جعلكم لي شريكا مع الله فلست شريكا لله ولا تجب طاعتي، ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ لأنفسهم بطاعة الشيطان ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ خالدين فيه أبدا.

* أفلا يرعوي ويترجر أناس عن غي الشيطان والوقوع في شباكه وشراكه حتى صاروا جنداً لهم يدعون إلى تلبيسه ، ويدفعون إلى خطواته بل وصلوا من الحيل والخداع والنكوص عن الحق والدعوة إلى الباطل أكثر من حيل إبليس – لعنه الله – أفلا يتوبون إلى الله تعالى ويتضرعون إليه نادمين على ما فات لعلّ الله تعالى يغفر لهم ما قد سلف قبل أن يفوت الأوان ، ويتهكم عليهم اللعين ويشمت بهم وهم في أمواج النار فلا يستطيع لهم غوثاً ، ولا نجاة ولا تخفيفاً للعذاب المهين ، فاللهم أعذنا من الشيطان وشركه .

وهذا من لطف الله بعباده ،أن حذرهم من طاعة الشيطان وأخبر بمداخله التي يدخل منها على الإنسان ومقاصده فيه، وأنه يقصد أن يدخله النيران، وهنا بين لنا أنه إذا دخل النار وحزبه أنه يتبرأ منهم هذه البراءة، ويكفر بشركهم ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر: ١٤] واعلم أن الله ذكر في هذه الآية أنه ليس له سلطان، وقال في آية أخرى ﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ۝١٠٠ ﴾ [النحل] فالسلطان الذي نفاه عنه هو سلطان الحجة والدليل، فليس له حجة أصلا على ما يدعو إليه، وإنما نهاية ذلك أن يقيم لهم من الشبه والتزيينات ما به يتجرؤون على المعاصي.

وأما السلطان الذي أثبته فهو التسلط بالإغراء على المعاصي لأوليائه يؤزّهم إلى المعاصي أزّا، وهم الذين سلطوه على أنفسهم بموالاته والالتحاق بحزبه، ولهذا ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون. اهـ (١)

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ : يخبر تعالى عما خطب به إبليس [لعنه الله] أتباعه، بعدما قضى الله بين عباده، فأدخل المؤمنين الجنات، وأسكن الكافرين الدركات، فقام فيهم إبليس -لعنه الله - حينئذ خطيبا ليزيدهم حزنا إلى حزنهم وغبنا إلى غبْنهم، وحسرة إلى حسرتهم، فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ ﴾ أي : على ألسنة رسله، ووعدكم في اتباعهم النجاة والسلامة، وكان وعدًا حقا، وخبرا صدقا، وأما أنا فوعدتكم وأخلفتكم،

---

(١) انظر تفسير السعدي [المجلد الواحد] ص ٤٤٧ ، ٤٤٨ لسورة إبراهيم الآيات (٢٢ ، ٢٣) .

كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: ١٢٠]. ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: ما كان لي عليكم فيما دعوتكم إليه من دليل ولا حجة على صدق ما وعدتكم به، ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ بمجرد ذلك، هذا وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاءوكم به، فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه، ﴿فَلَا تَلُومُونِى﴾ اليوم، ﴿وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ فإن الذنب لكم، لكونكم خالفتم الحجج واتبعتموني بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل، ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي: بنافعكم ومنقذكم ومخلصكم مما أنتم فيه، ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾ أي: بنافعي بإنقاذي مما أنا فيه من العذاب والنكال، ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ قال قتادة : أي بسبب ما أشركتمون من قبل ؛ وقال ابن جرير: يقول: إني جحدت أن أكون شريكا لله، ﷻ.

وهذا الذي قال هو الراجح كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]، وقال: ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨٢].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: في إعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ والظاهر من سياق الآية : أن هذه الخطبة تكون من إبليس بعد دخولهم النار، كما قدمنا.

[٥٧] ولكن قد ورد في حديث رواه ابن أبي حاتم -وهذا لفظه -وابن جرير من رواية عبد الرحمن بن زياد : حدثني دخين الحَجْري، عَنْ عُقْبَةَ بن عَامِرٍ، عَنْ رَسُولِ

اللَّهِ ﷺ، قَالَ: ((إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ وَقَضَى بَيْنَهُمْ وَفَرَغَ مِـنَ الْقَضَـاءِ بَيْنَهُمْ، قَالَ الْمُؤْمِنُونَ: قَدْ قَضَى بَيْنَنَا رَبُّنَا، فَمَنْ يَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّنَا؟ انْطَلِقُوا بنـا إِلَـى آدَمَ، فَإِنَّهُ أَبُونَا وَخَلَقَهُ اللَّهُ بِيَدِهِ وَكَلَّمَهُ، فَيَأْتُونَهُ فَيُكَلِّمُوهُ أَنْ يَشْفَعَ لَهُمْ فَيَقُولُ: عَلَيْكُمْ بنوحٍ فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَدُلُّهُمْ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَدُلُّهُمْ عَلَى مُوسَى، فَيَـأْتُونَ مُوسَى فَيَدُلُّهُمْ عَلَى عِيسَى، ثُمَّ يَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُ: أَدُلُّكُمْ عَلَى النَّبِيِّ الأُمِّيِّ، فَيَـأْتُونِّي فَيَأْذَنُ اللَّهُ لِي أَنْ أَقُومَ , فَيَثُورُ مَجْلِسِي مِنْ أَطْيَبِ رِيحٍ شَمَّهَا أَحَدٌ، حَتَّى آتِـيَ رَبِّـي تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَيُشَفِّعُنِي وَيَجْعَلُ لِي نُورًا مِنْ شَعَرِ رَأْسِي إِلَى ظُفُرِ قَدَمِي، ثُـمَّ يَقُـولُ الْكُفَّارُ: هَذَا قَدْ وَجَدَ الْمُؤْمِنُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَهُمْ، فَمَنْ يَشْفَعُ لَنَا؟ فَيَقُولُونَ: مَا هُوَ غَيْـرُ إِبْلِيسَ هُوَ الَّذِي أَضَلَّنَا، فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُونَ: قَدْ وَجَدَ الْمُؤْمِنُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَهُمْ فَقُمْ أَنْـتَ فَاشْفَعْ لَنَا، فَإِنَّكَ أَنْتَ أَضْلَلْتَنَا فَيَقُومُ فَيَثُورُ مَجْلِسُهُ أَنْتَنَ رِيحٍ شَمَّهَا أَحَدٌ، ثُمَّ يُـورِدُهُمْ جَهَنَّمَ، وَيَقُولُ عِنْدَ ذَلِكَ: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ ﴾))(١).

وهذا سياق ابن أبي حاتم، ورواه ابن المبارك عن رِشْدين بن سعد، عـن عبـد الرحمن بن زياد بن أنعم، عن دُخَيْن عن عُقْبَة، به مرفوعا . اهـ (٢).

﴿ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

---

(١) المعجم الكبير للطبراني : ١٢ / ٢٨٩ ح/ ١٤٣٠١

(٢) انظر تفسير ابن كثير : ٢/ ٥٤٤، ٥٤٥ تفسير سورة إبراهيم الآيات (٢١ – ٢٢) ط/ دار مصر .

قال ابن عاشور في كتابه " التحرير والتنوير " :- عطف على جملة ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾، وهو انتقال لوصف حال المؤمنين يومئذ بمناسبة ذكر حال المشركين لأن حال المؤمنين يومئذٍ من جملة الأحوال المقصودة بالوصف إظهاراً لتفاوت الأحوال ، فلم يدخل المؤمنون يومئذٍ في المنازعة والمجادلة تنزيهاً لهم عن الخوض في تلك الغمرة ، مع التنبيه على أنهم حينئذٍ في سلامة ودعة ؛ ويجوز جعل الواو للحال ، أي برزوا وقال الضعفاء وقال الكبراء وقال الشيطان إلخ وقد أدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات ، فيكون إشارة إلى أنهم فازوا بنزل الكرامة من أول وهلة .

وقوله : ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ إشارة إلى العناية والاهتمام ، فهو إذن أخص من أمر القضاء العام.

وقوله : ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ تقدم نظيره في أول سورة يونس . اهـ

﴿ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (٢٣) ﴾

قال الرازي في تفسيره : - ... وفيه مسألتان :

المسألة الأولى : اعلم أنه تعالى لما بالغ في شرح أحوال الأشقياء من الوجوه الكثيرة ، شرح أحوال السعداء ، وقد عرفت أن الثواب يجب أن يكون منفعة خالصة دائمة مقرونة بالتعظيم ، فالمنفعة الخالصة إليها الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ وكونها دائمة أشير إليه بقوله : ﴿خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ والتعظيم حصل من وجهين : أحدهما : أن تلك المنافع إنما حصلت بإذن الله تعالى وأمره . والثاني : قوله : ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ لأن بعضهم يحيي بعضاً بهذه الكلمة ،

والملائكة يحيوهم بها كمـا قـال : ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم ﴾ [الرعـد] والرب الرحيم يحييهم أيضاً بهذه الكلمة كما قال : ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يس] .

واعلم أن السلام مشتق من السلامة وإلا ظهر أن المراد أنهم سلموا من آفـات الـدنيا وحسراتها أو فنون آلامها وأسقامها ، وأنواع غمومها وهمومها ، وما أصدق ما قـالوا ، فإن السلامة من محن عالم الأجسام الكائنة الفاسدة من أعظم النعم ، لا سيما إذا حصـل بعد الخلاص منها الفوز بالبهجة الروحانية والسعادة الملكية .

المسألة الثانية : قرأ الحسن : ﴿ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ على معنى وأدخلهم أنـا ، وعلى هذه القراءة فقوله : ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ متعلق بما بعده ، أي تحيتهم فيها سلام بـإذن ربهم . يعني : أن الملائكة يحيوهم بإذن ربهم .اهـ [١]

قوله ﷻ : ﴿ . . . تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾ فيها وجهان :

أحدهما : أن تحية أهل الجنة إذا تلاقوا فيها السلامة ، وهو قول الجمهور .

الثـاني : أن التحية ها هنا الملك ، ومعناه أن ملكهم فيها دائم السلام ، مأخوذ مـن قولهم في التشهد : التحيات لله ، أي الملك لله ، ذكره ابن شجرة .

وفي المحيي لهم بالسلام ثلاثة أوجه :

أحدها : أن الله تعالى يحييهم بالسلام .

الثاني : أن الملائكة يحيوهم بالسلام .

الثالث: أن بعضهم يحيي بعضاً بالسلام .

---

(١) انظر تفسير الرازي لسورة إبراهيم الآيات (٢٢ – ٢٣)

وتشبيه الكلمة الطيبة بها لأنها ثابتة في القلب كثبوت أصل النخلة في الأرض ، فإذا ظهرت عرجت إلى السماء كما يعلو فرع النخلة نحو السماء فكلما ذكرت نفعت ، كما أن النخلة إذا أثمرت نفعت .اهـ [١]

* من هداية الآيات *

١- بيان أن التقليد والتبعية لا تكون عذراً لصاحبها عند الله تعالى .

٢- بيان أن الشيطان هو المعبود من دون الله تعالى إذ هو الذي دعا إلى عبادة غير الله وزينها للناس .

٣- تقرير لعلم الله بما لم يكن كيف يكون إذ ما جاء في الآيات من حوار لم يكن بعد ولكنه في علم الله كائن كما هو وسوف يكون كما جاء في الآيات لا يختلف منه حرف واحد

٤- وعيد الظالمين بأليم العذاب .

٥- العمل لا يدخل الجنة إلا بوصفه سبباً لا غير ، وإلا فدخول الجنة يكون بإذن الله تعالى ورضاه .اهـ [٢].

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [إبراهيم]

* كفران النعمة يورد الموارد *

* بعض المعاني :

﴿ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟﴾ قريش بدلوا نعمة إرسال الرسول ﷺ منهم كفراً به وجحوداً ، أو نزلت في بني أمية وبني مخزوم ، فأما بنو أمية فتمتعوا إلى حين ، وأما بنو مخزوم فأهلكوا يوم بدر ، أو هم قادة المشركين يوم بدر . أو جبلة بن الأيهم وتابعوه من العرب الذي

---

(١) انظر تفسير الماوردي لسورة إبراهيم الآيات (٢٢ – ٢٣) .

(٢) انظر تفسير الجزائري : ١٣٢/٢ ، ١٣٣ لسورة إبراهيم الآيات (٢٢ – ٢٣) .

لحقوا بالروم أو عامة في جميع المشركين . ﴿دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾ جهنم ، أو يوم بدر ، والبوار : الهلاك .اهـ [١].

﴿دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾ : دار الهلاك . ﴿يَصۡلَوۡنَهَا﴾ : يدخلونها ويقاسون حرها .

﴿أَندَادٗا﴾ : أمثالا . لا بيع فيه ولا خلال : لا فدية ولا صداقة تنفع أو تشفع .

﴿ ۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ الم ترَ وتعلم كيف تصرُّف هؤلاء القومُ! لقد تنكروا لنعمة الله الممثّلة في دعوة رسوله إلى الإيمان ونبذوها (وأولئك هم السادة من قريش وكبراء قومهم) ، بعد ما رأوا ما حلَّ بمن قبلَهم . وقد عرض القرآن عليهم مشاهدَ تلك القصة التي مرت في هذه السورة!! لقد استبدوا بنعمة دعوة الرسول إياهم كفرا ، وأنزلوا أتباعَهم من قومهم دارَ الهلاك ، جهنم يدخُلونها ويقاسُون حرَّها وبئس المنزل والقرار .

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾
وجعلوا لله الواحدِ في العبادة نظراءَ ، ليُضلوا الناس عن دينه القويم فقل لهم أيها الرسول ، تمتّعوا قليلاً في هذه الحياة إلى الأجلِ الذي قدّره الله لكم ، وعاقبتُكم ومصيركُم إلى جهنّم

﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾ [إبراهيم: ٣١]

بعد أن هدّد الله الكفارَ على جحودهم وانغماسهم في اللذات خاطبَ نبيَّه الكريمَ أن يأمر المؤمنين من عباده أن أحسِنوا وأقيموا الصلاةَ وأنفقوا بعض ما رزقكم ربُّكم في وجوه البِر في السر والعلَن ، من قبلِ أن يأتي يومُ القيامة الذي لا تنفع فيه صدقة ولا شفاعة ولا بيعٌ ولا عمل ،... اهـ [٢].

---

(١) انظر تفسير العز ابن عبد السلام لسورة إبراهيم الآية (٢٨) .

(٢) انظر تفسير القطان لسورة إبراهيم ا؟لآية (٣١) .

قال البيضاوي في تفسيره :- يقول الحق جل جلاله : ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد ﴿إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا﴾ شكر ﴿نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ ؛ بأن وضعوا الكفر مكان الشكر ، أو : بدلوا نفس النعمة كفراً؛ فإنهم لما كفروها سُلبت منهم ، فصاروا تاركين لها مُحصلين للكفر مكانها؛ كأهل مكة ، خلقهم الله من نسل إسماعيل عليه السلام ، وأسكنهم حَرَمه ، وجعلهم خُدَّام بيته ، وَوَسَّع عليهم أبواب رزقه ، وعطف عليهم قلوب خلقه ، وتمم شرفهم ببعْثة نبيه محمد ﷺ ، فكفروا ذلك ، فقحطوا ، وجاعوا حتى أكلوا الميتة ، وأُسروا وقُتلوا يوم بدر ، وصاروا كذلك مسلوبي النعمة ، موصوفين بالكفر؛ وعن عمر بن الخطاب وعليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما : أنها نزلت في الأفجريْن من قريش : بني المغيرة ، وبني أمية؛ فأما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر ، وأما بنو أمية فمُتِّعوا إلى حين . ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ﴾ : من أطاعهم في الكفر والتبديل ، أي : أنزلوهم ﴿دَارَ الْبَوَارِ﴾ : دار الهلاك ، بحملهم على الكفر معهم ، ثم فسرهم بقوله : ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ : يحترقون فيها ، و ﴿وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ ؛ وبئس المستقر جهنم .

ثم بيَّن كفرهم ، فقال : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ : أشباهاً وأمثالاً ، يعبدونها معه ، ﴿لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ﴾ ؛ عن طريق التوحيد ، أي : لتكون عاقبتهم الضلال أو الإضلال ، على القراءتين ، أي : ليضلوا في أنفسهم ، أو ليضلوا غيرهم . وليس الضلال كان غرضهم في اتخاذ الأنداد ، ولكن لمَّا كان نتيجته وعاقبته جُعل كالغرض . ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا﴾ بشهواتكم الدنيوية ، فإنها فانية ، أو بعبادتكم الأوثان ، فإنها من قبيل الهوى والأمر للتهديد . وفي التهديد بصيغة الأمر إيذان بأن المهدد عليه كالمطلوب؛ لإفضائه إلى المهدد به ، وان الأمرين كائنان لا محالة ، فلا بد من وقوع تمتعهم ، ولا بد من إفضائهم إلى النار

. ولذلك علقه بقوله : ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ ، وأن المخاطب [١] ، لانهماكه فيه ، كالمأمور به من آمر مطاع . اهـــ .

الإشارة : ظهور أهل التربية في زمان الغفلة والجهل نعمة عظيمةٌ ، لكن لا يعرفها إلا من سقط عليها ، ومن أنكرها ، وسدَّ باها ، وعوَّق الناس عن الدخول في طريقها ، فقد بدل نعمة الله كفراً ، وأحلَّ الناس من تبعه دار البوار ، وهي : الإقبـــال علـــى الـــدنيا ، والانهماك في الغفلة ، وخراب الباطن من نور اليقين ، وكثـــرة الخـــواطر والوســـاوس ، والحرض والجزع والهلع ، وغير ذلك من أمراض القلوب . وأيُّ عذاب المؤمن أشد مـــن هذا في الدنيا؟ ويسقط في الآخرة عن درجة المقربين ، ومن لم يصحب أهـــل التوحيـــد الخالص لا يخلو من عبادة أنداد وأشباه؛ بمحبته لهم والركون إليهم . ومن أحب شيئاً فهو عبد له .أ هـــ [٢]

* العلاج الأمثل قبل فوات الأوان *

﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾﴾

أي: قل لعبادي المؤمنين آمراً لهم بما فيه غاية صلاحهم وأن ينتهزوا الفرصة، قبل أن لا يمكنهم ذلك: ﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ ظاهرا وباطنا ﴿وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾أي: من الـــنعم التي أنعمنا بها عليهم قليلا أو كثيرا ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾وهذا يشمل النفقة الواجبة كالزكـــاة ونفقة من تجب عليه نفقته، والمستحبة كالصدقات ونحوهـــا. ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ أي: لا ينفع فيه شيء ولا سبيل إلى استدراك ما فات لا بمعاوضـــة بيـــع

---

(١) يقصد بقوله تعالى : ﴿ قل تمتعوا ﴾ فإنه أصل سيق للتهديد كقوله تعالى : ﴿اعملوا ما شـــئتم إنـــه بمـــا تعملون بصير ، وكقوله : ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ .

(٢) انظر تفسير ابن عجيبة لسورة إبراهيم الآيات من (٢٨ – ٣٠) .

وشراء ولا هبة خليل وصديق، فكل امرئ له شأن يغنيه، فليقدم العبد لنفسه، ولينظر ما قدمه لغد، وليتفقد أعماله، ويحاسب نفسه، قبل الحساب الأكبر. اهـ (١) .

* وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب *

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ ﴾

[أخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ قال : شخصت فيه والله أبصارهم فلا ترتد إليهم .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿مُهْطِعِينَ﴾ قال : يعني بالإهطاع النظر من غير أن يطرف ﴿مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ﴾ قال : الإقناع رفع رؤوسهم ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ قال : شاخصة أبصارهم ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ ليس فيها شيء من الخير ، فهي كالخربة . وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿مُهْطِعِينَ﴾ قال : مديمي النظر . وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر عن قتادة ﴿مُهْطِعِينَ﴾ قال : مسرعين . وأخرج هؤلاء عن قتادة في قوله : ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ قال : ليس فيها شيء ، خرجت من صدورهم فنشبت في حلوقهم

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ يقول : أنذرهم في الدنيا من قبل أن يأتيهم العذاب

---

(١) انظر تفسير السعدي [المجلد الواحد] ص٤٤٩ لسورة إبراهيم الآية (٣١) ط/ التوفيية .

. وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال : ﴿يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ هو يوم القيامة . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ﴾ قال : عما أنتم فيه إلى ما تقولون . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدّي في قوله : ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ﴾ قال : بعث بعد الموت .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر عن الحسن في قوله : ﴿ وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ قال : عملتم بمثل أعمالهم . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ﴾ يقول : ما كان مكـرهم ﴿لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾ . وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابـن أبي حـاتم عـن ابـن عبـاس ﴿وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ﴾ يقول : شركهم كقوله : قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ٩٠ ﴾ [مريم] .

[يكمل السياق الشوط ليكشف عما أعد للكافرين بنعمة الله؛ ومتى يلقون مصـيرهم المحتوم؛ وذلك في مشاهد متعاقبة من مشاهد القيامة ، تزلزل الأقدام والقلوب :

﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ٤٢ مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ٤٣ ﴾ والرسول ﷺ لا يحسب الله غافلاً عما يعمل الظالمون . ولكن ظاهر الأمر يبدو هكذا لبعض من يـرون الظالمين يتمتعون ، ويسمع بوعيد الله ، ثم لا يراه واقعاً بهم في هذه الحياة الدنيا . فهـذه الصيغة تكشف عن الأجل المضروب لأخذهم الأخذة الأخيرة ، التي لا إمهال بعـدها . ولا فكاك منها . أخذهم في اليوم العصيب الذي تشخص فيه الأبصار من الفزع والهلع ، فتظل مفتوحة مبهوتة مذهولة ، مأخوذة بالهول لا تطرف ولا تتحرك . ثم يرسم مشـهداً للقوم في زحمة الهول . . مشهدهم مسرعين لا يلوون على شيء ، ولا يلتفتون إلى شيء . رافعين رؤوسهم لا عن إرادة ولكنها مشدودة لا يملكون لها حراكاً . يمتد بصرهم إلى ما

يشاهدون من الرعب فلا يطرف ولا يرتد إليهم . وقلوبهم من الفزع خاوية خالية لا تضم شيئاً يعونه أو يحفظونه أو يتذكرونه ، فهي هواء خواء . .

هذا هو اليوم الذي يؤخرهم الله إليه . حيث يقفون هذا الموقف ، ويعانون هذا الرعب . الذي يرتسم من خلال المقاطع الأربعة مذهلاً آخذاً بهم كالطائر الصغير في مخالب الباشق الرعيب :

﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ ﴾

السرعة المهرولة المدفوعة ، في الهيئة الشاخصة المكرهة المشدودة ، مع القلب المفزع الطائر الخاوي من كل وعي ومن كل إدراك . . كلها تشي بالهول الذي تشخص فيه الأبصار . .

هذا هو اليوم الذي يؤخرهم الله إليه ، والذي ينتظرهم بعد الإمهال هناك . فأنذر الناس أنه إذا جاء فلا اعتذار يومئذ ولا فكاك . . وهنا يرسم مشهداً آخر لليوم الرعيب المنظور : ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ ﴾ أنذرهم يوم يأتيهم ذلك العذاب المرسوم آنفاً ، فيتوجه الذين ظلموا يومئذ إلى الله بالرجاء ، يقولون :

﴿ رَبَّنَآ ﴾ الآن وقد كانوا يكفرون به من قبل ويجعلون له أنداداً!

﴿ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ﴾ وهنا ينقلب السياق من الحكاية إلى الخطاب . كأنهم ماثلون شاخصون يطلبون . وكأننا في الآخرة وقد انطوت

الدنيا وما كان فيها . فها هو ذا الخطاب يوجه إليهم من الملأ الأعلى بالتبكيت والتأنيب ، والتذكير بما فرط منهم في تلك الحياة :

﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ فكيف ترون الآن؟! زلتم يا ترى أم لم تزولوا ؟! ولقد قلتم قولتكم هذه وآثار الغابرين شاخصة أمامكم مثلاً بارزاً للظالمين ومصيرهم المحتوم :

﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾ فكان عجيباً أن تروا مساكن الظالمين أمامكم ، خالية منهم ، وأنتم فيها خلفاء ، ثم تقسمون مع ذلك :

﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ وعند هذا التبكيت ينتهي المشهد ، وندرك أين صاروا ، وماذا كان بعد الدعاء وخيبة الرجاء .

وإن هذا المثل ليتجدد في الحياة ويقع كل حين . فكم من طغاة يسكنون مساكن الطغاة الذين هلكوا من قبلهم . وربما يكونون قد هلكوا على أيديهم . ثم هم يطغون بعد ذلك ويتجبرون؛ ويسيرون حذوك النعل بالنعل سيرة الهالكين؛ فلا تهز وجدانهم تلك الآثار الباقية التي يسكنونها ، والتي تتحدث عن تاريخ الهالكين ، وتصور مصائرهم للناظرين . ثم يؤخذون إخذة الغابرين ، ويلحقون بهم وتخلوا منهم الديار بعد حين ! [1]

---

(١) الظلال : ٤/٢١١١، ٢١١٢ في ظلال سورة إبراهيم الآيات (٤٣ ، ٤٤) .

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى
ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ
ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا
بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾ .

* شرح الكلمات *

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ : أي غالب لا يحال بينه وبين مراده بحال من الأحوال .

﴿ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ : أي صاحب انتقام ممن عصاه وعصى رسوله .

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ ﴾ : أي اذكر يا رسولنا للظالمين يوم تبدل الأرض .

﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ﴾ : أي خرجوا من القبور لله ليحاسبهم ويجزيهم .

﴿مُّقَرَّنِينَ ﴾ : أي مشدودة أيديهم وأرجلهم إلى رقاهم .

﴿فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾ : الأصفاد جمع صفد وهو الوثائق من حبل وغيره .

﴿ سَرَابِيلُهُم ﴾ : أي قمصهم التي يلبسوهما من قطران .

﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ : أصحاب العقول .

* معنى الآيات *

ما زال السياق في تسلية الرسول ﷺ والمؤمنين وهم يعانون من صلف المشركين وظلمهم وطغيانهم فيقول تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ﴾ إنه كما لم يخلف رسله الأولين لا يخلفك أنت ، إنه لا بد منجز لك ما وعدك من النصر على أعدائك فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تعجل لهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو

ﱡﭐﲆﱠ أي غالـب لا يغلـب علـى أمـره مـا يريـده لا بـد واقـع ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ شديد ممن عصاه وتمرد على طاعته وحارب أوليـاءه ، واذكـر ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ كذلك ﴿وَبَرَزُواْ﴾ أي ظهروا بعد خروجهم مـن قبورهم في طريقهم إلى المحشر إجابة منهم لدعوة الداعي وقد برزوا ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ ، و ﴿وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ﴾ يا رسولنا تراهم ﴿مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾ مشـدودة أيديهم وأرجلهم إلى أعناقهم ، هؤلاء المجرمون اليوم بالشرك والظلم والشـر والفسـاد أجرموا على أنفسهم أولاً ثم على غيرهم ثانياً سواء ممن ظلموهم وآذوهم أو ممن دعـوهم إلى الشرك وحملوهم عليه ، الجميع قد أجرموا في حقهم ، ﴿سَرَابِيلُهُم﴾ قمصانهم التي على أجسامهم ﴿مِّن قَطِرَانٖ﴾ وهو ما تدهن به الإبل : مادة سوداء محرقة للجسم أو مـن نحاس إذ قُرِيء من قِطرآن أي من نحاس أحمي عليه حتى بلغ المنتهى في الحـرارة ﴿وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي وتغطي وجوهم النار بلهبها ، هؤلاء هـم المجرمـون في الـدنيا بالشرك والمعاصي ، وهذا هو جزاؤهم يوم القيامة ، فعل تعالى هذا بهم ﴿لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٥١﴾﴾ فما بين إن وجدوا في الدنيا إن انتهوا إلى نار جهنم واستقروا في أتون جحيمها إلا كمن دخل مع باب وخرج مـع آخـر ، وأخيراً يقول تعـالى : ﴿هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾ أي هذا القرآن بلاغ للناس من رب الناس قد بلغه إليهم رسول رب الناس ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ أي بما فيه من العظات والعبر والعرض الألوان العذاب وصـنوف الشقاء لأهل الإجرام والشر والفساد ، ﴿وَلِيَعۡلَمُوٓاْ﴾ أي بما فيه مـن الحجـج والـدلائل والبراهين ﴿أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ أي معبود واحد لا ثاني له وهو الله جل جلالـه ، فـلا

يعبدوا معه غيره إذ هو وحده الرب والإله الحق ، وما عـــداه فباطـــل ، ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ ﴾ أي وليـــتعظ بهـــذا القـــرآن أصـــحاب العقـــول المدركـــة الواعية فيعملوا على إنجاء أنفســـهم مـــن غضـــب الله وعذابـــه ، وليفـــوزوا برحمتـــه ورضوانه . اهـــ [١].

* الويل لأهل الشرك *

﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ وأحسوا أنهم مكشوفون لا يسترهم ساتر ، ولا يقـيهم واق . ليسوا في دورهم وليسوا في قبورهم . إنما هم في العراء أمام الواحـــد القهـــار .. ولفظة ﴿ الْقَهَّارِ ﴾ هنا تشترك في ظل التهديد بالقوة القاهرة التي لا يقف لها كيد الجبابرة . وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال .

ثم ها نحن أولاء أمام مشهد من مشاهد العذاب العنيف القاسي المذل ، يناسب ذلـك المكـــر وذلـــك الجـــبروت : ﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠) ﴾ فمشهد المجرمين : اثـــنين اثـــنين مقرونين في الوثاق ، يمرون صفاً وراء صف . . مشهد مذل دال كذلك على قدرة القهار . ويضاف إلى قرنهم في الوثاق أن سرابيلهم وثيابهم من مادة شديدة القابلية للالتـــهاب ، وهي في ذات الوقت قذرة سوداء . . ﴿ مِّن قَطِرَانٍ ﴾ . . ففيها الذل والتحقير ، وفيها الإيحاء بشدة الاشتعال بمجرد قربهم من النار!

﴿ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ فهو مشهد العذاب المذل المتلظي المشتعل جـزاء المكـــر والاستكبار . . ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١) ﴾ ولقد كسبوا المكر والظلم فجزاؤهم القهر والذل . إن الله ســـريع الحســـاب . فالســـرعة في

---

(١) انظر تفسير الجزائري : ١٤٢ تفسير سورة إبراهيم الآيات (٤٧ ، ٥٢) .

الحساب هنا تناسب المكر والتدبير الذي كانوا يحسبونه يحميهم ويخفيهم ، ويعوق انتصار أحد عليهم . فها هم أولاء يجزون ما كسبوا ذلاً وألماً وسرعة حساب!

وفي النهاية تختم السورة بمثل ما بدأت ، ولكن في إعلان عام جهير الصوت ، عـــالي الصدى ، لتبليغ البشرية كلها في كل مكان :﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾ إن الغاية الأساسية من ذلك البلاغ وهذا الإنذار ، هي أن يعلم الناس ﴿أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ . اهـــ (١)

* من هداية الآيات *

١- بيان صدق وعد الله من وعدهم من رسله وأوليائه .

٢- بيان أحوال المجرمين في العرض وفي جهنم .

٣- بيان العلة في المعاد الآخر وهو الجزاء على الكسب في الدنيا .

٤- قوله تعالى في آخر آية من هذه السورة : ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾ هذه الآية صالحة لأن تكون عنواناً للقرآن الكريم إذ دلت على مضمونة كاملاً مع وجازة اللفظ وجمال العبـــارة ، والحمـــد لله أولا وآخراً .اهـــ (٢) .

---

(١) انظر الظلال : ٤/ ٢١١٣ ، ٢١١٤ في ظلال سورة إبراهيم الآيات (٥٠ ، ٥٢) .

(٢) انظر تفسير الجزائري : ١٤٢/٢ تفسير سورة إبراهيم الآية (٥٢) .

سُورَةُ الحِجـــر

* أبواب النار *

تمهيد :

لقد ذكر القرآن أبواب النار في هذه الآية كما ذكر ذلك في سورة الزمر حيث قـال تعــالى : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧١ ﴾ [الزمر]

[٥٨] وفي صحيح البخاري عن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قال : قَالَ رَسُولُ اللّــهِ ﷺ : ((إِذَا دَخَلَ رَمَضَانُ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ وَسُلْسِلَتْ الشَّيَاطِينُ))[١] .

[٥٩] وفي رواية في صحيح مسلم وغيره : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((إِذَا جَاءَ رَمَضَانُ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ وَصُفِّدَتْ الشَّيَاطِينُ))[٢]

[٦٠] وفي حديث البراء بن عازب عند أهل السنن لما ذكر النبي ﷺ سؤال الملكين بين أنه يفتح للكافر باب من أبواب النار : ((..... ثُمَّ يُفْتَح لَهُ بَاب مِنْ أَبْـوَاب النَّـار , فَيُقَال لَهُ : هَذَا مَقْعَدك مِنْ النَّار , وَمَا أَعَدَّ اللَّه لَك فِيهَا . فَيَزْدَاد حَسْرَة وَثُبُورًا)).[٣]

---

(١) البخاري فتح : ٣٧٣/٦ ك/ بدء الخلق ب/ صفة إبليس وجنوده ح/ ٣٢٧٧ .

(٢) مسلم نووي : ١٤٨/٧ ك/ الصيام ب/ فضل شهر رمضان ح/ ١٠٧٩ .

(٣) صحيح الترغيب (٣٥٦١) وحسنه الألباني وانظر تهذيب سنن أبي داود لابن القيم الجـوزي : ٤٣٧/٢ وصحيح ابن حبان : ٣٦٩/٧ ح/ ٣٨٢ .

﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الحجر: ٤١ – ٤٤]

﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ : أي هذا طريق مستقيم موصل الي وعليّ مراعاته وحفظه

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ ﴾ : أي أبواب طبقاهما السبع التي هي جهـــنم ، ثم لظـــى ، ثم الحُطمة ، ثم السعير ، ثم سَقَر ، ثم الجحيم ، ثم الهاوية .

* معنى الآيات *

قوله تعالى : ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أي هذا طريق مســتقيم إلي أرعــاه واحفظه وهــو ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ ﴾ لموعدك وموعد أتباعك الغاوين أجمعين ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ ﴾ إذ هي سبع طبقات لكل طبقة باب فوقها يدخل معه أهل تلك الطبقة ، وهو معنى قوله تعــالى : ﴿لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ أي نصيب معين .

قال الطبري في تفسيره :

وحدثني الحسن بن محمد، قال: ثنا شبابة، قال: ثنا ورقاء، وحدثني المثنى، قال: ثنا أبو حُذيفة، قال: ثنا شبل، وحدثني المثنى، قال: ثنا إسحاق، قال: ثنا عبد الله، عن ورقــاء، جميعا عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، قوله ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾قال: الحقّ يرجــع إلى الله ، وعليه طريقه، لا يعرِّج على شيء.

حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثني حجاج، عن ابن جريج، عن مجاهد، بنحوه.

حدثنا أحمد بن يوسف، قال: ثنا القاسم، قال: ثنا مَرْوان بن شجاع، عن خَصِيف، عن زياد بن أبي مريم، وعبد الله بن كثير أنهما قرآها ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ وقالا عليّ هي إليّ وبمنزلتها.

حدثنا الحسن بن محمد، قال: ثنا عبد الوهاب بن عطاء، عن إسماعيل بن مسلم، عن الحسن وسعيد عن قتادة، عن الحسن ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ يقول: إليّ مستقيم.

وقرأ ذلك قيس بن عباد وابن سيرين وقتادة فيما ذُكر عنهم ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ برفع عليّ على أنه نعت للصراط، بمعنى: رفيع.

*** ذكر من قال ذلك:**

حدثني المثنى، قال: ثنا إسحاق، قال: ثنا ابن أبي حماد، قال: ثني جعفر البصري، عن ابن سيرين أنه كان يقرأ ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ يعني: رفيع.

حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي رفيع مستقيم ، قال بشر، قال يزيد، قال سعيد: هكذا نقرؤها نحن وقتادة.

حدثنا الحسن بن محمد، قال: ثنا عبد الوهاب، عن هارون، عن أبي العوّام، عن قتادة، عن قيس بن عباد ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ يقول: رفيع.

والصواب من القراءة في ذلك عندنا قراءة من قرأ ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ على التأويل الذي ذكرناه عن مجاهد والحسن البصري ، ومن وافقهما عليه، لإجماع الحجة من القرّاء عليها ، وشذوذ ما خالفها.

وقوله ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ يقول تعالى ذكره: إن عبادي ليس لك عليهم حجة، إلا من اتبعك على ما دعوته إليه من

الضلالة ممن غوى وهلك...القول في تأويل قوله تعـالى : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾

يقول تعالى ذكره لإبليس: وإن جهنم لموعد من تبعـك أجمعـين ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ﴾ يقول: لجهنم سبعة أطباق، لكلّ طَبَق منهم: يعني من أتباع إبليس جزء، يعـني: قسـما ونصيبا مقسوما. اهـ

[إن عبادي المخلصين لا قوة ولا قدرة لك على إغوائهم ، لأنهم حـتى إذا مسـهم طائف منك . أسرعوا بالتوبة الصادقة إلى ، فقبلتها منهم . وغفرت لهـم زلتـهم . . . ولكنك تستطيع إغواء أتباعك الذين استحوذت عليهم؛ فانقادوا لك . . .

وفى هاتين الآيتين ما فيهما من التنويه بشأن عباد الله المخلصين ، ومن المديح لهم بقوة الإيمان ، وعلو المترلة ، وصدق العزيمة؛ وضبط النفس . . .

قال –سـبحانه و تعـالى – : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [الإسراء: ٦٥]

قال الآلوسي وقولـه : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ .... ﴾ أي تصـرف وتسلط ، والمراد بالعباد؛ المشار إليهم بالمخلصين ، فالإضافة للعهد والاستثناء على هذا في قوله ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ منقطع .

واختار هذا غير واحد . . . وجوز أن يكون بالعباد العمـوم والاسـتثناء متصـل ، والكلام كالتقرير لقوله إلا عبادك منهم المخلصين ، ولذا لم يعطف على ما قبله ، وتغـيير الوضع لتعظيم المخلصين ، بجعلهم هم الباقين بعد الاستثناء . . . .

ثم بين ﷻ سوء عاقبة المتبعين لإبليس فقـال: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴾ .

والضمير في قوله ﴿لَمَوۡعِدُهُمۡ﴾ يعود إلى الغاوين ، أو إلى ﴿مَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ والموعد : مكان الوعد .

والمراد به هنا المكان الذي سينتهون إليه حتمًا بعد أن كانوا غافلين عنها في الدنيا ، وهو جهنم أي وإن جهنم لمكان محتوم لهؤلاء الذين أغواهم إبليس دون أن يفلت أحد من سعيرها .

وجملة ﴿لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ﴾ مستأنفة لوصف حال جهنم وأبوابها .

وجملة ﴿لِكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ﴾ صفة لأبواب ، وضمير ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ يعود إلى الغاوين أتباع إبليس .

والمقسوم : من القَسْمِ وهو إفراز النصيب عن غيره تقول : قسمت كذا قسماً وقسمة إذا ميزت كل قسم عن سواه .

والمعنى : إن لجهنم سبعة أبواب ، لكل باب منها ، فريق معين من الغاوين يدخلون منه ، على حسب تفاوتهم في الغواية وفى متابعة إبليس ويرى كثير من المفسرين أن المراد بالأبواب هنا الأطباق والدركات .

أي لجهنم سبعة أطباق أو دركات بعضها فوق بعض ، ينزلها الغاوون ، بحسب أصنافهم وتفاوت مراتبهم في الغي والضلال .

قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ : قوله – تعالى ﴿لِكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ﴾ أي : قد كتب لكل باب منها جزء من أتباع إبليس ، يدخلونه لا محيد لهم عنه – أجارنا الله منها – وكل يدخل من باب بحسب عمله ، ويستقر في درك بقدر فعله . . . . ثم قال :

[٦١] وعن عمرة بن جندب ﷺ عن النبي ﷺ في قوله ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ قال : ((إن من أهل النار من تأخذه النار إلى كعبيه ، وإن منهم من تأخذه النار إلى حجزته ، ومنهم من تأخذه النار إلى تراقيه . . . " .اهـ [١] .

* من هداية الآيات *

١- حرمان إبليس من التوبة لاستمرار غضب الله عليه إلى يوم القيامة .

٢- استجاب الله لشر خلقه وهو إبليس فمن الجائز أن يستجيب الله دعاء الكافر لحكمة يريدها الله تعالى .

٣- أمضى سلاح يغوي به إبليس بني آدم هو التزين الأشياء حتى ولو كانت ذميمة قبيحة يصيرها بوسواسه زينة حسنة حتى يأتيها الآدمي .

٤- عصمة الرسل وحفظ الله للأولياء حتى لا يتلوثوا بأوضار الذنوب .

٥- طريق الله مستقيم إلى الله تعالى يسلكه الناس حتى ينتهوا إلى الله سبحانه فيحاسبهم ويجزيهم بكسبهم الخير بالخير والشر بالشر .

٧- بيان أن لجهنم طبقات واحدة فوق أخرى ولكل طبقة بابها فوقها يدخل معه أهل تلك الطبقة لا غير . اهـ [٢] .

* التقوى والجنة *

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الحجر]

---

(١) انظر التفسير الوسيط لسورة الحجر الآيات (٤١ ، ٤٤) .

(٢) انظر تفسير الجزائري: ٢/١٥٢ تفسير سورة الحجر الآيات (٤١ ، ٤٤) ط/ دار الحديث .

* شرح الكلمات *

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ : أي الذين خافوا ربهم فعبدوه بما شرع لهم من العبادات .

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ : أي حقد وحسد وعداوة وبغضاء .

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ : أي ينظر بعضهم إلى بعض ما داموا جالسين وإذا انصرفوا دارت بهم الأسرة فلا ينظر بعضهم إلى قفا بعض .

﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ ﴾ : أي تعب .

﴿ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ : أي الموجع شديد الإيجاع .اهـ [1]

* مع الآيات البينات *

﴿فِي جَنَّٰتٍ ﴾ في بساتين ﴿وَعُيُونٍ ﴾ ماء طاهر ﴿ ٱدْخُلُوهَا ﴾ يقول الله تعالى لهم يوم القيامة ادخلوا الجنة ﴿بِسَلَٰمٍ ﴾ مع سلام وتحية ويقال بسلامة ونجاة منا ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ من الموت والزوال ﴿وَنَزَعْنَا ﴾أخرجنا ﴿مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾وغش وعداوة كانت بينهم في الدنيا ﴿إِخْوَٰنًا ﴾ في الآخرة ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ في الزيارة . ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا ﴾ لا يصيبهم في الجنة ﴿نَصَبٌ ﴾ تعب ولا مشقة ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا ﴾ من الجنة ﴿بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ ﴾ خبر عبادي ﴿أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ﴾المتجاوز ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴾ لمن مات على التوبة ﴿ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾ الوجيع لمن لم يتب ومات على الكفر اهـ [2].

---

(١) انظر تفسير الجزائري : ٢/ ١٥٢ ، ١٥٣ لسورة الحجر الآيات (٤٥ ، ٥٠) .

(٢) انظر تنوير المقايس تفسير سورة الحجر الآيات (٤٥ ، ٥٠) .

المناسبة بين الآيات السابقة واللاحقة :-

[ولما ذكر تعالى ما أعد لأعدائه أتباع إبليس من النكال والعذاب الشديد ذكر ما أعد لأوليائه من الفضل العظيم والنعيم المقيم فقال : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ الذين اتقوا طاعة الشيطان وما يدعوهم إليه من جميع الذنوب والعصيان ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ قد احتوت على جميع الأشجار وأينعت فيها جميع الثمار اللذيذة في جميع الأوقات.

ويقال لهم حال دخولها: ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ من الموت والنوم والنصب، واللغوب وانقطاع شيء من النعيم الذي هم فيه أو نقصانه ومن المرض، والحزن والهم وسائر المكدرات، ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ فتبقى قلوبهم سالمة من كل دغل وحسد متصافية متحابة ﴿إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ .

دل ذلك على تزاورهم واجتماعهم وحسن أدبهم فيما بينهم في كون كل منهم مقابلا للآخر لا مستدبرا له متكئين على تلك السرر المزينة بالفرش واللؤلؤ وأنواع الجواهر.

﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ ﴾ لا ظاهر ولا باطن، وذلك لأن الله ينشئهم نشأة وحياة كاملة لا تقبل شيئا من الآفات، ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ على سائر الأوقات.

ولما ذكر ما يوجب الرغبة والرهبة من مفعولات الله من الجنة والنار، ذكر ما يوجب ذلك من أوصافه تعالى فقال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ ﴾ أي: أخبرهم خبرا جازما مؤيدا بالأدلة،

﴿أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فإنهم إذا عرفوا كمال رحمته، ومغفرته سعوا في الأسباب الموصلة لهم إلى رحمته وأقلعوا عن الذنوب وتابوا منها، لينالوا مغفرته.

ومع هذا فلا ينبغي أن يتمادى بهم الرجاء إلى حال الأمن والإدلال، فنبههم ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ٥٠﴾ أي: لا عذاب في الحقيقة إلا عذاب الله الذي لا يقادر قدره ولا يبلغ كنهه نعوذ به من عذابه، فإنهم إذا عرفوا أنه ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ٢٦﴾ [الفجر: ٢٥ - ٢٦] حذروا وأبعدوا عن كل سبب يوجب لهم العقاب، فالعبد ينبغي أن يكون قلبه دائما بين الخوف والرجاء، والرغبة والرهبة، فإذا نظر إلى رحمة ربه ومغفرته وجوده وإحسانه، أحدث له ذلك الرجاء والرغبة، وإذا نظر إلى ذنوبه وتقصيره في حقوق ربه، أحدث له الخوف والرهبة والإقلاع عنها. اهـ (١).

[ومفرق الطريق بين الاتجاه إلى الجنة التي وعد بها المتقون؛ وبين الاتجاه إلى جهنم التي وعد بها الغاوون ، هو الدينونة لله وحده التي يعبر عنها في القرآن دائماً بالعبادة أو اتباع تزيين الشيطان بالخروج على هذه الدينونة .

والشيطان نفسه لم يكن ينكر وجود الله سبحانه ، ولا صفاته . . أي إنه لم يكن يلحد في الله من ناحية العقيدة! إنما الذي فعله هو الخروج على الدينونة لله . . وهذا هو ما أورده جهنم هو ومن اتبعه من الغاوين .

إن الدينونة لله وحده هي مناط الإسلام . فلا قيمة لإسلام يدين أصحابه لغير الله في حكم من الأحكام . وسواء كان هذا الحكم خاصاً بالاعتقاد والتصور . أو خاصاً بالشعائر والمناسك . أو خاصاً بالشرائع والقوانين . أو خاصاً بالقيم والموازين . . فهو

---

(١) انظر تفسير السعدي [المجلد الواحد] ص ٤٥٦ ، ٤٥٧ تفسير سورة الحجر الآيات (٤٥ ، ٥٠)ط/ التوفيقية .

سواء . . الدينونة فيه لله هي الإسلام . و الدينونة فيه لغير الله هي الجاهلية الذاهبة مع الشيطان .

ولا يمكن تجزئة هذه الدينونة؛ واختصاصها بالاعتقاد والشعائر دون النظام والشرائع . فالدينونة لله كل لا يتجزأ . وهي العبادة لله في معناها اللغوي وفي معناها الاصطلاحي على السواء . . وعليها تدور المعركة الخالدة بين الإنسان والشيطان!

* وأخيراً نقف أمام اللفتة الصادقة العميقة في قوله تعالى عن المتقين :

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ إن هذا الدين لا يحاول تغيير طبيعة البشر في هذه الأرض؛ ولا تحويلهم خلقاً آخر . ومن ثم يعترف لهم بأنه كان في صدورهم غلٌ في الدنيا؛ وبأن هذا من طبيعة بشريتهم التي لا يذهب بها الإيمان والإسلام من جذورها؛ ولكنه يعالجها فقط لتخف حدتها ، ويتسامى بها لتنصرف إلى الحب في الله والكره في الله وهل الإيمان إلا الحب والبغض؟ ولكنهم في الجنة قد وصلت بشريتهم إلى منتهى رقيها وأدت كذلك دورها في الحياة الدنيا ينـزع أصل الإحساس بالغل من صدروهم؛ ولا تكون إلا الأخوة الصافية الودود . .

إنها درجة أهل الجنة . . فمن وجدها في نفسه غالبة في هذه الأرض ، فليستبشر بأنه من أهلها ، ما دام ذلك وهو مؤمن ، فهذا هو الشرط الذي لا تقوم بغيره الأعمال . . اهـ [(١)] .

---

(١) انظر الظلال : ٤/ ٢١٤٤ ، ٢١٤٥ في ظلال سورة الحجر الآيات (٤٥ ، ٥٠) ط/ دار الشروق .

من مشكاة النبوة : -

[٦٢] وقد رغَّب النبي ﷺ في الجنة كثيراً ففي حديث أبي بكرة أن النبي ﷺ قال : ((... فإن ريح الجنة يوجد من مسيرة خمسمائة عام)) (١).

[٦٣] وفي حديث أبي هريرة ﷺ قال : قال رسـول الله ﷺ : ((... وَالَّـذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَحِمْيَـرَ ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى)) (٢)

[٦٤] وحديث معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ : ((يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّـةِ الْجَنَّةَ جُرْدًا مُرْدًا مُكَحَّلِينَ أَبْنَاءَ ثَلَاثِينَ أَوْ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً)) (٣)

[٦٥] وروى البيهقي من حديث يحيى بن أبي طالب بإسناده إلى عبد الله بـن عمرو قال : ((إن أدنى أهلِ الجنةِ منزلةً من يسعى عليه ألفُ خادم، كلُّ خـادمٍ على عمَلٍ ليس عليه صاحبُه وتلا هذه الآيـة ﴿وإذا رأيتهم حسـبتَهم لؤلـؤاً منثوراً﴾ (٤).

[٦٦] وعن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : ((إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَـرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ مِـنَ الْأُفُقِ مِـنَ الْمَشْرِقِ أَوِ الْمَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ)) . قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ

---

(١) صحيح الترغيب (٣٦٩٢) وصححه الألباني ونسبه لابن حبان .

(٢) البخاري فتح : ٨/٢٦٧، ٢٦٨ ك/ التفسير ب/ ﴿ ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً ﴾ .ح/ ٤٧١٢ .

(٣)انظر سنن الترمذي ك/ صفة الجنة عن رسول الله ب/ ما جاء في سن أهل الجنة ح/ ٢٥٤٥ انظر صحيح الترغيب (٣٦٩٨) وقال الألباني : صحيح لغيره .

(٤) صحيح الترغيب (٣٧٠٥) وصححه الألباني .

لاَ يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ. قَالَ ((بَلَى وَالَّذي نَفْسي بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُـوا بِاللَّـهِ وَصَـدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ)) (١)

[٦٧] وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ((إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَـةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَـا بَـيْنَ السَّـمَاءِ وَالأَرْضِ ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ ، أُرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ)) (٢)

---

(١) البخاري فتح : ٦/٣٥٥ ك/ بدء الخلق ب/ ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة ح/ ٣٢٥٦ ومسلم نووي : ١٧/٣٠٤ ك/ الجنة وصفة نعيمها وأهلها ب/ ترائي أهل الجنة أهل الغرف ح/ ٢٨٣١ .

(٢) البخاري ك/ الجهاد والسير ب/ درجات المجاهدين ح / ٢٥٨١ .

سُورَة النحل

حمل الأوزار في دار القرار

الكبر وعدم الإيمان بالآخرة يوردان الموارد :

﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ
أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ
إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ
الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ
يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [النحل]

* شرح الكلمات :

﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ : أي يصورون من الحجارة وغيرها .

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ : أي وما تشعر الأصنام ولا تعلم الوقت الذي تبعث فيه وهو يوم القيامة . ولا يعث فيه عابدوها من دون الله .

﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ : أي جاحدة للوحدانية والنبوة والبعث والجزاء .

﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ : لظلمة قلوبهم بالكفر يتكبرون .

﴿ لَا جَرَمَ ﴾ : أي حقاً .

﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ : أي أكاذيب الأولين .

﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ ﴾ : أي ذنوبهم يوم القيامة .

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ : أي بئس ما يحملون من الأوزار .

* معنى الآيات *

في هذا السياق مواجهة صريحة للمشركين بعد تقدم الأدلة على إشراكهم وضلالهم فقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي تعبدونهم أيها المشركون ﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ﴾ أي هم أموات إذ لا حياة لهم ودليل ذلك أنهم لا يسمعون ولا يبصرون ولا ينطقون ، وقوله ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ أي لا يعلمون متى يبعثون وهم أموات ولا يعلمون متى يبعثون للاستنطاق والاستجواب والجزاء على الكسب في هذه الحياة ، وقوله ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ هذه النتيجة العقلية التي ينكرها العقلاء وهي أن المعبود واحد لا شريك له ، وهو الله جل جلاله ، إذ هو الخالق الرازق المدبر المحي المميت ذو الصفات العلا والأسماء الحسنى ، وما عداه فلا يخلق ولا يرزق ولا يدبر ولا يحيي ولا يميت فتأليهه سفه وضلال ، وبعد تقرير ألوهية الله تعالى وإثباتها بالمنطق السليم قال تعالى : ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ ذكر علة الكفر لدى الكافرين والفساد عند المفسدين وهي تكذيبهم بالبعث الآخر إذ لا يستقيم عبد على منهج الحق والخير وهو لا يؤمن باليوم الآخر يوم الجزاء على العمل في الحياة الدنيا ، فأخبر تعالى أن الذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة لكل ما يسمعون من الحق الذي يدعو إليه رسول الله ﷺ وتبينه آيات القرآن الكريم ، وهم مع إنكار قلوبهم لما يسمعون من الحق مستكبرون عن قبول الحق والإذعان ، وقوله تعالى : ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ أي حقاً إن الله يعلم ما يسر أولئك المكذبون بالآخرة وما يعلنون وسيحصى ذلك عليهم ويجزيهم به لا محالة في يوم كانوا به يكذبون . . ويا للحسرة ويا للندامة!! وهذا الجزاء كان بعذاب النار متسبب عن بغض الله للمستكبرين وعدم حبه لهم ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ

﴿ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ يخبر تعالى عن أولئك المنكرة قلوبهم للوحي الإلهي وما جاء به رسول الله هؤلاء المستكبرون كانوا إذا سئلوا عن القرآن من قبل من يريد أن يعرف ممن سمع بالدعوة المحمدية فجاء من بلاد يتعرف عليها قالوا : ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أخبار كاذبة عن الأولين مسطرة عند الناس فهو يحكيها ويقول بها ، وبذلك يصرفون عن الإسلام ويصدون عن سبيل الله ، قال تعالى : ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ﴾ أي تبعة آثامهم وتبعة آثام مَنْ صَدُّوهم عن سبيل الله كاملة غير منقوصة يوم القيامة ، وهم لا يعلمون ذلك ولكن الحقيقة هي : أن من دعا إلى ضلالة كان عليه وزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزار من عملها شيء ، وكذا من دعا إلى هدى فله أجر من عمل به من غير أن ينقص من أجر هي شيء ، وقوله تعالى : ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي قبح الوزر الذي يَزِرُونَهُ فإنه قائدهم إلى النار موبقهم في نار جهنم . اهـ[1] .

[أي : والله - تعالى - وحده ، يعلم ما تسرونه من أقوال وأفعال ، وما تظهرونه منها ، وهو مُحْصٍ عليكم ذلك ، وسيجازى كل إنسان بما يستحقه من خير أو شر

ثم وصف ﷻ الأوثان التي يعبدها المشركون من دونه ، بثلاثة أوصاف . تجعلها بمعزل عن النفع ، فضلا عن استحقاقها للعبادة ، فقال - تعالى - ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾

فوصفها - أولا - بالعجز التام ، فقال - تعالى - : ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا ....﴾ أي : وهذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله - تعالى - لا تخلق شيئا من المخلوقات مهما صغرت ، بل هم يخلقون بأيديكم ، فأنتم الذين تنحتون الأصنام . كما قال - سبحانه - حكاية عن إبراهيم عليه السلام الذي قال لقومه على سبيل التهكم بهم : ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ

---

(١) تفسير الجزائري :٢/١٧٠، ١٧١ تفسير سورة النحل الآيات (٢٠ ، ٢٥) ط/ دار الحديث .

وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الصافات: ٩٥ - ٩٦] وإذا كان الأمر كذلك فكيف تعبدون شيئا أنتم تصنعونه بأيديكم ، أو هو مفتقر إلى من يوجده؟!

وهذه الآية الكريمة أصرح في إثبات العجز للمعبودات الباطلة من سابقتها التي تقول : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ..... ﴾ لأن الآية السابقة نفت عن المعبودات الباطلة أنها تخلق شيئا ، أما هذه الآية التي معنا فنفت عنهم ذلك ، وأثبتت أنهم مخلوقون لغيرهم وهو الله ﷻ ، أو أن الناس يصنعونهم عن طريق النحت والتصوير ، فهم أعجز من عبدتهم ، وعليه فلا تكرار بين الآيتين .

وأما الصفة الثانية لتلك الأصنام فهي قوله - تعالى - ﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ﴾ .

أي : هؤلاء المعبودون من دون الله - تعالى - ، هم أموات لا أثر للحياة فيهم ، فهم لا يسمعون ، ولا يبصرون ، ولا يغنون عن عابديهم شيئا ، فقد دلت هذه الصفة على فقدانهم للحياة فقدانا تاما ...... وهذه الصفة تدل على جهلهم المطبق ، وعدم إحساسهم بشيء .

أي : أن من صفات هذه المعبودات الباطلة ، أنها لا تدرى متى يبعثها الله - تعالى - لتكون وقوداً للنار .

وبعضهم يجعل الضمير في ﴿يَشْعُرُونَ﴾ يعود على الأصنام ، و في ﴿يُبْعَثُونَ﴾ يعود على العابدين لها ، فيكون المعنى : وما تدرى هذه الأصنام التي تعبد من دون الله - تعالى - متى تبعث عبدتها للحساب يوم القيامة .

قال صاحب فتح القدير ما ملخصه : قوله : ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ الضمير في ﴿يَشْعُرُونَ﴾ للآلهة وفى ﴿يُبْعَثُونَ﴾ للكفار الذين يعبدون الأصنام .

والمعنى : وما تشعر هذه الجمادات من الأصنام أيان يبعث عبدتهم من الكفار ، ويكون هذا على طريقة التهكم بهم ، لأن شعور الجماد مستحيل بما هو من الأمور الظاهرة . فضلا عن الأمور التي لا يعلمها إلا الله ﷻ .

ويجوز أن يكون الضمير في الفعلين للآلهة . أي : وما تشعر هذه الأصنام أيان تبعث .
ويدل على ذلك قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ٩٨] وبعد أن أبطل ﷻ عبادة غيره هذا الأسلوب المنطقي الحكيم ، صرح بأنه لا معبود بحق سواه ، فقال : ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ أي إلهكم المستحق للعبادة والطاعة هو إله واحد لا شريك له ، لا في ذاته ولا في صفاته : فأخلصوا له العبادة ، ولا تجعلوا له شركاء .

ثم بين ﷻ الأسباب التي جعلت المشركين يصرون على كفرهم ويستحبون العمى على الهدى ، فقال - تعالى - : ﴿ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

أي : فالكافرون الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وما فيها من ثواب وعقاب قلوهم منكرة للحق ، جاحدة لنعم الله ، منصرفة عن وحدانية الله - تعالى - وعن الأدلة الدالة عليها ، وحالهم فوق ذلك أهم مستكبرون مغرورون ، لا يستمعون إلى موعظة واعظ ، ولا إلى إرشاد مرشد . ومتى استولت على إنسان هاتان الصفتان - الجحود والاستكبار - ، حالفه البوار والخسران ، وآثر سبيل الغي على سبيل الرشد . اهـ [١]

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ :

لما ذكر تعالى ما خلقه من المخلوقات العظيمة، وما أنعم به من النعم العميمة ذكر أنه لا يشبهه أحد ولا كفء له ولا ند له فقال: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ ﴾ جميع المخلوقات وهو الفعال لما يريد ﴿ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ شيئا لا قليلا ولا كثيرا، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ فتعرفون أن المنفرد بالخلق أحق بالعبادة كلها، فكما أنه واحد في خلقه وتدبيره فإنه واحد في إلاهيته وتوحيده وعبادته.

---

(١) انظر التفسير الوسيط لسورة النحل الآيات (٢٠ – ٢٥) .

وكما أنه ليس له مشارك إذ أنشأكم وأنشأ غيركم، فلا تجعلوا له أندادا في عبادته بل أخلصوا له الدين، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ عددا مجردا عن الشكر ﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾ فضلا عن كونكم تشكرونها، فإن نعمه الظاهرة والباطنة على العباد بعدد الأنفاس واللحظات، من جميع أصناف النعم مما يعرف العباد، ومما لا يعرفون وما يدفع عنهم من النقم فأكثر من أن تحصى، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يرضى منكم باليسير من الشكر مع إنعامه الكثير.

وكما أن رحمته واسعة وجوده عميم ومغفرته شاملة للعباد فعلمه محيط بهم، ﴿يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ بخلاف من عبد من دونه، فإنهم ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ قليلاً ولا كثيراً ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ فكيف يخلقون شيئا مع افتقارهم في إيجادهم إلى الله تعالى؟

ومع هذا ليس فيهم من أوصاف الكمال شيء لا علم، ولا غيره ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل شيئا، أفتتخذ هذه آلهة من دون رب العالمين، فتبا لعقول المشركين ما أضلها وأفسدها، حيث ضلت في أظهر الأشياء فسادا، وسووا بين الناقص من جميع الوجوه فلا أوصاف كمال، ولا شيء من الأفعال، وبين الكامل من جميع الوجوه الذي له كل صفة كمال وله من تلك الصفة أكملها وأعظمها، فله العلم المحيط بكل الأشياء والقدرة العامة والرحمة الواسعة التي ملأت جميع العوالم، والحمد والمجد والكبرياء والعظمة، التي لا يقدر أحد من الخلق أن يحيط ببعض أوصافه، ولهذا قال:

﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ وهو الله الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يكن له كفوا أحد ؛ فأهل الإيمان والعقول أجلته قلوبهم وعظمته، وأحبته حبا عظيما، وصرفوا له كل ما استطاعوا من القربات البدنية والمالية، وأعمال القلوب وأعمال الجوارح، وأثنوا عليه بأسمائه الحسنى وصفاته وأفعاله المقدسة، ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾

لهذا الأمر العظيم الذي لا ينكره إلا أعظم الخلق جهلاً وعناداً وهو: توحيد الله ﴿ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن عبادته.

﴿ لَا جَرَمَ ﴾ أي: حقا لا بد ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ من الأعمال القبيحة ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ بل يبغضهم أشد البغض، وسيجازيهم من جنس عملهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ اهـ

* ما ترشد إليه الآيات *

١- بطلان الشرك وتقرير التوحيد .

٢- التكذيب باليوم الآخر والبعث والجزاء هو سبب كل شر وفساد يأتيه العبد .

٣- التنديد بجريمة الاستكبار عن الحق والإذعان له .

٤- بيان إثم وتبعة من يصد عن سبيل الله بصرف الناس عن الإسلام .

٥- بيان تبعة من يدعو إلى ضلالة فإنه يتحمل وزر كل من عمل بها .

* الخزي الحقيقي في الآخرة *

﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ .

* **معاني الغريب :**

﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم﴾ هدمه من أساسه ، أو مثل ضربه الله تعالى لاستئصالهم ﴿ٱلسَّقْفُ﴾ أتاهم من السماء التي هي سقفهم ، أو سقطت أعالي بيوتهم وهم تحتها فلذلك قال : ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ إذ لا يكون فوقهم إلا وهم تحته . وهم نمروذ بن كنعان وقومه ، أو بختنصر وأصحابه ، أو المقتسمين المذكورين في سورة الحجر .

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ قيل نزلت فيمن أسلم بمكة ولم يهاجر فأخرجتهم قريش إلى بدر فقُتلوا ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ﴾ تقبض أرواحهم ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بالمقام بمكة وترك الهجرة ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾ في خروجهم معهم ﴿مِن سُوٓءٍ﴾ كفر ﴿بَلَىٰٓ﴾ عملكم أعمال الكفار ، والسَّلَم : الصلح ، أو الاستسلام ، أو الخضوع اهـ [(١)]

* **شرح الكلمات :**

﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ : أي من قبل كفار قريش بمكة كالنمرود وغيره .

﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم﴾ : أي قصد إليه ليدمره فلسط عليه الريح والزلزلة فسقط من أسسه .

﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ﴾ : أي سقط لتداعي القواعد وسقوطها .

﴿كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾ : أي تخالفون المؤمنين فيهم بعبادتكم إياهم وجدالكم عنه ، وتشاقون الله بمخالفتكم إياه بترك عبادته إياها .

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ : أي الأنبياء والمؤمنون .

---

(١) انظر تفسير العز بن عبد السلام لسورة النحل الآيات (٢٦ - ٢٩) .

﴿ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ : بالشرك والمعاصي .

﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ﴾ : أي استسلموا وانقادوا .

﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ : مثوى المتكبرن : أي قبح مترل المتكبرين في جهنم مثلاً . اهـ (١) .

*** المعنى العام :**

﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ برسلهم واحتالوا بأنواع الحيل على رد ما جاءوهم به وبنوا من مكرهم قصورا هائلة، ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ﴾ أي: جاءها الأمر من أساسها وقاعدها، ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ فصار ما بنوه عذابا عذبوا به، ﴿وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وذلك أفهم ظنوا أن هذا البنيان سينفعهم ويقيهم العذاب فصار عذاهم فيما بنوه وأصّلوه.

وهذا من أحسن الأمثال في إبطال الله مكر أعدائه. فإنهم فكروا وقدروا فيما جاءت به الرسل لما كذبوهم وجعلوا لهم أصولا وقواعد من الباطل يرجعون إليها، ويردون بها ما جاءت به الرسل، واحتالوا أيضا على إيقاع المكروه والضرر بالرسل ومن تبعهم، فصار مكرهم وبالا عليهم، فصار تدبيرهم فيه تدميرهم، وذلك لأن مكرهم سيئ ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣] هذا في الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى، ولهذا قال:

﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ ۚ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

---

(١) انظر أيسر التفاسير : ١٧٢/٢ تفسير سورة النحل الآيات (٢٦ – ٢٩) .

﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ أي: يفضحهم على رءوس الخلائق ويبين لهم كذبهم وافتراءهم على الله.

﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ﴾ أي: تحاربون وتعادون الله وحزبه لأجلهم وتزعمون أنهم شركاء لله، فإذا سألهم هذا السؤال لم يكن لهم جواب إلا الإقرار بضلالهم، والاعتراف بعنادهم فيقولون ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأعراف] ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي: العلماء الربانيون ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿وَالسُّوءَ﴾ أي: العذاب ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وفي هذا فضيلة أهل العلم، وأنهم الناطقون بالحق في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وأن لقولهم اعتبارا عند الله وعند خلقه، ثم ذكر ما يفعل بهم عند الوفاة وفي القيامة فقال: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ أي: تتوفاهم في هذه الحال التي كثر فيها ظلمهم وغيهم وقد علم ما يلقى الظلمة في ذلك المقام من أنواع العذاب والخزي والإهانة.

﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ﴾ أي: استسلموا وأنكروا ما كانوا يعبدونهم من دون الله وقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾ فيقال لهم: ﴿بَلَىٰ﴾ كنتم تعملون السوء فـ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فلا يفيدكم الجحود شيئا، وهذا في بعض مواقف القيامة ينكرون ما كانوا عليه في الدنيا ظنا أنه ينفعهم، فإذا شهدت عليهم جوارحهم وتبين ما كانوا عليه أقروا واعترفوا، ولهذا لا يدخلون النار حتى يعترفوا بذنوبهم.

﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ كلٌ أهل عمل يدخلون من الباب اللائق بحالهم، ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ نار جهنم فإنها مثوى الحسرة والندم، ومنزل الشقاء والألم ومحل

الهموم والغموم، وموضع السخط من الحي القيوم، لا يفتّر عنهم من عذابها، ولا يرفع عنهم يوما من أليم عقابها، قد أعرض عنهم الرب الرحيم، وأذاقهم العذاب العظيم اهـ(١)

وقال القطان : ثم بين لهم أن عاقبة مكرِهم عائدة إليهم ، كدأب مَن قبلَهم من الأمم السابقة الذين أصابهم من العذاب ما أصابهم بتكذيب رسلهم ، فقال :﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ .

إن الذين من قبلهم من الأمم السابقة قد مكروا برسلهم وكذّبوهم ودبروا لهم المكايد ، فأبطل الله كيدَهم ودمرهم بلادهم وهدمها من الأسس ، فانهارت البيوت وخرّت سقوفها على أصحابها ، وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون .

والله سبحانه سوف لا يُنجيهم من العذاب في الآخرة ، بل لهم عذابٌ أشد وأعظم .

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ؟﴾.

يسألهم الله تعالى يوم القيامة على سبيل الخِزي والاستهزاء بهم ويقول لهم : أين الذي اتخذتموهم شركاءَ لي في العبادة ، وكنتم تحاربونني ورسُلي في سبيلهم؟ أين هم حتى ينصروكم ويمدوا لكم يد العون؟ فلا يستطيعون جوابا .... ثم يبيّن أن الكافرين الذين يستحقون هذا العذاب هم الذين استمروا على كفرهم إلى أن تتوفاهم الملائكة وهم ظالمون :﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ ماذا يفعلون في ذلك الموقف المخزي ؟

﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ﴾ . إنهم استسلموا لَمّا عاينوا العذابَ قائلين : ما كنّا نشرك بربّنا أحداً ، ولكنّ الله يكذّبهم بقوله :

﴿بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ إن الله لا يَخفى عليه شيء ، وهو على علمٍ بما كنتم تكفرون وتكذبون .

---

(١) انظر تفسير السعدي [المجلد الواحد] ص٤٦٥ تفسير سورة النحل الآيات (٢٧ – ٢٩) .

ثم بين الله تعالى مصيرهم المحتوم ، فقال : ﴿ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ إن مصيركم جهنمُ فادخلوها من أبوابها المتعددة ، وذوقوا ألواناً من العذاب خالدين فيها أبداً ، وبئس المقامُ والمثوى لمن كان متكبراً عن اتباع الرسل والاهتداء بما أُنزل عليهم من آيات . اهـ[1]

((بشريات للمتقين عند وداع الدنيا))

﴿ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [النحل]

تفسير الغريب :

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ : أي اتقوا الشرك والمعاصي .

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ : أي أعمالهم وأقوالهم ونياتهم فأتوا بها وفق مراد الله تعالى .

﴿حَسَنَةٌ ﴾ : أي الحياة الطيبة حياة العز والكرامة .

﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ : أي الجنة دار السلام .

﴿طَيِّبِينَ ﴾ : أي الأرواح بما زكوها من الإيمان والعمل الصالح . وبما أبعدوها عنه من الشرك والمعاصي .

﴿يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ﴾ : أي لقبض ملك الموت ... وأعوانه .

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ : أي لقبض أرواحهم وعند ذلك يؤمنون .اهـ [2].

---

(١) انظر تفسير القطان لسورة النحل الآيات (٢٦-٢٩)

(٢) انظر تفسير الجزائري : ١٧٢/٢ لسورة النحل الآيات (٣٠ - ٣٣) .

المعنى العام :

قوله تعالى : ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ أي ربهم فلم يشركوا به ولم يعصوه في أمره ولا نهيه وأطاعوا رسوله كذلك : ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ﴾ أي إذا سألهم من أتى مكة يتعرف على ما بلغه من دعوة الإسلام فيقولون له : ﴿خَيۡرٗاۗ﴾ أي أنزل خيراً لأن القرآن خير وبالخير نزل بخلاف تلاميذ المشركين يقولون أساطير الأولين كما تقدم في هذا السياق .

كما ذكر تعالى جزاء الكافرين من العذاب في نار جهنم وهم الذين أساءوا في هذه الحياة الدنيا إلى أنفسهم بشركهم بالله ومكرهم وظلمهم للمؤمنين ، ذكر جزاء المحسنين .

فقال : ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ أي آمنوا وعملوا الصالحات متبعين شرع الله في ذلك فأخلصوا عبادتهم لله تعالى ودعوا الناس إلى عبادة الله وحثوهم على ذلك فكانوا بذلك محسنين لأنفسهم ولغيرهم لهؤلاء الذين أحسنوا في الدنيا ﴿حَسَنَةٞۚ﴾ وهي الحياة الطيبة حياة الطهر والعزة والكرامة ، ولدار الآخرة خيرٌ لهم من دار الدنيا مع ما فيها من حسنة وقوله تعالى : ﴿وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ ثناء ومدح لتلك الدار الآخرة لما فيها من النعيم المقيم وإضافتها إلى المتقين باعتبار أنهم أهلها الجديرون بها إذ هي خاصة بهم ورثوها بإيمانهم وصالح أعمالهم بتركهم الشرك والمعاصي .

وقوله تعالى : ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ﴾ هو وصف وبيان لدار المتقين فأخبر أنها جنات جمع جنة وهي البستان المشتمل على الأشجار والأنهار والقصور وما لذ وطاب من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح والمراكب وقوله تعالى :﴿ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ﴾ هذا نهاية الإكرام والإنعام إذ كون العبد يجد كل ما يشتهي ويطلب هو نعيم لا مزيد عليه وقوله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ أي كهذا الجزاء الحسن العظيم يجزي الله المتقين في الدنيا والآخرة . وقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ أي طاهري الأرواح لأرواحهم ريح طيبة ثمرة إيمانهم وصالح

أعمالهم ونتيجة بعدهم عما يدنس أنفسهم من أوضار الشرك وعفن المعاصـي وقولـه : ﴿يَقُولُونَ﴾ أي تقول لهم الملائكة وهم ملك الموت وأعوانـه ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ تحييهم وفي ذلك بشارة لهم برضا ربهم وجواره الكريم . ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ بـأرواحهم اليـوم وبأجسامهم غداً يوم القيامة . وقوله ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي بسبب ما كنتم تعملونـه من الطاعات والمسابقة في الخيرات بعد عمل قلوبكم بالإيمـان والـيقين والحـب في الله والبغض فيه عز وجل والرغبة والتوكل عليه . هذا ما تضمنته الآيات (٣١ ، ٣٢) وأما الآيات بعد ذلك فيقول الله مستبطئاً إيمان قريش وتوبتهم بعد تلك الحجـج والـبراهين والدلائل والبينات على صدق نبوة محمد ﷺ وعلى وجوب التوحيد وبطلان الشرك وعلى الإيمان باليوم الآخر .اهـ[1] .

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾﴾ لمّا افتتحت صفة سيّئات الكافرين وعواقبها بأنهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [النحل : ٢٤] ، جاءت هنا مقابلة حالهم بحـال حسنات المؤمنين وحسن عواقبها ، فافتتح ذلك بمقابل ما افتتحت به قصّـة الكـافرين ، فجاء التنظير بين القصّتين في أبدع نظم .

وهذه الجملة معطوفة على الجمل التي قبلها ، وهي معترضة في خلال أحوال المشركين استطراداً . ولم تقترن هـذه الجملـة بـأداة الشـرط كمـا قرنـت مقابلتـها بهـا ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ لأن قولهم : ﴿أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ لما كان كـذبا اختلقوه كان مظنة أن يقلع عنه قائلهُ وأن يرعوي إلى الحقّ وأن لا يجمع عليه القـائلون ، قرن بأداة الشرط المقتضية تكرّر ذلك للدّلالة على إصْرارهم على الكفر ، بخلاف ما هنـا فإن الصّدق مظنّة استمرار قائله عليه فليْس بحاجة إلى التّنبيه على تكرّره منه .

---

(١) المصدر السابق .

والذين اتّقوا : هم المؤمنون لأن الإيمان تقوى الله وخشية غضبه . والمراد هم المؤمنون المعهودون في مكّة ، فالموصول للعهد .

والمعنى أنّ المؤمنين سُئلوا عن القرآن ، ومن جاء به ، فأرشدوا السائلين و لم يتردّدوا في الكشف عن حقيقة القرآن بأوجز بيان وأجمعه ، وهو كلمة ﴿خَيْرًا﴾ المنصوبة ، فإن لفظها شامل لكلّ خير في الدّنيا وكلّ خير في الآخرة ، ونصبها دال على أنّهم جعلوها معمولة لـ ﴿أَنزَلَ﴾ الواقع في سؤال السائلين ، فدل النّصب على أنّهم مصدّقون بأنّ القرآن منزل من عند الله ، وهذا وجه المخالفة بين الرفع في جواب المشركين حين قيل لهم : ﴿لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ بالرّفع وبين النصب في كلام المؤمنين حين قيل لهم ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا﴾ بالنّصب . وقد تقدم ذلك آنفاً عند قوله تعالى : ﴿قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ . مستأنفة ابتدائية ، وهي كلامٌ من الله تعالى مثل نظيرها في آية ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ﴾ [الزمر: ١٠] ، وليست من حكاية قول الذين اتّقوا .

والّذين أحسنوا : هم المتقون فهو من الإظهار في مقام الإضمار توصّلا بالإتيان بالموصول إلى الإيماء إلى وجه بناء الخبر ، أي جزاؤهم حسنة لأنهم أحسنوا .

وقوله تعالى : ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾﴾ يجوز أن يتعلق بفعل ﴿أَحْسَنُواْ﴾ . ويجوز أن يكون ظرفاً مستقرّاً حالاً من ﴿حَسَنَةٌ﴾ ....ومعنى ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ﴾ أنّها خير لهم من الدّنيا فإذا كانت لهم في الدنيا حسنة فلهم في الآخرة أحسن ، فكما كان للّذين كفروا عذاب الدّنيا وعذاب جهنّم كان للّذين اتّقوا خيرُ الدّنيا وخير الآخرة .اهـ [١].

(١) انظر التحرير والتنوير تفسير سورة النحل .

صورة شاخصة تذكر بعاقبة التقوى :

﴿ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرًاۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٞۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٖ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

[إن المتقين يدركون أن الخير هو قوام هذه الدعوة ، وقوام ما أنزل ربهم من أمر ونهي وتوجيه وتشريع . فيلخصون الأمر كله في كلمة : ﴿قَالُواْ خَيْرًا﴾ ثم يفصلون هذا الخير حسبما علموا مما أنزل الله : ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٞۚ﴾ حياة حسنة ومتعة حسنة ، ومكانة حسنة . ﴿وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٞۚ﴾ من هذه الدار الدنيا ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ . . ثم يفصل ما أجمل . عن هذه الدار . فإذا هي ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٖ﴾ للإقامة ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ﴾ رخاء . ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ فلا حرمان ولا كد ، ولا حدود للرزق كما هي الحياة الدنيا . . ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ثم يعود السياق خطوة بالمتقين كما عاد من قبلهم خطوة بالمستكبرين . فإذا هم في مشهد الاحتضار وهو مشهد هين لين كريم : ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ طيبة نفوسهم بلقاء الله ، معافين من الكرب وعذاب الموت . ﴿يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ طمأنة لقلوبهم وترحيباً بقدومهم ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تعجيلاً لهم بالبشرى ، وهم على أعتاب الآخرة ، جزاء وفاقاً على ما كانوا يعملون .اهـ [(١)]

---

(١) انظر الظلال : ٤/ ٢١٦٩ في ظلال سورة النحل الآيات (٣٠ – ٣٢) ط/ دار الشروق .

من هداية الآيات :

١- سوء عاقبة المكر وأنه يحيق بأهله لا محالة والمراد به المكر السيئ .

٢- بيان خزي الله تعالى يوم القيامة لأهل الشرك به وللمعاصي له ولرسوله .

٣- فضل أهل العلم إذ يتخذ منهم شهداء يوم القيامة ويشمتون بأهل النار .

٤- بيان استسلام الظلمة عند الموت وانهزامهم وكذبهم .

٥- تقرير معتقد البعث والحياة الآخرة بأروع أسلوب وأحكمه وأمتنه .

٦- إطلاق لفظ خير على القرآن وهو حق خير فالذي أوتي القرآن أوتي الخير كله ، فلا ينبغي أن يرى أحداً من أهل الدنيا خيراً منه و إلا سخط نعمة الله تعالى عليه .

٧- سعادة الدارين لأهل الإحسان وهم أهل الإيمان والإسلام والإحسان في إيمانهم بالإخلاص وفي إسلامهم بموافقة الشرع ومراقبة الله تعالى في ذلك .

٨- بشرى أهل الإيمان والتقوى عند الموت ، وعن القيام من القبور بالنعيم المقيم في جوار رب العالمين .

٩- إعمال القلوب والجوارح سبب في دخول الجنة وليست ثمناً لها لغلائها ، وإنما الأعمال تزكي النفس وتطهر الروح وبذلك يتأهل العبد لدخول الجنة .

١٠- ما ينتظر المجرمون بإصرارهم على الظلم والشر والفساد إلا العذاب ، عاجلاً أو آجلاً فهو نازل بهم حتماً مقضياً إن لم يبادروا إلى التوبة الصادقة .

من أحداث القيامة وأهوالها :

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ
﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ
أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا۟
إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟
يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا

كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [النحل]

شرح الكلمات :

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ ﴾ : أي اذكر يوم نبعث .

﴿شَهِيدًا﴾ : هو نبيها .

﴿لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ : أي بالاعتذار فيتعذرون .

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ : أي لا يطلب منهم العتبى أي الرجوع إلى اعتقاد وقول وعمل ما يرضى الله عنه .

﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ﴾ : أي الذين كانوا يعبدونهم مـن دون الله كالأصنام والشياطين .

﴿فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ ﴾ : أي ردوا عليهم قائلين لهم إنكم لكاذبون .

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ : من أن آلهتهم لهم عند الله وتنجيهم من عذابـه ، ومعنى ضل غاب .

﴿عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ ﴾ : إنه عقاب وحيات كالنخل الطوال والبغال الموكفة اهـ(١)

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ ﴾ نخرج من كل قوم ﴿شَهِيدًا﴾ نبياً عليهم شهيداً بـالبلاغ ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ في الكلام ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ يرجعـون إلى الـدنيا

---

(١) انظر أيسر التفاسير للجزائري : ٢/ ١٩٦ تفسير سورة النحل الآيات (٨٤ — ٨٩) .

﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾ كفروا ﴿ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ ﴾ لا يرفع عنهم ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ يؤجلون من عذاب الله .

﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ ﴾ آلهتهم ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَا ﴾ يا ربنا ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ﴾ آلهتنا ﴿ ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ ﴾ نعبد ﴿ مِن دُونِكَ ﴾ أمرونا بعبادتهم ﴿ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ ﴾ ردوا إليهم الجواب يعني الأصنام ﴿ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ في مقالتكم ما أمرناكم وما كنا نعلم بعبادتكم ﴿ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ﴾ استسلم العابد والمعبود لله تعالى ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ بطل افتراؤهم على الله ويقال اشتغل بأنفسهم آلهتهم التي كانوا يعبدون بالكذب ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ بمحمد ﷺ والقرآن ﴿ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ عن دين الله وطاعته ﴿ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا ﴾ عذاب الحيات والعقارب والجوع والعطش والزمهرير وغير ذلك ﴿ فَوْقَ ٱلْعَذَابِ ﴾ فوق عذاب النار ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴾ يقولون ويعملون من المعاصي والشرك .

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ ﴾ نخرج من كل جماعة ﴿ شَهِيدًا ﴾ نبياً ﴿ عَلَيْهِم ﴾ شهيداً بالبلاغ ﴿ مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ آدمياً مثلهم ﴿ وَجِئْنَا بِكَ ﴾ يا محمد ﴿ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ على أمتك ويقال مزكياً لهم ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ جبريل بالقرآن ﴿ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ من الحلال والحرام والأمر والنهي ﴿ وَهُدًى ﴾ من الضلالة ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ من العذاب ﴿ وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ الجنة . اهـ [1]

(١) انظر تنوير المقياس لتفسير سورة النحل الآيات (٨٤ – ٨٩) .

المعنى العام :

* لما بين ﷺ من حال هؤلاء أنهم عرفوا نعمة الله ثم أنكروها ، وأن أكثرهم كافرون ، أتبعه بأصناف وعيد يوم القيامة ، فقـال : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ أي : واذكر يوم نبعث ، أو يوم نبعث وقعوا فيما وقعوا فيه ، وشهيد كل أمة نبيها ، يشهد لهم بالإيمان والتصديق ، وعليهم بالكفر والجحود والتكذيب ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي : في الاعتذار ، إذ لا حجة لهم ولا عذر ، كقوله سبحانه : ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المرسلات] أو في كثرة الكلام ، أو في الرجوع إلى دار الدنيا ، وإيراد ﴿ثُمَّ﴾ ها هنا للدلالة على أن ابتلاءهم بالمنع عن الاعتذار المنبيء عن الإقناط الكلي أشد من ابتلائهم بشهادة الأنبياء ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ لأن العتاب إنما يطلب لأجل العود إلى الرضا ، فإذا كان على عزم السخط ، فلا فائدة في العتاب . والمعنى : أنهم لا يسترضون أي : لا يكلفون أن يرضوا ربهم ، لأن الآخرة ليست بدار تكليف ، ولا يتركون إلى رجوع الدنيا فيتوبون ، وأصل الكلمة من العتب وهو الموجد ، يقال : عتب عليه يعتب إذا وجد عليه ، فإذا أفاض عليه ما عتب فيه عليه قيل : عاتبه ، فإذا رجع إلى مسرّته قيل : أعتبه ، والاسم العتبى ، وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضي العاتب قاله الهروي ، ومنه قول النابغة :

فإن كنت مظلوماً فعبداً ظلمته ... وإن كنت ذا عتبي فمثلك يعتب

﴿ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ ﴾ أي : وإذا رأى الذين أشركوا العذاب الذي يستحقونه بشركهم ، وهو عذاب جهنم ﴿فَلَا يُخَفَّفُ﴾ ذلك العذاب ﴿عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أي : ولا هم يمهلون ليتوبوا ، إذ لا توبة هنالك ﴿ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ ﴾ أي : أصنامهم وأوثانهم التي عبدوها ، لما تقرّر من أنهم يبعثون مع المشركين ليقال لهم ((من كان يعبد شيئاً فليتبعه)) ، كما ثبت في الصحيح من قوله ﷺ

. ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ﴾ أي : الذين كنا نعبدهم من دونك . قال أبو مسلم الأصفهاني : مقصود المشركين بهذا القول إحالة الذنب على تلك الأصنام تعللاً بذلك ، واسترواحاً ، مع كونهم يعلمون أن العذاب واقع بهم لا محالة ، ولكن الغريق يتعلق بكل ما تقع يده عليه . ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ﴾ أي : ألقى أولئك الأصنام والأوثان والشياطين ونحوهم إلى المشركين القول ﴿إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي قالوا لهم : إنكم أيها المشركون لكاذبون فيما تزعمون من إحالة الذنب علينا الذي هو مقصودكم من هذا القول .

فإن قيل : إن المشركين أشاروا إلى الأصنام ونحوها أن هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك ، وقد كانوا صادقين في ذلك ، فكيف كذبتهم الأصنام ونحوها؟ فالجواب بأن مرادهم من قولهم ﴿هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا﴾ هؤلاء شركاء الله في العبودية ، فكذبتهم الأصنام في دعوى هذه الشركة والأصنام والأوثان وإن كانت لا تقدر على النطق ، فإن الله سبحانه ينطقها في تلك الحال ، لتخجيل المشركين وتوبيخهم ، وهذا كما قالت الملائكة ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ [سبأ : ٤١] . يعنون : أن الجنّ هم الذين كانوا راضين بعبادتهم لهم .

﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾ أي : ألقى المشركون يوم القيامة الاستسلام والانقياد لعذابه ، والخضوع لعزته . وقيل : استسلم العابد والمعبود وانقادوا لحكمه فيهم ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي : ضاع وبطل ما كانوا يفترونه من أن لله ﷻ شركاء وما كانوا يزعمون من شفاعتهم لهم ، وأن عبادتهم لهم تقربهم إلى الله ﷻ .

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في أنفسهم ﴿وَصَدُّوا﴾ غيرهم ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي : عن طريق الحق ، وهي : طريق الإسلام والإيمان بأن منعوهم من سلوكها وحملوهم على الكفر . وقيل : المراد بالصدّ عن سبيل الله : الصدّ عن المسجد الحرام . والأولى العموم .

ثم أخبر عن هؤلاء الذين صنعوا هذا الصنع بقوله : ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي : زادهم الله عذاباً لأجل الإضلال لغيرهم فوق العذاب الذي استحقوه لأجل ضلالهم . وقيل : المعنى : زدنا القادة عذاباً فوق عذاب أتباعهم ، أي : أشد منه . وقيل : إن هذه الزيادة هي إخراجهم من النار إلى الزمهرير ، وقيل غير ذلك .

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم ﴾ أي : نبياً يشهد عليهم ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ من جنسهم ، إتماماً للحجة وقطعاً للمعذرة ، وهذا تكرير لما سبق لقصد التأكيـد والتهديـد ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمد ﴿شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي : تشهد على هذه الأمم وتشهد لهم . وقيل : على أمتك ،.اهـ [1] .

وقـــال الســـعدي رَحِمَهُ اللَّهُ : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [النحل]

يخبر تعالى عن حال هؤلاء الذين كفروا في يوم القيامة وأنه لا يقبل لهم عذر ولا يرفع عنهم العقاب وأن شركاءهم تتبرأ منهم ويقرون على أنفسهم بالكفر والافتراء علـى الله فقال: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ يشهد عليهم بأعمالهم وماذا أجـابوا بـه الداعي إلى الهدى وذلك الشهيد الذي يبعثه الله أزكى الشهداء وأعدلهم وهم الرسل الذين إذا شهدوا تم عليهم الحكم.

---

(١) فتح القدير للشوكاني .

فـ ﴿لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الاعتذار لأن اعتذارهم بعد ما علم يقينا بطلان ما هم عليه، اعتذار كاذب لا يفيدهم شيئا، وإن طلبوا أيضا الرجوع إلى الدنيا ليستدركوا لم يجابوا و لم يعتبوا، بل يبادرهم العذاب الشديد الذي لا يخفف عنهم من غير إنظار ولا إمهال من حين يرونه لأنهم لا حساب عليهم لأنهم لا حسنات لهم وإنما تعد أعمالهم وتحصى ويوقفون عليها ويقرون بها ويفتضحون.

﴿ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ ﴾ يوم القيامة وعلموا بطلانها و لم يمكنهم الإنكار.

﴿قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ﴾ ليس عندها نفع ولا شفع، فنوهوا بأنفسهم ببطلانها، وكفروا بها، وبدت البغضاء والعداوة بينهم وبينها، ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ﴾ أي: ردت عليهم شركاؤهم قولهم، فقالت لهم: ﴿إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ حيث جعلتمونا شركاء لله، وعبدتمونا معه فلم نأمركم بذلك، ولا زعمنا أن فينا استحقاقا للألوهية فاللوم عليكم.

فحينئذ استسلموا لله، وخضعوا لحكمه وعلموا إنهم مستحقون للعذاب.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ فدخلوا النار وقد امتلأت قلوبهم من مقت أنفسهم ومن حمد ربهم وأنه لم يعاقبهم إلا بما كسبوا. اهـ [(١)].

من هداية الآيات :

١- تقرير عقيدة البعث الآخر بما لا مزيد عليه لكثرة ألوان العرض لما يجرى في ذلك اليوم

٢- براءة الشياطين والأصنام الذين أشركهم الناس في عبادة الله من المشركين هم والتبرؤ منهم وتكذيبهم .

٣- زيادة العذاب لمن دعا إلى الشرك والكفر وحمل الناس على ذلك .

---

(١) انظر تفسير السعدي [المجلد الواحد] ص ٤٧٤ ، ٤٧٥ لسورة النحل الآيات (٨٥ – ٨٧) ط/ التوفيقية .

٤- لا عذر لأحد بعد أن أنزل الله تعالى القرآن تبياناً لكل شـيء وهـدىً ورحمـةً وبشرى للمسلمين .اهـ [١].

من مشكاة النبوة :-

[٦٨] عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا » [٢]

(١) انظر تفسير الجزائري :٢/ ١٩٧ لسورة النحل الآيات (٨٥ – ٨٧) ط/ دار الحديث .

(٢) انظر صحيح مسلم بشرح النووي : ١٧/ ٣٠٩ – ٣١٠ ك/ صفة القيامة والجنة والنار ب/ جهنم أعاذنا الله منها ح/(٢٨٤٢) وانظر سنن الترمذي ك/ صفة جهنم عن رسول الله ب/ ما جاء في صفة النار ح/ ٢٥٧٣

سُورَةُ الإسراء

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ
لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾
وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ
فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ
ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ
لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾
مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا
كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء]

معاني الكلمات :

﴿لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ : أي الطريقة التي هي أعدل وأصوب .

﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ : أنه الجنة دار السلام .

﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ : انه عذاب النار يوم القيامة .

﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾ : أي على نفسه وأهله إذا هو ضجر وغضب .

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ : أي سريع التأثر بما يخطر على باله فلا يتروى ولا يتأمل .

﴿ءَايَتَيْنِ﴾ : أي علامتين دالتين على وجود الله وقدرته وعلمه ورحمته وحكمته .

﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ : أي طمسنا نورها بالظلام الذي يعقب غياب الشمس .

﴿عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ : أي عدد السنين وانقضائها وابتداء دخولها وحساب ساعات النهار والليل وأوقاتها كالأيام والأسابيع والشهور .

﴿طَٰٓئِرَهُۥ﴾ : أي عمله وما قدر له من سعادة وشقاء .

﴿فِي عُنُقِهِۦ﴾ : أي ملازم له لا يفارقه حتى يفرغ منه .

﴿عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ : أي كفى نفسك حاسباً عليك .

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ : أي لا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى .اهـ (١)

بين يدي السورة الكريمة :

هذه السورة [سورة الإسراء] مكية ، وهي تبدأ بتسبيح الله وتنتهي بحمده؛ وتضم موضوعات شتى معظمها عن العقيدة؛ وبعضها عن قواعد السلوك الفردي والجماعي وآدابه القائمة على العقيدة؛ إلى شيء من القصص عن بني إسرائيل يتعلق بالمسجد الأقصى الذي كان إليه الإسراء . وطرف من قصة آدم وإبليس وتكريم الله للإنسان .

ولكن العنصر البارز في كيان السورة ومحور موضوعاتها الأصيل هو شخص الرسول ﷺ وموقف القوم منه في مكة . وهو القرآن الذي جاء به ، وطبيعة هذا القرآن ، وما يهدي إليه ، واستقبال القوم له . واستطراد بهذه المناسبة إلى طبيعة الرسالة والرسل ، وإلى امتياز الرسالة المحمدية بطابع غير طابع الخوارق الحسية وما يتبعها من هلاك المكذبين بها . وإلى تقرير التبعة الفردية في الهدى والضلال الاعتقادي ، والتبعة الجماعية في السلوك العملي في محيط المجتمع . . كل ذلك بعد أن يعذر الله سبحانه إلى الناس ، فيرسل إليهم الرسل بالتبشير والتحذير والبيان والتفصيل ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ .

---

(١) أيسر التفاسير للجزائري : ٢/ ٢١٨ ، ٢٢٠ تفسير سورة الإسراء الآيات (١٠ – ١٧) ط/ دار الحديث

ويتكرر في سياق السورة تنزيه الله وتسبيحه وحمده وشكر آلائه . ففي مطلعها :

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا .... ﴾

وفي أمر بني إسرائيل بتوحيد الله يذكرهم بأنهم من ذرية المؤمنين مع نوح ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾ . . وعند ذكر دعاوى المشركين عن الآلهة يعقب بقوله :

﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ وفي حكاية قول بعض أهل الكتاب حين يتلى عليهم القرآن : ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ وتختم السورة بالآية ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾ ﴾ في تلك الموضوعات المنوعة حول ذلك المحور الواحد الذي بيّنا ، يمضي سياق السورة في أشواط متتابعة .

يبدأ الشوط الأول بالإشارة إلى الإسراء : ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ مع الكشف عن حكمة الإسراء ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ﴾ . . وبمناسبة المسجد الأقصى يذكر كتاب موسى وما قضى فيه لبني إسرائيل ، من نكبة وهلاك وتشريد مرتين ، بسبب طغيانهم وإفسادهم مع إنذارهم بثالثة ورابعة ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ . . ثم يقرر أن الكتاب الأخير القرآن يهدي للتي هي أقوم ، بينما الإنسان عجول مندفع لا يملك زمام انفعالاته . ويقرر قاعدة التبعة الفردية في الهدى والضلال ، وقاعدة التبعة الجماعية في التصرفات والسلوك .

ويبدأ الشوط الثاني بقاعدة التوحيد ، ليقيم عليها البناء الاجتماعي كله وآداب العمل والسلوك فيه ، ويشدها إلى هذا المحور الذي لا يقوم بناء الحياة إلا مستنداً إليه .

ويتحدث **في الشوط الثالث** عن أوهام الوثنية الجاهلية حول نسبة البنات والشركاء إلى الله ، وعن البعث واستبعادهم لوقوعه ، وعن استقبالهم للقرآن وتقولاتهم على الرسول ﷺ ويأمر المؤمنين أن يقولوا قولاً آخر ، ويتكلموا بالتي هي أحسن .

وفي الشوط الرابع يبين لماذا لم يرسل الله محمداً ﷺ بالخوارق فقد كذب بها الأولون ، فحق عليهم الهلاك اتباعاً لسنة الله؛ كما يتناول موقف المشركين من إنذار الله لهم في رؤيا الرسول ﷺ وتكذيبهم وطغيانهم . ويجيء في هذا السياق طرف من قصة إبليس ، وإعلانه أنه سيكون حرباً على ذرية آدم . يجيء هذا الطرف من القصة كأنه كشف لعوامل الضلال الذي يبدو من المشركين . ويعقب عليه بتخويف البشر من عذاب الله ، وتذكيرهم بنعمة الله عليهم في تكريم الإنسان ، وما ينتظر الطائعين والعصاة يوم ندعو كل أناس بإمامهم : ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ ﴾

ويستعرض الشوط الأخير كيد المشركين للرسول ﷺ ومحاولة فتنته عن بعض ما أنزل إليه ومحاولة إخراجه من مكة . ولو أخرجوه قسراً ولم يخرج هو مهاجراً بأمر الله لحل بهم الهلاك الذي حل بالقرى من قبلهم حين أخرجت رسلها أو قتلتهم . ويأمر الرسول ﷺ أن يمضي في طريقه يقرأ قرآنه ويصلي صلاته ، ويدعو الله أن يحسن مدخله ومخرجه ويعلن مجيء الحق وزهوق الباطل ، ويعقب بأن هذا القرآن الذي أرادوا فتنته عن بعضه فيه شفاء وهدى للمؤمنين ، بينما الإنسان قليل العلم ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ ويستمر في الحديث عن القرآن وإعجازه . بينما هم يطلبون خوارق مادية ، ويطلبون نزول الملائكة ، ويقترحون أن يكون للرسول بيت من زخرف أو جنة من نخيل وعنب ، يفجر الأنهار خلالها تفجيراً! أو أن يفجر لهم من الأرض ينبوعاً . أو أن يرقى هو في

السماء ثم يأتيهم بكتاب مادي معه يقرأونه . . إلى آخر هذه المقترحات التي يمليها العنت والمكابرة ، لا طلب الهدى والاقتناع . ويرد على هذا كله بأنه خارج عن وظيفة الرسول وطبيعة الرسالة ، ويكل الأمر إلى الله . ويتهكم على أولئك الذين يقترحون هذه الاقتراحات كلها بأنهم لو كانوا يملكون خزائن رحمة الله على سعتها وعدم نفادها لأمسكوا خوفاً من الإنفاق! وقد كان حسبهم أن يستشعروا أن الكون وما فيه يسبح لله ، وأن الآيات الخارقة قد جاء بها موسى من قبل فلم تؤد إلى إيمان المتعنتين الذين استفزوه من الأرض ، فأخذهم الله بالعذاب والنكال .

وتنتهي السورة بالحديث عن القرآن والحق الأصيل فيه .اهـ [١] .

التفسير الإجمالي :

(لما ذكر تعالى من اختصه بالإسراء وهو محمد رسول الله ﷺ ، ومن آتاه التوراة وهو موسى عليه السلام وأنها هدى لبني إسرائيل ، وذكر ما قضى عليهم فيها من التسليط عليهم بذنوبهم ، كان ذلك رادعاً من عقل عن معاصي الله فذكر ما شرف الله به رسوله من القرآن الناسخ لحكم التوراة وكل كتاب إلهي ، وأنه يهدي للطريقة أو الحالة التي هي أقوم . وقال الضحاك والكلبي والفراء ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ هي شهادة التوحيد . وقال مقاتل : للأوامر والنواهي و ﴿أَقْوَمُ﴾ هنا أفعل التفضيل على قول الزجاج إذ قدر أقوم الحالات وقدره غيره أقوم مما عداها أو من كل حال ، والذي يظهر من حيث المعنى أن ﴿أَقْوَمُ﴾ هنا لا يراد بها التفضيل إذ لا مشاركة بين الطريقة التي يرشد إليها القرآن وطريقة غيرها ، وفضلت هذه عليها وإنما المعنى التي هي قيمة أي مستقيمة كما قال : ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾ و ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾ أي مستقيمة الطريقة ، قائمة بما يحتاج إليه من أمر الدين . وقال الزمخشري : ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ للحالة التي هي أقوم الحالات

---

(١) انظر ظلال القرآن : ٢٢٠٨/٤ ــ ٢٢١٠ في ظلال سورة الإسراء ط/ دار الشروق .

وأشدّها أو للملة أو للطريقة ، وأينما قدرت لم تجد مع الإثبات ذوق البلاغة الذي تجده مع الحذف لما في إبهام الموصوف لحذفه من فخامة تفقد مع إيضاحه اهـ .

﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ قَيدٌ في الإيمان الكامل إذ العمل هو كمال الإيمان ، نبه على الحالة الكاملة ليتحلى بها المؤمن ، والمؤمن المفرط في عمله له بإيمانه حظ في عمل الصالحات والأجر الكبير الجنة . وقال الزمخشري : فإن قلت كيف ذكر المؤمنين الأبرار والكفار ولم يذكر الفسقة ؟ قلت : كان الناس حينئذ إما مؤمن تقي ، وإما مشرك ، وإنما حدث أصحاب المترلة بين المترلتين بعد ذلك انتهى . وهذا مكابرة بل وقع في زمان الرسول ﷺ من بعض المؤمنين هنات وسقطات بعضها مذكور في القرآن ، وبعضها مذكور في الحديث الصحيح الثابت .

﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ عطف على قوله : ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ بشروا بفوزهم بالجنة وبكينونة العذاب الأليم لأعدائهم الكفار ، إذ في علم المومنين بذلك وتبشيرهم به مسرة لهم ، فهما بشارتان وفيه وعيد للكفار ... وفي قوله : ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ دليل على أن من آمن بالآخرة لا يعدّ له عذاب أليم ، وأنه ليس عمل الصالحات شرطاً في نجاته من العذاب .

وقرأ الجمهور ﴿وَيُبَشِّرُ﴾ مشدّداً مضارع بشر المشدّد . وقرأ عبد الله وطلحة وابن وثاب والإخوان ﴿وَيُبْشِرُ﴾ مضارع بشر المخفف ومعنى ﴿أَعْتَدْنَا﴾ أعددنا وهيأنا ، وهذه الآية جاءت عقب ذكر أحوال اليهود ، واندرجوا فيمن لا يؤمن بالآخرة لأن أكثرهم لا يقول بالثواب والعقاب الجسماني .اهـ[1]

[يخبر تعالى أنه ﷻ لعظيم قدرته ، وسعة علمه ، وحكمته في تدبيره ألزم كل إنسان ما قضى به له من عمل وما يترتب على العمل من سعادة أو شقاء في الدارين ، الزمه ذلك

(١) البحر المحيط تفسير سورة الإسراء الآيات (٩ – ١١) .

بحيث لا يخالفه ولا يتأخر عنه بحال حتى كأنه مربوط بعنقه . هذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾ أي وفي يوم القيامة يخرج الله تعالى لكل إنسان كتاب عمله فيلقاه منشوراً أي مفتوحاً أمامه . ويقال له : اقرأ كتابك الذي أحصى لك عملك كله فلم يغادر صغيرة ولا كبيرة . وقوله : ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ أي يكفيك نفسك حاسباً لأعمالك محصياً لها عليك أيها الإنسان . وقوله تعالى : ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ﴾ ، أي بعد هذا الإعلام والبيان ينبغي أن يعلم أن من اهتدى اليوم فآمن بالله ورسوله ، ولقاء الله ، ووعده ووعيده وعمل صالحاً وتخلى عن الشرك والمعاصي فإنما عائد ذلك له ، هو الذي ينجو من العذاب ، ويسعد في دار السعادة ، وان من ضل طريق الهدى فكذب ولم يؤمن ، وأشرك ولم يوحد ، وعصى ولم يطع فإن ذلك الضلال عائد عليه ، هو الذي يشقى به ويعذب في جهنم دار العذاب والشقاء . وقوله ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ الوزر الإثم والذنب والوازرة الحاملة له لتؤخذ به ومعنى الكلام ولا تحمل يوم القيامة نفس آثمة إثم نفس أخرى ، بل كل نفس تتحمل مسئوليتها بنفسها ، والكلام تقرير لقوله : ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾. وقوله تعالى : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ أي لم يكن من شأن الله تعالى وهو العدل الرحيم أن يهلك أمة بعذاب إبادة واستئصال قبل أن يبعث فيها رسولاً يعرفها بربها وبمحابة ومساخطه ، ويأمرها بفعل المحارب وترك المساخط التي هي الشرك والمعاصي .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً ﴾ أي أهل قرية ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ أي أمرنا منعميها من أغنياء ورؤساء وأشراف من أهل الحل والعقد أمرناهم بطاعتنا بإقامة الشرع وأداء الفرائض والسنن واجتناب كبائر الإثم والفواحش فلم يستجيبوا للأمر ولا للنهي

وهو معنى ﴿فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ أي وجب عليها العذاب ﴿فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ أي اهلكناها إهلاكاً كاملاً ، وهذا الكلام بيان لقوله تعالى : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ إذ الرسول يأمر وينهى بإذن الله تعالى فإن لم يطع استوجب الناس العذاب فعذبوا . اهـ [1].

((من مشكاة النبوة))

وقفات مع قوله ﷺ : ((﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾

[٦٩] عَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحْرِزٍ أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ ابْنَ عُمَرَ كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِي النَّجْوَى قَالَ « **يَدْنُو أَحَدُكُمْ مِنْ رَبِّهِ حَتَّى يَضَعَ كَنَفَهُ عَلَيْهِ فَيَقُولُ أَعَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا فَيَقُولُ نَعَمْ . وَيَقُولُ عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا فَيَقُولُ نَعَمْ . فَيُقَرِّرُهُ ، ثُمَّ يَقُولُ إِنِّي سَتَرْتُ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا ، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ** » [2]

[٧٠] عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « **مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلاَّ مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلاَّ مَا قَدَّمَ ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلاَ يَرَى إِلاَّ النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ** » . قَالَ الأَعْمَشُ وَحَدَّثَنِي عَمْرُو بْنُ مُرَّةَ عَنْ خَيْثَمَةَ مِثْلَهُ وَزَادَ فِيهِ « **وَلَوْ بِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ** » [3]

[٧١] وعن أنس ﷺ قال كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال : ((**هل تدرون مم أضحك؟**)) قلنا الله ورسوله أعلم قال : ((**من مخاطبة العبد ربه فيقول يا رب ألم تجرني من الظلم يقول بلى ؛ فيقول إني لا أجيز اليوم على نفسي شاهداً إلا مني فيقول كفى**

---

(١) انظر تفسير الجزائري : ٢/ ٢٢٠ ، ٢٢١ لسورة الإسراء الآيات (١٥ – ١٦) .

(٢) البخاري فتح : ٥٢٤/١٣ ك/ التوحيد ب/ كلام الرب ﷻ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم ح/ ٧٥١٤ .

(٣)البخاري فتح : ٥٢٣/١٣ ك/ التوحيد ب/ كلام الرب ﷻ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم ح/ ٧٥١١ .

بنفسك اليوم عليك حسيبا والكرام الكاتبين شهوداً قال فيختم على فيه ويقول لأركانه انطقي فتنطق بأعماله ثم يخلي بينه وبين الكلام فيقول بعدا لكن وسحقا فعنكن كنت أناضل))(١)

((الحساب ودقته))

قال الخازن رحمه الله :

واعلم أن الحساب يبنى على أربع مراتب : الساعات والأيام والشهور والسنين ، فالعدد للسنين والحساب لما دونها من الشهور والأيام والساعات ، وليس بعد هذه المراتب الأربعة إلا التكرار ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴾ يعني وكل شيء تفتقرون إليه من أمر دينكم ودنياكم قد بيناه بياناً شافياً واضحاً غير ملتبس قيل : إنه ﷺ لما ذكر أحوال آيتي الليل والنهار وهما من وجه دليلان قاطعان على التوحيد ومن وجه آخر نعمتان من الله تعالى على أهل الدنيا ، وكل ذلك تفضل منه فلا جرم قال ، ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴾ قوله ﷻ : ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾ قال ابن عباس : عمله وما قدر عليه فهو ملازمه أينما كان . وقيل : خيره وشره معه لا يفارقه حتى يحاسب به . وقيل : ما من مولود إلا وفي عنقه ورقة مكتوب فيها شقي أو سعيد ، وقيل : أراد بالطائر ما قضى عليه أنه عامله وما هو صائر إليهم من سعادة أو شقاوة ، وقيل : هو من قولك طار له سهم إذا خرج يعني ألزمناه ما طار له من عمله لزوم القلادة أو الغل ، لا ينفك عنه والعنق في قوله ﴿فِي عُنُقِهِ﴾ كناية عن اللزم كما يقال : جعلت هذا في عنقك أي قلدتك هذا العمل ، وألزمتك الاحتفاظ به وإنما خص العنق من بين سائر الأعضاء لأنه موضع القلائد والأطواق والغل مما يزين أو يشين فإن كان عمله خيراً كان له كالقلادة أو الحلي في العنق وهو ما يزينه ، وإن كان عمله شراً كان له كالغلّ في عنقه وهو ما يشينه

---

(١) انظر صحيح الترغيب والترهيب للألباني : ٢٣١/٣ح/ ٣٦١٢ .

و يخرج له بقول تبارك وتعالى : ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ قيل : بسطت للإنسان صحيفتان و ووكل به ملكان يحفظان عليه حسناته وسيئاته . فإذا مات طويت الصحيفتان ، وجعلتا معه في عنقه فلا ينشران إلا يوم القيامة ﴿ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ ﴾ أي يقال له : اقرأ كتابك قيل يقرأ يوم القيامة من لم يكن قارئاً ﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ أي محاسباً قال الحسن : لقد عدل عليك من جعلك حسيب نفسك ، وقيل : يقول الكافر إنك لست بظلام للعبيد فاجعلني أحاسب نفسي . فيقال له اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً . قوله سبحانه وتعالى ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ ﴾ يعني أن ثواب العمل الصالح مختص بفاعله ، وعقاب الذنب مختص بفاعله أيضاً ، ولا يتعدى منه إلى غيره وهو قوله تعالى ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ﴾ أي لا تحمل حاملة ثقل أخرى من الآثام ، ولا يؤاخذ أحد بذنب أحد بل كل أحد مختص بذنبه ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ لإقامة الحجة وقطعاً للعذر وفيه دليل على أن ما وجب إنما وجب بالسمع لا بالعقل . اهـ

من ثمرات الآيات :

١- بيان فضل القرآن الكريم ، بهدايته إلى الإسلام الذي هو سبيل السعادة للإنسان .

٢- الوعد والوعيد بشارة المؤمنين العاملين للصالحات ، ونذارة الكافرين باليوم الآخر

٣- بيان طبع الإنسان قبل تهذيبه بالآداب القرآنية والأخلاق النبوية .

٤- كون الليل والنهار آيتين تدلان على الله تعالى وتقرران علمه وقدرته وتدبيره .

٥- تقرير عقيدة القضاء والقدر .

٦- تقرير عقيدة البعث والجزاء .

٧ - تقرير العدالة الإلهية يوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً .

٨- بيان سنة الله تعالى في إهلاك الأمم غير أنها لا تهلك إلا بعد الإنذار والأعذار إليها

٩- التحذير من كثرة التنعم والترف فإنه يؤدي إلى الفسق بترك الطاعة ثم يؤدي الفسق إلى الهلاك والدمار .

وقفة مع الحساب لينتبه الغافل :

قال ابن أبي العز رحمه الله : وَالْعَرْضِ وَالْحِسَابِ، وَقِرَاءَةِ الْكِتَابِ، وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ"- قَالَ تعالى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحاقة]، إلى آخرِ السورة.

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الانشقاق]

﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الكهف] ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [إبراهيم] إلى آخرِ السورة. ﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ ، إلى قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ

ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ ﴾ [غـافر] ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾ [البقرة] .

[٧٢] وروى البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في صَحيحه، عَنْ عَائشَة، أنَّ النبي ﷺ ، قَـالَ: « لَيسَ أحَدٌ يُحاسَبُ يَوْمَ الْقِيَامَة إلا هَلَكَ»"، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، ألَيسَ قَـدْ قَـالَ الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ ؟ فَقَـالَ رَسُولُ الله ﷺ : «إنَّمَا ذَلكَ الْعَرْضُ، ولَيسَ أحَدٌ يُنَاقَشُ الْحِسَـابَ يَـوْمَ الْقِيامَـة إلا عُذِّبَ». يعني أنه لَوْ نَاقَشَ في حِسَابه لِعَبِيدِه لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَكنّه تعالى يَعْفُو وَيَصْفَحُ.

[٧٣] وفِي الصَّحيحِ عَنِ النبي ﷺ ، أنه قَالَ: «إنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَة، فَأكُونُ أوَّلَ مَنْ يُفيقُ، فَإذَا موسى آخذٌ بِقَائِمَة الْعَرْشِ، فَلا أدْرِي أفَاقَ قَبْلِي، أمْ جُوزِي بِصَعْقَة يَوْمِ الطُّورِ»؟". وَهَذَا صَعْقٌ في مَوْقفِ الْقِيَامَة، إذَا جَاءَ الله لِفَصْـلِ الْقَضَـاءِ، وَأشْـرَقَتِ الْأرْضُ بنُوره، فَحِينَئذٍ يَصْعَقُ الْخَلائقُ كُلُّهُمْ.

فَإنْ قِيلَ: كَيْفَ تَصْنَعُونَ بقوله في الْحَدِيث: «إنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَة، فَأكُونُ أوَّلَ مَنْ تَنْشَقُّ عنه الْأرْضُ، فَأجِدُ موسى بَاطِشًا بِقَائِمَة الْعَرْشِ» ؟ قِيلَ: لا رَيْبَ أنَّ هَذَا اللَّفْظَ قَدْ وَرَدَ هَكَذَا، ومنه نَشَأَ الإشْكَالُ. وَلَكنّه دَخَلَ فيه علـى الـراوي حَـدِيثٌ في حَدِيث، فَرَكَّبَ بَيْنَ اللَّفْظَيْنِ، فَجَاءَ هَذَانِ الْحَدِيثَانِ هَكَذَا: أحَدُهُمَا: «أنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَة فَأكُونُ أوَّلَ مَنْ يُفيقُ»، كَمَا تَقَدَّمَ، والثاني: «أنَا أوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عنه الْأرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَة»، فَدَخَلَ على الراوي هَذَا الْحَدِيثُ في الآخَرِ. وَمِمَّنْ نَبَّه علـى هَـذَا أبُـو الْحَجَّاجِ الْمِزِّي، وبعده الشَّيْخُ شَمْسُ الدِّينِ ابْنُ الْقَيِّمِ، وَشَيْخُنَا الشَّيْخُ عِمَادُ الدِّينِ ابْـنُ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ الله.

وَكَذَلكَ اشْتَبَه على بَعْضِ الرُّوَاة، فَقَالَ: ((فَلا أدْرِي أفَاقَ قَبْلِي أمْ كَانَ مِمَّنِ اسْتَثْنَى الله عَجَّلَ ؟)) وَالْمَحْفُوظُ الذي تَوَاطَأتْ عليه الرِّوَايَاتُ الصَّحِيحَة هُوَ الأوَّلُ، وعليه المعنى

الصَّحيحُ، فَإِنَّ الصَّعْقَ يَوْمَ الْقِيَامَة لتَجَلِّي الله لعبَاده إِذَا جَاءَ لفَصْلِ الْقَضَاء، فَمُوسَى ﷺ إِنْ كَانَ لَمْ يُصْعَقْ مَعَهُمْ، فَيَكُونُ قَدْ جُوزِيَ بِصَعْقَة يَوْمَ تَجَلَّى رَبُّه للْجَبَلِ فَجَعَلَه دَكًّا، فَجُعِلَتْ صَعْقَة هَذَا التَّجَلِّي عِوَضًا عَنْ صَعْقَة الْخَلائق لتَجَلِّي رَبِّه يَوْمَ الْقِيَامَة. فَتَأَمَّلْ هَذَا المعنى الْعَظِيمَ وَلا تُهْمِلْه...... وَقَدْ روى ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا عَنِ ابْنِ الْمُبَارَكِ: أنه أَنْشَدَ فِي ذَلِكَ شعْرًا:

وَطَارَتِ الصُّحُفُ فِي الأَيْدِي مُنَشَّرَة ... فِيهَا السَّرَائِرُ وَالأَخْبَارُ تُطَّلَعُ
فَكَيْفَ سَهْوُكَ وَالأَنْبَاءُ وَاقِعَة ... عَمَّا قَلِيلٍ، وَلا تَدْرِي بِمَا تَقَعُ
أَفِي الْجِنَانِ وَفَوْزٍ لا انْقِطَاعَ لَه ... أَمِ الْجَحِيمِ فَلا تُبْقِي وَلا تَدَعُ
تَهْوِي بِسَاكِنِهَا طَوْرًا وَتَرْفَعُهُمْ ... إِذَا رَجَوْا مَخْرَجًا مِنْ غَمِّهَا قُمِعُوا
طَالَ الْبُكَاءُ فَلَمْ يُرْحَمْ تَضَرُّعُهُمْ ... فِيهَا، وَلا رِقْيَة تُغْنِي وَلا جَزَعُ
لِيَنْفَعِ الْعِلْمُ قَبْلَ الْمَوْتِ عَالِمَه ... قَدْ سَالَ قَوْمٌ بِهَا الرُّجْعَى فَمَا رَجَعُوا[1]

النية شرط لسائر العمل فهل من مشمر .؟

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ١٨ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ١٩ كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ٢٠ ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ٢١﴾ مَنْ كان يطلب متاع الدنيا العاجلة ويعمل له متخذا الأسباب ، ولا يوقن بميعاد ، ولا ينتظر جزاء الدار الآخرة ، عجَّلنا له في الدنيا ما نشاء تعجيله من البسط والسعة ، وكان هذا لمن نريد التعجيل له ، ثم أعددنا له في الآخرة جهنم يقاسي حرها ، وهو مذموم بما قدم ، هالك مطرود من رحمة الله .

---

(١) العقيدة الطحاوية

ومن أراد بعمله الآخرة ، ولها عمل ، وهو مصدق بالله وجزائه ، فأولئك كان عملهم مقبولاً عند الله ينالون الثواب عليه .

وإنا نمد كلا الفريقين إذا اتخذوا الأسباب من عطاء ربك في الدنيا ، وما كان عطاء ربك فيها ممنوعاً من أحد ، مؤمناً كان أو كافراً ، ما داموا قد اتخذوا الأسباب .

انظر بعين الاعتبار كيف فضّلنا بعض عبادنا على بعض في المال والحياة والسعة ، إذا اتخذوا أسباب ذلك في الدنيا لحكمة نعلمها ، وأن تفاوتهم في الدار الآخرة أكبر درجات من تفاوتهم في الدنيا ، فينبغي الاعتناء بها ، فالآخرة هي التي تكون فيها الرفعة الحقيقية والتفاضل الحقيقي .

لا تجعل - أيها المكلف - مع الله شريكاً فتصير موصوماً بالإهانة ، ويكون الخذلان مكتوباً عليك .

يخبر تعالى أن ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ﴾ الدنيا ﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾ المنقضية الزائلة فعمل لها وسعى، ونسي المبتدأ أو المنتهى أن الله يعجل له من حطامها ومتاعها ما يشاؤه ويريده مما كتب [الله] له في اللوح المحفوظ ولكنه متاع غير نافع ولا دائم له.

ثم يجعل له في الآخرة ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا﴾ أي: يباشر عذابها ﴿مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ أي: في حالة الخزي والفضيحة والذم من الله ومن خلقه، والبعد عن رحمة الله فيجمع له بين العذاب والفضيحة.

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ فرضيها وآثرها على الدنيا ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ الذي دعت إليه الكتب السماوية والآثار النبوية فعمل بذلك على قدر إمكانه ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ أي: مقبولا منمى مدخرا لهم أجرهم وثوابهم عند ربهم.

ومع هذا فلا يفوتهم نصيبهم من الدنيا فكلا يمده الله منها لأنه عطاؤه وإحسانه.

﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ أي: ممنوعا من أحد بل جميع الخلق راتعون بفضله وإحسانه اهـ (١)

[﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في الدنيا بسعة الأرزاق وقلتها، واليسر والعسر والعلم والجهل والعقل والسفه وغير ذلك من الأمور التي فضل الله العباد بعضهم على بعض بها.

﴿وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ فلا نسبة لنعيم الدنيا ولذاتها إلى الآخرة بوجه من الوجوه.

فكم بين من هو في الغرف العاليات واللذات المتنوعات والسرور والخيرات والأفراح ممن هو يتقلب في الجحيم ويعذب بالعذاب الأليم، وقد حل عليه سخط الرب الرحيم وكل من الدارين بين أهلها من التفاوت ما لا يمكن أحدا عده. اهـ (٢)

البعث ودحض حجج المعاندين :

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُل كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الإسراء]

---

(١) تفسير المنتخب لجنة من علماء الأزهر .

(٢) تفسير السعدي ص ٤٨٥ تفسير سورة الإسراء آية (٢١) ط/ التوفيقية .

معاني الكلمات :

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا﴾ : الاستفهام الانكسار والاستعباد والرفات الأجزاء المتفرقة

﴿مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾ : أي يعظم عن قبول الحياة في اعتقادكم .

﴿فَطَرَكُمْ﴾ : خلقكم .

﴿فَسَيُنْغِضُونَ﴾ : أي يحركون رؤوسهم تعجباً .

﴿مَتَىٰ هُوَ﴾ : الاستفهام للاستهزاء أي متى هذا البعث الذي تعدنا .

﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ ﴾ : أي يناديكم من قبوركم على لسان إسرافيل .

﴿فَتَسْتَجِيبُونَ ﴾ : أي تجيبون دعوته قائلين سبحانك الله وبحمدك .

﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ : وتظنون أنكم ما لبثتم في قبوركم إلا قليلا .

[يخبر تعالى عن قول المنكرين للبعث وتكذيبهم به واســتبعادهم بقــولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا ﴾ أي: أجسادا بالية ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ أي: لا يكون ذلك وهو محال بزعمهم، فجهلوا أشد الجهل حيث كذبوا رسل الله وجحدوا آيات الله وقاسوا قدرة خالق السماوات والأرض بقدرتهم الضعيفة العاجزة.

فلما رأوا أن هذا ممتنع عليهم لا يقدرون عليه جعلوا قدرة الله كذلك.

فسبحان من جعل خلقا من خلقه يزعمون أنهم أولو العقول والألباب مثالا في جهــل أظهر الأشياء وأجلاها وأوضحها براهين وأعلاها ليرى عباده أنه ما ثم إلا توفيقه وإعانتــه أو الهلاك والضلال.

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾ [آل عمران]

ولهذا أمر رسوله ﷺ أن يقول لهؤلاء المنكرين للبعث استبعاداً :﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ ﴾ أي: يعظم ﴿ فِي صُدُورِكُمْ ﴾ لتسلموا بذلك على زعمكم من أن تنالكم قدرة الله أو تنفذ فيكم مشيئته، فإنكم غير معجزي الله في أي حالة تكونون وعلى أي وصف تتحولون، وليس لكم في أنفسكم تدبير في حالة الحياة وبعد الممات.

فدعوا التدبير والتصريف لمن هو على كل شيء قدير وبكل شيء محيط.

﴿ فَسَيَقُولُونَ ﴾ حين تقيم عليهم الحجة في البعث: ﴿مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ فكما فطركم و لم تكونوا شيئا مذكورا فإنه سيعيدكم خلقا جديدا ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ﴾ ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ ﴾أي: يهزونها إنكارا وتعجبا مما قلت، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ أي: متى وقت البعث الذي تزعمه على قولك؟ لا إقرار منهم لأصل البعث بل ذلك سفه منهم وتعجيز. ﴿ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ فليس في تعيين وقته فائدة، وإنما الفائدة والمدار على تقريره والإقرار به وإثباته و إلا فكل ما هو آت فإنه قريب.

﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ ﴾ للبعث والنشور وينفخ في الصور ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ أي: تنقادون لأمره ولا تستعصون عليه. وقوله: ﴿بِحَمْدِهِ﴾ أي: هو المحمود تعالى على فعله ويجزي به العباد إذا جمعهم ليوم التناد.

﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ من سرعة وقوعه وأن الذي مر عليكم من النعيم كأنه ما كان.

فهذا الذي يقول عنه المنكرون: ﴿مَتَىٰ هُوَ﴾ يندمون غاية الندم عند وروده ويقال لهم: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾ [المطففين] .اهـ[1]

وقال الجزائري:

ما زال السياق في تقرير العقيدة في الآيات قبل هذه كان تقرير التوحيد والوحي وفي هذه الآيات تقرير البعث والجزاء الآخر ففي الآية (٤٧) يخبر تعالى عن إنكار المشركين للبعث واستبعادهم له بقوله : ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ أي أجزاء متفرقة كالحطام ﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا﴾ وفي الآية (٤٨) يأمر تعالى الرسول ﷺ أن يقول لهم كونوا ما شئتم فإن الله تعالى قادر على إحيائكم وبعثكم للحساب والجزاء وهو قوله تعالى ؟ ﴿قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِى صُدُورِكُمۡ﴾ أي مما يعظم في نفوسكم أن يقبل الحياة كالموت مثلاً فإن الله تعالى سيحييكم ويبعثكم . وقوله تعالى : ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ يخبر تعالى رسوله أن منكري البعث سيقولون له مستبعدين البعث : من يعيدنا وعمله الجواب فقال له ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمۡ﴾ أي خلقكم أول وهو جواب مسكت فالذي خلقكم ثم أماتكم هو الذي يعيدكم كما بدأكم وهو أهون عليه . وقوله تعالى ﴿فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ يخبر تعالى رسوله بما سيقوله منكروا البعث له فيقول تعالى ﴿فَسَيُنۡغِضُونَ﴾ أي يحركون إليك رؤوسهم خفضاً ورفعاً استهزاء ويقولون : ﴿مَتَىٰ هُوَ﴾ أي متى البعث أي في أي يوم هو كائن . وقوله تعالى : ﴿قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ علمه تعالى كيف يجيب المكذبين . وقوله ﴿يَوۡمَ

---

(١) انظر تفسير السعدي [المجلد الواحد] ص ٤٩٠، ٤٩١ لسورة الإسراء الآيات (٤٨ – ٥١) .

﴿يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ أي ما لبثتم في قبوركم إلا قليلا من اللبث لما تعاينون من الأهوال وتشاهدون من الأحوال المفزعة المرعبة

من هداية الآيات :

١- تقرير عقيدة البعث والجزاء وبيان حتميتها .

٢- بيان ما كان عليه المشركون من شدة إنكارهم للبعث الآخر .

٣- تعليم الله تعالى لرسوله كيف يجيب المنكرين المستهزئين بالتي هي أحسن .

٤- بيان الأسلوب الحواري الهادي الخالي من الغلظة والشدة . اهـ

الكافر يحشر في القيامة على وجهه :

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [الإسراء]

شرح الكلمات :

﴿شَهِيدًا﴾ : على أني رسول الله إليكم وقد بلغتكم وعلى أنكم كفرتم وعاندتم .

﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ : أي يهدونهم .

﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ : أي يمشون على وجوهم .

﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ : لا يبصرون ولا ينطقون ولا يسمعون .

﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ : أي سكن لهبها زدناهم سعيراً أي تلهباً واستعاراً .

﴿مِثْلَهُمْ﴾ : أي أناساً مثلهم .

﴿أَجَلًا﴾: وقتاً محدداً . اهـ (١)

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يقول تعالى ذكره ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ يا محمد للإيمان به، ولتصديقك وتصديق ما جئت به من عند ربك، فوفّقه لذلك، فهو المهتد الرشيد المصيب الحقّ، لا من هداه غيره، فإن الهداية بيده ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ يقول: ومن يضلله الله عن الحقّ، فيخذله عن إصابته، و لم يوفقه للإيمان بالله وتصديق رسوله، فلن تجد لهم يا محمد أولياء ينصرونهم من دون الله، إذا أراد الله عقوبتهم والاستنقاذ منهم .

﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ يقول: ونجمعهم بموقف القيامة من بعد تفرقهم في القبور عند قيام الساعة ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا﴾ وهو جمع أبكم ، ويعني بالبكم: الخُرْس .

كما حدثنا الحسن بن يحيى، قال: ثنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا معمر، عن قتادة، في قوله ﴿وَبُكْمًا﴾ قال: الخرس ﴿وَصُمًّا﴾ وهو جمع أصم.

فإن قال قائل: وكيف وصف الله هؤلاء بأنهم يحشرون عميا وبكما وصما، وقد قال ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ فأخبر أنهم يرون، وقال ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾ فأخبر أنهم يسمعون وينطقون ؟ قيل: جائز أن يكون ما وصفهم الله به من العَمى والبكم والصمم يكون صفتهم في حال حشرهم إلى موقف القيامة، ثم يجعل لهم أسماع وأبصار ومنطق في أحوال أُخَر غير حال الحشر، ويجوز أن يكون ذلك، كما روي عن ابن عباس في الخبر الذي حدثنيه عليّ بن داود، قال: ثنا أبو صالح، قال: ثني معاوية،

---

(١) انظر تفسير الجزائري : ٢٥٣/٢ لسورة الإسراء الآيات (٩٦ – ٩٩) .

عن عليّ، عن ابن عباس، قوله ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ ثم قال ﴿وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا﴾ وقال ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ وقال ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ أما قوله ﴿عُمْيًا﴾ فلا يرون شيئا يسرّهم. وقوله ﴿وَبُكْمًا﴾ لا ينطقون بحجة ، وقوله ﴿وَصُمًّا﴾ لا يسمعون شيئا يسرّهم ، وقوله ﴿مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ يقول جلّ ثناؤه: ومصيرهم إلى جهنم، وفيها مساكنهم، وهم وَقُودها.

كما حدثني محمد بن سعد، قال: ثني أبي، قال: ثني عمي، قال : ثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس، قوله ﴿مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ يعني إنهم وقودها.

وقوله ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ يعني بقوله خبت : لانت وسكنت، كما قال عديّ بن زيد العبادي في وصف مزنة :

وَسْطُهُ كالْيَرَاعِ أَوْ سُرُجِ المِجْدَلِ ... حِينًا يَخْبُو وحِينًا يُنِيرُ

يعني بقوله: يخبو السرج: أنها تلين وتضعف أحيانا، وتقوى وتنير أخرى،

.... عن ابن عباس ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ يقول: كلما أحرقتهم تسعر بهم حطباً، فإذا أحرقتهم فلم تبق منهم شيئا صارت جمرا تتوهّج، فذلك خُبُوُّها، فإذا بدّلوا خلقا جديدا عاودتهم .

حدثني محمد بن عمرو، قال: ثنا أبو عاصم، قال: ثنا عيسى ؛ وحدثني الحارث، قال: ثنا الحسن ، قال: ثنا ورقاء، جميعا عن مجاهد حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثني حجاج، عن ابن جريج، عن مجاهد مثله.

حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثني حجاج، عن ابن جريج، قال: قال ابن عباس ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ قال: خبوّها أنها تَسعَّر بهم حطبا، فإذا أحرقتهم، فلم يبق منهم شيء صارت جمرا تتوهج، فإذا بُدِّلوا خلقا جديدا عاودتهم.

حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال : ثنا سعيد، عن قتادة قوله ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ يقول: كلما احترقت جلودهم بُدّلوا جلودا غيرها، ليذوقوا العذاب.

حدثنا الحسن بن يحيى، قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا معمر، عن قتادة، في قوله ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ قال: كلما لان منها شيء.

حُدثت عن مروان، عن جويبر، عن الضحاك ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ قال : سكنت.

وقوله ﴿زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ يقول: زدنا هؤلاء الكفار سعيرا ، وذلك إسعار النار عليهم والتهابها فيهم وتأججها بعد خبوّها، في أجسامهم.

القول في تأويل قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾ يقول تعالى ذكره: هذا الذي وصفنا من فعلنا يوم القيامة بهؤلاء المشركين، ما ذكرت أنا نفعل بهم من حشرهم على وجوههم عميا وبكما وصما، وإصلائنا إياهم النار على ما بيّنا من حالتهم فيها ثوابهم بكفرهم في الدنيا بآياتنا، يعني بأدلته وحججه، وهم رسله الذين دعوهم إلى عبادته، وإفرادهم إياه بالألوهة دون الأوثان والأصنام، وبقولهم إذا أُمروا بالإيمان بالميعاد، وبثواب الله وعقابه في الآخرة ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا﴾ بالية ﴿وَرُفَاتًا﴾ قد صرنا ترابا ﴿أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ يقولون: نُبعث بعد ذلك خلقا جديدا . كما ابتدأناه أوّل مرّة في الدنيا استنكاراً منهم لذلك ، واستعظاما وتعجبا من أن يكون ذلك. اهـ

وقال الجزائري:

ما زال السياق في تقرير النبوة المحمدية إذ يقول تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم : قل لأولئك المنكرين أن يكون الرسول بشراً ، ﴿كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ على أني رسوله وأنتم منكرون عليّ ذلك .

إنه تعالى كان وما زال ﴿بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ أي ذا خبرة تامة بهم ﴿بَصِيرًا﴾ بأحوالهم يعلم المحق منهم من المبطل ، والصادق من الكاذب وسيجزي كلاً بعمله ورحمته . وقوله تعالى : ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ يخبر تعالى أن الهداية بيده تعالى فمن يهده الله فهو المهتدي بحق ، ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي يهدونهم بحال من الأحوال ، وفي هذا الكلام تسلية للرسول وعزاء في قومه المصرين على الجحود والإنكار لرسالته .

وقوله : ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي أولئك المكذبين الضالين الذين ماتوا على ضلالهم وتكذيبهم فلم يتوبوا نحشرهم يوم القيامة ، يمشون على وجوههم حال كونهم عمياً لا يبصرون ، بكماً لا ينطقون ، صماً لا يسمعون وقوله تعالى : ﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي محل استقرارهم في ذلك اليوم جهنم الموصوفة بأنها ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ أي سكن لهبها عنهم زادهم الله سعيراً أي تلهباً واستعاراً . وقوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم﴾ أي ذلك العذاب المذكور بأنهم جزاؤهم بأنهم كفروا بآيات الله أي سبب كفرهم بآيات الله . وقولهم إنكاراً للبعث الآخر واستبعاداً له : ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا﴾ أي تراباً ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ ورد الله تعالى على هذا الاستبعاد منهم للحياة الثانية فقال : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ أي أينكرون البعث الآخر ؟ ولم يروا بعيون قلوبهم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ ؟؟! بلى إنه لقادر لو كانوا يعلمون!

وقوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا﴾ أي وقتاً محدوداً معيناً لهلاكهم وعذابهم ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ وهم صائرون إليه لا محالة ، وقوله : ﴿فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ أي مع هذا

البيان والاستدلال العقلي أبى الظالمون إلا الجحود والكفران ليحق عليهم كلمة العذاب فيذوقوه والعياذ بالله تعالى .

من هداية الآيات :

١- عظم شهادة الله تعالى ووجوب الاكتفاء بها .

٢- الهداية والإضلال بيد الله فيجب طلب الهداية منه والاستعاذة به من الضلال .

٣- فظاعة عذاب يوم القيامة إذ يحشر الظالمون يمشون على وجودهم كالحيات وهو صم بكم عمي والعياذ بالله تعالى من حال أهل النار .

٤- جهنم جزاء الكفر بآيات الله والإنكار للبعث والجزاء يوم القيامة .

٥- دليل البعث عقلي كما هو نقلي فالقادر على البدء ، قادر عقلاً على الإعادة بل الإعادة - عقلاً- أهون من البدء للخلق من لا شيء .

سُورَةُ الكهف

سورة الكهف مكيَّة واستثنى بعض المفسرين بعض الآيات: أولها (١ - ٨)، وآية رقم (٢٨) ومن (١٠٧ - ١١٠) على أنها مدنية، ولكن هذا الاستثناء يحتاج إلى دليل؛ لأن الأصل أن السُّور المكيَّة مكيَّةٌ كلها وأن المدنيَّة مدنيَّةٌ كُلُّها، فإذا رأيت استثناءً فلا بد من دليل.

والمَكّي ما نزل قبل الهجرة والمدنيُّ ما نزل بعد الهجرة حتى وإن نزل بغير المدينة

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا (٤) مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥) فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨)﴾ [الكهف]

معاني الكلمات

﴿ٱلْحَمْدُ﴾ : الوصف بالجميل ، والثناء به على المحمود ذي الفضائل والفواضل كالمدح والشكر .

﴿لِلَّهِ﴾ : اللام حرف جر ومعناها الاستحقاق أي أن الله مستحق لجميع المحامد والله علم على ذات الرب تبارك وتعالى .

﴿ الرَّب ﴾ : السيد المالك المصلح المعبود بحق جل جلاله .

﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ : جمع عالم وهو كل ما سوى الله تعالى ، كعالم الملائكة وعالم الجن وعالم الإنس وعالم الحيوان ، وعالم النبات . اهـ

بين يدي السورة :

القصص هو العنصر الغالب في هذه السورة . ففي أولها تجيء قصة أصحاب الكهف ، وبعدها قصة الجنتين ، ثم إشارة إلى قصة آدم وإبليس . وفي وسطها تجيء قصة موسى مع العبد الصالح . وفي نهايتها قصة ذي القرنين ، ويستغرق هذا القصص معظم آيات السورة ، فهو وارد في إحدى وسبعين آية من عشر ومائة آية؛ ومعظم ما يتبقى من آيات السورة هو تعليق أو تعقيب على القصص فيها . وإلى جوار القصص بعض مشــاهد القيامــة ، وبعض مشاهد الحياة التي تصور فكرة أو معنى ، على طريقة القرآن في التعبير بالتصوير .

أما المحور الموضوعي للسورة الذي ترتبط به موضوعاتها ، ويدور حوله سياقها ، فهــو تصحيح منهج النظر والفكر . وتصحيح القيم بميزان هذه العقيدة .

فأما تصحيح العقيدة فيقرره بدؤها وختامها .

في البـــــدء : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾ [الكهف].

وفي الختام : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ ﴾

وهكذا يتساوق البدء والختام في إعلان الوحدانية وإنكار الشرك ، وإثبات الــوحي ، والتمييز المطلق بين الذات الإلهية وذوات الحوادث .

ويلمس سياق السورة هذا الموضوع مرات كثيرة في صور شتى :

في قصة أصحاب الكهف يقول الفتية الذين آمنوا بربهم : ﴿ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ ﴾ وفي التعقيب عليها : ﴿ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾ . وفي قصة الجنتين يقول الرجل المؤمن لصاحبه وهو يحاوره : ﴿ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ ﴾ وفي التعقيب عليها : ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ ﴾ وفي مشهد من مشاهد يوم القيامة : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ ﴾ وفي التعقيب على مشهد آخر : ﴿ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ أما تصحيح منهج الفكر والنظر فيتجلى في استنكار دعاوى المشركين الذين يقولون ما ليس لهم به علم ، والذين لا يأتون على ما يقولون ببرهان . وفي توجيه الإنسان إلى أن يحكم بما يعلم ولا يتعداه ، وما لا علم له به فليدع أمره إلى الله . اهـ [(١)]

لما ختمت تلك بأمر الرسول ﷺ بالحمد عن التنزه عن صفات النقص لكونه أعلم الخلق بذلك ، بدئت هذه بالإخبار باستحقاقه سبحانه الحمد على صفات الكمال التي منها البراءة عن كل نقص ، منبها بذلك على وجوب حمده بما شرع من الدين على هذا الوجه الأحكم بهذا الكتاب القيم الذي خضعت لجلاله العلماء الأقدمون ، وعجز عن معارضته الأولون والآخرون ، الذي هو الدليل على ما ختمت به تلك من العظمة والكمال ، والتنزه والجلال ، فقال ملقنا لعباده حمده ، معلما لهم كيف يثنون عليه ،

---

(١) انظر الظلال :٤/ ٢٢٥٦ ، ٢٢٥٧ في ظلال سورة الكهف الآيات (١-٥)

مفقها لهم في اختلاف العبارات باختلاف المقامات : ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ أي الإحاطة بصفات الكمال ﴿لِلَّهِ﴾ أي المستحق لذلك لذاته .

ولما أخبر باستحقاقه ذلك لذاته ، أخبر بأنه يستحقه أيضاً لصفاته وأفعاله ، فقال تعالى : ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ ولما كان المراد وصف جملة الكتاب بالإعجاز من غير نظر إلى التفريق وللتدريج ، عبر بالإنزال دون التنزيل فقال : ﴿أَنزَلَ﴾ وعدل عن الخطاب بأن يقول : عليك[1] ، كما يقول : فلعلك باخع نفسك ، كما في ذلك من الوصف بالعبودية والإضافة إليه سبحانه من الإعلام بتشريفه ﷺ والتنبيه على علة تخصيصه بالإنزال عليه كما تقدم في سورة البقرة ، فقال . مقدماً له على المنزل لأن المراد الدلالة على صحة رسالته بما لا يحتاج فيه قريش إلى سؤال اليهود ولا غيرهم من تخصيصه بما لا يقدر عليه غيره : ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ وإشارة إلى أنه الذي أسرى به إلى حضرات مجده ليريه من آياته ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ الجامع لمعاني الكتب المشار إليه في آخر التي قبلها بما أشير إليه من العظمة كما آتى موسى التوراة الآمرة بالعدل في الأحكام ، وداود الزبور الحادي إلى الزهد والإحسان ، على ما أشير إليه في ﴿ سُبْحَٰنَ ﴾

ولما كان الجامع لا يخلو من عوج أو قابلية له إلا أن كان من علام الغيوب ، نفى القابلية والإمكان دلالة على أنه من عنده لينتفي العوج بطريق الأولى فقال تعالى : ﴿وَلَمْ﴾ أي والحال أنه لم ﴿يَجْعَل لَّهُۥ﴾ و لم يقل : فيه ﴿عِوَجَا﴾ أي شيئاً من عوج ، أي بل هو مستقيم في جميع معانيه من غير اختلاف أصلاً ، هادٍ إلى كل صواب ، لأن العوج - بالكسر : فقد الاستقامة في المعاني ، وبالفتح في الأعيان؛ وأتبعه حالاً أخرى له بقوله تعالى : ﴿قَيِّمًا﴾ تصريحاً باللازم تأكيداً له ، ومقيداً أنه مهيمن على ما قبله من الكتب مقيم

---

(١) في قوله تعالى ﴿ نحن نقص عليك نبأهم بالحق ...﴾ .

لغيره ، وقد مضى في الفاتحة ثم في الأنعام عن الإمام سعد الدين التفتازاني الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ أن كل سورة افتتحت بالحمد فللإشارة إلى نعمة من أمهات النعم التي هي إيجاد وإبقاء أولاً ، وإيجاد وإبقاء ثانياً ، وأنه أشير في الفاتحة لكونها أم الكتاب إلى الأربع ، وفي الأنعام إلى الإيجاد الأول وهو ظاهر ، وفي هذه السورة إلى الإبقاء الأول ، فإن نظام العالم وبقاء النوع الإنساني يكون بالنبي والكتاب . اهـ[(١)]

النار أعدت للكافرين والجنة أعدت للمتقين :

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾ [الكهف]

شرح الكلمات :

﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ : حائط من نار أحيط بهؤلاء المعذبين في النار .

﴿بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ : أي كعكر الزيت أي الدردي وهو ما يبقى في أسفل الإناء ثخناً رديئاً

﴿مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ : أي مارق من الديباج ، والاستبرق ما غلظ منه أي من الديباج . اهـ[(٢)]

---

(١) نظم الدرر للبقاعي تفسير سورة الكهف الآيات (١- ٥) .

(٢) انظر تفسير الجزائري : ٢/ ٢٧٢، ٢٧٣ لسورة الكهف الآيات (٢٩ – ٣١) ط/ دار الحديث .

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾

﴿فَمَن شَآءَ﴾ الله فليؤمن ﴿وَمَن شَآءَ﴾ الله فليكفر ، أو تهديد ووعيد أو المعنى لا تنفعون الله بإيمانكم ولا تضرونه بكفركم ، أو من شاء أن يعرض نفسه للجنة بالإيمان ومن شاء أن يعرضها للنار بالكفر ﴿سُرَادِقُهَا﴾ حائطها الذي يحيط بها ، أو دخانها ولهبها قبل وصوله إليها ﴿ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾﴾ [المرسلات] أو البحر المحيط بالدنيا مروي عن الرسول ﷺ سرادق : فارسي معرب أصله سرادر ﴿بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ القيح والدم ، أو كدُري الزيت ، أو كل شيء أذيب حتى انماع ، أو الذي انتهى حره وسماه إغاثة لاقترانه بالاستغاثة ﴿مُرْتَفَقًا﴾ مجتمعاً من المرافقة ، أو منزلاً من الارتفاق أو المتكأ مضاف إلى المرفق ، أو من الرفق ؛ ﴿سُندُسٍ﴾ ما لطف من الديباج ، أو رق منه واحده سندسة ، ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ الديباج المنسوج بالذهب ، أو ما غلظ منه ، فارسي معرب أصله استبرة وهو الشديد ﴿ٱلْأَرَآئِكِ﴾ الحجال ، أو الفرش في الحجال ، أو السرير في الحجال . اهـ (١)

معنى الآيات :

وقوله تعالى في الآية الثالثة من هذا السياق ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ﴾ أي هذا الذي جئت به وادعوا إليه من الإيمان والتوحيد والطاعة

---

(١) انظر تفسير العز بن عبد السلام لسورة الكهف الآيات (٣٠ – ٣١) .

لله بالعمل الصالح هو ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أيها الناس . ﴿فَمَن شَآءَ﴾ الله هدايته فـآمن وعمل صالحاً فقد نجاه ومن لم يشأ الله هدايته فبقي على كفره فلم يـؤمن فقـد خـاب وخسر .

وقوله : ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ أي جـدرانها الناريـة ، ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟﴾ من شدة العطش ﴿يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ رديئـاً ثخينـاً ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ إذا أدناه الشارب من وجهه ليشرب شوى جلده ووجهه ولذا قيل فيه ذم له . ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ﴾ أي جهنم ﴿مُرْتَفَقًا﴾ في منـزلها وطعامها وشرابها إذ كله سوء وعذاب هذا وعيد من اختار الكفر على الإيمان اهـ [1]

وقال ابـن عثـيمين رحمه الله : ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ﴾ الخطاب للرسول ﷺ . أي قلها معلنا ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ لا من غيره، فلا تطلبوا الحق من طريق غير طريق الله ، لأن الحق من عند الله.

﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ والأمر في قوله: ﴿فَلْيَكْفُرْ﴾ للتهديد وليس للإباحة بل هو للتهديد كما يهدد الإنسان غيره فيقول: ((إن كنت صادقاً فافعل كذا))، ويدل عليه قوله تعالى بعده: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ يعني مـن كفر فله النار قد أعدت، وقوله: ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ المراد به الكافرون، والدليل على هذا قوله: ﴿فَلْيَكْفُرْ﴾ فإن قال قائل: ((هل الكفر يسمى ظلماً؟)) . فالجواب: نعم، كما قـال الله

---

(١) انظر تفسير الجزائري :٢/٢٧٣ ، ٢٧٤ لسورة الكهف الآية (٢٩) .

تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾[البقرة] ، ولا أحد أظلم ممن كفر بالله أو جعل معه شريكاً، وهو الذي خلقه وأمده وأعده.

قوله: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ﴾ أي بأهل النار ﴿سُرَادِقُهَا﴾ أي ما حولها، يعني أن النار قد أحاطت بهم فلا يمكن أن يفروا عنها يميناً ولا شمالاً.

وقوله: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ يعني أن أهل النار إذا عَطشوا عَطشاً شديداً وذلك بأكل الزقوم أو بغير ذلك أغيثوا بهذا الماء ﴿بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ يكون كعَكَر الزيت يعني تُفَلَهُ الخاثر في أسفله أو ما أشبه ذلك مما هو منظر كريه، ولا تقبله النفوس كما قال تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾ [إبراهيم] ، أي كالصديد يتجرعه ولا يكاد يُسيغه.

﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ إذا قَرُبَ منها شَواها وتساقطت والعياذ بالله من شدة فيح هذا الماء، وإذا وصل إلى أمعائهم قطعها كما قال جلّ وعلا﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد]، وما أعظم الوجع والألم فيمن تقطع أمعاؤه من الداخل، لكن مع ذلك تقطع وتعاد كالجلود ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ﴾ [النساء: ٥٦] الله أكبر، سبحان القادر على كل شيء، وبلحظة يكون هذا الشيء متتابعاً، كلما نَضجت بُدِّلوا، وكلما تقطّعت الأمعاء فإنها توصل بسرعة.

قوله: ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ هذا قدح وذم لهذا الشراب، و﴿بِئْسَ﴾فعل ماضٍ لإنشاء الذم.

[وأما وعد من آمن وعمل صالحاً وقد تضمنته الآيتان (٣١-٣٢) إذ قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ ﴾ هذا حكمنا الذي لا تبديل له وبين تعالى أجرهم على إيمانهم وإحسان أعمالهم فقال :

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ ﴾ أي إقامة دائمة ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ﴾ وهي الأسرة بالحجلة . ثم أثنى الله تعالى على نعيمهم الذي أعده لهم بقولهم : ﴿ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ ﴾ الذي أثيبوا ﴿ وَحَسُنَتْ ﴾ الجنة في حيلها وثيابها وفرشها وأسرتها وطعامها وشرابها وحورها ورضوان الله فيها ﴿ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ يرتفقون فيه وبه ، جعلنا الله من أهلها..اهـ [(١)]

وقال ابن عثيمين رحمه الله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ ﴾ هذا من أسلوب القرآن، فإن الله إذا ذكر أهل النار ذكر أهل الجنة، وهذا من معنى قوله: ﴿ مَّثَانِىَ ﴾ [الزمر: ٢٣] أي تثنى فيه المعاني والأحوال والأوصاف ليكون الإنسان جامعاً بين الخوف والرجاء في سيره إلى ربه.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ قد سبق الكلام في معنى هذه الآية، قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ ولم يقل(إنا لا نضيع أجرهم) ، ولكن قال تعالى: ﴿ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ وذلك لبيان العلة في ثواب هؤلاء وهو أنهم أحسنوا العمل، و ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الرحمن] ، هذا

---

(١) انظر تفسير الجزائري : ٢٧٤/٢ لسورة الكهف الآيات (٣١-٣٢) .

من الوجه المعنوي، ومن الوجه اللفظي أن تكون رؤوس الآية متوافقة ومتطابقة، لأنه لو قال: ((إنّا لا نضيع أجرهم)) لاختلفت رؤوس الآيات.

و بماذا يكون الإحسان في العمل ؟ يكون بأمرين :

١ - الإخلاص لله ٢ - المتابعة لرسول الله ﷺ ، ولا يخفى ما في الآية الكريمة من الحث على إحسان العمل.

﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ ﴾ المشار إليه الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

﴿جَنَّٰتُ﴾ جمع جنة وهي الدار التي أعدها الله لأوليائه فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

﴿عَدْنٍ﴾بمعنى الإقامة، أي جنات إقامة لا يبغون عنها حوَلا أي تحولا عنها، ومن تمام النعيم أن كل واحد منهم لا يرى أن أحداً أنعم منه، ومن تمام الشقاء لأهل النار أن كل واحد منهم لا يرى أحداً أشد منه عذاباً، ولكن هؤلاء، أهل الجنة، لا يرون أن أحداً أنعم منهم لأنهم لو رأوا ذلك لتنغص نعيمهم حيث يتصورون أنهم أقل.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ الأنهار جمع نهر وهي أربعة أنواع ذكرها الله تعالى في سورة محمد، قال الله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا

﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾[محمد] ، وهنا قال: ﴿مِن تَحْتِهِمُ﴾ وفي آية أخرى قال: "تحتهم" وفي ثالثة ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ وفي رابعة: ﴿تَحْتَهَا﴾ والمعنى واحد، لأنهم إذا كانت الأنهار تجري تحت أشجارها وقصورها فهي تجري تحت سكانها.

قوله تعالى ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾.

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾أي الجنات. ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ قال بعضهم: إن ﴿مِنْ﴾ هنا زائدة لقول الله تعالى: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: ٢١]... وعلى هذا فإما أن تكون للتبعيض: أي يحلون فيها بعض أساور، أي يحلى كل واحد منهم شيئاً من هذه الأساور وحينئذٍ لا يكون إشكال، وإما أن تكون "للبيان" أي بيان ما يحلون، وهو أساور وليس قلائد أو خُروصا مثلاً، وأما قوله: ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ فهي بيانية، أي لبيان الأساور أنها من ذهب، ولكن لا تحسبوا أن الذهب الذي في الجنة كالذهب الذي في الدنيا، فإنه يختلف اختلافاً عظيماً،

[٧٤] قال الله تبارك وتعالى في الحديث القدسي: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ اللَّهُ : ((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))[1]، ولو كان كذهب الدنيا لكان العين رأته .

قوله تعالى: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ ، السندس: ما رَقَّ من الديباج والإستبرق ما غلظ منه.

وقوله: ﴿خُضْرًا﴾ خصَّها باللون الأخضر لأنه أشد ما يكون راحة للعين ففيه جمال وفيه راحة للعين.

---

(١) انظر فتح الباري :٦/ ٣٥٣ ك/ بدء الخلق ب/ ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة . ح/ ٣٢٤٤ ، ومسلم نووي :٣٠١/١٧ ، ٣٠٢ ك/ الجنة وصفة نعيمها وأهلها ح/ ٢٨٢٤ .

قال تعالى ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ﴾ .

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٍ﴾ حال من قوله تبارك وتعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ أي حـال كونهم متكئين فيها، والاتكاء يدل على راحة النفس وعلى الطمأنينة.

قوله: ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ جمع أريكة، والأريكة نوع من المرتفق الذي يرتفق فيه، وقيل: إن الأريكة سرير في الخيمة الصغيرة المغطاة بالثياب الجميلة تشبه ما يسمونه بالكوخ.

قال الله تعالى: ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ هذا مدح لهذه الجنة وما فيها من نعيم، ففيهـا الثنـاء على هذه الجنة بأمرين: بأنها ﴿نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ﴾ وأنها ﴿وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ قـال الله تعـالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان] اهـ [1]

من هداية الآيات :

١- بيان خيبة وخسران المعرضين عن كتاب الله فلم يتلوه و لم يعملوا بما جاء فيـه مـن شرائع وأحكام .

٢- الترغيب في مجالسة أبناء الآخرة الفقراء الصابرين وترك أبناء الدنيا والإعراض عما هم فيه .

٣- على الداعي إلى الله تعالى أن يبين الحق ، والناس بعد بحسب ما كتب لهم أو عليهم .

٤- الترغيب والترهيب بذكر جزاء الفريقين المؤمنين والكافرين .

٥- عذاب النار شر عذاب ، ونعيم الجنة ، نعم النعيم ولا يهلك على الله إلا هالك .اهـ [2]

والآخرة خير وأبقى :

﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف] ولهذا أخبر تعالى أن المال والبنين، زينة الحياة الدنيا، أي: ليس وراء

---

(١) انظر المصدر السابق .

(٢) انظر تفسير الجزائري :٢/ ٢٧٤ لسورة الكهف الآيات (٢٩ – ٣١) .

ذلك شيء، وأن الذي يبقى للإنسان وينفعه ويسره، الباقيات الصالحات، وهذا يشمل جميع الطاعات الواجبة والمستحبة من حقوق الله، وحقوق عباده، من صلاة، وزكاة، وصدقة، وحج، وعمرة، وتسبيح، وتحميد، وتهليل، وتكبير، وقراءة، وطلب علم نافع، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وصلة رحم، وبر الوالدين، وقيام بحق الزوجات، والمماليك، والبهائم، وجميع وجوه الإحسان إلى الخلق، كل هذا من الباقيات الصالحات، فهذه خير عند الله ثوابا وخير أملا فثوابها يبقى، ويتضاعف على الآباد، ويؤمل أجرها وبرها ونفعها عند الحاجة، فهذه التي ينبغي أن يتنافس بها المتنافسون، ويستبق إليها العاملون، ويجد في تحصيلها المجتهدون، وتأمل كيف لما ضرب الله مثل الدنيا وحالها واضمحلالها ذكر أن الذي فيها نوعان: نوع من زينتها، يتمتع به قليلا ثم يزول بلا فائدة تعود لصاحبه، بل ربما لحقته مضرته وهو المال والبنون ونوع يبقى وينفع صاحبه على الدوام، وهي الباقيات الصالحات. اهـ (١)

وقال الشنقيطي : ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة – أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا ، وأن الباقيات الصالحات خير عند الله ثواباً وخير أملاً .

والمراد من الآية الكريمة – تنبيه الناس للعمل الصالح . لئلا يشتغلوا بزينة الحياة الدنيا من المال والبنين عما ينفعهم في الآخرة عند الله من الأعمال الباقيات الصالحات . وهذا المعنى الذي أراه هنا جاء مبيناً في آيات أخر . كقوله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ [آل عمران] ، وقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ

---

(١) انظر تفسير السعدي [المجلد الواحد] ص ٥١١ لسورة الكهف الآية (٤٦) .

أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [المنافقون] ، وقولـه : ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [التغابن] ، وقولـه : ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ [سبا: ٣٧] الآية ، وقولـه : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الشعراء] إلى غير ذلك من الآيات الدالـة على أن الإنسان لا ينبغي له الاشتغال بزينة الحياة الدنيا عما ينفعه في آخرتـه . وأقـوال العلماء في الباقيات الصالحات كلها راجعة إلى شيء واحد ، وهو الأعمال التي ترضي الله ، سواء قيل : إنها الصلوات الخمس ، كما هو مروي عن جماعة من السلف . منهم ابـن عباس ، وسعيد بن جبير ، وأبو ميسرة ، وعمرو بن شرحبيل . أو أنهـا : سـبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حولا ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . وعل هـذا القول جمهور العلماء ، وجاءت دالة عليه أحاديث مرفوعة عن أبي سعيد الخـدري ، وأبي الدرداء ، وأبي هريرة ، والنعمان بن بشير ، وعائشة ﭫ.

قال مقيده عفا الله عنه : التحقيق أن ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ ﴾ لفظ عـام ، يشـمل الصلوات الخمس ، والكلمات الخمس المذكورة ، وغير ذلك من الأعمال التي ترضي الله تعالى : لأنها باقية لصاحبها غير زائلة . ولا فانية كزينة الحياة الدنيا ، وثلنها أيضاً صـالحة لوقوعها على الوجه الذي يرضي الله تعالى . وقوله ﴿ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا ﴾ تقدم معنـاه . وقوله ﴿ وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ أي الذي يؤمل من عواقب الباقيات الصالحات ، خير مما يؤمله أهل الدنيا من زينة حياتهم الدنيا وأصل الأمل : طمع الإنسان بحصول ما يرجوه في المستقبل . ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى في « مريم » : ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾[مريم] والمرد : المرجـع إلى

الله يوم القيامة . وقال بعض العلماء : ﴿مَّرَدًّا﴾ مصدر ميمي ، أي وخير رداً للثواب على فاعلها ، فليست كأعمال الكفار التي لا ترد ثواباً على صاحبها .اهـ (١)

بين الحشر والعرض على الله وخزي المجرمين وندمهم :

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الكهف]

شرح الكلمات :

﴿نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ : أي تقتلع من أصولها وتصير هباءً منبثاً .

﴿بَارِزَةً﴾ : ظاهرة إذ فنى كل ما كان عليها من عمران .

﴿فَلَمْ نُغَادِرْ﴾ : لم نترك منهم أحداً .

﴿مَّوْعِدًا﴾ : أي ميعاداً لبعثكم أحياء للحساب والجزاء .

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ : كتاب الحسنات وكتاب السئيات فيؤتاه بيمينه والكافر بشماله

﴿مُشْفِقِينَ﴾ : خائفين .

﴿يَٰوَيْلَتَنَا﴾ : أي يا هلكنا احضري هذا أوان حضورك .

﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً﴾ : أي لا يترك صغيرة من ذنوبنا ولا كبيرة إلا جمعها عداً .

﴿مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ : مثبتاً في كتابهم ، مسجلاً فيها .اهـ

---

(١) أنظر أضواء البيان في تفسير سورة الكهف الآيات (٢٩ - ٣٠) .

وقال العز ابن عبد السلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

﴿نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ بنقلها عن أماكنها ، أو بتقليلها حتى لا يبقى منها إلا اليسير ، أو بجعلها هباء منثوراً ﴿بَارِزَةً﴾ برز ما فيها من الموتى ، أو صارت فضاء لا يسترها جبل ولا نبات ﴿نُغَادِرْ﴾ نترك ، أو نخلف ، الغدير : ما تخلفه السيول .

﴿صَفًّا﴾ بعد صف كصفوف الصلاة .

﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ كتاب أعمالهم يوضع في أيديهم ، أو عبّر عن الحساب بالكتاب لأنهم يحاسبون على ما كُتب ﴿صَغِيرَةً﴾ ... أو الصغائر التي تغفر باجتناب الكبائر ﴿كَبِيرَةً﴾ المنصوص تحريمه ، أو ما قرنه الوعيد ، أو الحد ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ بنقصان ثواب ولا زيادة عقاب . اهـ

المعنى العام للآيات :

لما ذكر تعالى مآل الحياة الدنيا وأنه الفناء والزوال ورغب في الصالحات وثوابها المرجوا يوم القيامة ، ناسب ذكر نبذة عن يوم القيامة ، وهو يوم الجزاء على الكسب في الحياة الدنيا قال تعالى : ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ أي اذكر ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ﴾ أي تقتلع من أصولها وتصير هباءً منبثاً ، ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ ظاهرة ليس عليها شيء ، فهي قاعاً صفصفاً ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ أي جمعناهم من قبورهم للموقف ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي لم نترك منهم أحداً كائناً من كان ، ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ أيها الرسول صفاً وقوفاً أذلاء ، وقيل لهم توبيخاً وتقريعا ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ لا مال معكم ولا سلطان لكم بل حفاة عراة غرلاً ، جمع أغرل ، وهو الذي لم يختتن .

وقوله تعالى : ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ﴾ أي ادعيتم كذباً أنا لا نجمعكم ليوم القيامة ، ولن نجعل لكم موعداً فها أنتم مجموعون لدينا تنتظرون الحساب والجزاء ، وفي هذا من التوبيخ والتقريع ما فيه ، وقوله تعالى في الآية ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ الكهف: ٤٩ يخبر تعالى عن حال العرض عليه فقال : ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ أي كتاب الحسنات والسيئات وأعطى كل واحد كتابه فالمؤمن يأخذه بيمينه والكافر بشماله ، ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ في تلك الساعة ﴿مُشْفِقِينَ﴾ أي خائفين ﴿مِمَّا فِيهِ﴾ أي في الكتاب من السيئات ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا﴾ ندماً وتحسراً ينادون يا ويلتهم وهي هلاكهم قائلين : ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً ﴾ من ذنوبنا ﴿إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾أي أثبتها عداً .

وقوله تعالى : في آخر العرض ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ أي من خير وشر مثبتاً في كتابهم وحوسبوا به ، وجوزوا عليه ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ بزيادة سيئة على سيئاته أو بنقص حسنة من حسناته ، ودخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار .اهـ (١)

((ياله من مشهد رعيب))

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ : يخبر تعالى عن أهوال يوم القيامة وما يكون فيه من الأمور العظام كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ ﴾ [الطور] أي تذهب من أماكنها وتزول كما قال تعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾[النمل: ٨٨] وقال تعالى : ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ ﴾ [القارعة] وقال : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا

---

(١) انظر تفسير الجزائري : ٢/٢٧٩ ، ٢٨٠ لسورة الكهف الآيات (٤٧ – ٤٩) .

رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ [طـه] يذكر تعالى أنه تذهب الجبال وتتساوى المهاد وتبقى الأرض قاعا صفصفا أي سطحا مستويا لا عوج فيه ولا أمتا أي لا وادي ولا جبل ولهذا قال تعالى : ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ أي بادية ظاهرة ليس فيها معلم لأحد ولا مكان يواري أحدا بل الخلق كلهم ضاحون لربهم لا تخفى عليه منهم خافية قال مجاهد وقتادة ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ لا حمر فيها ولا غيابة[1] قال قتادة : لا بناء ولا شجر .

وقوله : ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ ﴾ أي وجمعناهم الأولين منهم والآخرين فلم نترك منهم أحداً لا صغيراً ولا كبيراً كما قال : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الواقعة] وقال : ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [هود] وقوله : ﴿ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ﴾ يحتمل أن يكون المراد أن جميع الخلائق يقومون بين يدي الله صفا واحدا كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ﴾ [النبأ] ويحتمل أنهم يقومون صفوفا كما قال : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الفجر] وقوله : ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ﴾ هذا تقريع للمنكرين للمعاد وتوبيخ لهم على رؤوس الأشهاد ولهذا قال تعالى مخاطبا لهم : ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾ أي ما كان ظنكم أن هذا واقع بكم ولا أن هذا كائن

---

(١) لعلها غيابة : أي ما أظلك فوق رأسك .

وقوله : ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ أي كتاب الأعمال الذي فيه الجليل والحقير والفتيل والقطمير والصغير والكبير ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ أي من أعمالهم السيئة وأفعالهم القبيحة ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا ﴾ أي يا حسرتنا وويلنا على ما فرطنا في أعمارنا ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾ أي لا يترك ذنبا صغيراً ولا كبيراً ولا عملاً وإن صغر إلا أحصاها أي ضبطها وحفظها وروى الطبراني ... إلى سعد بن جنادة قال : لما فرغ رسول الله ﷺ من غزوة حنين نزلنا قفرا من الأرض ليس فيه شيء فقال النبي ﷺ : ((**اجمعوا من وجد عوداً فليأت به ومن وجد حطباً أو شيئاً فليأت به**)) قال : فما كان إلا ساعة حتى جعلناه ركاماً فقال النبي ﷺ : ((**أترون هذا ؟ فكذلك تجمع الذنوب على الرجل منكم كما جمعتم هذا فليتق الله رجل ولا يذنب صغيرة ولا كبيرة فإنها محصاة عليه**)) .

وقوله : ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ﴾ أي من خير وشر كما قال تعالى : ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ﴾ [آل عمران: ٣٠] الآية وقال تعالى : ﴿ يُنَبَّؤُاْ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ ﴾ [القيامة] وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ ﴾ [الطارق] أي تظهر المخبآت والضمائر

[٧٥] قال الإمام أحمد : حدثنا أبو الوليد حدثنا شعبة عن ثابت عن أنس عن النبي ﷺ قال : ((**لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به**)) [١] أخرجاه في الصحيحين وفي لفظ : ((**يرفع لكل غادر لواء يوم القيامة عند إسته بقدر غدرته يقال هذه غدرة فلان بن فلان**)) [٢]

---

(١) البخاري (٣١٨٧) ومسلم (١٧٣٧) .

(٢) مسلم (١٧٣٨) .

وقوله : ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ أي فيحكم بين عباده في أعمالهم جميعا ولا يظلـم أحدا من خلقه بل يعفو ويصفح ويغفر ويرحم ويعذب من يشاء بقدرته وحكمته وعدله ويملأ النار من الكفار وأصحاب المعاصي ثم ينجي أصحاب المعاصي ويخلد فيها الكافرين وهو الحاكم الذي لا يجور ولا يظلم قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠] الآية وقال ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء] والآيات في هذا كثيرة

[٧٦] وقال الإمام أحمد : حدَّثَنا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ قَالَ أَخْبَرَنَا هَمَّامُ بْنُ يَحْيَـى عَـنِ الْقَاسِمِ بْنِ عَبْدِ الْوَاحِدِ الْمَكِّيِّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَقِيلٍ أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ بَلَغَنِي حَدِيثٌ عَنْ رَجُلٍ سَمِعَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَاشْتَرَيْتُ بَعِيراً ثُمَّ شَدَدْتُ عَلَيْـهِ رَحْلِي فَسِرْتُ إِلَيْهِ شَهْراً حَتَّى قَدِمْتُ عَلَيْهِ الشَّامَ فَإِذَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُنَيْسٍ فَقُلْتُ لِلْبَوَّابِ قُلْ لَهُ جَابِرٌ عَلَى الْبَابِ. فَقَالَ بنُ عَبْدِ اللَّهِ قُلْتُ نَعَمْ. فَخَرَجَ يَطَأُ ثَوْبَهُ فَاعْتَنَقَنِي وَاعْتَنَقْتُهُ فَقُلْتُ حَدِيثاً بَلَغَنِي عَنْكَ أَنَّكَ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْقِصَاصِ فَخَشِـيتُ أَنْ تَمُـوتَ أَوْ أَمُوتَ قَبْلَ أَنْ أَسْمَعَهُ. قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ « يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَـةِ – أَوْ قَالَ الْعِبَادُ – عُرَاةً غُرْلاً بُهْماً » قَالَ قُلْنَا مَا بُهْماً قَالَ « لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ ثُمَّ يُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مِنْ قُرْبٍ أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الدَّيَّانُ وَلاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ وَلَهُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَقٌّ حَتَّى أُقِصَّهُ مِنْهُ وَلاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّـةِ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ وَلأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عِنْدَهُ حَقٌّ حَتَّى أُقِصَّهُ مِنْهُ حَتَّى اللَّطْمَةُ ». قَالَ قُلْنَا كَيْفَ وَإِنَّا إِنَّمَا نَأْتِي اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عُرَاةً غُرْلاً بُهْماً. قَالَ « بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ».

[٧٧] وعن شعبة عن العوام بن مزاحم عن أبي عثمان عن عثمان بن عفان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : ((إن الجماء لتقتص من القرناء يوم القيامة))[١]... اهـ[٢] .

وقال السعدي : يخبر تعالى عن حال يوم القيامة، وما فيه من الأهوال المقلقة، والشدائد المزعجة فقال: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ ﴾ أي: يزيلها عن أماكنها، يجعلها كثيباً، ثم يجعلها كالعهن المنفوش، ثم تضمحل وتتلاشى، وتكون هباء منبثا، وتبرز الأرض فتصير قاعا صفصفا، لا عوج فيه ولا أمتا، ويحشر الله جميع الخلق على تلك الأرض، فلا يغادر منهم أحدا، بل يجمع الأولين والآخرين، من بطون الفلوات، وقعور البحار، ويجمعهم بعدما تفرقوا، ويعيدهم بعد ما تمزقوا، خلقا جديدا، فيعرضون عليه صفا ليستعرضهم وينظر في أعمالهم، ويحكم فيهم بحكمه العدل، الذي لا جور فيه ولا ظلم، ويقول لهم: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي: بلا مال، ولا أهل، ولا عشيرة، ما معهم إلا الأعمال، التي عملوها، والمكاسب في الخير والشر، التي كسبوها كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ﴾ [الأنعام: ٩٤] وقال هنا، مخاطبا للمنكرين للبعث، وقد شاهدوه عيانا: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾ أي: أنكرتم الجزاء على الأعمال، ووعد الله ووعيده، فها قد رأيتموه وذقتموه، فحينئذ تحضر كتب الأعمال التي كتبتها الملائكة الكرام فتطير لها القلوب، وتعظم من وقعها الكروب، وتكاد لها الصم الصلاب تذوب، ويشفق منها المجرمون، فإذا رأوها مسطرة عليهم أعمالهم، محصى عليهم أقوالهم وأفعالهم، قالوا: ﴿يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا

---

(١)رواه عبد الله بن الإمام أحمد وله شواهد من وجوه أخر في مسند عثمان بن عفان .

(٢) انظر تفسير ابن كثير : ٨٩/٣ ، ٩٠ تفسير سورة الكهف الآيات (٤٧ – ٥٠) ط/ دار مصر للطباعة .

أَحۡصَىٰهَاۚ ﴾ أي: لا يترك خطيئة صغيرة ولا كبيرة، إلا وهي مكتوبة فيه، محفوظة لم ينس منها عمل سر ولا علانية، ولا ليل ولا نهار، ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴾ لا يقدرون على إنكاره ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴾ فحينئذ يجازون بها، ويقررون بها، ويخزون، ويحق عليهم العذاب، ذلك بما قدمت أيديهم وأن الله ليس بظلام للعبيد، بل هم غير خارجين عن عدله وفضله. اهـ

معايشة تلك المشاهد :

قوله تعالى : ﴿ وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ ﴾ قال بعض النحويين : التقدير والباقيات الصالحات خير عند ربك يوم نسير الجبال قال النحاس : وهذا غلط من أجل الواو وقيل : المعنى واذكر يوم نسير الجبال أي ننزلها من أماكنها من على وجه الأرض ونسيرها كما نسير السحاب كما قال في آية أخرى ﴿ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ ﴾[النمل : ٨٨] ثم تكسر فتعود إلى الأرض كما قال ﴿ وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ۝٥ فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا ۝٦ ﴾ [الواقعة : ٥ - ٦] وقرأ ابن كثير و الحسن و أبو عمرو و ابن عامر (ويوم تسير) بتاء مضمومة وفتح الياء و (الجبال) رفعا على الفعل المجهول وقرأ ابن محيصن و مجاهد (ويوم تسير الجبال) بفتح التاء مخففا من سار (الجبال) رفعا دليل قراءة أبي عمرو ﴿ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ۝٣ ﴾ [التكوير] ودليل قراءة ابن محصن ﴿ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ۝١٠ ﴾ [الطور] واختار أبو عبيد القراءة الأولى (نسير) بالنون لقوله﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ﴾ ومعنى ﴿بَارِزَةٗ﴾ ظاهرة وليس عليها ما يسترها من جبل ولا شجر ولا بنيان أي قد اجتثت ثمارها وقلعت جبالها وهدم بنيانها فهي بارزة ظاهرة وعلى هذا القول أهل التفسير وقيل : وترى جبالها وهدم بنيانها فهي بارزة ظاهرة وعلى هذا القول أهل التفسير ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ ﴾ أي برز ما فيها من الكنوز والأموات كما قال

﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ ﴾ [الانشقاق] وقال ﴿ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ ﴾ [الزلزلة] وهذا قول عطاء ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ أي إلى الموقف ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي لم نترك يقال : غادرت كذا أي تركته .

وقال عنترة :

غادرته متعفرا أوصاله والقوم بين مجرح ومجدل

أي تركته والمغادرة الترك ومنه الغدر لأنه ترك الوفاء وإنما سمي الغدير من الماء غديرا لأن الماء ذهب وتركه ومنه غدائر المرأة لأنها تجعلها خلفها ويقول : حشرنا برهم وفاجرهم وجنهم وإنسهم

قوله تعالى : ﴿ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ﴾ ﴿صَفًّا﴾ نصب على الحال قال مقاتل : يعرضون صفا بعد صف كالصفوف الصلاة كل أمة وزمرة صفا لا أنهم صف واحد وقيل جميعاً كقوله ﴿ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ﴾ [طه : ٦٤] أي جميعا وقيل قياما .

﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ﴾ أي يقال لهم : لقد جئتمونا حفاة عراة لا مال معكم ولا ولدا وقيل فرادي دليله قوله ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام : ٩٤] وقد تقدم وقال الزجاج أي بعثناكم كما خلقناكم ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ﴾ هذا خطاب لمنكري البعث أي زعمتم في الدنيا أن لن تبعثوا وأن لن نجعل لكم موعداً للبعث

[٧٨] وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنهما قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((**يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا**)) قلت : يا رسول الله ! الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : ((**يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض**)) غرلا أي غير مختونين .

قوله تعالى : ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ اسم جنس وفيه وجهان : أحدهما - أنها كتب الأعمال في أيدي العباد قاله مقاتل الثاني - أنه وضع الحساب قاله الكلبي فعبر عن الحساب بالكتاب لأنهم يحاسبون على أعمالهم المكتوبة والقول الأول أظهر ذكره ابن المبارك قال : أخبرنا الحكم أو أبو الحكم - شك نعيم - عن إسماعيل بن عبد الرحمن عن رجل من بني أسد قال : قال عمر لكعب : ويحك يا كعب ! حدثنا من حديث الآخرة قال : نعم يا أمير المؤمنين ! إذا كان يوم القيامة رفع اللوح المحفوظ فلم يبق أحد من الخلائق إلا وهو ينظر إلى عمله - قال - ثم يؤتى بالصحف التي فيها أعمال العباد فتنشر حول العرش وذلك قوله تعالى : ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾ قال السدي : الصغيرة ما دون الشرك والكبيرة الشرك إلا أحصاها - قال كعب : ثم يدعى المؤمن فيعطى كتابه بيمينه فينظر فيه فإذا حسناته باديات للناس وهو يقرأ سيئاته لكيلا يقول كانت لي حسنات فلم تذكر فأحب الله أن يريه عمله كله حتى إذا استنقص ما في الكتاب وجد في آخر ذلك كله أنه مغفور وأنك من أهل الجنة فعند ذلك يقبل إلى أصحابه ثم يقول ﴿ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الحاقة] ثم يدعى بالكفر فيعطى كتابه بشماله ثم يلف فيجعل من وراء ظهره ويلوى عنقه فذلك قوله ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ ﴾ [الإنشقاق] فينظر في كتابه فإذا سيئاته باديات للناس وينظر في حسناته لكيلا يقول أفأثاب على السيئات وكان الفضيل ين عياض إذا قرأ هذه الآية يقول : يا ويلتاه ! ضجوا إلى الله تعالى من الصغائر قبل الكبائر قال ابن عباس : الصغيرة التبسم والكبيرة الضحك يعني ما كان من ذلك في معصية الله ﷻ ذكره الثعلبي وحكى الماوردي عن ابن عابس أن الصغيرة الضحك .

قلت : فيحتمل أن يكون صغيرة إذا لم يكن في معصية فإن الضحك من المعصية رضا بها والرضا بالمعصية معصية وعلى هذا تكون كبيرة فيكون وجه الجمع هذا والله أعلم أو يحمل الضحك فيما ذكر الماوردي على التبسم وقد قال تعالى ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾ [النمل : ١٩] وقال سعيد بن جبير : إن الصغائر اللمم كالمسيس والقبل والكبيرة المواقعة والزنى وقد مضى في (النساء) بيان هذا قال قتادة : اشتكى القوم الإحصاء وما اشتكى أحد ظلما فإياكم ومحقرات الذنوب فإنها تجتمع على صاحبها حتى تهلكه وقد مضى ومعنى (أحصاها) عدها وأحاط بها وأضيف الإحصاء إلى الكتاب توسعا ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ أي وجدوا إحصاء ما عملوا حاضرا وقيل : وجدوا جزاء ما عملوا حاضرا ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ أي لا يأخذ أحدا بجرم أحد ولا يأخذه بما لم يعلمه قاله الضحاك وقيل : لا ينقص طائعاً من ثوابه ولا يزيد عاصيا في عقابة اهـ (١)

من هداية الآيات :

١- تقرير عقيدة البعث والجزاء بعرضها على مسامع المنكرين لها .
٢- يبعث الإنسان كما خلقه الله ليس معه شيء ، حافياً عارياً لم يقطع منه غفلة الذكر .
٣- تقرير عقيدة كتب الأعمال في الدنيا وإعطائها أصحابها في الآخرة تحقيقاً للعدالة الإلهية
٤- نفي الظلم عن الله تعالى وهو غير جائز عليه لغناه المطلق وعدم حاجته إلى شيء .

المجرمون يرون النار لأول مرة فأيقنوا : أنهم ساقطون فيها :

﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ ﴾

[الكهف] أي: لما كان يوم القيامة وحصل من الحساب ما حصل، وتميز كل فريق من الخلق بأعمالهم، وحقت كلمة العذاب على المجرمين، فرأوا جهنم قبل دخولها، فانزعجوا واشتد قلقهم لظنهم أنهم مواقعوها، وهذا الظن قال المفسرون: إنه بمعنى اليقين، فأيقنوا

---

(١) انظر تفسير القرطبي لسورة الكهف الآيات (٤٧ – ٤٩) .

أهم داخلوها ﴿وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ أي: معدلاً يعدلون إليه، ولا شافع لهم من دون إذنه، وفي هذا من التخويف والترهيب، ما ترعد له الأفئدة والقلوب. اهـ [١]

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الكهف]

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ ﴾ أي اذكر يوم يقول: ﴿نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ فينادونهم ولا يستجيبون لهم، وهذا يكون يوم القيامة، يقال لهم: أين شركائي الذين كنتم تزعمون؟ نادوا شركائي الذين زعمتم أنهم أولياء شفعاء.

﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ ﴾ فهذه الأصنام لا تنفع أهلها بل تُلقى هي وعابدوها في النار، قال الله : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ٩٨] ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴾ الموبق هو مكان الهلاك، يعني أننا جعلنا بينهم حائلاً مهلكاً حيث لا يمكن أن يذهبوا إلى شركائهم، ولا أن يأتي شركاؤهم إليهم، أرأيت لو كان بينك وبين صاحبك خندق من نار هل يمكن أن تذهب إليه لتنصره، أو أن يأتي إليك لينصرك؟ الجواب: لا يمكن، هؤلاء يجعل الله بينهم يوم القيامة ﴿مَّوْبِقًا ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ ﴾ المجرمون يعني الكافرين، كما قال : ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [السجدة] ﴿فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ﴾ أي أيقنوا أنهم : ﴿مُّوَاقِعُوهَا ﴾ والظن يأتي بمعنى اليقين كما في قوله تعالى: ﴿ يَظُنُّونَ أَنَّهُم

(١) انظر تفسير السعدي [المجلد الواحد] ص ٥١٣ لسورة الكهف الآية (٥٣) .

مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ ﴾ [البقرة: ٤٦] ، أي: يوقنون أهم ملاقو الله، وإلا فالظن الذي هو ترجيح أحد الأمرين المشكوك فيهما لا يكفي في الإيمان.

﴿وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ يعني لم يجدوا مكانا ينصرفون عنها إليه، وهذه الجملة معطوفة على ﴿ وَرَءَا ﴾ وليست داخلة تحت قوله ظنوا، لأنه لو كان داخلاً في الظن لقال "ولن"، يعني أهم لما رأوها وظنوا أهم مواقعوها لم يجدوا عنها مصرفاً أي مكاناً ينصرفون إليه لينجوا به منها. اهـ [(١)].

يا حسرة على العباد:

﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوْلِيَآءَ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ

---

(١) انظر تفسير ابن عثيمين لسورة الكهف الآية (٥٣) .

مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف]

معاني الكلمات :

﴿بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ : أي يضطرب يعني يختلط بعضهم ببعض مقبلين ومدبرين حيارى

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا﴾ أي : أظهرناها حتى رآها الكافر يقال عرضت الشيء أظهرته وأعرض الشيء ظهر ومنه وأعرضت اليمامة واشمخرت ...

﴿نُزُلًا﴾ : ما يقام للضيف ولأهل العسكر

﴿يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ أي : عملا والصنع والصنعة والصنيع واحد

﴿حِوَلًا﴾ أي : تحويلا

﴿قَبْلَ أَن تَنفَدَ﴾ تفنى

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ أي : خاف بلغة هذيل اهـ[(١)] .

المعنى العام :

﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾ فلما فعل هذا الفعل الجميل والأثر الجليل، أضاف النعمة إلى موليها وقال: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ أي: من فضله وإحسانه عليَّ، وهذه حال الخلفاء الصالحين، إذا من الله عليهم بالنعم الجليلة، ازداد شكرهم وإقرارهم، واعترافهم بنعمة الله كما قال سليمان عليه السلام ، لما حضر عنده عرش ملكة سبأ مع البعد العظيم، قال: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ

---

(١)التبيان في تفسير غريب القرآن للحياني

ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ [النمل: ٤٠] بخلاف أهل التجبر والتكبر والعلو في الأرض فإن النعم الكبار، تزيدهم أشراً وبطراً.

كما قال قارون -لما آتاه الله من الكنوز، ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة- قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ وقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى﴾ أي: لخروج يأجوج ومأجوج ﴿جَعَلَهُۥ﴾ أي: ذلك السد المحكم المتقن ﴿دَكَّآءَ﴾ أي: دكه فانهدم، واستوى هو والأرض ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾

﴿۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ﴾ يحتمل أن الضمير، يعود إلى يأجوج ومأجوج، وأنهم إذا خرجوا على الناس -من كثرتهم واستيعابهم للأرض كلها- يموج بعضهم ببعض، كما قال تعالى ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأنبياء] ويحتمل أن الضمير يعود إلى الخلائق يوم القيامة، وأنهم يجتمعون فيه فيكثرون ويموج بعضهم ببعض، من الأهوال والزلازل العظام، بدليل قوله: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾ أي: إذا نفخ إسرافيل في الصور، أعاد الله الأرواح إلى الأجساد، ثم حشرهم وجمعهم لموقف القيامة، الأولين منهم والآخرين، والكافرين والمؤمنين، ليسألوا ويحاسبوا ويجزون بأعمالهم، فأما الكافرون - على اختلافهم- فإن جهنم جزاؤهم، خالدين فيها أبداً.

ولهذا قال: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾ كما قال تعالى: ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [الشعراء] أي: عرضت لهم لتكون مأواهم ومنزلهم، وليتمتعوا

بأغلالها وسعيرها، وحميمها، وزمهريرها، وليذوقوا من العقاب، ما تبكم لـه القلـوب، وتصم الآذان، وهذا آثار أعمالهم، وجزاء أفعالهم، فإنهم في الدنيا .

﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا ﴿١٠١﴾﴾ أي: معرضين عن الذكر الحكيم، والقرآن الكـريم، وقـالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ [فصلت: ٥] وفي أعينهم أغطية تمنعهم من رؤية آيات الله النافعة، كما قال تعـالى: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞ﴾ [البقرة: ٧] ﴿وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾ أي: لا يقدرون علـى سمـع آيات الله الموصلة إلى الإيمان، لبغضهم القرآن والرسول، فإن المبغض لا يستطيع أن يلقـي سمعه إلى كلام من أبغضه، فإذا انحجبت عنهم طرق العلم والخير، فليس لهم سمع ولا بصر، ولا عقل نافع فقد كفروا بالله وجحدوا آياته، وكذبوا رسله، فاستحقوا جهنم، وساءت مصيرا.

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا ﴿١٠٢﴾﴾ وهذا برهان وبيان، لبطلان دعوى المشركين الكافرين، الذين اتخذوا بعـض الأنبياء والأولياء، شركاء لله يعبدونهم، ويزعمون أنهم يكونون لهم أولياء، ينجونهم مـن عذاب الله، وينيلونهم ثوابه، وهم قد كفروا بالله وبرسله ؛ يقول الله لهـم علـى وجـه الاستفهام والإنكار المتقرر بطلانه في العقـول: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ أي: لا يكون ذلك ولا يوالي ولي الله معاديا لله أبدا، فـإن الأوليـاء موافقون لله في محبته ورضاه، وسخطه وبغضه، فيكون على هذا المعنى مشابها لقوله تعـالى ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ [سبا] فمن زعم أنه يتخذ ولي الله ولياً له وهو معاد لله فهو كاذب ويحتمل -وهو الظاهر- أن المعنى أفحسب الكفار بالله المنابـذون لرسـله أن

يتخذوا من دون الله أولياء ينصروهم وينفعوهم من دون الله ويدفعون عنهم الأذى؟ هذا حسبان باطل وظن فاسد فإن جميع المخلوقين ليس بيدهم من النفع والضر شيء ويكون هذا كقوله تعالى ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [الإسراء] ﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ ﴾ [الزخرف: ٨٦] ونحو ذلك من الآيات التي يذكر الله فيها أن المتخذ من دونه وليا ينصره ويواليه ضال خائب الرجاء غير نائل لبعض مقصوده اهـ [(١)]

وقال ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ ﴿ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴾ قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ المفسرون الذين رأيت كلامهم يقولون: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يعني إذا خرجوا صار ﴿يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ ثم اختلفوا في معنى ﴿يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ هل معناه أنهم يموجون مع الناس، أو يموج بعضهم في بعض يتدافعون عند الخروج من السد؟ وإذا كان أحد من العلماء يقول: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ يعني بعد السد، صاروا هم بأنفسهم يموج بعضهم في بعض، فإن كان أحدٌ يقول هذا، فهو أقرب إلى سياق الآية، لكن الذي رأيته أنهم يموج بعضهم في بعض يعني إذا خرجوا، ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومئذ يريد الله ﷻ خروجهم.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ النافخ إسرافيل أحد الملائكة الكرام، وكان النبي ﷺ يفتتح صلاة الليل بهذا الاستفتاح: ((**اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**)) ، هؤلاء الثلاثة الملائكة الكرام، كل واحد منهم موكل بما فيه الحياة، جبريل موكل بما فيه حياة

---

(١) انظر تفسير السعدي [المجلد الواحد] ص ٥٢١ ، ٥٢٢ لسورة الكهف الآيات (٩٨ – ١٠٢) .

القلوب، ميكائيل بما فيه حياة النبات وهو القَطْر، والثالث إسرافيل بما فيه حياة الناس عند البعث، ينفخ في الصور نفختين. الأولى: فَزعٌ وصعق، ولا يمكن الآن أن ندرك عظمة هذا النفخ، نفخ تفزع الخلائق منه وَتصعق بعد ذلك، كلهم يموتون إلا من شاء الله، لشدة هذا النفخ وشدة وقعه، ما يمكن أن نتصور لأن الناس يفزعون، بل فزع من في السموات ومن في الأرض ثم يصعقون – الله أكبر –. شيء عظيم كلما يتصوره الإنسان، يقشعر جلده من عظمته وهوله.

النفخة الثانية: يقول الله: ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الزمر].

النفخة الثانية يقوم الناس من قبورهم أحياء ينظرون، ماذا حدث؟! لأن الأجسام في القبور، يُنزل الله تعالى عليها مطراً عظيماً ثم تنمو في داخل الأرض، حتى إذا تكاملت الأجسام تكاملها التام نفخ في الصور نفخة البعث: ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ ﴿فَجَمَعْنَٰهُمْ﴾ أي: جمعنا الخلائق ﴿جَمْعًا﴾ أي: جمعاً عظيماً، فهذا الجمع يشمَل: الإنس، والجن، والملائكة، والوحوش، وجميع الدواب، قال الله تبارك وتعالى ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأنعام] كل الخلائق، حتى الملائكة – ملائكة السماء – كما قال الله: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الفجر]. يا له من مشهد عظيم، الله أكبر.

﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ﴾

﴿وَعَرَضْنَا﴾ أي عرضناها لهم فتكون أمامهم – اللّهم أجرنا منها –.

﴿جَهَنَّمَ﴾ اسم من أسماء النار.

﴿وَعَرَضْنَا﴾ يعني عرضاً عظيماً، ولذلك نُكّر يعني عرضاً عظيماً تتساقط منه القلـوب، ومن الحكم في إخبار الله ﷻ بذلك أن يصلح الإنسان ما بينه وبين الله، وأن يخاف مـن هذا اليوم، وأن يستعد له، وأن يصور نفسه وكأنه تحت قدميه، كما قال الصّدّيق :كلنـا مصبَّح في أهله والموت أدنى من شراك نعله فتصور هذا وتصور أنه ليس بينك وبينـه، إلا أن تخرج هذه الروح من الجسد، وحينئذ ينتهي كل شيء.

﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا ﴿١٠١﴾﴾

﴿وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾ هل المراد لا يريدون؟ كقوله تعـالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[المائدة: ١١٢]، أي: هل يريد؟ أو المعنى أنهـم لا يستطيعون ﴿سَمۡعًا﴾ أي سمع الإجابة، وليس سمع الإدراك ؟

الجواب: يحتمل المعنَيَيْن جميعاً، وكلاهما حق.

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا ﴿١٠٢﴾﴾ قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ﴾ أي: أفظـن ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ من هم عباده ؟

الجواب: كل شيء فهـو عبـد الله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم] ومن الذي اتُخِذَ ولياً من دون الله، أي: عُبد من دون الله؟

الجواب: عبدت الملائكة، عبدت الرسل، وعبدت الشمس، وعبد القمـر، وعبـدت الأشجار، وعبدت الأحجار، وعبدت البقر! نسأل الله العافية، الشيطان يأتي ابن آدم مـن كل طريق.

﴿عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ يعني أربابا يدعوهم ويستغيثون بهم وينسون ولاية الله ﷻ يعني أيظن هؤلاء الذين فعلوا ذلك أنهم يُنصرون؟

الجواب: لا، لا يُنصرون، ومن ظن ذلك فهو مُخبَّل في عقله.

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾ يعني أن الله هيأ النار ﴿نُزُلًا﴾ للكافرين، ومعنى النـزل ما يقدمه صاحب البيت للضيف، ويحتمل أن يكون بمعنى المنـزل، وكلاهما صحيح، فهم نازلون فيها، وهم يعطونها كأنها ضيافة، وبئست الضيافة.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾﴾ قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي يا محمد للأمـة كلـها: ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ الجواب: نعم. اهـ[1]

تجسيد لهذه الصورة :

[وهو مشهد يرسم حركة الجموع البشرية من كل لون وجنس وأرض . ومن كـل جيل وزمان وعصر ، مبعوثين منشرين . يختلطون ويضطربون في غير نظام وفي غير انتباه ، تتدافع جموعهم تدافع الموج وتختلط اختلاط الموج . . ثم إذا نفخة التجمع والنظـام : ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ فإذا هم في الصف في نظام!

ثم إذا الكافرون الذين أعرضوا عن ذكر الله حتى لكأن على عيونهم غطاء ، ولكأن في أسماعهم صمماً .. إذا هؤلاء تعرض عليهم جهنم فلا يعرضون عنها كما كانوا يعرضون عن ذكر الله . فما يستطيعون اليوم إعراضاً . لقد نـزع الغطاء عن عيونهم نـزعاً فرأوا عاقبة الإعراض والعمى جزاء وفاقاً! والتعبير ينسق بين الإعراض والعـرض متقـابلين في المشهد ، متقابلين في الحركة على طريقة التناسق ... في القرآن ؛ ويعقب على هذا التقابل بالتهكم اللاذع والسخرية المريرة :

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾ أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا مخلوقات الله المستعبدة له أنصاراً لهم من دونه ،

---

(١) انظر تفسير ابن عثيمين لسورة الكهف الآيات (٩٨ – ١٠٣) .

ينصرونهم منه ويدفعون عنهم سلطانه؟ إذن فليلقوا عاقبة هذا الحسبان : ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا ﴾ . . ويا له من نــزل مهيأ للاستقبال ، لا يحتاج إلى جهد ولا انتظار . فهو حاضر ينتظر النــزلاء الكفار!....﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ﴿١٠٥﴾ ﴾ ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ﴾ الذين لا يوجد من هم أشد منهم خسراناً؟ ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ فلم يــؤد بهم إلى الهدى ، و لم ينته بهم إلى ثمرة أو غاية : ﴿وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ لأنهم من الغفلة بحيث لا يشعرون بضلال سعيهم وذهابه سدى ، فهم ماضــون في هــذا الســعي الخائب الضال ، ينفقون حياتهم فيه هدراً .. قل هل ننبئكم من هم هؤلاء؟

وعندما يبلغ من استثارة التطلع والانتظار إلى هذا الحد يكشــف عنــهم فــإذا هــم :﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ ﴾ وأصل الحبوط هو انتفــاخ بطن الدابة حين تتغذى بنوع سام من الكلأ ثم تلقى حتفها . . وهو أنسب شيء لوصف الأعمال . . إنها تنتفخ وأصحابها يظنونها صالحة ناجحة رابحة . . ثم تنتهي إلى البوار!

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ﴿١٠٥﴾ ﴾ فهم مهملون ، لا قيمة لهم ولا وزن في ميزان القيم الصحيحة ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ .

ولهم بعد ذلك جزاؤهم :

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ ويــتم التعــاون في المشهد بعرض كفة المؤمنين في الميزان وقيمتهم :

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ وهذا النزل في جنات الفردوس في مقابل ذلك النزل في نار جهنم . وشتان شتان! ثم هذه اللفتة الدقيقة العميقة إلى طبيعة النفس البشرية وإحساسها بالمتاع في قوله : ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ وهي تحتاج منا إلى وقفة بإزاء ما فيها من عمق ودقة . .

إنهم خالدون في جنات الفردوس . . ولكن النفس البشرية حوَّل قلب . تمل الاطراد ، وتسأم البقاء على حال واحدة أو مكان واحد؛ وإذا اطمأنت على النعيم من التغير والنفاد فقدت حرصها عليه . وإذا مضى على وتيرة واحدة فقد تسأمه . بل قد تنتهي إلى الضيق به؛ والرغبة في الفرار منه!

هذه هي الفطرة التي فطر عليها الإنسان لحكمة عليا تناسب خلافته للأرض ، ودوره في هذه الخلافة . فهذا الدور يقتضي تحوير الحياة وتطويرها حتى تبلغ الكمال المقدر لها في علم الله . ومن ثم ركز في الفطرة البشرية حب التغيير والتبديل؛ وحب الكشف والاستطلاع ، وحب الانتقال من حال إلى حال ، ومن مكان إلى مكان ، ومن مشهد إلى مشهد ، ومن نظام إلى نظام . . وذلك كي يندفع الإنسان في طريقه ، يغير في واقع الحياة ، ويكشف عن مجاهل الأرض؛ ويبدع في نظم المجتمع وفي أشكال المادة . . ومن وراء التغير والكشف والإبداع ترتقي الحياة وتتطور؛ وتصل شيئاً فشيئاً إلى الكمال المقدر لها في علم الله .

نعم إنه مركوز في الفطرة كذلك ألفة القديم ، والتعلق بالمألوف ، والمحافظة على العادة . ولكن ذلك كله بدرجة لا تشل عملية التطور والإبداع ، ولا تعوق الحياة عن الرقي والارتفاع . ولا تنتهي بالأفكار والأوضاع إلى الجمود والركود . إنما هي المقاومة التي تضمن التوازن مع الاندفاع . وكلما اختل التوازن فغلب الجمود في بيئة من البيئات انبعثت الثورة التي تدفع بالعجلة دفعة قوية قد تتجاوز حدود الاعتدال . وخير الفترات هي فترات التعادل بين قوتي الدفع والجذب ، والتوازن بين الدوافع والضوابط في جهاز الحياة .

فأما إذا غلب الركود والجمود . فهو الإعلان بانحسار دوافع الحياة ، وهـو الإيـذان بالموت في حياة الأفراد والجماعات سواء .

هذه هي الفطرة المناسبة لخلافة الإنسان في الأرض . فأما في الجنة وهي دار الكمـال المطلق . . فإن هذه الفطرة لا تقابلها وظيفة . ولو بقيت النفس بفطرة الأرض ، وعاشت في هذا النعيم المقيم الذي لا تخشى عليه النفاد ، ولا تتحول هي عنه ، ولا يتحـول هـو عنها لانقلب النعيم جحيماً لهذه النفس بعد فترة من الزمان؛ ولأصبحت الجنـة سـجناً لنـزلائها يودون لو يغادرونه فترة ، ولو إلى الجحيم ، ليرضوا نـزعة التغير والتبديل!

ولكن بارئ هذه النفس وهو أعلم بها يحول رغباتها ، فلا تعود تبغي التحول عن الجنة ، وذلك في مقابل الخلود الذي لا تحول له ولا نفاد!

وأما....الثاني فيصور العلم البشري المحدود بالقياس إلى العلم الإلهي الذي ليست لـه حدود؛ ويقربه إلى تصور البشر القاصر بمثال محسوس على طريقـة القـرآن في التعبير بالتصوير . اهـ [1] .

---

(١) انظر الظلال : ٤/ ٢٢٩٤ – ٢٢٩٦ في ظلال سورة الكهف الآيات (١٠٠ – ١١٠) .

سُورَةُ مَرْيَمَ

تمهيد :

إن المسابقة في الخيرات ، وفعل الطاعات وترك المنكرات سبب وثيق بعـد فضـل الله تعالى في إزالة العثرات والعقبات وإزاحة الحسرات يوم القيامة ، فمن استبق وعـزم أن لا يسبقه سابق في ميدان المتسابقين وكان في المتقين ، فهو من الناجين يوم الحسرة التي قـال تعالى في شأنها : ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ وأما من تهيئ لذلك اليوم وأعد نفسه لذلك إعداداً حقيقياً بذلك اليوم فإنه تشمله هـذه الآية المباركـة : ﴿ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الزمر] فاللهم إنا نسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين ، وأن تغفر لنا وترحمنا يارب العالمين .

﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [مريم]

معاني الكلمات :

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ أي : ما اسمعهم يوم القيامة وأبصرهم حين لا ينفعهم ذلك .

﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ الذي فيه هلاكهم وهم اليوم في غفلة عن ذلك .

﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ : أي في شأن عيسى فقال اليهود هو ساحر وابن زنا ، وقالت النصارى هو الله وابن الله تعالى عما يصفون .

﴿مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ : هو يوم القيامة .

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ : أي خوفهم بما يقع في يوم القيامة من الحسرة والندامة وذلك عندما يشاهدون أهل الجنة قد ورثوا منازلهم فيها وهم ورثوا منازل أهل الجنة في النار الحسرة ويشتد الندم .

المعنى العام :

﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ ﴾

لما بين تعالى حال عيسى بن مريم الذي لا يشك فيها ولا يمترى، أخبر أن الأحزاب، أي: فرق الضلال، من اليهود والنصارى وغيرهم، على اختلاف طبقاتهم اختلفوا في عيسى عليه السلام ، فمن غال فيه وجاف، فمنهم من قال: إنه الله، ومنهم من قال: إنه ابن الله.ومنهم من قال: إنه ثالث ثلاثة.ومنهم من لم يجعله رسولا بل رماه بأنه ولد بغي كاليهود..وكل هؤلاء أقوالهم باطلة، وآراؤهم فاسدة، مبنية على الشك والعناد، والأدلة الفاسدة، والشبه الكاسدة، وكل هؤلاء مستحقون للوعيد الشديد، ولهذا قال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسله وكتبه، ويدخل فيهم اليهود والنصارى، القائلون بعيسى قول الكفر. ﴿مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: مشهد يوم القيامة، الذي يشهده الأولون والآخرون، أهل السماوات وأهل الأرض، الخالق والمخلوق، الممتلئ بالزلازل والأهوال، المشتمل على الجزاء بالأعمال، فحينئذ يتبين ما كانوا يخفون ويبدون، وما كانوا يكتمون.

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ أي: ما أسمعهم وما أبصرهم في ذلك اليوم! فيقرون بكفرهم وشركهم وأقوالهم، ويقولون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة: ١٢] ففي القيامة، يستيقنون حقيقة ما هم عليه.

﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ وليس لهم عذر في هذا الضلال، لأنهم بين معاند ضال على بصيرة، عارف بالحق، صادف عنه، وبين ضال عن طريق الحق، متمكن من معرفة الحق والصواب، ولكنه راض بضلاله وما هو عليه من سوء أعماله، غير ساع في معرفة الحق من الباطل، وتأمل كيف قال: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بعد قوله ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ﴾ ولم يقل " فويل لهم " ليعود الضمير إلى الأحزاب، لأن من الأحزاب المختلفين، طائفة أصابت الصواب، ووافقت الحق، فقالت في عيسى: " إنه عبد الله ورسوله " فآمنوا به، واتبعوه، فهؤلاء مؤمنون، غير داخلين في هذا الوعيد، فلهذا خص الله بالوعيد الكافرين.

نظرة شاملة على الآيات : -

﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾

الإنذار هو: الإعلام بالمخوف على وجه الترهيب، والإخبار بصفاته، وأحق ما ينذر به ويخوف به العباد، يوم الحسرة حين يقضى الأمر، فيجمع الأولون والآخرون في موقف واحد، ويسألون عن أعمالهم. فمن آمن بالله، واتبع رسله، سعد سعادة لا يشقى بعدها. ومن لم يؤمن بالله ويتبع رسله شقي شقاوة لا سعادة بعدها، وخسر نفسه وأهله. فحينئذ يتحسر، ويندم ندامة تتقطع منها القلوب، وتتصدع منها الأفئدة، وأي: حسرة أعظم من فوات رضا الله وجنته، واستحقاق سخطه والنار، على وجه لا يتمكن من الرجوع، ليستأنف العمل، ولا سبيل له إلى تغيير حاله بالعود إلى الدنيا؟! فهذا قدامهم، والحال أنهم في الدنيا في غفلة عن هذا الأمر العظيم لا يخطر بقلوبهم، ولو خطر فعلى سبيل الغفلة، قد عمتهم الغفلة، وشملتهم السكرة، فهم لا يؤمنون بالله، ولا يتبعون رسله، قد ألهتهم دنياهم، وحالت بينهم وبين الإيمان شهواتهم المنقضية الفانية.

فالدنيا وما فيها، من أولها إلى آخرها، ستذهب عن أهلها، ويذهبون عنها، وسيرث الله الأرض ومن عليها، ويرجعهم إليه، فيجازيهم بما عملوا فيها، وما خسروا فيها أو ربحوا، فمن فعل خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك، فلا يلومن إلا نفسه.اهـ (١)

وقال البقاعي: ولما كان ذلك المشهد عظيم الجمع ، شديد الزحام مستوي الأرض ، بعيد الأرجاء ، كان حاله مقتضياً لئلا يطلعوا على غير ما يليهم من أهواله ، فقال في جواب من يقول : وما عسى أن يسمعوا أو يبصروا فيه ، معلماً بأن حالهم في شدة السمع والبصر جديرة بأن يعجب منها : ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ أي ما أشد سمعهم وما أنفذ بصرهم! ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ سامعين لكل أهواله ، مبصرين لسائر أحواله ، فيطلعون بذلك على جميع ما أدى عمله في الدنيا إلى ضرهم في ذلك اليوم ، وجميع ما كان ينفعهم لو عملوه ، فيندمون حيث لا ينفعهم الندم ، ويتمنون المحال من الرجوع إلى الدنيا ونحوه ليتداركوا فلا يجابون إلى ذلك ، بل يسلك بهم في كل ما يؤذيهم ويهلكهم ويرديهم ، فيكونون بسلوك ذلك - وهم يعلمون ضرره عمياً وبكماً وصمّاً ، لأنهم لا ينتفعون بمداركهم كما كانوا في الدنيا كذلك ، لكنهم - هكذا كان الأصل ، وإنما أظهر فقال : ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ تنبيهاً على الوصف الذي أحلهم ذلك المحل ﴿ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ لا يسمعون ولا يبصرون .

ولما كان هذا الذي تقدم إنذاراً بذلك المشهد ، كان التقدير : أنذر قومك ذلك المشهد وما يسمعونه فيه ويبصرونه ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ نفسه في ذلك المشهد العظيم ، يوم تزل القدم ، ولا ينفع الندم ، للمسيء على إساءته ، وللمحسن على عدم ازدياده من الإحسان .

---

(١) انظر تفسير السعدي [المجلد الواحد] ص٥٢٩ لسورة مريم الآيات (٣٩ - ٤٠) .

ولما كان ﴿يَوْمَ﴾ مفعولاً ، لا ظرفاً ، أبدل منه ، أو علل الإنذار فقـال : ﴿إِذْ﴾ أي حين ، أو لأنه ، وعبر عن المستقبل بالماضي ، إيذاناً بأنه أمر حتم لا بد منه فقال:﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي أمره وفرغ منه بأيسر شأن وأهون أمر ، وقطعنا أنه لا بد من كونه ﴿وَهُمْ﴾ حال من ﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾ أي والحال أنهم الآن ﴿فِى غَفْلَةٍ﴾ عما قضينا أن يكون في ذلـك الوقت من أمره ، لا شعور لهم بشيء منه ، بل يظنون أن الدهر هكذا حياة وموت بـلا آخر ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بأنه لا بد من كونه؛ وفي الصحيح ما يدل على أن يوم الحسـرة حين يذبح الموت [٧٩] فقد روى مسلم عن أبي سعيد ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « **يُجَاءُ بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ كَبْشٌ أَمْلَحُ زَادَ أَبُو كُرَيْبٍ فَيُوقَفُ بَيْنَ الْجَنَّـةِ وَالنَّـارِ وَاتَّفَقَا فِي بَاقِي الْحَدِيثِ فَيُقَالُ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا فَيَشْـرَئِبُّونَ وَيَنْظُـرُونَ وَيَقُولُونَ نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ قَالَ وَيُقَالُ يَا أَهْلَ النَّارِ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا قَـالَ فَيَشْـرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ قَالَ فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُذْبَحُ قَالَ ثُمَّ يُقَالُ يَا أَهْـلَ الْجَنَّـةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ قَالَ ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ** ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ » الآية [(١)]

وأما الغفلة ففي الدنيا ، روى ابن حبان في صحيحه عن النبي ﷺ ﴿إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ قال في الدنيا . قال المنذري : وهو في مسلم بمعناه في حديث آخر .

ولما كان الإرث هو حوز الشيء بعد موت أهله ، وكان سبحانه قد قضـى بمـوت الخلائق أجمعين ، وأنه يبقى وحده ، عبر عن ذلك بالإرث مقرراً به مضـمون الكـلام السابق ، فقال مؤكداً تكذيباً لقولهم : إن الدهر لا يزال هكذا ، حيـاة لقـوم ومـوت

---

(١) مسلم نووي : ١٧ / ٣١٤ , ٣١٥ ك/ الجنة وصفة نعيمها وأهلها ب/ النار يدخلها الجبـارون والجنـة يدخلها الضعفاء ح/ ٢٨٤٩ .

لآخرين ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ بعظمتنا التي اقتضت ذلك ولا بد ، وأفاد الأصبهاني أن تأكيد اسم ﴿ إن ﴾ أفاد أن الإسناد إليه سبحانه لا إلى أحد من جنده ﴿نَرِثُ ٱلْأَرْضَ﴾ فلا ندع بها عامراً من عاقل ولا غيره . ولما كان العاقل أقوى من غيره ، صرح به بعد دخوله فقال : ﴿وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ أي من العقلاء ، بأن نسلبهم جميع ما في أيديهم ﴿وَإِلَيْنَا﴾ لا إلى غيرنا من الدنيا وجبابرتها إلى غير ذلك ﴿يُرْجَعُونَ﴾ معنى في الدنيا وحساً بعد الموت .

ولما ذم الضالين في أمر المسيح ، وعلق تهديدهم بوصف دخل فيه مشركوا العرب ، فأنذرهم بصريح تكذيبهم بالبعث ، وغيرهم بأنهم لسوء أعمالهم كالمكذبين به ، وختم ذلك بأنه الوارث وأن الرجوع إليه ، ودخل في ذلك الإرث بغلبة أنبيائه وأتباعهم على أكثر أهل الأرض برجوع أهل الأديان الباطلة إليهم حتى يعم ذلك جميع أهل الأرض في زمن عيسى عليه السلام، وكان إبراهيم عليه السلام لكثرة أولاده من العرب والروم وأهل الكتابين وراثاً لأكثر الأرض ، وكان مثل زكريا في هبة الولد على كبر سنه وعقم زوجه اهـ[(١)]

من هداية الآيات :

١- تقرير أن عيسى عبد الله ورسوله ، وليس كما قال اليهود ، ولا قالت النصارى .

٢- استحالة اتخاذ الله الولد الذي يقول للشيء كن فيكون .

٣- تقرير التوحيد على لسانه عليه السلام.

٤- الإخبار بما عليه النصارى من خلاف في شأن عيسى عليه السلام.

٥- بيان سبب الحسرة يوم القيامة وهو الكفر بالله والشرك به .

٦- تقرير فناء الدنيا ، ورجوع الناس إلى ربهم بعد بعثهم وهو تقرير لعقيدة البعث والجزاء التي تعالجها السور المكية في القرآن الكريم .اهـ[(٢)] .

---

(١) انظر نظم الدرر للبقاعي تفسير سورة مريم الآيات (٣٦ -٤١) .

(٢) انظر تفسير الجزائري : ٢/ ٣١٢ تفسير سورة مريم الآيات (٣٦ – ٤١) ط/ دار الحديث .

تمهيد :

إن الأعمال الصالحة مع الإخلاص الذي لم يشبه رياء هو المقياس في الآخرة وفي قبول الأعمال ورفع الدرجات ، والنجاة من النار ودخول الجنة مع الأبرار ، والذي أخفق به عمله الصالح وأبطأ لم يسعفه ولم ينفعه في الآخرة نسب : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [المؤمنون] فالخليل لا يملك لأبيه آزر ضراً ولا نفعاً ولا نجاةً من النار لأنه لم يتابع ابنه النبي على المنهج الحق وكل من خالف منهج التوحيد والإخلاص فلن ينتفع بذريته المؤمنة ، فنبي الله نوح لم يستطع أن ينفع ابنه ساعة نزول العذاب : ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [هود] ولم يستطع نبي الله نوح ونبي الله لوط أن يغنيا عن زوجتيهما من الله شيئاً .

﴿ فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

[التحريم] وعلى هذا فلما خلفهم هذا الخلف الفاسد وقد أضاعوا الصلوات واتبعوا الشهوات ..فالغي لهم ، ولما كان قدر الصلاة عظيماً نبَّه ﷺ عليه حتى لا يقصر المسلم في ذلك وإلا فالغي ينتظر من ضيَّع الصلاة ولأهمية هذا الأمر سوف أُذكِّر القارئ بطائفة من الحديث الشريف في هذا الشأن :-

[٨٠] عن أَبِى بَكْرِ بْنِ عُمَارَةَ بْنِ رُؤَيْبَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ « لَنْ يَلِجَ النَّارَ أَحَدٌ صَلَّى قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ». يَعْنِى الْفَجْرَ وَالْعَصْرَ. فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ آنْتَ سَمِعْتَ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ نَعَمْ. قَالَ الرَّجُلُ وَأَنَا أَشْهَدُ أَنِّى سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَمِعَتْهُ أُذُنَايَ وَوَعَاهُ قَلْبِي.(١)

---

(١) مسلم نووي : ٥/ ٢٧٦ ك/ المساجد ومواضع الصلاة ب/ فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما ح/ ٦٣٤ .

[٨١] عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَدَ نَاسًا فِي بَعْضِ الصَّلَوَاتِ فَقَالَ « لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ رَجُلاً يُصَلِّى بِالنَّاسِ ثُمَّ أُخَالِفَ إِلَى رِجَالٍ يَتَخَلَّفُونَ عَنْهَا فَآمُرَ بِهِمْ فَيُحَرِّقُوا عَلَيْهِمْ بِحُزَمِ الْحَطَبِ بُيُوتَهُمْ وَلَوْ عَلِمَ أَحَدُهُمْ أَنَّهُ يَجِدُ عَظْمًا سَمِينًا لَشَهِدَهَا». يَعْنِى صَلاَةَ الْعِشَاءِ.(١)

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ **في تعليقه على هذا الحديث** : قوله ﷺ : « لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ رَجُلاً يُصَلِّى بِالنَّاسِ ثُمَّ أُخَالِفَ إِلَى رِجَالٍ يَتَخَلَّفُونَ عَنْهَا فَآمُرَ بِهِمْ فَيُحَرِّقُوا عَلَيْهِمْ بِحُزَمِ الْحَطَبِ بُيُوتَهُمْ وَلَوْ عَلِمَ أَحَدُهُمْ أَنَّهُ يَجِدُ عَظْمًا سَمِينًا لَشَهِدَهَا ». هذا مما استدل به من قال : الجماعة فرض عين , وهو مذهب عطاء والأوزاعي وأحمد وأبي ثور وابن خزيمة وداود . وقال الجمهور : ليست فرض عين , واختلفوا هل هي سنة أم فرض كفاية كما قدمناه ؟ وأجابوا عن هذا الحديث بأن هؤلاء المتخلفين كانوا منافقين , وسياق الحديث يقتضيه , فإنه لا يظن بالمؤمنين من الصحابة أنهم يؤثرون العظم السمين على حضور الجماعة مع رسول الله ﷺ وفي مسجده , ولأنه لم يحرق بل هم به ثم تركه , ولو كانت فرض عين لما تركه . قال بعضهم : في هذا الحديث دليل على أن العقوبة كانت في أول الأمر بالمال ; لأن تحريق البيوت عقوبة مالية . وقال غيره : أجمع العلماء على منع العقوبة بالتحريق في غير المتخلف عن الصلاة والغال من الغنيمة , واختلف السلف فيهما , والجمهور على منع تحريق متاعهما . ومعنى : أخالف إلى رجال , أي أذهب إليهم , ثم إنه جاء في رواية أن هذه الصلاة التي هم بتحريقهم للتخلف عنها هي العشاء , وفي رواية أنها الجمعة , وفي رواية يتخلفون عن الصلاة مطلقا . وكله صحيح , ولا منافاة بين ذلك .(٢)

---

(١) البخاري فتح : ٢/ ١٥٢ ك/ الأذان ب/ وجوب صلاة الجماعة ح /٦٤٤ و مسلم نووي : ٥/ ٢٩٠ ك/ المساجد ومواضع الصلاة ب/ فضل صلاة الجماعة وبيان التشديد في التخلف عنها ح/ ٦٥١ . وهذا اللفظ لمسلم

(٢) شرح مسلم للنووي : ٥/ ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

[٨٢] عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « **إِنَّ أَثْقَلَ صَلاَةٍ عَلَى الْمُنَـافِقِينَ صَلاَةُ الْعِشَاءِ وَصَلاَةُ الْفَجْرِ وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا وَلَقَدْ هَمَمْـتُ أَنْ آمُرَ بِالصَّلاَةِ فَتُقَامَ ثُمَّ آمُرَ رَجُلاً فَيُصَلِّىَ بِالنَّاسِ ثُمَّ أَنْطَلِقَ مَعِي بِرِجَالٍ مَعَهُمْ حُزَمٌ مِـنْ حَطَبٍ إِلَى قَوْمٍ لاَ يَشْهَدُونَ الصَّلاَةَ فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ بِالنَّارِ** ».(١)

[٨٣] عن أبي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرَ أَحَادِيثَ مِنْهَا وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « **لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ فِتْيَانِي أَنْ يَسْتَعِدُّوا لِي بِحُزَمٍ مِنْ حَطَبٍ ثُمَّ آمُرَ رَجُـلاً يُصَـلِّى بِالنَّاسِ ثُمَّ تُحَرَّقُ بُيُوتٌ عَلَى مَنْ فِيهَا** ».(٢)

[٨٤] عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ أَعْمَى فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُ لَيْسَ لِـي قَائِدٌ يَقُودُنِي إِلَى الْمَسْجِدِ. فَسَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُرَخِّصَ لَهُ فَيُصَلِّىَ فِي بَيْتِهِ فَرَخَّصَ لَهُ فَلَمَّا وَلَّى دَعَاهُ فَقَالَ « **هَلْ تَسْمَعُ النِّدَاءَ بِالصَّلاَةِ** ». فَقَالَ نَعَمْ. قَالَ « **فَأَجِبْ** ».(٣)

قال النووي رحمه الله في تعليقه على هذا الحديث :- هذا الأعمى هـو ابـن أم مكتوم , جاء مفسرا في سنن أبي داود وغيره . وفي هذا الحديث دلالة لمن قال : الجماعة فرض عين . وأجاب الجمهور عنه بأنه سأل هل له رخصة أن يصلي في بيته وتحصل لـه فضيلة الجماعة بسبب عذره ؟ فقيل : لا . . . ويؤيد هذا أن حضور الجماعـة يسـقط بالعذر بإجماع المسلمين , ودليله من السنة حديث عتبان بن مالك المذكور بعـد هـذا . وأما ترخيص النبي ﷺ ثم رده , وقوله : فأجب , فيحتمل أنه بوحي نـزل في الحـال , ويحتمل أنه تغير اجتهاده ﷺ إذا قلنا بالصحيح وقوله الأكثرين أنه يجوز لـه الاجتـهاد ,

---

(١) مسلم نووي : ٥/ ٢٩٠ ك/ المساجد ومواضع الصلاة ب/ فضل صلاة الجماعـة وبيـان التشـديد في التخلف عنها ح/ ٦٥١ [٢٥٢] .

(٢) مسلم نووي : ٥/ ٢٩١ ك/ المساجد ومواضع الصلاة ب/ فضل صلاة الجماعـة وبيـان التشـديد في التخلف عنها ح/ ٦٥١ [٢٥٣] .

(٣) مسلم نووي : ٥/ ٢٩١ ك/ المساجد ومواضع الصلاة ب/ فضل صلاة الجماعـة وبيـان التشـديد في التخلف عنها ح/ ٦٥٣ .

ويحتمل أنه رخص له أولاً وأراد أنه لا يجب عليك الحضور . إما لعذر وإما لأن فرض الكفاية حاصل بحضور غيره . وإما الأمرين , ثم ندبه إلى الأفضل فقال : الأفضل لك والأعظم لأجرك أن تجيب وتحضر فأجب . والله أعلم.(١)

[٨٥] عَنْ أَبِي الأَحْوَصِ قَالَ : قَالَ عَبْدُ اللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنِ الصَّلاَةِ إِلاَّ مُنَافِقٌ قَدْ عُلِمَ نِفَاقُهُ أَوْ مَرِيضٌ إِنْ كَانَ الْمَرِيضُ لَيَمْشِي بَيْنَ رَجُلَيْنِ حَتَّى يَأْتِيَ الصَّلاَةَ - وَقَالَ - إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَّمَنَا سُنَنَ الْهُدَى وَإِنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى الصَّلاَةَ فِي الْمَسْجِدِ الَّذِي يُؤَذَّنُ فِيهِ.(٢)

[٨٦] عَنْ أَبِي الشَّعْثَاءِ قَالَ كُنَّا قُعُودًا فِي الْمَسْجِدِ مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ فَأَذَّنَ الْمُؤَذِّنُ فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْمَسْجِدِ يَمْشِي فَأَتْبَعَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ بَصَرَهُ حَتَّى خَرَجَ مِنَ الْمَسْجِدِ فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : ((أَمَّا هَذَا فَقَدْ عَصَى أَبَا الْقَاسِمِ ﷺ))(٣).

[٨٧] عن عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي عَمْرَةَ قَالَ دَخَلَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ الْمَسْجِدَ بَعْدَ صَلاَةِ الْمَغْرِبِ فَقَعَدَ وَحْدَهُ فَقَعَدْتُ إِلَيْهِ فَقَالَ يَا ابْنَ أَخِي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ « مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ وَمَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا صَلَّى اللَّيْلَ كُلَّهُ ».(٤)

---

(١) انظر شرح مسلم للنووي : ٥/ ٢٩١ ط/ دار المنار .

(٢) مسلم نووي : ٥/ ٢٩٢ ك/ المساجد ومواضع الصلاة ب/ فضل صلاة الجماعة وبيان التشديد في التخلف عنها ح/ ٦٥٤ .

(٣) مسلم نووي : ٥/ ٢٩٣ ك/ المساجد ومواضع الصلاة ب/ فضل صلاة الجماعة وبيان التشديد في التخلف عنها ح/ ٦٥٥ .

(٤)مسلم نووي : ٥/ ٢٩٣ ك/ المساجد ومواضع الصلاة ب/ فضل صلاة الجماعة وبيان التشديد في التخلف عنها ح/ ٦٥٦

[٨٨] عن جُنْدَبَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ فَلاَ يَطْلُبَنَّكُمُ اللَّهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ فَيُدْرِكَهُ فَيَكُبَّهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ».(١)

[٨٩] عَنْ ابْنِ مُحَيْرِيزٍ أَنَّ رَجُلا مِنْ بَنِي كِنَانَةَ يُدْعَى الْمُخْدَجِيُّ سَمِعَ رَجُلا بِالشَّامِ يُكْنَى أَبَا مُحَمَّدٍ يَقُولُ الْوِتْرُ وَاجِبٌ قَالَ الْمُخْدَجِيُّ فَرُحْتُ إِلَى عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ فَاعْتَرَضْتُ لَهُ وَهُوَ رَائِحٌ إِلَى الْمَسْجِدِ فَأَخْبَرْتُهُ بِالَّذِي قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ فَقَالَ عُبَادَةُ كَذَبَ أَبُو مُحَمَّدٍ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ((خَمْسُ صَلَوَاتٍ كَتَبَهُنَّ اللَّهُ عَلَى الْعِبَادِ مَنْ جَاءَ بِهِنَّ لَمْ يُضَيِّعْ مِنْهُنَّ شَيْئًا اسْتِخْفَافًا بِحَقِّهِنَّ كَانَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ وَمَنْ لَمْ يَأْتِ بِهِنَّ فَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ)) (٢)

إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر : -

يقول الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]

قال ابن القيم في كتابه " التفسير القيم ص٣٨٩ " :-

- المعنى أنكم في الصلاة تذكرون الله ، وهو ذاكركم ولذكر الله تعالى إياكم أكبر من ذكركم إياه ، وهذا يروى عن ابن عباس وسلمان وأبي الدرداء وابن مسعود ﷺ .

- وذكر ابن أبي الدنيا عن فضيل بن مرزوق عن عطية ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾

---

(١) مسلم نووي : ٥/ ٢٩٣ ك/ المساجد ومواضع الصلاة ب/ فضل صلاة الجماعة وبيان التشديد في التخلف عنها ح/ ٦٥٧ .

(٢) صحيح:انظر سنن النسائي للألباني ك/ الصلاة ب/ المحافظة على الصلوات الخمس ح /٤٦١ وقال الألباني : صحيح وانظر سنن ابن ماجة : ٢/ ٩٠ ك/ إقامة الصلاة والسنة فيها ب/ ما جاء في فرض خمس صلوات والمحافظة عليها ح/ ١٤٠١ وانظر الترغيب والترهيب : ١/ ١٦٤ ك/ الصلاة ب/ الترغيب في الصلوات الخمس ح/ ٥١١

قال : هو قوله تعالى : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ فذكر الله تعالى لكم أكبر من ذكركم إياه – وقال ابن زيد وقتادة : معناه ، ولذكر الله أكبر من كل شيء .

– وقيل لسلمان ﷺ : أي الأعمال أفضل ؟ فقال : أما تقرأ القرآن :﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ ويشهد لهذا

[٩٠] حديث أبي الدرداء ﷺ : ((أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ , وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ , وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ , وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ , وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ ؟ قَالُوا بَلَى , قَالَ ذِكْرُ اللَّهِ)) (١)

– وكان شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية قدس الله روحه يقول : الصحيح أن معنى الآية : أن الصلاة فيها مقصودان عظيمان ، أحدهما أعظم من الآخر .

فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وهي مشتملة على ذكر الله تعالى ، ولما فيها من ذكر الله تعالى ، أعظم نهيها عن الفحشاء والمنكر .

– وذكر ابن أبي الدنيا عن ابن عباس ﷺ : أنه سئل أي العمل أفضل ؟ قال : ذكر الله أكبر . (٢)

قوله تعالى : ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ ﴾ [مريم]

---

(١) رواه الترمذي برقم : ٣٣٧٧ وصححه الألباني .

(٢) الوابل الصيب (ص٧٦٣) .

شرح الكلمات :

﴿خَلْفٌ﴾ : أي عقب سوء .

﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾ : أهملوها فتركوها فكانوا بذلك كافرين .

﴿وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ : انغمسوا في الذنوب والمعاصي كالزنا وشرب الخمر .

﴿يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ : أي وادياً في جهنم يلقون فيه .

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ : أي لا ينقصون شيئا من ثواب حسناتهم .

﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ : أي إقامة دائمة .

﴿بِالْغَيْبِ﴾ : أي وعدهم بها وهي غائبة عن أعينهم لغيابهم عنها إذ هـــي في الســـماء وهم في الأرض .

﴿مَأْتِيًّا﴾ : أي موعود وهو ما يعد به عباده آتياً لا محالة .

﴿لَغْوًا﴾ : أي فضل الكلام وهو ما لا فائدة فيه .

﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ : أي بقدرهما في الدنيا وإلا فالجنة ليس فيها شمس فيكون فيها نهار وليل .

﴿مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ : أي من كان في الحياة الدنيا تقياً لم يترك الفرائض ولم يغش المحارم

معنى الآيات :

قوله تعالى : ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ يخبر تعالى عن أولئك الصالحين ممـــن اجـــتبى وهدى من النبيين وذرياتهم ، أنه خلف من بعدهم خلف سوء كان مـــن شـــأنهم أنهـــم ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾ فمنهم من أخرها عن أوقاتها ومنهم من تركها ﴿وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ فانغمسوا في حمأة الرذائل فشربوا الخمور وشهدوا الزور وأكلوا الحرام ولهوا ولعبوا وزنوا وفجروا ، بعد ذهاب أولئك الصالحين كما هو حال النصارى واليهود اليوم وحتى كـــثير

من المسلمين ، فهؤلاء الخلف السوء يخبر تعالى أنهم ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ بعد دخولهم نار جهنم . والغي : ورد عن النبي ﷺ أنه بئر في جهنم وعن ابن مسعود أنه واد في جهنم ، والكل صحيح إذ البئر توجد في الوادي وكثيراً ما توجد الآبار في الأودية .

وقوله تعالى : ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾﴾ أي لكن من تاب من هذا الخلف السوء وآمن حقق إيمانه وعمل صالحاً فأدى الفرائض وترك غشيان المحارم . فأولئك أي هؤلاء التائبون المنيبون ﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ مع سلفهم الصالح ، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ أي ولا ينقصون ولا يبخسون شيئاً من ثواب أعمالهم .

وقوله تعالى :﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ﴾ أي بساتين إقامة أبدية ﴿ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي وعدهم بها وهي غائبة عنهم لم يروها لأنها في السماء وهم في الأرض .

وقوله : ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ أي كونهم ما رأوها غير ضار لأن ما وعد به الرحمن لا يختلف أبداً لا بد من الحصول عليه ومعنى مأتياً يأتيه صاحبه قطعاً .

وقوله تعالى في الآية ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا ﴾ يخبر تعالى أن أولئك التائبين الذين آمنوا وعملوا الصالحات ودخلوا الجنة لا يسمعون فيها أي في الجنة وهو الباطل من القول وما لا خير فيه من الكلام اللهم إلا السلام فإنهم يتلقونه من الملائكة فيسمعونه منهم وهو من النعيم الروحاني في الجنة دار النعيم .

وقوله تعالى : ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي ولهم طعامهم فيها وهو ما تشتيهيه أنفسهم من لذيذ الطعام والشراب ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي في وقت الغداة في الدنيا وفي وقت العشي في الدنيا إذ لا ليل في الجنة ولا نهار ، وإنما هي أنوار وحائز إذا وصل

وقت الغداء أو العشاء تغير الأنوار من لون إلى آخر أو تغلق الأبواب وترخـــى الســـتائر ويكون ذلك علامة على وقت الغداء والعشاء . اهــ[(١)]

وقال ا لسعدي : ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴿٦٣﴾ ﴾

لما ذكر تعالى هؤلاء الأنبياء المخلصون المتبعون لمراضي ربهم، المنيبون إليه، ذكر من أتى بعدهم، وبدلوا ما أمروا به، وأنه خلف من بعدهم خلف، رجعوا إلى الخلــف والــوراء، فأضاعوا الصلاة التي أمروا بالمحافظة عليها وإقامتها، فتهاونوا بها وضيعوها، وإذا ضــيعوا الصلاة التي هي عماد الدين، وميزان الإيمان والإخلاص لرب العالمين، الــتي هــي آكــد الأعمال، وأفضل الخصال، كانوا لما سواها من دينهم أضيع، وله أرفض، والسبب الداعي لذلك، أنهم اتبعوا شهوات أنفسهم وإرادالها فصارت هممهم منصرفة إليها، مقدمة لها على حقوق الله.فنشأ من ذلك التضييع لحقوقه، والإقبال على شهوات أنفسهم، مهما لاحت لهم، حصلوها، وعلى أي: وجه اتفقت تناولوها.

﴿فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾ أي: عذابا مضاعفا شديدا، ثم استثنى تعالى فقــال: ﴿إِلَّا مَن تَابَ ﴾ عن الشرك والبدع والمعاصي، فأقلع عنها وندم عليها، وعزم عزما جازمــا أن لا يعاودها، ﴿وَءَامَنَ﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ﴾ وهــو العمل الذي شرعه الله على ألسنة رسله، إذا قصد به وجهه، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾ الذي جمعوا بين

---

(١) انظر تفسير الجزائري :٢/ ٣١٩ ، ٣٢٠ تفسير سورة مريم (٥٩ - ٦٢) .

التوبة والإيمان، والعمل الصالح، ﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ المشتملة على النعيم المقيم، والعيش السليم، وجوار الرب الكريم، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ من أعمالهم، بل يجدونها كاملة، موفرة أجورها، مضاعفا عددها.

ثم ذكر أن الجنة التي وعدهم بدخولها، ليست كسائر الجنات، وإنما هي جنات عدن، أي: جنات إقامة، لا ظعن فيها، ولا حول ولا زوال، وذلك لسعتها، وكثرة ما فيها من الخيرات والسرور، والبهجة والحبور.

﴿ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: التي وعدها الرحمن، أضافها إلى اسمه ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ لأن فيها من الرحمة والإحسان، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب [بشر]. وسماها تعالى رحمته، فقال: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران] وأيضا ففي إضافتها إلى رحمته، ما يدل على استمرار سرورها، وأنها باقية ببقاء رحمته، التي هي أثرها وموجبها، والعباد في هذه الآية، المراد: عباد إلهيته، الذين عبدوه، والتزموا شرائعه، فصارت العبودية وصفا لهم كقوله: ﴿عِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ ونحوه، بخلاف عباده المماليك فقط، الذين لم يعبدوه، فهؤلاء وإن كانوا عبيداً لربوبيته، لأنه خلقهم ورزقهم، ودبرهم، فليسوا داخلين في عبيد إلهيته العبودية الاختيارية، التي يمدح صاحبها، وإنما عبوديتهم عبودية اضطرار، لا مدح لهم فيها.

وقوله: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ يحتمل أن تكون متعلقة ب ﴿وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ فيكون المعنى على هذا، أن الله وعدهم إياها وعدا غائبا، لم يشاهدوه و لم يروه فآمنوا بها، وصدقوا غيبها، وسعوا لها سعيها، مع أنهم لم يروها، فكيف لو رأوها، لكانوا أشد لها طلبا، وأعظم فيها رغبة، وأكثر لها سعيا، ويكون في هذا، مدح له بإيمانهم بالغيب، الذي هو الإيمان النافع. ويحتمل أن تكون متعلقة بعباده، أي: الذين عبدوه في حال غيبهم وعدم رؤيتهم إياه، فهذه عبادتهم و لم يروه، فلو رأوه، لكانوا أشد له عبادة، وأعظم إنابة، وأكثر حبا، وأجل شوقا،

ويحتمل أيضا، أن المعنى: هذه الجنات التي وعدها الرحمن عباده، من الأمور التي لا تدركها الأوصاف، ولا يعلمها أحد إلا الله، ففيه من التشويق لها، والوصف المحمل، ما يهيج النفوس، ويزعج الساكن إلى طلبها، فيكون هذا مثل قوله: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة] والمعاني كلها صحيحة ثابتة، ولكن الاحتمال الأول أولى، بدليل قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ لا بد من وقوعه، فإنه لا يخلف الميعاد، وهو أصدق القائلين.

﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا ﴾ أي: كلاما لاغيا لا فائدة فيه، ولا ما يؤثم، فلا يسمعون فيها شتما، ولا عيبا، ولا قولا فيه معصية لله، أو قولا مكدرا، ﴿إِلَّا سَلَٰمًا ﴾ أي: إلا الأقوال السالمة من كل عيب، من ذكر لله، وتحية، وكلام سرور، وبشارة، ومطارحة الأحاديث الحسنة بين الإخوان، وسماع خطاب الرحمن، والأصوات الشجية، من الحور والملائكة والولدان، والنغمات المطربة، والألفاظ الرخيمة، لأن الدار، دار السلام، فليس فيها إلا السلام التام في جميع الوجوه. ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ أي: أرزاقهم من المآكل والمشارب، وأنواع اللذات، مستمرة حيثما طلبوا، وفي أي: وقت رغبوا، ومن تمامها ولذاتها وحسنها، أن تكون في أوقات معلومة.

﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ ليعظم وقعها ويتم نفعها، فتلك الجنة التي وصفناها بما ذكر ﴿الَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ أي: نورثها المتقين، ونجعلها منزلهم الدائم، الذي لا يظعنون عنه، ولا يبغون عنه حولا كما قال تعالى: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [آل عمران] اهـ [(١)]

---

(١) انظر تفسير السعدي [المجلد الواحد] ص ٥٣٢ ، ٥٣٣ لسورة مريم الآيات (٥٩ – ٦٣) ط/ التوفيقية

من هداية الآيات :

١- التنديد بخلف السوء وهو من يضيع الصلاة ويتبع الشهوات .

٢- الوعد الشديد لمن ينغمس في الشهوات ويترك الصلاة فيموت على ذلك .

٣- باب التوبة مفتوح والتوبة مقبولة من كل من أرادها وتاب .

٤- بيان نعيم الجنة دار المتقين الأبرار .

٥- تقرير مبدأ التوارث بين أهل الجنة وأهل النار .

٦- بيان أن ورثة الجنة هم الأتقياء ، وأن ورثة النار هم الفجار.اهـ[١]

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ ﴾

(..... لكن من تاب منهم توبة نصوحاً ، وآمن بالله - تعالى - حق الإيمان ، وعمل في دنياه الأعمال الصالحة .

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المنعوتون بالتوبة والإيمان والعمل الصالح ﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ بفضله - تعالى - ورحمته ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ أي : ولا ينقصون من أجور أعمالهم شيئاً .

وقوله ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾ . بدل من الجنة في قوله ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ أي : هؤلاء التائبون المؤمنون العاملون للصالحات يدخلهم الله - تعالى - جنات عدن ، أي : الجنات الدائمة التي وعدهم الرحمن بدخولها ، وكان هذا الوعد في الدنيا قبل أن يشاهدوها أو يروها . فقوله : ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ حال من المفعول وهو

---

(١) انظر تفسير الجزائري : ٢/ ٣٢٠ لسورة مريم الآيات (٥٩ - ٦٣) .

﴿عِبَادَهُۥ﴾ أي : وعدهم بها حالة كونهم غائبين عنها ، لا يرونها ، وإنما آمنوا بوجودها بمجرد إخباره ﷻ لهم بذلك .

وقد أكد ﷻ هذا الوعد لهم بوجودها بمجرد إخباره ﷻ لهم بذلك .

وقد أكد ﷻ هذا الوعد لهم في الدنيا بقوله : ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ أي : إنه ﷻ كان وما زال ما وعد به عباده وهو الجنة ﴿مَأْتِيًّا﴾ أي : يأتيه ويصل إليه من وعده الله ﷻ به ، لأنه ﷻ لا يخلف وعده .

فقوله : ﴿مَأْتِيًّا﴾ اسم مفعول من أتاه الشيء بمعنى جاءه ، وقيل : هو اسم مفعول بمعنى فاعل ، أي : إن وعده ﷻ لعباده كان آتياً لا ريب فيه .

ثم وصف ﷻ الجنات وأهلها بما يحمل العقلاء على العمل الصالح الذي يوصلهم إليها بفضله – تعالى – وكرمه فقال : ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾.

واللغو : هو فضول الكلام ، وما لا قيمة له منه ، ويدخل فيه الكلام الباطل .

وقوله ﴿إِلَّا سَلَٰمًا﴾ الظاهر فيه أنه استثناء منقطع ، لأن المستثنى ليس من جنس المستثنى منه أي : لا يسمعون فيها كلاماً لغوا ، لكنهم يسمعون فيها سلاماً . أي : تسليماً من الملائكة عليهم ، كما قال ﷻ : ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد] أو يسمعون فيها تسليماً وتحية من بعضهم على بعض ، كما قال ﷻ : ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾

قال الآلوسي : قوله ﴿إِلَّا سَلَٰمًا﴾ استثناء منقطع ، والسلام إما بمعناه المعروف .

أي : لكن يسمعون تسليم الملائكة عليهم ، أو تسليم بعضهم على بعض ، أو بمعنى الكلام السالم من العيب والنقص ، أي : لكن يسمعون كلاماً سالماً من العيب والنقص .

وجوز أن يكون استثناء متصلاً ، وهو من تأكيد المدح بما يشبه الذم ، كما في قوله :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم   بهن فلول من قراع الكتائب

وهو يفيد نفى سماع اللغو بالطريق البرهاني الأقوى . والاتصال على هذا على طريق الفرض والتقدير ، ولولا ذلك لم يقع موقعه من الحسن والمبالغة .

وقوله ﷻ : ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ بيان لدوام رزقهم فيها بدون انقطاع ، إذ ليس في الجنة نهار ولا ليل ، ولا بكرة ولا عشي . . .

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ ما ملخصه قوله ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي : لهم ما يشتهون من المطاعم والمشارب بكرة وعشيا ، أي : في قدر هذين الوقتين ، إذ لا بكرة ثم – أي هناك – ولا عشيا . . . وقيل : رزقهم فيها غير منقطع .أ هـ التفسير الوسيط

هذه هي الجنة فهل من مشمر لها ؟

[ولما علم الموفقون ما خلقوا له وما أريد بإيجادهم رفعوا رؤسهم فإذا علم الجنة قد رفع لهم فشمروا إليه وإذا صراطها المستقيم قد وضح لهم فاستقاموا عليه ورأوا من أعظم الغبن بيع ما لا عين رأت ولا إذن سمعت ولا خطر على قلب بشر في أبدلا يزول ولا ينفد بصبابة عيش إنما هو كأضغاث أحلام أو كطيف زار في المنام مشوب بالنغص ممزوج بالغصص إن أضحك قليلا أبكى كثيراً وإن سر يوما أحزن شهوراً آلآمه تزيد على لذاته وأحزانه أضعاف مسراته وله مخاوف وآخرة متآلف فيا عجباً من سفيه في صورة حليم ومعتوه في مسلاخ عاقل آثر الحظ الفاني الخسيس على الحظ الباقي النفيس وباع جنة عرضها السموات والأرض بسجن ضيق بين أرباب العاهات والبليات ومساكن طيبة في جنات عدن تجري من تحتها الأنهار بأعطان ضيقة آخرها الخراب والبوار وأبكاراً أعراباً أتراباً كأنهن الياقوت والمرجان بقذرات دنسات سيآت الأخلاق مسافحات أو متخذات أخدان وحوراً مقصورات في الخيام بخبيثات مسبيات بين الأنام وأنهاراً من خمر لذة للشاربين بشراب نجس مذهب للعقل مفسد للدنيا والدين ولذة النظر إلى وجه العزيز

الرحيم بالتمتع برؤية الوجه القبيح الذميم وسماع الخطاب من الرحمن بسماع المعازف والغناء والألحان والجلوس على منابر اللؤلؤ والياقوت والزبرجد يوم المزيد بالجلوس في مجالس الفسوق مع كل شيطان مريد ونداء المنادي يا أهل الجنة إن لكم أن تنعموا فلا تيأسوا وتحيوا فلا تموتوا وتقيموا فلا تظعنوا وتشبوا فلا تهرموا بغناء المغنين

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي متأخر عنه ولا متقدم
أجد الملامة في هواك لذيذة حبا لذكرك فليلمني اللوم

وإنما يظهر الغبن الفاحش في هذا البيع يوم القيامة وإنما يتبين سفه بائعه يوم الحسرة والندامة إذا حشر المتقون إلى الرحمن وفدا وسيق المجرمون إلى جهنم وردا ونادى المنادي على رؤس الأشهاد ليعلمن أهل الموقف من أولى بالكرم من بين العباد فلو توهم المتخلف عن هذه الرفقة ما أعد الله لهم من الإكرام وادخر لهم من الفضل والإنعام وما أخفى لهم من قرة أعين لم يقع على مثلها بصر ولا سمعته أذن ولا خطر على قلب بشر لعلم أي بضاعة أضاع وأنه لا خير له في حياته وهو معدود من سقط المتاع وعلم أن القوم قد توسطوا ملكاً كبيراً لا تعتريه الآفات ولا يلحقه الزوال وفازوا بالنعيم المقيم في جوار الكبير المتعال فهم في روضات الجنة يتقلبون وعلى أسرتها تحت الحجال يجلسون وعلى الفرش التي بطائنها من إستبرق يتكئون وبالحور العين يتنعمون وبأنواع الثمار يتفكهون:

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الواقعة]

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ [الزخرف] ... فواعجبا لها كيف نام طالبها وكيف لم يسمح بمهرها خاطبها وكيف طاب العيش في هذه الدار بعد سماع أخبارها وكيف قر للمشتاق القرار دون معانقة أبكارها وكيف قرت دونها أعين المشتاقين وكيف صبرت عنها أنفس

الموقنين وكيف صدفت عنها قلوب أكثر العالمين وبأي شيء تعوضت عنها نفوس المعرضين.

شعر في وصف الجنة

وما ذاك إلا غيرة أن ينالها سوى كفئها والرب بالخلق أعلم
وإن حجبت عنا بكل كريهة وحفت بما يؤذي النفوس ويؤلم
فلله ما في حشوها من مسرة وأصناف لذات بها يتنعم
ولله برد العيش بين خيامها وروضاتها والثغر في الروض يبسم
ولله واديها الذي هو موعد المزيد لوفد الحب لو كنت منهم
بذيالك الوادي يهيم صبابة محب يري أن الصبابة مغنم
ولله أفراح المحبين عندما يخاطبهم من فوقهم ويسلم
ولله أبصار ترى الله جهرة فلا الضيم يغشاها ولا هي تسأم
فيا نظرة أهدت إلى الوجه نضرة أمن بعدها يسلو المحب المتيم
ولله كم من خيرة إن تبسمت أضاء لها نور من الفجر أعظم
فيا لذة الأبصار إن هي أقبلت ويا لذة الأسماع حين تكلم
ويا خجلة الغصن الرطيب إذا انثنت ويا خجلة الفجرين حين تبسم
فإن كنت ذا قلب عليل بحبها فلم يبق إلا وصلها لك مرهم
ولا سيما في لثمها عند ضمها وقد صار منها تحت جيدك معصم
تراه إذا أبدت له حسن وجهها يلذ به قبل الوصال وينعم
تفكه منها العين عند إجتلائها فواكه شتى طلعها ليس يعدم
عناقيد من كرم وتفاح جنة ورمان أغصان به القلب مغرم
وللورد ما قد ألبسته خدودها وللخمر ما قد ضمه الريق والفم
تقسم منها الحسن في جمع واحد فيا عجبا من واحد يتقسم

لها فرق شتى من الحسـن أجمعـت ... بجملتـها إن السـلو محـرم
تذكر بـالرحمن بمـن هـو نـاظر ... فينطـق بالتسـبيح لا يتلعـثم
إذا قابلت جيش الهمـوم بوجهها ... تولي علـى أعقابـه الجيش يهـزم
فيـا خاطـب الحسـناء إن كنـت ... راغبا فهذا زمان المهـر فهـو المقـدم
ولما جرى مـاء الشـاب بغصـنها ... تـيقن حقـا انـه لـيس يهـرم
وكـن مبغضـا للخائنـات لحبـها ... فتحظـى بها مـن دونهن وتـنعم
وكـن أيمـا ممـن سـواها فإنها ... لمثلـك في جنـات عـدن تـأيم
وصم يومك الأدنى لعلـك في غـد ... تفوز بعيـد الفطـر والنـاس صـوم
وأقدم ولا تقنـع بعـيش منـغص ... فما فاز باللـذات مـن لـيس يقـدم
وإن ضاقت الدنيا عليـك بأسـرها ... ولم يـك فيهـا مـترل لـك يعلـم
فحي علـى جنـات عـدن فإنها ... منازلهـا الأولى وفيهـا المخـيم
ولكننا سـبي العـدو فهـل تـرى ... نعـود إلى أوطاننـا ونسـلم
وقد زعمـوا أن الغريـب إذا نـأى ... وشـطت بـه أوطانـه فهـو مغـرم
وأي اغتراب فـوق غربتنـا الـتي ... لها أضـحت الأعـداء فينـا تحكـم

شعر حي على السوق الذي فيه يلتقي المحبون فذاك السوق للقوم تعلم

فما شئت خذ منـه بـلا ثمـن لـه ... فقد أسلف التجـار فيـه وأسـلموا
وحي على يوم المزيـد الـذي بـه ... زيـارة رب العـرش فـاليوم موسـم
وحـي علـى واد هنالـك أفـيح ... وتربته مـن إذفـر المسـك أعظـم
منـابر مـن نـور هنـاك وفضـة ... ومـن خـالص العقيـان لا تتقصـم
وكثبان مسك قد جعلـن مقاعـدا ... لمـن دون أصـحاب المنـابر يعلـم
فبينا هموا في عيشـهم وسـرورهم ... وأرزاقهـم تجـري علـيهم وتقسـم
إذاهم بنور سـاطع أشـرقت لـه ... بأقطارهـا الجنـات لا يتـوهم

تجلى لهم رب السموات جهرة ... فيضحك فوق العرش ثم يكلم
سلام عليكم يسمعون جميعهم ... بآذانهم تسليمه إذ يسلم
يقول سلوني ما اشتهيتم فكل ما ... تريدون عندي أنني أنا أرحم
فقالوا جميعا نحن نسألك الرضا ... فأنت الذي تُولى الجميل وترحم
فيعطيهم هذا ويشهد جمعهم ... عليه تعالى الله فالله أكرم
فيا بائعا هذا ببخس معجل ... كأنك لا تدري بلى سوف تعلم
فإن كنت لا تدري فتلك مصيبة ... وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم(١)

((من مشكاة النبوة))

أحاديث في فضل الجنة – الجنة رأي العين والنار كذلك –

[٩١] عَنِ الأَعْرَجِ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ « لاَ يَدْخُلُ أَحَدٌ الْجَنَّةَ إِلاَّ أُرِىَ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ ، لَوْ أَسَاءَ ، لِيَزْدَادَ شُكْرًا ، وَلاَ يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ إِلاَّ أُرِىَ مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ ، لَوْ أَحْسَنَ ، لِيَكُونَ عَلَيْهِ حَسْرَةً » .(٢)

الجنة فيها ما لا يتصوره عقل : -

[٩٢] عن أبي صَالِحٍ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ، ذُخْرًا ، بَلْهَ مَا أُطْلِعْتُمْ عَلَيْهِ » . ثُمَّ قَرَأَ ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِىَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .(٣)

[٩٣] عَنِ الأَعْرَجِ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ « أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ، وَالَّذِينَ عَلَى إِثْرِهِمْ كَأَشَدِّ كَوْكَبٍ إِضَاءَةً ،

---

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح

(٢) أحمد : ٢/٥٤١ والبخاري : ٨/١٤٦ .

(٣) أحمد : ٢/٤٦٦ والبخاري :٦/١٤٥ ومسلم : ٨/١٤٣ .

قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ ، لاَ اخْتِلاَفَ بَيْنَهُمْ وَلاَ تَبَاغُضَ ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ ، كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا يُرَى مُخُّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ لَحْمِهَا مِنَ الْحُسْنِ ، يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ، لاَ يَسْقَمُونَ وَلاَ يَمْتَخِطُونَ ، وَلاَ يَبْصُقُونَ ، آنِيَتُهُمُ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ ، وَأَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ ، وَقُودُ مَجَامِرِهِمُ الأَلُوَّةُ – قَالَ أَبُو الْيَمَانِ يَعْنِى الْعُودَ – وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ » (١)

[٩٤] عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ أَوْ تَغْرُبُ)) (٢)

تمهيد :

إن القرآن قد تناول الحديث عن الإنسان بصفاته الملصقة به وخصائصه الثابتة معه التي هي من أخطر ما يكون تأثيراً على القلب والنفس ، ومن ثمّ على أعمال الجوارح ، ولو تتبعنا هذه الصفات فإنها كثيرة متداخلة متشابكة ، فهو عجول ضعيف كنود ظلوم جهول سيطر عليه اليأس عند الضراء والأشر والبطر عن السراء ظهير على ربه مخالف لمنهجه منكر للبعث كما تناولت هذه الآيات لكنه لو عمد إلى هذا الكتاب المبارك وعلم أنه الورد المصفى ، وأنه النبع الذي لا ينضب ، وأنه شفاء للقلب ، دواء للنفس ، مهذب للأخلاق ، مزيل للشقاء ، عصمة عند الضراء ، دليل خير ووفاء عن السراء ، فإنه ولا شك سوف يعالج مما علق به والتصق ، شيئاً فشيئاً فتسموا روحه وتشرق نفسه ويطمئن قلبه ويعيش الهدى ليكون طريقاً مستقيماً إلى هداية الله له في جنة عرضها السماوات والأرض ، اقرأ مثلاً قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ ﴾ ثم اقرأ بعدها ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾ [العصر]

---

(١) أخرجه الحميدي والبخاري : ١٤٣/٤ .

(٢) أحمد : ٤٨٢/٢ ط/ الميمنية ، والبخاري :٢٠/٤، ١٤٤/٤ ط/ الشعب .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [يونس] واقرأ ثانياً قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [هود] ما هو العلاج ؟ قال ﷻ : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ [هود]

فالصبر على وعثاء السفر وطول الطريق وعلى التكاليف من حيث الأوامر والنواهي وعدم تعدي الحدود والصبر على الأقدار مع المداومة على الأعمال الصالحة مع رسوخ في الإيمان منجاة من الهلاك في الدنيا والآخرة ، قال تعالى : ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ ﴾ [المعارج] تلك طبيعته فما علاجه : ﴿ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [المعارج]

وعلى هذا فينبغي مراعاة القرآن العظيم مع تلمس مواضع الهدى والاحتفاء بها تلاوة وتدبراً وعملاً وتحاكماً واستشفاء ودعوة .

﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن
قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا
﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ
بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟
وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾ [مريم]

شرح الكلمات :

﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ : أي الكافر بلقاء الله تعالى .

﴿ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴾ : أي قبل خلقه فلا ذات له ولا اسم ولا صفة .

﴿ جِثِيًّا ﴾ : أي جاثمين على ركبهم في ذل وخوف وحزن .

﴿ مِن كُلِّ شِيعَةٍ ﴾ : أي طائفة تعاونت على الباطل وتشيع بعضها لبعض فيه .

﴿ عِتِيًّا ﴾ : أي تكبراً عن عبادته وظلما لعباده .

﴿ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴾ : أي أحق بها اصطلاء واحتراقاً وتعذيباً في النار .

﴿ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ : أي ماراً بها إن وقع بها هلك ، وإن مر ولم يقع نجا .

﴿ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ : أي أمراً قضى به الله تعالى وحكم به وحتمه فهو كائن لا بد .

﴿ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ : أي في النار جاثمين على ركبهم بعضهم إلى بعض .

﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ ﴾ وَيَقُولُ الكَافِرُ مُتَعَجِّباً مِنْ وُقُوعِ البَعْثِ : كَيْفَ أُبْعَثُ حَيّاً بَعْدَ المَوْتِ وَالفَنَاءِ ، وَتَنَاثُرِ ذَرَّاتِ الأَجْسَادِ .

﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ ﴾ وَيَرُدُّ اللهُ تَعَالَى ، عَلَى هَؤُلَاءِ المُتَشَكِّكِينَ فِي أَمْرِ البَعْثِ ، فَيَلْفِتُ نَظَرَهُمْ إِلَى أَنَّهُ تَعَالَى ابْتَدَأَ الخَلْقَ ، وَخَلَقَ

الإِنْسَانَ مِنْ لاَ شَيْءٍ ، وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ قَبْلَهُ إِنْسَانٌ . وَيَسْتَدِلُّ اللهُ تَعَالَى بِإِشَارَتِه إِلَى أَنَّهُ هُوَ الَّذِي بَدَأَ الخَلْقَ ، عَلَى أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى إِعَادَةِ خَلْقِهِمْ مِنْ جَدِيدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ ، لأَنَّ الإِعَادَةَ أَسْهَلُ مِنَ الابْتِدَاءِ ، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ﴾ [الروم: ٢٧]

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾﴾ يُقْسِمُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِذَاتِه الكَرِيمَةِ عَلَى أَنَّهُ لاَ بُدَّ لَهُ مِنْ أَنْ يَحْشُرَهُمْ جَمِيعاً ، وَشَيَاطِينَهُمُ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ ، ثُمَّ يُحْضِرُهُمْ جَمِيعاً حَوْلَ جَهَنَّمَ قُعُوداً عَلَى رُكَبِهِمْ ، تَعْبِيراً عَنِ الإِهَانَةِ وَالتَّحْقِيرِ لَهُمْ .

﴿جِثِيًّا﴾ جَاثِينَ عَلَى رُكَبِهِمْ مِنْ شِدَّةِ الهَوْلِ .

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾ وَيُتَابِعُ تَعَالَى قَسَمَهُ بِنَفْسِه الكَرِيمَةِ فَيَقُولُ : إِنَّهُ سَيَنْزِعُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ ، وَمِنْ كُلِّ أَهْلِ دِينٍ ﴿شِيعَةٍ﴾ قَادَتَهُمْ وَكُبَرَاءَهُمُ الَّذِينَ كَانُوا أَشَدَّ جَمَاعَتِهِمْ تَكَبُّراً ، وَعُتُوّاً عَلَى الَّذِي خَلَقَهُمْ ، وَغَمَرَهُمْ بِفَضْلِهِ وَإِحْسَانِه ، وَأَكْثَرَهُمْ تَجَاوُزاً لِلْحُدُودِ الَّتِي شَرَّعَهَا اللهُ ، ثُمَّ يَدْفَعُ بِهِمْ إِلَى أَشَدِّ العَذَابِ .

﴿عِتِيًّا﴾ عِصْيَاناً . جَرَاءَةً وَفُجُوراً .

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾ وَيَقُولُ تَعَالَى : إِنَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ مِنْ عِبَادِه بِأَنْ يَصْلَى بِنَارِ جَهَنَّمَ ، وَيَخْلُدَ فِيهَا ، وَبِمَنْ يَسْتَحِقُّ مُضَاعَفَةَ العَذَابِ فَيُدْخِلُهُمْ أَوْلاً فِي نَارِ جَهَنَّمَ لِيَصْلَوْهَا ثُمَّ يُدْخِلُ الآخَرِينَ إِلَيْهَا بِحَسَبِ مَرَاتِبِهِمْ فِي العُتُوِّ وَالتَّكَبُّرِ .

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ وَمَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ إِلاَّ يَدْنُوا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ ، وَيَصِيرُ حَوْلَهَا (أَوْ يَدْخُلُهَا فِعْلاً) ، وَقَدْ قَضَى اللهُ رَبُّكَ بِذَلِكَ ، وَجَعَلَهُ أَمْراً مَحْتُوماً ، مَفْرُوغاً مِنْهُ . [والراجح هنا هو المرور على الصراط كما فسره النبي ﷺ]

[٩٥] وَفِي الحَدِيثِ : ((يَرِدُ النَّاسُ كُلُّهُمُ النَّارَ ثُمَّ يَصْدُرُونَ بِأَعْمَالِهِمْ))رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِي.

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾ وَبَعْدَ أَنْ يَرِدَ النَّاسُ جَمِيعـًا النَّارَ ، يَدْخُلُونَهَا أَوْ يَكُونُونَ حَوْلَهَا - يُنَجِّي اللهُ تَعَالَى بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُـمْ ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنْهَا ، وَيَتْرُكُ الظَّالِمِينَ جَاثِينَ فِيهَا عَلَى رُكَبِهِمْ .

المعنى العام :

الآيات في سياق تقرير عقيدة البعث والجزاء يقول تعالى قوله وقوله الحـق : ﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ أي المنكر للبعث والدار الآخرة وقد يكون القائل أبي بن خلف أو العاص بـن وائل وقد يكون غيرهما إذ هذه قولة كل من لا يؤمن بـالآخرة يقـول : ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾ يقول هذا استنكارا وتكذيباً قال تعالى : راداً على هذا الإنسان قولته الكافرة ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ أي المنكر للبعث الآخر ﴿أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴾ أيكذب بالبعث وينكره ولا يذكر خلقنا له من قبل ، ولم يك شيئاً .

أليس الذي قدر على خلقه قبل أن يكون شيئاً قادراً على إعادة خلقه مـرة أخـرى أليست الإعادة أهون من الخلق الأول والإيجاد من العدم ، ثم يقسم الله تبـارك وتعـالى لرسوله على أنه معيدهم كما كانوا ويحشرهم مع شياطينهم الذين يضلونهم ثم يحضـرهم حول جهنم جثيا على ركبهم أذلاء صاغرين . هذا معنى قوله تعالى في الآيـة ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ﴾ وقوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ﴾ يخبر تعالى بعد حشرهم إلى ساحة فصل القضاء أحياء مع الشياطين الذين كانوا يضلونهم ، يحضرهم حول جهنم جثياً ، ثم يأخذ تعالى من كل طائفة من تلك الطوائف التي أحضرت حول جهنم وهي جاثمـة تنتظر حكم الله تعالى فيها أيهم كان أشد على الرحمن عتيا أي تمرداً عن طاعته وتكبراً عن الإيمان به وبرسوله ووعده وهو معنى قوله تعالى في الآيـة ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ

أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ ﴾ يخبر تعالى بعلمه بالذين هم أجدر وأحق بالاصطلاء بعذاب النار ، وسوف يدخلهم النار قبل غيرهم ثم يدخل باقيهم بعد ذلك وهو معنى قوله ﷻ : ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ ﴾ وقوله : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ﴾ ، فإنه يخبر عز وجل عن حكمٍ حكم به وقضاء قضى به وهو أنه ما من واحد منا معشر بني آدم إلا وارد جهنم وبيان ذلك كما جاء في الحديث أن الصراط جسر يمد على ظهر جهنم والناس يمرون فوقه فالمؤمنون يمرون ولا يسقطون في النار والكافرون يمرون فيسقطون في جهنم ، وهو معنى قوله في الآية ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا ﴾ أي ربهم فلم يشركوا به ولم يعصوه بترك واجب ولا بارتكاب محرم ﴿وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ﴾ بالتكبر والكفر وغشيان الكبائر من الذنوب ﴿فِيهَا جِثِيًّا﴾ أي ونترك الظالمين فيها أي جهنم جاثمين على ركبهم يعانون أشد أنواع العذاب . اهـ (١)

من هداية الآيات :

١- تقرير عقيدة البعث والجزاء بالحشر والإحضار حول جهنم والمرور على الصراط .

٢- تقرير معتقد الصراط في العبور عليه إلى الجنة .

٣- تقديم رؤساء الضلال وأئمة الكفر إلى جهنم قبل الأتباع الضالين .

٤- تقرير حتمية المرور على الصراط .

٥- بيان نجاة الأتقياء ، وهلاك الفاجرين الظالمين بالشرك والمعاصي اهـ (٢)

---

(١) انظر تفسير الجزائري :٢/٣٢٢-٣٢٤ لسورة مريم الآيات (٦٦ - ٧٢) ط/ دار الحديث .

(٢) نفس المصدر السابق .

[﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾ [مريم]

يخبر تعالى عن تفاوت الفريقين المتقين، والمجرمين، وأن المتقين له -باتقاء الشرك والبدع والمعاصي- يحشرهم إلى موقف القيامة مكرمين، مبجلين معظمين، وأن مآلهم الرحمن، وقصدهم المنان، وفودا إليه، والوافد لا بد أن يكون في قلبه من الرجاء، وحسن الظن بالوافد [إليه] ما هو معلوم، فالمتقون يفدون إلى الرحمن، راجين منه رحمته وعميم إحسانه، والفوز بعطاياه في دار رضوانه، وذلك بسبب ما قدموه من العمل بتقواه، واتباع مراضيه، وأن الله عهد إليهم بذلك الثواب على ألسنة رسله فتوجهوا إلى ربهم مطمئنين به، واثقين بفضله.

وأما المجرمون، فإنهم يساقون إلى جهنم وردا، أي: عطاشا، وهذا أبشع ما يكون من الحالات، سوقهم على وجه الذل والصغار إلى أعظم سجن وأفظع عقوبة، وهو جهنم، في حال ظمئهم ونصبهم يستغيثون فلا يغاثون، ويدعون فلا يستجاب لهم، ويستشفعون فلا يشفع لهم، ولهذا قال: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ أي: ليست الشفاعة ملكهم، ولا لهم منها شيء، وإنما هي لله تعالى ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾[الزمر: ٤٤] وقد أخبر أنه لا تنفعهم شفاعة الشافعين، لأنهم لم يتخذوا عنده عهدا بالإيمان به وبرسله، و إلا فمن اتخذ عنده عهدا فآمن به وبرسله واتبعهم، فإنه ممن ارتضاه الله، وتحصل له الشفاعة كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] وسمّى الله الإيمان به واتباع رسله عهداً ، لأنه عهد في كتبه وعلى ألسنة رسله، بالجزاء الجميل لمن اتبعهم. اهـ (١)

وقال الجزائري : وقوله تعالى في الآية ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي أذكر يا رسولنا يوم نحشر المتقين ﴿إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ . والمتقون هم أهل الإيمان بالله وطاعته وتوحيده ومحبته

---

(١) انظر تفسير السعدي [المجلد الواحد] ص ٥٣٧ تفسير سورة مريم (٨٥ – ٨٧) .

وخشيته وطاعة رسوله ومحبته وفداً أي راكبين على النجائب من النوق عليها رحال الذهب إلى الرحمن إلى جوار الرحمن ﷻ في دار المتقين الجنة دار الإبرار والسلام .

وقوله تعالى : ﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ ﴾ : أي ونسوق المجرمين على أنفسهم بالشرك والمعاصي مشاة على أرجلهم عطاشاً يساقون سوق البهائم إلى جهنم وبئس الورد المورود جهنم .

وقوله تعالى ﴿ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ ﴾ أخبر تعالى أن المشركين المجرمين على أنفسهم بالشرك والمعاصي فدسوها لا يملكون الشفاعة يوم القيامة لا يشفع بعضهم في بعض كالمتقين ولا يشفع لهم أحد أبداً لكن من اتخذ عند الرحمن عهداً بالإيمان به وبطاعته بأداء الفرائض وترك المحرمات يملك أن شاء الله الشفاعة بأن يشفعه الله في غيره إكراماً له أو يشفع فيه غيره إكراماً للشافع أيضاً وإنعاماً على المشفوع له اهـ .

وقفات مع مبحث الشفاعة عند أهل السنة والجماعة

أولاً : تعريف الشفاعة :

١- **الشفاعة لغة** : مشتقة من الشفع الذي هو غير الوتر ، يقال : شفع الشيء ، ضُم مثله إليه فجعل الوتر شفعاً . اهـ (١)

٢- **تعريفها اصطلاحاً** :

هي في الشرع : التوسط للغير بجلب خير له أو دفع شر عنه .

وقال الجرجاني : هي السؤال في التجاوز عن الذنوب من وقع الجناية في حقه .

---

(١) انظر القاموس المحيط صـ ٩٤٧ والمعجم الوسيط :١/٤٨٧ .

وقال الراغب : الشفاعة : هي الانضمام إلى آخر ناصراً له وسائلاً عنه وأكثـــر مـــا يستعمل في انضمام من هو أعلى منه حرمة ومرتبة إلى من هو أدنى ، ومنه الشفاعة يـــوم القيامة .(١)

٣- الأدلة على الشفاعة من القرآن .

■ قال الله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُـــمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ (٢)

■ وقال تعالى :﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّـــا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ (٣)

■ وقال ﷻ : ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ (٤) .

■ وقال ﷻ : ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاء وَيَرْضَى ﴾ (٥)

٤ - الأدلة على الشفاعة من السنة : -

إن من عقيدة أهل السنة والجماعة الشفاعة التي أنكرها كثير من أهل البدع ، فهنـــاك شفاعات خاصة بالنبي وشفاعات يشاركه فيها غيره ممن اختار الله واصطفى .وذلـــك أن أهل الجنة إذا عبروا الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار يقتص بعضهم من بعـــض مظالم كانت بينهم في الدنيا فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة .

---

(١) انظر المفردات ٢٦٣ نقلاً من نضرة النعيم . : ٦/٢٣٦٦ .

(٢) يونس : ٣ .

(٣) الأعراف : ٥٣ .

(٤) الأنبياء : ٢٨ .

(٥) النجم : ٢٦ .

ومما يدل على ذلك:-

[٩٦] قوله ﷺ : « لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقْتَصَّ لِلشَّاةِ الْجَمَّاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ » (١)

الشرح: (لتودن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة) هذا تصريح بحشر البهائم يوم القيامة ... وأما القصاص من القرناء والجلحاء فليس هو من قصاص التكليف: إذ لا تكليف عليها. بل هو قصاص مقابلة. والجلحاء هي الجماء التي لا قرن لها.

[٩٧] عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ « يُدْخِلُ اللَّهُ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ بِرَحْمَتِهِ وَيُدْخِلُ أَهْلَ النَّارِ النَّارَ ثُمَّ يَقُولُ انْظُرُوا مَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ. فَيُخْرَجُونَ مِنْهَا حُمَمًا قَدِ امْتَحَشُوا. فَيُلْقَوْنَ فِي نَهَرِ الْحَيَاةِ أَوِ الْحَيَا فَيَنْبُتُونَ فِيهِ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ إِلَى جَانِبِ السَّيْلِ أَلَمْ تَرَوْهَا كَيْفَ تَخْرُجُ صَفْرَاءَ مُلْتَوِيَةً ».(٢)

الشرح: (امتحشوا) احترقوا. (الحيا) الحيا هو المطر. سمي حيا لأنه تحيا به الأرض. وكذلك هذا الماء يحيا به هؤلاء المحترقون وتحدث فيهم النضارة، كما يحدث ذلك في الأرض. (ملتوية) أي ملفوفة مجتمعة. وقيل: منحنية.

[٩٨] عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَلَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمْ نَارٌ بِذُنُوبِهِمْ أَوْ بِخَطَايَاهُمْ فَأَمَاتَتْهُمْ إِمَاتَةً حَتَّى إِذَا كَانُوا فَحْمًا أُذِنَ لَهُمْ فِي الشَّفَاعَةِ فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ فَبُثُّوا عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ فَقِيلَ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحِبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ)) قَالَ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ كَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ كَانَ فِي الْبَادِيَةِ (٣)

---

(١) أحمد :٢٣٥ ومسلم :١٨/٨ .

(٢) أحمد :٥٦/٣ والبخاري :١٢/١ وفي :١٤٣/٨ ومسلم :١١٧/١ وفي :١١٨/١ .

(٣) أحمد :٥/٣، :٧٨/٣ ومسلم :١٨/١ وابن ماجة :٤٣٠٩ .

الشرح: الحِبَّة : بكسر الحاء : بذرة البقل ، وبالفتح : الحنطة والشعير .

(ضبائر) منصوب على الحال. وهو جمع ضبارة بفتح الضاد وكسرها، أشهرها الكسر. ويقال فيها أيضا: إضبارة. قال أهل اللغة: الضبائر جماعات في تفرقة. (فبثوا) معناه فرقوا.

عن قتادة، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ « يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَهْتَمُّونَ لِذَلِكَ - وَقَالَ ابْنُ عُبَيْدٍ فَيُلْهَمُونَ لِذَلِكَ - فَيَقُولُونَ لَوِ اسْتَشْفَعْنَا عَلَى رَبِّنَا حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا - قَالَ - فَيَأْتُونَ آدَمَ ﷺ فَيَقُولُونَ أَنْتَ آدَمُ أَبُو الْخَلْقِ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَأَمَرَ الْمَلاَئِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ اشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّكَ حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا. فَيَقُولُ لَسْتُ هُنَاكُمْ - فَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِى أَصَابَ فَيَسْتَحْيِي رَبَّهُ مِنْهَا - وَلَكِنِ ائْتُوا نُوحًا أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ - قَالَ - فَيَأْتُونَ نُوحًا ﷺ فَيَقُولُ لَسْتُ هُنَاكُمْ - فَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِى أَصَابَ فَيَسْتَحْيِي رَبَّهُ مِنْهَا - وَلَكِنِ ائْتُوا إِبْرَاهِيمَ ﷺ الَّذِي اتَّخَذَهُ اللَّهُ خَلِيلاً. فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ ﷺ فَيَقُولُ لَسْتُ هُنَاكُمْ - وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ فَيَسْتَحْيِي رَبَّهُ مِنْهَا - وَلَكِنِ ائْتُوا مُوسَى ﷺ الَّذِي كَلَّمَهُ اللَّهُ وَأَعْطَاهُ التَّوْرَاةَ. قَالَ فَيَأْتُونَ مُوسَى عليه السلام فَيَقُولُ لَسْتُ هُنَاكُمْ - وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِى أَصَابَ فَيَسْتَحْيِي رَبَّهُ مِنْهَا - وَلَكِنِ ائْتُوا عِيسَى رُوحَ اللَّهِ وَكَلِمَتَهُ. فَيَأْتُونَ عِيسَى رُوحَ اللَّهِ وَكَلِمَتَهُ فَيَقُولُ لَسْتُ هُنَاكُمْ. وَلَكِنِ ائْتُوا مُحَمَّدًا ﷺ عَبْدًا قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ ». قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ « فَيَأْتُونِي فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّى فَيُؤْذَنُ لِي فَإِذَا أَنَا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ سَاجِدًا فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ فَيُقَالُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ قُلْ تُسْمَعْ سَلْ تُعْطَهْ اشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَحْمَدُ رَبِّى بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ رَبِّى ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا فَأُخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ وَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ ثُمَّ أَعُودُ فَأَقَعُ سَاجِدًا فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدَعَنِي ثُمَّ يُقَالُ ارْفَعْ رَأْسَكَ يَا مُحَمَّدُ قُلْ تُسْمَعْ سَلْ تُعْطَهْ اشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَحْمَدُ رَبِّى بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا فَأُخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ وَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ - قَالَ فَلاَ أَدْرِى فِي الثَّالِثَةِ أَوْ فِي الرَّابِعَةِ قَالَ - فَأَقُولُ

يَا رَبِّ مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ أَيْ وَجَبَ عَلَيْهِ الْخُلُودُ ». - قَالَ ابْنُ عُبَيْدٍ فِي رِوَايَتِهِ قَالَ قَتَادَةُ أي وَجَبَ عَلَيْهِ الْخُلُودُ. (١)

الشرح: (فيهتمون وفي رواية فيلهمون) معنى اللفظتين متقارب. فمعنى الأولى أنهم يعتنون بسؤال الشفاعة وزوال الكرب الذي هم فيه. ومعنى الثانية أن الله تعالى يلهمهم سؤال ذلك. والإلهام أن يلقى الله تعالى في النفس أمرا يحمل على فعل الشيء أو تركه. (لست هنا كم) معناه لست أهلا لذلك. (خليلا) قال ابن الأنبارى: الخليل معناه المحب الكامل المحبة، والمحبوب الموفى بحقيقة المحبة. اللذان ليس في حبهما نقص ولا خلل.

[٩٩] عَنْ حُمَيْدٍ قَالَ سَمِعْتُ أَنَسًا ﷺ قَالَ سَمِعْتُ النبي ﷺ يَقُولُ : ((**إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ شُفِّعْتُ فَقُلْتُ يَا رَبِّ أَدْخِلِ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ خَرْدَلَةٌ فَيَدْخُلُونَ ثُمَّ أَقُولُ أَدْخِلِ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى شَيْءٍ فَقَالَ أَنَسٌ : كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَصَابِعِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ**)) (٢)

[١٠٠] وعن ثابت ، قال : سمعت أنساً يقول : عن النبي ﷺ قال : ((**يبقى من الجنة ما شاء الله أن يبقى ، ثم ينشئ الله تعالى لها خلقاً مما يشاء**)) (٣)

الشرح : وإذا كان الله تعالى سوف يخلق خلقاً جديداً ليدخلهم الجنة فمن باب الأولى يخرج من كان فيه أصل التوحيد وإن كثرت ذنوبه وأسرف على نفسه وهذا قياس جلي .

[١٠١] عن جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ النبي ﷺ قَالَ: ((**أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قبلي نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أمتي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ وَأُحِلَّتْ لِي الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قبلي وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ وَكَانَ النبي يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً**)) (٤)

---

(١) أخرجه البخاري :٢١/٦ ،،:١٨٢/٩ ومسلم:١٢٥/١ والنسائي في الكبرى تحفة الأشراف ١٣٥٧

(٢) البخاري :١٧٩/٩ .

(٣) أخرجه أحمد :١٥٢/٣ ومسلم :١٥٢/٨ .

(٤) البخاري :٥١٩/١ في الفتح ك/ التيمم ح/٣٣٥ و٤٣٨ و٣١٢٢ .

الشرح: قوله: (وأعطيت الشفاعة) قال ابن دقيق العيد: الأقرب أن اللام فيها للعهد، والمراد الشفاعة العظمى في إراحة الناس من هول الموقف، ولا خلاف في وقوعها. وكـذا جزم النووي وغيره. وقيل الشفاعة التي اختص ها أنه لا يرد فيما يسأل. وقيل الشـفاعة لخروج من في قلبه مثقال ذرة من إيمان، لأن شفاعة غيره تقع فيمن في قلبه أكثر من ذلك، قاله عياض. والذي يظهر لي أن هذه مراده مع الأولى لأنه يتبعها ها ...وقال البيهقي في البعث: يحتمل أن الشفاعة التي يختص ها أنه يشفع لأهل الصغائر والكبائر، وغـيره إنمـا يشفع لأهل الصغائر دون الكبائر. ونقل عياض أن الشفاعة المختصة به شفاعة لا تـرد. وقد وقع في حديث ابن عباس"وأعطيت الشفاعة فأخرتما لأمتي، فهي لمن لا يشرك بـالله شيئا"وفى حديث عمرو بن شعيب" فهي لكم ولمن شهد أن لا إله إلا الله"فالظاهر أن المراد الشفاعة المختصة في هذا الحديث إخراج من ليس له عمل صالح إلا التوحيد، وهو مختص أيضا بالشفاعة الأولى، لكن جاء التنويه بذكر هذه لأنها غاية المطلوب من تلك لاقتضائها الراحة المستمرة، والله أعلم . وقد ثبتت هذه الشفاعة في رواية الحسن عن أنس في كتاب التوحيد"ثم أرجع إلى ربى فى الرابعة فأقول: يا رب ائذن لى فـيمن قـال لا إلـه إلا الله، فيقول: وعزتي وجلالي لأخرجن منها من قال لا إله إلا الله " ولا يعكر على ذلك ما وقع عند مسلم قبل قوله"وعزتى" فيقول "ليس ذلك لك، وعزتي. . إلخ لأن المراد أنه لا يباشر الإخراج كما في المرات الماضية، بـل كانـت شـفاعته سـببا في ذلـك في الجملـة. والله أعلم. (١)

[١٠٢] عن مختار بن فُلْفُل، عن أنس بن مالك، قال : قال رسول الله ﷺ : ((أنـا أكثر الأنبياء تبعا يوم القيامة. وأنا أول من يقرع باب الجنة)) .وفي رواية ((أنـا أول الناس يشفع في الجنة ، وأنا أكثر الأنبياء تبعاً)) وفي أخرى ((أنا أول شفيع في الجنة

(١) فتح الباري :١/٥٣٢ـــ ٥٣٣ ط/ دار التقوى للتراث .

، لم يُصدَّقْ نبي من الأنبياء ما صُدِّقتُ ،وإن في الأنبياء نبياً ما يصدقه من أمته إلا رجل واحد)) (١)

[١٠٣] عن قتادة ،قال : حدثنا أنس بن مالك ، أنَّ نبي الله ﷺ قال : ((**لكل نبي دعوة دعاها لأمته ، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة**)) (٢)

[١٠٤] عن أبي هريرة ﷺ أنه قال : قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى : ﴿ عَسَى أن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ سُئل عنها فقال : ((**هي الشفاعة**)) (٣)

[١٠٥] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ((**لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لا يسألني عَنْ هَذَا الْحَدِيث أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيث أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ**)) (٤)

[١٠٦] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ « **سَأَلْتُ رَبِّي ﷻ فوعدني أنْ يُدْخِلَ مِنْ أمتي سَبْعِينَ أَلْفاً الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ فَاسْتَزَدْتُ فَزَادَنِى مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعِينَ أَلْفاً فَقُلْتُ أي رَبِّ إِنْ لَمْ يَكُنْ هَؤُلاَءِ مُهَاجِرِى أمتي. قَالَ إِذاً أُكْمِلُهُمْ لَكَ مِنَ الأَعْرَابِ** ».(٥)

[١٠٧] وفي حديث أنس الذي أورده البخاري في الشفاعة مطولاً : « **.... ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا فَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ ، ثُمَّ أَرْجِعُ فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّى وَقَعْتُ سَاجِدًا ، فيدعني مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يدعني ثُمَّ يُقَالُ ارْفَعْ مُحَمَّدُ ، قُلْ يُسْمَعْ ، وَسَلْ تُعْطَهْ ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ ،**

---

(١) أحمد ١٤٠ ومسلم :١٣٠/١

(٢) أحمد :١٣٤/٣ و :٢٥٨/٣ ومسلم :١٣٢/١ .

(٣) أحمد في المسند :٤٤١/٢ ،٤٤٤ ، ٥٢٨ وصححه الشيخ شاكر .

(٤) البخاري فتح : ٢٣٣/١ ح/٩٩ ك/ العلم ب/ الحرص على الحديث .

(٥) أحمد بتحقيق الشيخ أحمد شاكر وقال رحمه الله : ٢٨٨/٦ ح/٨٦٩٢ رمز له السيوطي في الجامع الصغير بأنه صحيح ، وانظر صحيح الجامع للألباني :١٩٧/٢ والصحيحة ١٨٧٩ .

فَأَحْمَدُ رَبِّى بِمَحَامِدَ عَلَّمَنِيهَا ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا فَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ ، ثُـمَّ أَرْجِـعُ فَأَقُولُ يَا رَبِّ مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلاَّ مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ وَوَجَبَ عَلَيْهِ الْخُلُودُ » . قَالَ النبي ﷺ « يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ . وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ شَعِيرَةً ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ . وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ بُرَّةً ، ثُـمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ . وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مَا يَزِنُ مِنَ الْخَيْرِ ذَرَّةً » .[1]

عَنْ ثَابِت عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « آتِى بَـابَ الْجَنَّـةِ يَـوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ فَيَقُولُ الْخَازِنُ مَنْ أَنْتَ فَأَقُولُ مُحَمَّدٌ. فَيَقُولُ بِـكَ أُمِـرْتُ لاَ أَفْـتَحُ لأَحَدٍ قَبْلَكَ » .[2]

خامساً : - شفاعة وشفاعة

إن الله تعالى أثنى على أصحاب نبيه ﷺ إذ إنهم آمنوا بالكتاب كله و لم يفرقوا بين آياته في الإيمان والقبول ، ثم خلف من بعد الأجيال المباركة الفريدة خلف نظـروا في القـرآن العظيم نظر من لا يحسن فهمه والجمع بين آياته لأن القرآن مصدق لما بـين يديـه مـن الكتاب ومهيمنٌ عليه ، ولذا وجب أن لا يدخل هذا الميدان من لا يحسن صنع الوقـوف مع الآيات وتدبرها مع الرجوع إلى الكبار الكرام من السلف الصالح والذين كانوا عاملين بكل آية من آياته ، ويعلمون متى نـزلت ، وفيم أنـزلت ، كذلك البحر الحبر عبد الله بن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما وعن جميع أصحاب النبي ﷺ وآله ومن تـبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

- خرج علينا في الآونة الأخيرة من يعلو صوته في إنكار الشفاعة ويتكلم وكأنه وحيد زمانه في هذا الميدان بينما هو بعيد كل البعد عن التخصص فيـه وإذن فليتـرك الميـدان لأصحابه المتمرسين فيه الذين رزقهم الله وعياً وعلماً ونظراً ثاقباً وفقهاً على الجادة وهـم

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) أحمد :٣/١٣٦ ومسلم :١/١٣٠

بحول الله كثرة كاثرة نسأل الله أن لا يحرمنا من جهودهم المباركة وعطاءهم الفياض وسعيهم المستمر .

والحق يقال أن الشفاعة في القرآن قد بينها الله تعالى بياناً شافياً كافياً لا يدع مجالاً لارتياب واضطراب وتردد ، فقد ذكر الله تعالى عن المشركين استشفاعهم بمن لا يملكون الشفاعة وهذا من جهلهم بمن يعبدون فقد صرفوا خصائص معبودهم الحق إلى آلهة مزعومة قال الله تعالى : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الزمر]

وهؤلاء يدركون خيبة آمالهم عند الاحتضار والمعاتبة ساعتها يعرفون أنهم كانوا واهمين زاعمين ضالين ، قال الله تعالى عن الكفار ذاكراً حال احتضارهم وأنهم لا فكاك لهم من العذاب المهين ولا مخلص من هلاكهم لا شفعاء ولا شركاء : ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الأنعام]

ومن وجه آخر فإن الشفاعة مثبتة وهذا قسم ومنتفية وهذا قسم آخر .

حتى نميز بينهما فلابد من الضوابط الشرعية حتى نعلم ما هي الشفاعة المثبتة وما هي الشفاعة المنتفية ، فلا بد من وجود شروطها وانتفاء موانعها .

فهل تحق الشفاعة لمشرك ؟!! بالطبع لا . لماذا ؟ لأنه أتى بمانع من موانع الشفاعة وهو الشرك وفقد شرطها وهو التوحيد ، وهكذا حتى يثبت الحكم بضوابطه لابد من مراعاة

الأدلة قال الله تعالى : ﴿وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ ﴾(١) وقال تعالى كما مرَّ بك آنفاً : ﴿ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ﴾ ثم بين شروط قيود الشفاعة أن يشهد المشفوع فيه شهادة الحق : ﴿ إِلا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فقد شهدها للحق وهي شهادة الحق ثم إن الله تعالى بيَّن في كتابه أنه لا شفاعة حتى يأذن الله تعالى إذ قال ﷻ : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ (٢) إذن هناك شفاعة كائنة ومثبتة لكن بعد إذن الله تعالى لذلك قال تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ لا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلا ﴾ (٣) حتى الملائكة قال عنهم ربنا سبحانه وتعالى : ﴿ وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ (٤) وقال تعالى : ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ (٥) وقال تعالى : ﴿وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ (٦)

فلابد من إذن الله تعالى وخلو المشفوع فيه من موانع الشفاعة ووجود شروطها ، فلا بد من الإيمان والتوحيد والإخلاص ونحو ذلك من الشروط وانتفاء ضد ذلك من الموانع كالكفر والشرك ونحو ذلك ولمّا اجتمعت الموانع في المشركين حرموا الشفاعة أحوج ما يكونوا إليها . فما كانوا من المصلين ولا أطعموا المسكين وخاضوا مع الخائضين وكذبوا بيوم الدين ، واستمر هذا عندهم إلى أن ماتوا عليه فلما عاينوا القيامة ، وعلموا أن وعد الله حق فما انتفعوا بشفاعة الشافعين . قال تعالى : ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ

---

(١) الزخرف : ٨٦

(٢) البقرة : ٢٥٥

(٣) طه : ١٠٩

(٤) الأنبياء :٢٨

(٥) النجم : ٢٦

(٦) سبأ : ٢٣

مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ
بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [المدثر]

وقال تعالى : ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ
ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾
قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الشعراء]

وقال تعالى : ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ (١)

وعليه فقد بان للضالين الذين قالوا عن شركائهم : ﴿هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ﴾ (٢) بان لهم أن أعمالهم باتت حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ : أجمع المسلمون على أن النبي ﷺ يشفع للخلق يوم القيامة بعد أن يسأله الناس ذلك ، بعد أن يأذن الله له في الشفاعة . ثم إن أهل السنة والجماعة متفقون على ما اتفق عليه الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين واستفاضت به السنة من أنه ﷺ يشفع لأهل الكبائر من أمته ن ويشفع أيضاً لعموم الخلق .اهـ (٣)

أنواع الشفاعة : -

أولاً : شفاعات النبي ﷺ : -

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ : فله ﷺ شفاعات يختص بها لا يشركه فيها أحد ، وشفاعات يشركه فيها غيره من الأنبياء والصالحين لكن ما له فيها أفضل مما لغيره

---

(١) غافر : ١٨

(٢) يونس : ١٨

(٣) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية : ٣١٣/١ .

. فإنه ﷺ أفضل الخلق وأكرمهم على ربهم عز وجل ، وله من الفضائل التي ميزه الله بهـــا على سائر النبيين ما يضيف في هذا الموضع عن بسطه ومن ذلك المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون وأحاديث الشفاعة كثيرة متواترة منها في الصــحيحين أحاديــث متعددة وفي السنن والمسانيد مما يكثر عدده اهـــ [١]

■ الشفاعة العظمى : -

من أجل الشفاعة عند الله لإراحة الخلائق من هول وشدة ذلك اليوم العصيب بتعجيل حسابه وفصل القضاء بينهم وبين يدي الله تعالى وهو أحكم الحاكمين بقسطه وعدلــه حتى ينتهي الأمر إلى نبينا محمد ﷺ فيشفع عند ربه عز وجل لأهل الموقف .

وهذه الشفاعة أعظم الشفاعات كلها ، ولهذا تسمى الشفاعة العظمى ، فهي شــفاعة عامة لجميع أهل الموقف على اختلاف أديانهم ، وهذه الشفاعة أجمع عليها أهل الإســلام آية ذلك وبرهانه قوله تعالى : ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَــكَ رَبُّــكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [٢]

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : - ولكرامتك على الله أن جعل وظيفتك أكثر من غــيرك ، وليكثر ثوابك وتنال بذلك المقام المحمود وهو المقام الذي يحمدك فيه الأولون والآخرون ، مقام الشفاعة العظمى ، حين يتشفع الخلائق بآدم ، ثم بنوح ، ثم إبراهيم ، ثم موسى ، ثم عيسى ، وكلهم يعتذر ، ويتأخر عنها ، حتى يستشفعوا بسيد ولد آدم ، ليرحمهــم الله ، من هول الموقف وكربه ، فيشفع عند ربه ، فيشفعه ، ويقيمه مقاماً ، يغبطه به الأولــون والآخرون وتكون له المنة على جميع الخلق . اهـــ [٣]

[١٠٨] وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث ابن عمر ــ رضي الله عنــهما ــ أن رسول الله ﷺ قال : « **مَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَسْأَلُ النَّاسَ حَتَّى يأتِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَــيْسَ فِي**

---

(١) انظر فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية : ٣١٣/١ .

(٢) الإسراء : ٧٩ .

(٣) انظر تفسير السعدي [المجلد الواحد] ص ٤٩٦ ط/ التوفيقية .

وَجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ » وَقَالَ إِنَّ الشَّمْسَ تَدْنُو يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَبْلُغَ الْعَرَقُ نِصْفَ الأُذُنِ ، فَبَيْنَا هُمْ كَذَلِكَ اسْتَغَاثُوا بِآدَمَ ، ثُمَّ بِمُوسَى ، ثُمَّ بِمُحَمَّدٍ ﷺ » . وَزَادَ عَبْدُ اللَّهِ حَدَّثَنِي اللَّيْثُ حدثني ابْنُ أَبِي جَعْفَرٍ « فَيَشْفَعُ لِيُقْضَى بَيْنَ الْخَلْقِ ، فَيَمْشِي حَتَّى يَأْخُذَ بِحَلْقَةِ الْبَابِ ، فَيَوْمَئِذٍ يَبْعَثُهُ اللَّهُ مَقَامًا مَحْمُودًا ، يَحْمَدُهُ أَهْلُ الْجَمْعِ كُلُّهُمْ » (١)

قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ :- والمقام المحمود هو الشفاعة العظمى التي اختص بها النبي ﷺ وهي إراحة أهل الموقف من أهوال القضاء بينهم والفراغ من حسابهم ، والمراد بأهل الجمع أهل الحشر لأنه يوم يجمع فيه الناس كلهم . اهـ (٢)

وقال ابن خزيمة رَحِمَهُ اللَّهُ مستدلاً بهذا الحديث على ثبوت الشفاعة العظمى : ((هذه الشفاعة التي وصفها أنها أول الشفاعات في التي يشفع بها النبي ﷺ ليقض الله بين الخلق ، فعندما يأمر الله ﷻ أن يدخل من لا حساب عليه من أمته إلى الجنة من الباب الأيمن)) (٣)

النوع الثاني من هذه الشفاعات : شفاعة دخول أهل الجنة الجنة ، وهذه من كرامة النبي ﷺ .

[١٠٩] وفي صحيح مسلم من حديث أنس بن مالك ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « أَنَا أَوَّلُ شَفِيعٍ فِي الْجَنَّةِ لَمْ يُصَدَّقْ نبي مِنَ الأَنْبِيَاءِ مَا صُدِّقْتُ وَإِنَّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيًّا مَا يُصَدِّقُهُ مِنْ أُمَّتِهِ إِلاَّ رَجُلٌ وَاحِدٌ » (٤)

[١١٠] وفي الحديث الآخر وقد مرَّ بك من حديث أنس أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ : « أَنَا أَكْثَرُ الأَنْبِيَاءِ تَبَعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَقْرَعُ بَابَ الْجَنَّةِ » وفي رواية « أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ يَشْفَعُ فِي الْجَنَّةِ وَأَنَا أَكْثَرُ الأَنْبِيَاءِ تَبَعًا ».(١)

---

(١) أخرجه البخاري في الفتح :٣/٣٩٦ ك/ الزكاة ب / من سأل الناس تكثراً ، ح/ ١٤٧٤ ، ١٤٧٥ .

(٢) انظر الفتح :٣/٣٩٨ .

(٣) التوحيد لابن خزيمة :١/٥٩٣ .

(٤) أخرجه مسلم في ك/ الإيمان ب/ قول النبي ﷺ أنا أول شفيع يشفع في الجنة :١/١٣٠ .

[١١١]ومن الأدلة حديث أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ « يَجْمَعُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى النَّاسَ فَيَقُومُ الْمُؤْمِنُونَ حَتَّى تُزْلَفَ لَهُمُ الْجَنَّةُ فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ يَا أَبَانَا اسْتَفْتِحْ لَنَا الْجَنَّةَ. فَيَقُولُ وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِلاَّ خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ آدَمَ لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ اذْهَبُوا إِلَى ابْنِي إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ - قَالَ - فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ إِنَّمَا كُنْتُ خَلِيلاً مِنْ وَرَاءَ وَرَاءَ اعْمِدُوا إِلَى مُوسَى ﷺ الَّذِي كَلَّمَهُ اللَّهُ تَكْلِيمًا. فَيَأْتُونَ مُوسَى ﷺ فَيَقُولُ لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى كَلِمَةِ اللَّهِ وَرُوحِهِ. فَيَقُولُ عِيسَى ﷺ لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ. فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا ﷺ فَيَقُومُ فَيُؤْذَنُ لَهُ وَتُرْسَلُ الأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ فَتَقُومَانِ جَنَبَتَيِ الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالاً فَيَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كَالْبَرْقِ ». قَالَ قُلْتُ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي أَيُّ شَيْءٍ كَمَرِّ الْبَرْقِ قَالَ « أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْبَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ وَشَدِّ الرِّجَالِ تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ حَتَّى تَعْجِزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ فَلاَ يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلاَّ زَحْفًا - قَالَ - وَفِي حَافَتَيِ الصِّرَاطِ كَلاَلِيبُ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنْ أُمِرَتْ بِهِ فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ وَمَكْدُوسٌ فِي النَّارِ ». وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ إِنَّ قَعْرَ جَهَنَّمَ لَسَبْعُونَ خَرِيفًا)) .(٢)

معنى ((تزلف)) : أي تقرب ومعنى ((وشدِّ الرحال)) أي العدو البالغ الجري .

الثالث : من هذه الأنواع شفاعته ﷺ في رفع درجات بعض أهل الجنة .

[١١٢] ودليل ذلك ما روى مسلم في صحيحه من حديث أم سلمة رضي الله عنهما قَالَتْ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَبِي سَلَمَةَ وَقَدْ شَقَّ بَصَرُهُ فَأَغْمَضَهُ ثُمَّ قَالَ « إِنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ تَبِعَهُ الْبَصَرُ ». فَضَجَّ نَاسٌ مِنْ أَهْلِهِ فَقَالَ « لاَ تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ بِخَيْرٍ فَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ يُؤَمِّنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ ». ثُمَّ قَالَ « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لأَبِي سَلَمَةَ وَارْفَعْ

---

(١) أحمد :٣/١٤٠ والدارمي ح/ ٥٢ وأصله عند مسلم كما مرَّ بك .

(٢) مسلم بشرح النووي ك/ الإيمان ب/ أدنى أهل الجنة منـزلة :١/١٨٦ .

دَرَجَتَهُ في الْمَهْدِيِّينَ وَاخْلُفْهُ في عَقِبِهِ في الْغَابِرِينَ وَاغْفِرْ لَنَا وَلَهُ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ اللَّهُمَّ أَفْسِحْ في قَبْرِهِ وَنَوِّرْ لَهُ فِيهِ » (١)

فقوله ﷺ في دعائه لأبي سلمة : ((وَارْفَعْ دَرَجَتَهُ في الْمَهْدِيِّينَ)) دليل على أن العبد يرفع درجات بفضل الله ثم بسبب دعاء النبي ﷺ له في الدنيا وشفاعته يوم القيامة .

الرابع : شفاعته ﷺ في من سيدخلون الجنة بغير حساب حيث لا يدخلون إلا بعد أن يفتح بابها للنبي ﷺ وقد مرت بك الأدلة على ذلك وهي كثيرة .

[١١٣] وفي صحيح مسلم أيضاً من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ((... ثُمَّ يُقَالُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَهْ اشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَرْفَعُ رأسي فَأَقُولُ يَا رَبِّ أمتي. أمتي. فَيُقَالُ يَا مُحَمَّدُ أَدْخِلِ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لاَ حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الأَبْوَابِ والذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ لَكَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرٍ أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى » (٢)

[١١٤] وفي صحيح مسلم من حديث جَابِر بْنُ عَبْدِ اللَّهِ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ - جَالِسٌ إِلَى سَارِيَةٍ - عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ فَإِذَا هُوَ قَدْ ذَكَرَ الْجَهَنَّمِيِّينَ - قَالَ - فَقُلْتُ لَهُ يَا صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ مَا هَذَا الذي تُحَدِّثُونَ وَاللَّهُ يَقُولُ ﴿إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ وَ ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ فَمَا هَذَا الذي تَقُولُونَ قَالَ فَقَالَ أَتَقْرَأُ الْقُرْآنَ قُلْتُ نَعَمْ. قَالَ فَهَلْ سَمِعْتَ بِمَقَامِ مُحَمَّدٍ ﷺ يَعْنِى الذي يَبْعَثُهُ اللَّهُ فيه قُلْتُ نَعَمْ. قَالَ فَإِنَّهُ مَقَامُ مُحَمَّدٍ ﷺ الْمَحْمُودُ الذي يُخْرِجُ اللَّهُ بِهِ مَنْ يُخْرِجُ. - قَالَ - ثُمَّ نَعَتَ وَضْعَ الصِّرَاطِ ...)) الحديث (٣).

---

(١) مسلم بشرح النووي ك/ الجنائز ب/ ما يقال عند المريض والميت وإغماض الميت :٦/٤٢٣ .

(٢) مسلم :١/ ، ك/ الإيمان ح/ ٣٩٩ .

(٣) مسلم بشرح النووي :٣/٥٠، ٥١ ك/ الإيمان في المقام المحمود .

خامساً شفاعته ﷺ لأهل الكبائر من أمته : -

[١١٥] عن ابن عمر وكعب بن عجره عن الرسول ﷺ قال: « **شَفَاعَتِي لأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أمتي** ». (١)

[١١٦] ففي حديث جابر بن عبد الله يحدث عن رسول الله ﷺ : « **إِنَّ اللَّهَ ﷻ يُخْرِجُ قَوْمًا مِنَ النَّارِ بِالشَّفَاعَةِ؟ قَالَ نَعَمْ** » (٢) وفي لفظ :« **إِنَّ اللَّهَ يُخْرِجُ نَاسًا مِنَ النَّارِ فَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ** »

[١١٧] وفي حديث مسلم الطويل من رواية أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ :((.... **فَيُقَالُ لِي يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ وَسَلْ تُعْطَهْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَقُولُ يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي. فَيُقَالُ لِي انْطَلِقْ فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِنْ مِثْقَالِ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ** » (٣)

وواضح من الحديث أن النبي ﷺ يشفع في إخراج هؤلاء الذين أكثروا من الذنوب حتى افتقروا وأفلسوا فليس عندهم من الخيرات أدنى مثقال حبة من خردل من إيمان ، وهذا طبعاً خاص بمن لا يشركون بالله تعالى شيئاً للآية الكريمة ، يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء ﴾ (٤)

[١١٨] ولحديث أبي صالح ، عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « **لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لاَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا** » (٥)

---

(١) صحيح عن جابر والطبراني عن ابن عباس انظر صحيح الجامع الصغير وزيادته :٦٩١/١ ح/٣٧١٤

(٢) مسلم ك/ الإيمان :٢١٧/١ ح/٣٩٠

(٣) مسلم ك/الإيمان :٢٢١/١ ح/٣٩٨ ط/عالم الكتب .

(٤) النساء : ١١٦

(٥) مسلم :٢٣٠/١ ك/ الإيمان ح/٤١١ .

قد بلغ من عظيم حرصه ﷺ أنه كان يبكي خوفاً على أمته .

[١١٩] ففي حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّ النبي ﷺ : ((تَلاَ قَوْلَ اللَّهِ ﷻ فِي إِبْرَاهِيمَ ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تبعني فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ الآيَةَ. وَقَالَ عِيسَى عليه السلام ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ « اللَّهُمَّ أمتي أمتي ». وَبَكَى فَقَالَ اللَّهُ ﷻ : ((يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَا قَالَ. وَهُوَ أَعْلَمُ. فَقَالَ اللَّهُ : يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلاَ نَسُوءُكَ)) (١)

قال القاضي عياض رحمه الله مذهب أهل السنة جواز الشفاعة عقلاً ووجوبها سمعاً بصريح قوله تعالى ﴿يَوْمَئِذٍ لا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلا ﴾(٢) وقال الله تعالى : ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ (٣)

ويخبر الصادق ﷺ وقد جاءت الآثار التي بلغت بمجموعها التوتر بصحة الشفاعة في الآخرة لمذنبي المؤمنين ، وأجمع السلف والخلف ، ومن بعدهم من أهل السنة عليها ، ومنعت الخوارج وبعض المعتزلة منها وتعلقوا بمذاهبهم في تخليد المذنبين في النار ، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ (٤) وقوله تعالى : ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ (٥) وهذه الآيات في الكفار ، وأما تأويلهم أحاديث الشفاعة بكونها في زيادة الدرجات فباطل ، وألفاظ الأحاديث في الكتاب وغيره صريحة في بطلان

---

(١) مسلم :١/٢٣١، ٢٣٢ ك/ الإيمان ح/٤١٩ .

(٢) طه : ١٠٩

(٣) الأنبياء : ٢٨

(٤) غافر : ١٨

(٥) المدثر : ٤٨

مذهبهم وإخراج من استوجب النار لكن الشفاعة خمسة أقسام : أولها مختصة بنبينا محمـــد ﷺ وهي إراحة من هول الموقف وتعجيل الحساب ...والثانية في إدخال قوم الجنة بغـــير حساب ، وهذه وردت أيضاً لنبينا ﷺ وقد ذكرها مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ ، والثالثة : الشـــفاعة لقوم استوجبوا النار ، فيشفع فيهم نبينا ﷺ ومن شاء الله تعالى ....الرابعة فـــيمن دخـــل النار من المذنبين ، فقد جاءت هذه الأحاديث بإخراجهم من النار بشفاعة نبينا محمـــد ﷺ والملائكة ، وإخوانهم من المؤمنين ، ثم يخرج الله تعالى كُلَّ من قال لا إله إلا الله كما جاء في الحديث ، لا يبقى فيها إلا الكافرون . الخامسة في زيادة الدرجات في الجنة لأهلـــها ، وهذه لا ينكرها المعتزلة ، ولا ينكرون أيضا شفاعة الحشر الأول .

قـال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ : وقد عرف بالنقل المستفيض سؤال السلف الصالح ﷺ شفاعة نبينا محمد ﷺ ورغبتهم فيها وعلى هذا لا يلتفت إلى قول من قال إنه يكره أن يسأل الإنسان الله تعالى أن يرزقه شفاعة محمد ﷺ لكونها لا تكون إلا للمذنبين ، فإنها قد تكون كما قدمنا لتخفيف الحساب وزيادة الدرجات ، ثم كل عاقل معترف بالتقصـــير ، محتاج العفو ، غير معتد بعمله ، مشفق من أن يكون من الهالكين ، ويلزم هذا القائـــل أن لا يدعو بالمغفرة والرحمة لأنها لأصحاب الذنوب وهذا كله ما عرف من دعـــاء الســـلف والخلف..اهـــ [1] اهـــ [انظر كتابنا الجواهر الحسان في معالم الإيمان مبحث الشفاعة]

---

(١) مسلم نووي :٣/٣٥، ٣٦ بتصرف

سُورَةُ طه

بين يدي السورة :

وعدد آياتها في عدد أهل المدينة ومكة مائة وأربعا وثلاثين وفي عدد أهل الشام مائة وأربعين وفي عدد أهل البصرة مائة واثنتين وثلاثين . وفي عدد أهل الكوفة مائة وخمسا وثلاثين .

أغراضها

احتوت من الأغراض على : التحدي بالقرآن بذكر الحروف المقطعة في مفتتحها والتنويه بأنه تنزيل من الله لهدي القابلين للهداية ؛ فأكثرها في هذا الشأن ؛ والتنويه بعظمة الله تعالى . وإثبات رسالة محمد ﷺ بأنها تماثل رسالة أعظم رسول قبله شاع ذكره في الناس . فضرب المثل لنزول القران على محمد ﷺ بكلام الله موسى عليه السلام .

وبسط نشأة موسى وتأييد الله إياه ونصره على فرعون بالحجة والمعجزات وبصرف كيد فرعون عنه وعن أتباعه ؛ وإنجاء الله موسى وقومه وغرق فرعون وما أكرم الله به بني إسرائيل في خروجهم من بلد القبط ؛ وقصة السامري وصنعه العجل الذي عبده بنو إسرائيل في مغيب موسى عليه السلام وكل ذلك تعويض بأن مآل بعثة محمد ﷺ صائر إلى ما صارت إليه بعثة موسى عليه السلام من النصر على معانديه . فلذلك انتقل من ذلك إلى وعيد من أعرضوا عن القرآن و لم تنفعهم أمثاله ومواعظه ، ورتب على ذلك سوء الجزاء في الآخرة لمن جعلوا مقادهم بيد الشيطان وإنذارهم بسوء العقاب في الدنيا ؛ وتسلية النبي ﷺ على ما يقولونه وتثبيته على الدين وتخلل ذلك إثبات البعث . وتهويل يوم القيامة وما يتقدمه من الحوادث والأهوال اهـ [(١)]

---

(١) انظر التحرير والتنوير في مقدمة تفسير سورة طه .

﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ۝١٥ ﴾ [طه]

﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ ﴾ أي: لا بد من وقوعها ﴿ أَكَادُ أُخۡفِيهَا ﴾ ...

كقوله تعــالى: ﴿ يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ ﴾ [الأحــزاب: ٦٣] وقال: ﴿ وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ [الزخرف: ٨٥] فعلمها قد أخفاه عن الخلائق كلهم، فــلا يعلمها ملك مقرب، ولا نبي مرسل، والحكمة في إتيان الســاعة ﴿ لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴾ من الخير والشر، فهي الباب لدار الجزاء ﴿ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى ۝٣١ ﴾ [النجم] اهـــ [(١)]

قوله تعــالى : ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ۝١٥ ﴾ آية مشكلة فروي عن سعيد بن جبير أنه قرأ ﴿ أَكَادُ أُخۡفِيهَا ﴾ بفتح الهمزة قال : أظهرها ﴿ لِتُجۡزَىٰ ﴾ أي الإظهار للجزاء رواه أبو عبيد عن الكسائي عن محمد بن سهل عن وقاء بن إياس عن سعيد بن جبير وقال النحاس : وليس لهذه الرواية طريق غير هذا

قلت : وكذا رواه أبو بكر الأنباري في كتاب الرد حدثني أبي حدثنا محمد بن الجهم حدثنا الفراء : وحدثنا الكسائي ... وحدثنا عبد الله بن ناجية حدثنا يوسف حدثنا يحيى الحماني حدثنا محمد بن سهل قال النحاس وأجود من هذا الإسناد ما رواه يحيى القطــان عن الثوري عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير : أنه قــرأ ﴿ أَكَادُ أُخۡفِيهَا ﴾ بضــم الهمزة

---

(١) انظر تفسير السعدي [المجلد الواحد] ص ٥٤٠ تفسير سورة طه الآية (١٥) ط/ التوفيقية .

قلت : وأما قراءة ابن جبير ﴿أَخْفِيهَا﴾ بفتح الهمزة بالإسناد المذكور فقال أبو بكر الأنباري قال الفراء : معناه أظهرها من خفيت الشيء أخفيه إذا أظهرته

وأنشد الفراء لامرىء القيس :

فإن تدفنوا الداء لا نخفه ... وإن تبعثوا الحرب لا نقعد

أراد لا نظهره وقد قال بعض اللغويين : يجوز أن يكون ﴿أُخْفِيهَا﴾ بضم الهمزة معناه أظهرها لأنه يقال : خفيت الشيء وأخفيته إذا أظهرته فأخفيته من حروف الأضداد يقع على الستر والإظهار وقال أبو عبيدة : خفيت وأخفيت بمعنى واحد النحاس : وهذا حسن وقد حكاه عن أبي الخطاب وهو رئيس من رؤساء اللغة لا يشك في صدقه وقد روى عنه سيبويه وأنشد :

وإن تكتموا الداء لا نخفه ... وإن تبعثوا الحرب لا نقعد

كذا رواه أبو عبيدة عن أبي الخطاب بضم النون وقال امرؤ القيس أيضا :

خفاهن من أنفاقهن كأنما ... خفاهن ودق من عشي مجلب

أي أظهرهن وروي : (من سحاب مركب) بدل (من عشي مجلب) وقال أبو بكر الأنبا ري : وتفسير للآية آخر : ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ﴾ انقطع الكلام على ﴿أَكَادُ﴾ وبعده مضمر أكاد آتي بها والابتداء ﴿أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾ قال ضابىء البرجمي :

هممت ولم أفعل وكدت وليتني ... تركت على عثمان تبكي حلائله

أراد وكدت أفعل فأضمر مع كدت فعلا كالفعل المضمر معه في القرآن

قلت : هذا الذي اختاره النحاس وزيف القول الذي قبله فقال يقال : خفي الشيء يخفيه إذا أظهره وقد حكى أنه يقال : أخفاه أيضا إذا أظهره وليس بالمعروف قال : وقد رأيت علي بن سليمان لما أشكل عليه معنى ﴿أُخْفِيهَا﴾ عدل إلى هذا القول وقال : معناه

كمعنى ﴿أُخْفِيهَا﴾ قال النحاس ليس المعنى على أظهرها ولا سيما و ﴿أُخْفِيهَا﴾ قراءة شاذة فكيف ترد القراءة الصحيحة الشائعة إلى الشاذة ومعنى المضمر أولى ويكون التقدير : إن الساعة آتية أكاد آتي بها ودل ﴿ءَاتِيَةٌ﴾ على آتي بها ثم قال : ﴿أُخْفِيهَا﴾ على الابتداء وهذا معنى صحيح لأن الله ﷻ قد أخفى الساعة التي هي القيامة والساعة التي يموت فيه الإنسان ليكون الإنسان يعمل والأمر عنده مبهم فلا يؤخر التوبة

قلت : وعلى هذا القول تكون اللام في ﴿لِتُجْزَىٰ﴾ متعلقة ب ﴿أُخْفِيهَا﴾ وقال أبو علي : هذا من باب السلب وليس من باب الأضداد ومعنى ﴿أُخْفِيهَا﴾ أزيل عنها خفاءها وهو سترها كخفاء الأخفية وهي الأكسية والواحد خفاء بكسر الخاء ما تلف به القربة وإذا زال عنها سترها ظهرت ومن هذا قولهم : أشكيته أي أزلت شكواه وأعديته أي قبلت استعداءه و لم أحوجه إلى إعادته وحكى أبو حاتم عن الأخفش : أن ﴿كَادَ﴾ زائدة مؤكدة قال : ومثله ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ [النور : ٤٠] لأن الظلمات التي ذكرها الله تعالى بعضها يحول بين الناظر والمنظور إليه ؟ وروي معناه عن ابن جبير والتقدير : إن الساعة آتية أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى وقال الشاعر :

سريع إلى الهيجاء شاك سلاحه ... فما إن يكاد قرنه يتنفس

أراد فما يتنفس وقال آخر :

وألا ألوم النفس فيما أصابني ... وألا أكاد بالذي نلت أنجح

معناه : وألا أنجح بالذي نلت فأكاد توكيد للكلام وقيل : المعنى ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ أي أقارب ذلك لأنك إذا قلت : زيد يقوم جاز أن يكون قام وأن يكون لم يقم ودل على أنه قد أخفاها بدلالة غير هذه على هذا الجواب قال اللغويون : كدت أفعل معناه عند العرب : قاربت الفعل و لم أفعل وما كدت أفعل معناه : فعلت بعد إبطاء وشاهده قول الله عزت عظمته ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ۝٧١﴾ [البقرة] معناه : وفعلوا بعد إبطاء لتعذر

وجدان البقرة عليهم وقد يكون ما كدت أفعل بمعنى ما فعلت ولا قاربت إذا أكد الكلام بأكاد وقيل : معنى ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ أريد أخفيها قال الأنباري : وشاهد هذا القول الفصيح من الشعر :

كادت وكدت وتلك خير إرادة ... لو عاد من لهو الصبابة ما مضى

معناه : أرادت وأردت وقال ابن عباس وأكثر المفسرين فيما ذكر الثعلبي : إن المعنى أكاد أخفيها من نفسي وكذلك هو في مصحف أبي وفي مصحف ابن مسعود : أكاد أخفيها من نفسي فكيف يعلمها مخلوق وفي بعض القراءات : فكيف أظهرها لكم وهو محمول على أنه جاء على ما جرت به عادة العرب في كلامها من أن أحدهم إذا بالغ في كتمان الشيء قال : كدت أخفيه من نفسي والله تعالى لا يخفى عليه شيء قال معناه قطرب وغيره وقال الشاعر :

أيام تصحبني هند وأخبرها ... ما أكتم النفس من حاجي وأسراري

فكيف يخبرها بما تكتم نفسه ومن هذا قوله ﷺ : ((ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه)) الزمخشري وقيل معناه : أكاد أخفيها من نفسي ولا دليل في الكلام على هذا المحذوف ومحذوف لا دليل عليه مطرح والذي غرهم منه أن في مصحف أبي : أكاد أخفيها من نفسي وفي بعض المصاحف : أكاد أخفيها من نفسي فكيف أظهركم عليها

قلت : وقيل إن معنى قول من قال أكاد أخفيها من نفسي أي إن إخفاءها كان من قبلي ومن عندي لا من قبل غيري وروي عن ابن عباس أيضا : أكاد أخفيها من نفسي ورواه طلحة بن عمرو عن عطاء وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : لا أظهر عليها أحدا وروي عن سعيد بن جبير قال : قد أخفاها وهذا على أن كاد زائدة أي إن الساعة آتية أخفيها والفائدة في إخفائها التخويف والتهويل وقيل : تعلق ﴿لِتُجْزَىٰ﴾ بقوله تعالى : ﴿وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ﴾ فيكون في الكلام تقديم وتأخير أي أقم الصلاة لتذكرني

﴿لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴾ أي بسـعيها ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا ﴾ والله أعلم وقيل : هي متعلقة بقوله : ﴿ءَاتِيَةٌ ﴾ أي إن الساعة آتية لتجـزى ﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا ﴾ أي لا يصرفنك عن الإيمان بها والتصـديق لهـا ﴿مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ﴾ أي فتهلك وهو في موضع نصب بجواب النهي اهـ (١)

[﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾ [طه]

يخبر تعالى أن من أتاه، وقدم عليه مجرما أي : وصفه الجرم من كـل وجـه، وذلـك يستلزم الكفر- واستمر على ذلك حتى مات، فإن له نار جهنم، الشديد نكالها، العظيمـة أغلالها، البعيد قعرها، الأليم حرها وقرها، التي فيها من العقـاب مـا يـذيب الأكبـاد والقلوب، ومن شدة ذلك أن المعذب فيها لا يموت ولا يحيا، لا يموت فيستريح، ولا يحيا حياة يتلذذ بها، وإنما حياته محشوة بعذاب القلب والروح والبدن، الذي لا يقدر قدره، ولا يفتر عنه ساعة، يستغيث فلا يغاث، ويدعو فلا يستجاب له.

نعم إذا استغاث، أغيث بماء كالمهل يشوي الوجوه، وإذا دعا، أجيب بـ ﴿ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [المؤمنون] ومن يأت ربه مؤمنا به مصدقا لرسله، متبعا لكتبـه ﴿ قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ الواجبة والمستحبة، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ﴾ أي: المنـازل العاليات، وفي الغرف المزخرفات، واللذات المتواصلات، والأنهار السـارحات، والخلـود الدائم، والسرور العظيم، فيما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

---

(١) انظر تفسير القرطبي لسورة طه الآيات (١٤ – ١٦) .

﴿وَذَٰلِكَ﴾ الثواب، ﴿جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: تطهر من الشرك والكفر والفسوق والعصيان، إما أن لا يفعلها بالكلية، أو يتوب مما فعله منها، وزكى أيضا نفسه، ونماها بالإيمان والعمل الصالح، فإن للتزكية معنيين، التنقية، وإزالة الخبث، والزيادة بحصول الخير، وسميت الزكاة زكاة، لهذين الأمرين.(١)

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [طه]

تفسير بعض الكلمات :

﴿زُرْقًا﴾ عمياً ، أو عطاشاً ، ازرقت أعينهم من العطش أو شوه خلقهم بزرقة الأعين وسواد الوجوه ، أو الطمع الكاذب إذا تعقبته الخيبة وهو نوع من العذاب ، أو شخوص البصر من شدة الخوف ، « أو الزرق الأعداء يعادي بعضهم بعضاً من قولهم : عدو أزرق » .

﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾ يتسارون ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ في الدنيا ، أو القبور ﴿إِلَّا عَشْرًا﴾ على التقريب دون التحديد .

﴿أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أكثرهم سداداً ، أو أوفرهم عقلاً ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ في الدنيا ، أو القبور ﴿إِلَّا يَوْمًا﴾ لأنه كان عنده أقصر زماناً وأقل لبثاً .

---

(١) انظر تفسير السعدي [المجلد الواحد] ص ٥٤٨ ، ٥٤٩ لسورة طه الآيات (٧٤ – ٧٦) .

[﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾﴾

يمتن الله تعالى على نبيه ﷺ بما قصه عليه من أنباء السابقين، وأخبار السالفين، كهـذه القصة العظيمة، وما فيها من الأحكام وغيرها، التي لا ينكرها أحد من أهـل الكتـاب، فأنت لم تدرس أخبار الأولين، ولم تتعلم ممن دراها [1]، فإخبارك بـالحق الـيقين مـن أخبارهم، دليل على أنك رسول الله حقا، وما جئت به صدق، ولهذا قال: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا﴾ أي: عطية نفيسة، ومنحة جزيلة من عندنا. ﴿ذِكْرًا﴾ وهو هـذا القـرآن الكريم، ذكر للأخبار السابقة واللاحقة، وذكر يتذكر به ما لله تعالى من الأسماء والصفات الكاملة، ويتذكر به أحكام الأمر والنهي، وأحكام الجزاء، وهذا مما يدل على أن القـرآن مشتمل على أحسن ما يكون من الأحكام، التي تشهد العقول والفطر بحسنها وكمالهـا، ويذكر هذا القرآن ما أودع الله فيها، وإذا كان القرآن ذكرا للرسول ولأمته، فيجب تلقيه بالقبول والتسليم والانقياد والتعظيم، وأن يهتدي بنوره إلى الصراط المستقيم، وأن يقبلـوا عليه بالتعلم والتعليم.

وأما مقابلته بالإعراض، أو ما هو أعظم منه من الإنكار، فإنه كفر لهذه النعمة، ومـن فعل ذلك، فهو مستحق للعقوبة، ولهذا قال: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ فلم يؤمن به، أو تهـاون بأوامره ونواهيه، أو بتعلم معانيه الواجبة ﴿فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾ وهـو ذنبـه، الذي بسببه أعرض عن القرآن، وأولاه الكفر والهجران، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِ﴾ أي: في وزرهم، لأن العذاب هو نفس الأعمال، تنقلب عذابا على أصحابها، بحسب صغرها وكبرها.

---

(١) أي علمها من الدراية يعني العلم بها .

﴿وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا﴾ أي: بئس الحمل الذي يحملونه، والعذاب الذي يعذبونه يوم القيامة، ثم استطرد، فذكر أحوال يوم القيامة وأهواله فقال:

﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ﴿١٠٣﴾ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا ﴿١٠٤﴾﴾

أي: إذا نفخ في الصور وخرج الناس من قبورهم، كل على حسب حاله، فالمتقون يحشرون إلى الرحمن وفدا، والمجرمون يحشرون زرقا ألوانهم من الخوف والقلق والعطش، يتناجون بينهم، ويتخافتون في قصر مدة الدنيا، وسرعة الآخرة، فيقول بعضهم: ما لبثتم إلا عشرة أيام، ويقول بعضهم غير ذلك، والله يعلم تخافتهم، ويسمع ما يقولون ﴿إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً﴾ أي: أعدلهم وأقربهم إلى التقدير ﴿إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا﴾

والمقصود من هذا، الندم العظيم، كيف ضيعوا الأوقات القصيرة، وقطعوها ساهين لاهين، معرضين عما ينفعهم، مقبلين على ما يضرهم، فها قد حضر الجزاء: وحق الوعيد، فلم يبق إلا الندم، والدعاء بالويل والثبور.

كما قال تعالى: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [المؤمنون] أهـ[1]

وقفة مع الآيات:

الكاف في قوله – تعالى – : ﴿كَذَٰلِكَ﴾ في محل نصب نعت لمصدر محذوف ، أي : نقص عليك – أيها الرسول الكريم – من أنباء ما قد سبق من أحوال الأمم الماضية ، قصصا مثل ما قصصناه عليك عن موسى وهارون . وما دار بينهما وبين فرعون وبين بنى إسرائيل .

---

(١) انظر تفسير السعدي [المجلد الواحد] ص٥٥٢ تفسير سورة طه (٩٩- ١٠١) .

و ﴿مِنْ﴾ في قوله ﴿مِنْ أَنبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ للتبعيض ، ويشهد لذلك أن القـرآن قـد صرح في كثير من آياته ، أن الله ﷻ لم يقص على الرسول ﷺ جميع أحوال الأمم السابقة ، ومـن ذلـك قولـه ﷻ : ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤] ومن فوائد ما قصه الله ﷻ عليه من أنباء السابقين : زيادة علمه ﷺ ، وتكثير معجزاته ، وتثبيت فؤاده ، وتسليته عما أصابه من سفهاء قومه ، وتذكير المؤمنين بأحوال تلك الأمم السابقة ليعتبروا ويتعظوا .

وقوله ﷻ : ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ تنويه وتعظيم لشأن القرآن الكريم .

أي : وقد أعطيناك ومنحناك من عندنا وحدنا ﴿ذِكْرًا﴾ عظيما . وهـو القـرآن الكريم ، كما قال – تعـالى – : ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنبياء]

قال الفخر الرازى رَحِمَهُ ٱللَّهُ : وفى تسمية القرآن بالذكر وجوه :

أحدها أنه كتاب فيه ذكر ما يحتاج إليه الناس من أمر دينهم ودنياهم .

وثانيها : أنه يذكر أنواع آلاء الله ونعمائه على الناس ، ففيه التذكير والوعظ .

وثالثها : أنه فيه الذكر والشرف لك ولقومك ، كما قال ﷻ : ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف] ثم بين ﷻ سوء عاقبة من يعرض عن هداية هذا القرآن فقال : ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾ .

والوزر في الأصل يطلق على الحمل الثقيل ، وعلى الإثم والذنب ، والمـراد بـه هنـا العقوبة الثقيلة الأليمة المترتبة على تلك الأثقال والآثام .

قال صاحب الكشاف : والمراد بالوزر : العقوبة الثقيلة الباهظة ، سماها وزرا تشبيها في ثقلها على المعاقب ، وصعوبة احتمالها ، بالحمل الذي يفدح الحامل ، وينقض ظهره ، أو لأنها جزاء الوزر وهو الإثم .

وقد أخبرنا القرآن في كثير من آياته ، أن الكافرين يأتون يوم القيامة وهم يحملون أوزارهم ، أي : أثقال ذنوبهم على ظهورهم ، ومن ذلك قوله ﷻ : ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [النحل] أي : من أعرض عن هذا الذكر وهو القرآن الكريم فإنه بسبب هذا الإعراض والترك ، يحمل يوم القيامة على ظهره آثاما كثيرة : تؤدى إلى العقوبة المهينة من الله ﷻ .

وقوله : ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ ﴾ أي : في العذاب المترتب على هذا الوزر .

وقال الشنقيطي : ﴿ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن من أعرض عن هذا الذكر الذي هو القرآن العظيم ، أي صد وأدبر عنه ، ولم يعمل بما فيه من الحلال والحرام ، والآداب والمكارم ، ولم يعتقد ما فيه من العقائد ويعتبر بما فيه من القصص والأمثال ، ونحو ذلك فإنه يحمل يوم القيامة وزراً ، قال الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة : يريد بالوزر العقوبة الثقيلة الباهظة . سماها وزراً تشبيهاً في ثقلها على المعاقب وصعوبة احتمالها ، بالحمل الذي يفدح الحامل وينقض ظهره ، ويلقي عليه بهره . أو لأنها جزاء الوزر وهو الإثم .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : قد دلت آيات كثيرة من كتاب الله : على أن المجرمين يأتون يوم القيامة يحملون أوزارهم . أي أثقال ذنوبهم على ظهورهم . كقوله في سورة « الأنعام » : ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ

يَحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأنعام] ،

وقولـه في « النحـل » : ﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [النحل : ٢٥] ،

وقوله في « العنكبـوت » : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [العنكبوت : ١٣] ، وقوله في « فاطر » : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ﴾

وبهذه الآيات التي ذكرنا وأمثالها في القرآن تعلم أن معنى قوله تعـالى : ﴿فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾ ، وقوله : ﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾ أن المراد بذلك الوزر المحمـول أثقال ذنوبهم وكفرهم يأتون يوم القيامة يحملونها : سواء قلنا إن أعمالهم السيئة تتجسم في أقبح صورة وأنتنها ، أو غير ذلك كما تقدم إيضاحه . والعلم عند الله . وقد قدمنا عمل « ساء » التي بمعنى بئس مراراً . فأغنى ذلك عن إعادته هنا .

وقوله تعالى : ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِ﴾ .

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير هذه الآية الكريمة : ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِ﴾ يريد مقيمين فيه ، أي في جزائه ، وجزاؤه جهنم .

تنبيه

إفراد الضمير في قوله : ﴿أَعْرَضَ﴾ ، وقوله : ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ وقوله : ﴿يَحْمِلُ﴾ باعتبار لفظ ﴿مَنْ﴾ وأما جمع ﴿خَٰلِدِينَ﴾ وضمير لهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فباعتبار معنى مـن كقولـه :

﴿ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ ﴾ [الطلاق : ١١] الآية ، وقوله : ﴿ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الجن] الآية .

وقال الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة : فإن قلت : اللام في « لهم » ما هـي؟ وبم تتعلق؟ قلت : هي للبيان كما في ﴿ هَيۡتَ لَكَ ﴾ [يوسف : ٢٣] .

﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ﴿١٠٥﴾ ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنهم يسألونه عن الجبال ، وأمره أن يقول لهم : إن ربه ينسفها نسفاً ، وذلك بأن يقلعها من أصولها ، ثم يجعلها كالرمل المتهايل الذي يسيل ، وكالصوف المنفوش تطيرها الرياح هكذا وهكذا .

واعلم أنه جل وعلا بين الأحوال التي تصير إليها الجبال يوم القيامة في آيات من كتابه . فبين أنه يترعها من أماكنها . ويحملها فيدكها دكاً . وذلك في قوله : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ﴿١٤﴾ ﴾ [الحاقة : ١٣-١٤] .

ثم بين أنه يسيرها في الهواء بين السماء والأرض . وذلك في قوله ﴿ وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [النمل : ٨٧-٨٨] ، وقوله : ﴿ وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ ﴾ [الكهف : ٤٧] الآية ، وقوله : ﴿ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ﴿٣﴾ ﴾ [التكوير] ، وقوله تعالى : ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [النبأ] ، وقوله تعالى : ﴿ يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ﴿١٠﴾ ﴾ [الطور] .

ثم بين أنه يفتنها ويدقها كقوله ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ ﴾ [الواقعة] أي فتت حتى صارت كالبسيسة ، وهي دقيق ملتوت بسمن أو نحوه على القول بذلك ، وقولـه : ﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤ ﴾ [الحاقة] .

ثم بين أنه يصيرها كالرمل المتهايل ، وكالعهن المنفوش؟ وذلـك في قولـه : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ۝١٤ ﴾ [المزمل] ، وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩ ﴾ [المعـارج] في « المعـارج ، والقارعة » . والعهن : الصوف المصبوغ . ومنه قول زهير بن أبي سلمى في معلقته .

كأن فتات العهـن في كـل مـنزل نـزلن بـه حـب الفنـا لم يحطـم

ثم بين أنها تصير كالهباء المنبث في قولـه : ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦ ﴾ [الواقعة] ثم بين أنها تصير سراباً ، وذلـك في قولـه : ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠ ﴾ [النبأ] وقد بين في موضع آخر : أن السراب لا شيء . وذلك قولـه تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾ [النور : ٣٩] وبين أنه ينسفها نسفاً في قوله هنا : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝١٠٥ ﴾

تنبيه

جرت العادة في القرآن : أن الله إذا قال لنبيه ﷺ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ ﴾ قال له ﴿ قُلْ ﴾ بغير فاء . كقوله : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ ﴾ [الإسراء : ٨٥] الآيـة ، وقولـه تعالى : ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ [البقرة : ٢١٩] الآية ، وقوله : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ ﴾ [البقـرة : ٢١٥] الآية ، وقوله ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾ [المائدة : ٤] الآيـة ،

وقوله : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ [البقرة : ٢١٧] إلى غير ذلك من الآيات ، أما في آية « طه » هذه فقال فيها : ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا﴾ بالفاء .

وقد أجاب القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ عن هذا في تفسير هذه الآية بما نصه : ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾ أي عن حال الجبال يوم القيامة ، فقل . جاء هذا بفاء ، وكل سؤال في القرآن « قل » بغير فاء إلا هذا . لأن المعنى : إن سألوك عن الجبال فقل ، فتضمن الكلام معنى الشرط ، وقد علم الله أنهم يسألونه عنها فأجابهم قبل السؤال . وتلك أسئلة تقدمت ، سألوا عنها النبي ﷺ فجاء الجواب عقب السؤال . فلذلك كان بغير فاء . وهذا سؤال لم يسألوه عنه بعد فتفهمه – انتهى منه

﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ ﴾

الضمير في قوله : ﴿ فَيَذَرُهَا ﴾ فيه وجهان معروفان عند العلماء :

أحدهما أنه راجع إلى الأرض وإن لم يجر لها ذكر . ونظير هذا القول في هذه الآية قوله تعالى : ﴿ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [فاطر : ٤٥] ، وقوله : ﴿ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [النحل : ٦١] فالضمير فيهما راجع إلى الأرض ولم يجر لها ذكر . وقد بينا شواهد ذلك من العربية والقرآن بإيضاح في سورة « النحل » فأغنى ذلك عن إعادته هنا

والثاني أنه راجع إلى منابت الجبال التي هي مراكزها ومقارها لأنها مفهومة من ذكر الجبال . والمعنى : فيذر مواضعها التي كانت مستقرة فيها من الأرض قاعاً صفصفاً . والقاع : المستوى من الأرض . وقيل : مستنقع الماء . والصفصف : المستوى الأملس الذي لا نبات فيه ولا بناء ، فإنه على صف واحد في استوائه . وأنشد لذلك سيبويه قول الأعشى

وكم دون بيتك من صفصف ... ودكداك رمل وأعقادها

ومنه قول الآخر :

وملمومة شهباء لو قذفوا بها شماريخ من رضوى إذاً عاد صفصفا

وقوله : ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ أي لا اعوجاج فيها ولا أمت . والأمت : النتوء اليسير . أي ليس فيها اعوجاج ولا ارتفاع بعضها على بعض ، بل هي مستوية ، ....وقال الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة : فإن قلت : قد فرقوا بين العوج والعوج فقالوا . العوج بالكسر في المعاني والعوج بالفتح في الأعيان . والأرض عين ، فكيف صح فيها المكسور العين؟

قلت اختيار هذا اللفظ له موقع حسن بديع في وصف الأرض بالاستواء والملاسة ، ونفي الاعوجاج عنها على أبلغ ما يكون . وذلك أنك لو عمدت إلى قطعة أرض فسويتها ، وبالغت في التسوية على عينك وعيون البصراء من الفلاحة ، واتفقتم على أنه لم يبق فيها اعوجاج قط ، ثم استطلعت رأي المهندسين فيها ، وأمرته أن يعرض استواءها على المقاييس الهندسية لعثر فيها على عوج في غير موضع لا يدرك ذلك بحاسة البصر ، ولكن بالقياس الهندسي ، فنفى الله ﷻ ذلك العوج الذي دق ولطف عن الإدراك ، اللهم إلا بالقياس الذي يعرفه صاحب التقدير والهندسة ، وذلك الاعوجاج لما لم يدرك إلا بالقياس دون الإحساس لحق بالمعاني فقيل فيه : عوج بالكسر ، والأمت : النتوء اليسير ، يقال : مد حبله حتى ما فيه أمت . انتهى منه . وقد قدمنا في أول سورة الكهف ما يغني عن هذا الكلام الذي ذكره ، والعلم عند الله تعالى .

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾

قوله ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم إذ نسفت الجبال يتبعون الداعي . والداعي : هو الملك الذي يدعوهم إلى الحضور للحساب . قال بعض أهل العلم : يناديهم أيتها العظام النخرة ، والأوصال المتفرقة ، واللحوم المتمزقة ، قومي إلى ربك للحساب والجزاء ، فيسمعون

الصوت ويتبعونه . ومعنى ﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ : أي لا يحيدون عنه ، ولا يميلون يميناً ولا شمالاً . وقيل : لا عوج لدعاء الملك عن أحد ، أي لا يعدل بدعائه عن أحد ، بل يدعوهم جميعاً . وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة من إتباعهم للداعي للحساب ، وعدم عدولهم عنه بينه في غير هذا الموضع ، وزاد أنهم يسرعون إليه كقوله ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾ [القمر]

والإهطاع : الإسراع : وقوله تعالى : ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٤١ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ۝٤٢﴾ [ق] ، وقوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء : ٥٢] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أي خفضت وخفتت ، وسكنت هيبة لله ، وإجلالاً وخوفاً ﴿فَلَا تَسْمَعُ﴾ في ذلك اليوم صوتاً عالياً ، بل لا تسمع ﴿إِلَّا هَمْسًا﴾ أي صوتاً خفياً خافتاً من شدة الخوف . أو ﴿إِلَّا هَمْسًا﴾ أي إلا صوت خفق الأقدام ونقلها إلى المحشر – والهمس يطلق في اللغة على الخفاء ، فيشمل خفض الصوت وصوت الأقدام . كصوت أخفاف الإبل في الأرض التي فيها يابس النبات .... وما ذكره جل وعلا هنا أشار له في غير هذا الموضع ، كقوله : ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ۝٣٧ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ۝٣٨﴾ [النبأ] : اهـ [1]

---

(١) انظر تفسير الشنقيطي لسورة طه الآيات (١٠٨ – ١٠٩) .

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ : يخبر تعالى عن أهوال القيامة، وما فيهـا مـن الـزلازل والقلاقل، فقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾ أي: ماذا يصنع بها يوم القيامة، وهل تبقى بحالها أم لا؟ ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ أي: يزيلها ويقلعها من أماكنـها فتكـون كـالعهن وكالرمل، ثم يدكها فيجعلها هباء منبثا، فتضمحل وتتلاشى، ويسويها بالأرض، ويجعـل الأرض قاعا صفصفا، مستويا لا يرى فيه أيها الناظر عِوَجًا، هذا من تمام استوائها ﴿وَلَآ أَمْتًا﴾ أي: أودية وأماكن منخفضة، أو مرتفعة فتبرز الأرض، وتتسع للخلائق، ويمـدها الله مد الأديم، فيكونون في موقف واحد، يسمعهم الداعي، وينفـذهم البصـر، ولهـذا قال:﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ﴾ وذلك حين يبعثون من قبورهم ويقومون منها، يدعوهم الداعي إلى الحضور والاجتماع للموقف، فيتبعونه مهطعين إليه، لا يلتفتـون عنـه، ولا يعرجون يمنة ولا يسرة، وقوله: ﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ أي: لا عوج لدعوة الداعي، بل تكـون دعوته حقا وصدقا، لجميع الخلق، يسمعهم جميعهم، ويصيح بهم أجمعـين، فيحضـرون لموقف القيامة، خاشعة أصواتهم للرحمن، ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ أي: إلا وطء الأقـدام، أو المخافتة سرا بتحريك الشفتين فقط، يملكهم الخشوع والسكون والإنصات، انتظـارا لحكم الرحمن فيهم، وتعنو وجوههم، أي: تذل وتخضع، فترى في ذلك الموقف العظـيم، الأغنياء والفقراء، والرجال والنساء، والأحرار والأرقاء، والملـوك والسـوقة، سـاكتين منصتين، خاشعة أبصارهم، خاضعة رقابهم، جاثين على ركبهم، عانيـة وجـوههم، لا يدرون ماذا ينفصل كل منهم به، ولا ماذا يفعل به، قد اشتغل كل بنفسه وشأنه، عن أبيه وأخيه، وصديقه وحبيبه ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧﴾ [عـبس] فحينئذ يحكـم فيهم الحاكم العدل الديان، ويجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بالحرمان.

والأمل بالرب الكريم، الرحمن الرحيم، أن يرى الخلائق منه، من الفضل والإحسان، والعفو والصفح والغفران، ما لا تعبر عنه الألسنة، ولا تتصوره الأفكار، ويتطلع لرحمته إذ ذاك جميع الخلق لما يشاهدونه - فيختص المؤمنون به وبرسله بالرحمة- فإن قيل: من أين لكم هذا الأمل؟ وإن شئت قلت: من أين لكم هذا العلم بما ذكر؟

قلنا: لما نعلمه من غلبة رحمته لغضبه، ومن سعة جوده، الذي عم جميع البرايا، ومما نشاهده في أنفسنا وفي غيرنا، من النعم المتواترة في هذه الدار، وخصوصا في فصل القيامة، فإن قوله: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾ [النبأ] مع قوله ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾

[١٢٠] مع قوله ﷺ : ((**إن لله مائة رحمة أنزل لعباده رحمة، بها يتراحمون ويتعاطفون، حتى إن البهيمة ترفع حافرها عن ولدها خشية أن تطأه**)) أي:- من الرحمة المودعة في قلبها، فإذا كان يوم القيامة، ضم هذه الرحمة إلى تسع وتسعين رحمة، فرحم بها العباد .

هذا رجاؤنا في رب عظيم : ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]

وقال ﷻ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف] وقال تعالى ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]

وقال تعالى :﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الأنعام]

[١٢١] وقد جاءت نصوص السنة مبشرة للمؤمنين حتى يعظم الرجاء عندهم مع خوفهم المنضبط ، ذلك لأنه تعالى عن ظن عبده به كما قال ﷻ في الحديث القدسي

الصحيح : ((أنا عند ظن عبدي بي)) وفي رواية ((إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر)) . وفي أخرى ((فليظن بي ما شاء)) .

[١٢٢] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ « أَنَّ اللَّهَ ﷻ قَالَ : أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي إِنْ ظَنَّ بِي خَيْراً فَلَهُ وَإِنْ ظَنَّ شَرًّا فَلَهُ ».(١)

[١٢٣] وروى مسلم عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الأَنْصَارِيِّ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلاَثَةِ أَيَّامٍ يَقُولُ « لاَ يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلاَّ وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ ﷻ ».(٢)

ذكر ابن الوزير في كتاب " العواصم والقواصم : إن الرجاء في رحمة الله ﷻ يفتح الأمل للعبد ، ويقويه على الطاعة ، ويجعله نشيطاً في النوافل سابقاً للخيرات ،

وقال سهل القطعي : رأيت مالك بن دينار رحمه الله في منامي فقلت يا أبا يحيى ليت شعري ماذا قدمت به على الله ﷻ ؟ قال : قدمت بذنوب كثيرة فمحاها عني حسن الظن بالله.

وأنشد محمود الوراق

حسن ظني بحسن عفوك يا ... رب جميل وأنت مالك أمري

صنت سري عن القرابة والأهـ ... ـل جميعا ، وكنت موضع سري

ثقة بالذي لديك من الستر ... فلا تخزني يوم نشري

يوم هتك الستور عن حجب الغيب ... فلا تهتكن للناس ستري

لقني حجتي ، وإن لم تكن يا ... رب لي حجة ولا وجه عذر(٣)

قال ابن القيم رحمه الله : أكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص هم وفيما يفعله بغيرهم ، فقلَّ من يسلم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه ، وصفاته ، وهو موجب

---

(١) صحيح الجامع : ٤٣١٥ .

(٢) مسلم : ٢٨٧٧ .

(٣) انظر كتاب حسن الظن بالله لابن أبي الدنيا ص١١٦ .

حكمته وحمده ، فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا ، وليتب إلى الله تعالى ويستغفره من ظنه بربه ظن السوء .اهـ

فلا تظن بربك ظن سوء ... فإن الله أولى بالجميل
ولا تظن بنفسك قط خيراً ... فكيف بظالم جان خحول
وما بك من تقى فيها وخير ... فتلك مواهب الرب الجليل

[١٢٤] مع قوله ﷺ : ((لله أرحم بعباده من الوالدة بولدها)) فقل ما شئت عن رحمته، فإنها فوق ما تقول، وتصور ما شئت، فإنها فوق ذلك، فسبحان من رحم في عدله وعقوبته، كما رحم في فضله وإحسانه ومثوبته، وتعالى من وسعت رحمته كل شيء، وعم كرمه كل حي، وجل من غني عن عباده، رحيم بهم، وهم مفتقرون إليه على الدوام، في جميع أحوالهم، فلا غنى لهم عنه طرفة عين.

وقوله: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾

أي: لا يشفع أحد عنده من الخلق، إلا إذا أذن في الشفاعة ولا يأذن إلا لمن رضي قوله، أي: شفاعته، من الأنبياء والمرسلين، وعباده المقربين، فيمن ارتضى قوله وعمله، وهو المؤمن المخلص، فإذا اختل واحد من هذه الأمور، فلا سبيل لأحد إلى شفاعة من أحد.

وينقسم الناس في ذلك الموقف قسمين:

القسم الأول : ظالمين بكفرهم وشرهم، فهؤلاء لا ينالهم إلا الخيبة والحرمان، والعذاب الأليم في جهنم، وسخط الديان.

والقسم الثاني: من آمن الإيمان المأمور به، وعمل صالحا من واجب ومسنون ﴿ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا ﴾ أي: زيادة في سيئاته ﴿ وَلَا هَضْمًا ﴾ أي: نقصا من حسناته، بل تغفر

ذنوبه، وتطهر عيوبه، وتضاعف حســـناته، ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء] اهـــ

وقـال د/ محمد سيد طنطـاوي : السائلون عن أحوال الجبال يوم القيامة كفار مكة ، روى أنهم قالوا للرسول ﷺ على سبيل الاستهزاء ، يا محمد إنك تدعى أن هذه الدنيا تفنى ، وأننا نبعث بعد الموت ، فأين تكون هذه الجبال ، فــنزل قولــه ﷻ : ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾﴾ وقيل : السائلون هم المؤمنون على ســبيل طلــب المعرفة والفهم .

وقوله : ﴿يَنسِفُهَا﴾ من النسف بمعنى القلع . يقال : نسفت الريح التراب نسفا – من باب ضرب – إذا اقتلعته وفرقته .

أي : ويسألك – أيها الرسول الكريم – بعض الناس عن أحوال الجبال يوم القيامـــة ، فقل لهم : ينسفها ربى نسفا ، بأن يقلعها من أصولها ، ثم يجعلها كالرمـــل المتنـــاثر ، أو كالصوف المنفوش الذي تفرقه الرياح .

والفاء في قوله : ﴿فَقُلْ﴾ للمسارعة إلى إزالة ما في ذهن السائل من توهم أن الجبـــال قد تبقى يوم القيامة .

والضمير في قوله ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾﴾ يعود إلى الجبال باعتبار أجزائهـــا السفلى الباقية بعد النسف ، ويصح أن يعود إلى الأرض المدلول عليها بقرينة الحال ، لأنها هي الباقية بعد قلع الجبال . والقاع : هو المنكشف من الأرض دون أن يكون عليه نبات أو بناء .

والصفصف : الأرض المستوية الملساء حتى لكأن أجزاءها صف واحد من كل جهة .

أي : فيتركها بعد النسف أرضا منكشفة متساوية ملساء ، لا نبات فيها ولا بناء . . .

﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه] أي : لا ترى في الأرض بعد اقتلاع الجبال منها ، مكانا منخفضاً ، كما لا ترى فيها ﴿أَمْتًا﴾ أي : مكانا مرتفعا ، بل تراها كلها مستوية ملساء كالصف الواحد .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : قد فرقوا بين العِوج والعَوج ، فقالوا : العِوج بالكسر في المعاني : والعوج بالفتح في الأعيان ، والأرض عين ، فكيف صح فيها المكسور العين؟

قلت : اختيار هذا اللفظ له موقع حسن بديع في وصف الأرض بالاستواء والملاسة ونفى الاعوجاج عنها على أبلغ ما يكون ، وذلك أنك لو عمدت إلى قطعة أرض فسويتها ، وبالغت في التسوية على عينك وعيون البصراء ، واتفقتم على أنه لم يبق فيها اعوجاج قط ، ثم استطلعت رأى المهندس فيها ، وأمرته أن يعرض استواءها على المقاييس الهندسية ، لعثر فيها على عوج في غير موضع ، لا يدرك ذلك بحاسة البصر ولكن بالقياس الهندسي ، فنفى الله ذلك العوج الذي دق ولطف عن الإدراك ، ....، وذلك الاعوجاج لما لم يدرك إلا بالقياس دون الإحساس لحق بالمعاني ، فقيل فيه ، عوج بالكسر والأمت : النتوء اليسير ، يقال : مد حبله حتى ما فيه أمت . . .

ثم بين ﷻ أحوال الناس يوم القيامة فقال : ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾ والمراد بالداعي : الملك الذي يدعوهم إلى المثول للحساب .

قيل : يناديهم بقوله : أيتها العظام البالية ، والجلود المتمزقة واللحوم المتفرقة . . . قومى إلى ربك للحساب والجزاء ، فيسمعون الصوت ويتبعونه .

قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ : وهذه الآية كقوله ﷻ : ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وكقوله : ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ

شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النجم] وكقوله : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾

[١٢٥] وفي الصحيحين من غير وجه ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : ((**آتي تحت العرش ، وأخر لله ساجداً، وبفتح علي بمحامد لا أحصيها الآن ، ثم يقول ﷻ : ((يا محمد ، ارفع رأسك ، وقل يسمع قولك ، واشفع تشفع . قال ﷺ : فيحد لي حداً ، فأدخلهم الجنة ، ثم أعود ، فذكر أربع مرات ﷺ وعلى سائر الأنبياء . . .**

[١٢٦] وفي الحديث : يقول ﷻ : ((**أخرجوا من النار من كان قلبه مثقال حبة من إيمان فيخرجون خلقا كثيراً ، ثم يقول ﷻ : أخرجوا من النار من كان في قلبه نصف مثقال من إيمان ، أخرجوا من النار من كان في قلبه ما يزن ذرة ، من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان**)) .

وقوله ﷻ : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ بيان لشمول علمه ﷻ لكل شيء .

أي : الله ﷻ وحده هو الذي يعلم جميع أحوال خلقه سواء ما كان منها يتعلق بما بين أيديهم من أمور الآخرة وأهوال الموقف ، أم ما كان منها يتعلق بما خلفهم من أمور الدنيا ، أما هم فإنهم لا يحيط علمهم إلا بذاته ﷻ ولا بصفاته ، ولا بمعلوماته . اهـ

من هداية الآيات :

١- تقرير نبوة محمد ﷺ يقص تعالى أنباء ما قد سبق بعد قصه عليه أنباء موسى وفرعون بالحق ، وإيتائه القرآن الكريم .

٢- كون القرآن للذاكرين لما يحمل من الحجج والدلائل والبراهين .

٣- سوء حال المجرمين يوم القيامة ، الذين أعرضوا عن القرآن الكريم .

٤- عظم أهوال يوم القيامة حتى يتقال معها المرء مدة الحياة الدنيا التي هي آلاف الأعوام

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ
ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا
وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾
قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ
بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾

شرح الكلمات :

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ﴾ : أي آدم وحواء من الجنة وإبليس سبق أن إبليس هبط .

﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ : أي آدم وحواء وذريتها عدو لإبليس وذريته ، وإبليس وذريته عدو لآدم وحواء وذريتهما .

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ : أي فإن يأتيكم مني هدى وهو كتاب ورسول .

﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ ﴾ : أي الذي أرسلت به رسولي وهو القرآن .

﴿فَلَا يَضِلُّ﴾ : أي في الدنيا .

﴿وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ : في الآخرة .

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي ﴾ : أي عن القرآن فلم يؤمن به و لم يعمل بما فيه .

﴿مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ : أي ضيقة تضيق بها نفسه و لم يسعد بها ولو كانت واسعة .

﴿أَعْمَىٰ﴾ : أي أعمى البصر لا يبصر .

﴿وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴾ : أي ذا بصر في الدنيا وعند البعث .

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ﴾ : أي الأمر كذلك أتتك آياتنا فنسيتها فكما نسيتها تنسى في جهنم .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ ﴾ : أي وكذلك الجزاء الذي جازينا به من نسي آياتنا نجزي من أسرف في المعاصي ولم يقف عند حد ، ولم يؤمن بآيات ربه سبحانه وتعالى .

﴿أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ : أي أشد من عذاب الدنيا وأدوم فلا ينقضي ولا ينتهي .

معنى الآيات :

ما زال السياق الكريم في قصة آدم إنها لما أكل آدم وحواء من الشجرة وبـدت لهمـا سواءهما وعاتبهما ربهما بقوله في آية غير هـذه ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأعراف] وأنزل على آدم كلمة التوبة فقالها مـع زوجته فتاب الله عليهما لما تم كل ذلك قال ﴿ٱهْبِطَا مِنْهَا﴾ أي من الجنـة ﴿جَمِيعًا﴾ إذ إبليس العدو قد أُبلس من قبل وطُرد مـن الجنـة فهبطـوا جميعـاً . وقولـه ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ أي بيان عبادتي تحمله كتبي وتبينـه رسـلي ، ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ﴾ فآمن به وعمل بما فيـه ﴿فَلَا يَضِلُّ﴾ في حياتـه ﴿وَلَا يَشْقَىٰ﴾ في آخرتـه ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي ﴾ أي فلم يؤمن به ولم يعمل بما فيه ﴿فَإِنَّ لَهُۥ﴾ أي جـزاءً منا له ﴿مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أي ضيقة تضيق بها نفسه فلم يشعر بالغبطة والسعادة وإن اتسع رزقه كما يضيق عليه قبره ويشقى فيه طيلة حياة البرزخ ، ويحشر يوم القيامة أعمـى لا حجة له ولا بصر يبصر به . وقد يعجب لحاله ويسأل ربه ﴿لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ ﴾ في الدنيا وفي البعث ﴿بَصِيرًا﴾ فيجيبه ربه تعـالى : ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي الأمـر كذلك بصيرا وأصبحت أعمى لأنك ﴿أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا﴾ تحملها كتبنـا وتبينـها رسـلنا ﴿فَنَسِيتَهَا﴾ أي تركتها ولم تلتفت إليها معرضا عنها فاليوم تترك في جهنم منسياً كذلك وقوله تعالى في الآية الآخرة (١٢٧) ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ ﴾ في معاصينا فلم يقـف

عند حد و لم يؤمن بآيات ربه فنجعل له معيشة ضنكاً في حياته الدنيا وفي البرزخ ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ﴾ من عذاب الدنيا ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي أدوم حيث لا ينقضي ولا ينتهي .

من هداية الآيات :

١- تقرير عداوة الشيطان للإنسان .

٢- عِدَةُ الله تعالى لمن آمن بالقرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في حياته ولا يشقى في آخرته .

٣- بيان جزاء من أعرض عن القرآن في الدنيا والآخرة .

٤- التنديد بالإسراف في الذنوب والمعاصي مع الكفر بآيات الله ، وبيان جزاء ذلك .

((اقتـــــراح))

ماذا ترى لو أنك أيها الحبيب رسمت لنفسك برنامجاً قرآنياً يومياً بحيث تقرأ كل يوم قدراً مناسباً لظروفك ، وملابساتك في موقعك وحسب حالك ، على أن توقن أن هذا الكتاب العزيز هو مجموعة من الرسائل الطيبة أنت المُعنىُّ بها في المقام الأول ، ثم تمد إلى كتاب مبسط من كتب التفسير فتحاول أن تعي هذه المعاني المباركة لتلك الرسائل الحبيبة ، ثم تزن نفسك وأهل بيتك عليها فما وجدت من استقامة حمدت الله على ذلك وسألته المزيد من فضله ، وإن ، وإن تكن الأخرى اجتهدت في التقويم لنفسك ومن تعول مستعيناً على ذلك بربك الرحيم المنان ثم بعد ذلك تبلغ ما قد تلوت ووعيت وفهمت وطبقت ذلك في دنيا الناس فتصير صالحاً في نفسك ، ناصحاً لأهل بيتك ، داعياً إلى الخير غيرك ، فتأتي وأنت مكتوب في عداد أهل الخير والبلاغ أرجو أن يتم هذا وأرجوا أن يكون قريباً .

سُورَةُ الأنبياء

مقصود السورة : -

مقصودها الاستدلال على تحقق الساعة وقربها ولو بالموت ، ووقوع الحساب فيها على الجليل والحقير ، ولأن موجدها لا شريك له يعوقه عنها ، وهو من لا يبدل القول لديه .[1]

﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الأنبياء]

الغريب في هذه الآيات :

﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ جوابه محذوف والمعنى لو علموا ما استعجلوا

﴿ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ﴾ لإحاطة النار بهم

﴿ لَا يَكُفُّونَ ﴾ : أي لا يمنعون ولا يدفعون النار عن وجوههم .

﴿ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً ﴾ : أي تأتيهم القيامة بغتة أي فجأة .

﴿ فَتَبْهَتُهُمْ ﴾ تحيرهم

﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ : أي يمهلون ليتوبوا .

﴿ فَحَاقَ ﴾ : أي نزل بهم العذاب الذي كانوا به يستهزءون

---

(١) انظر نظم الدرر للبقاعي : ٥/٩٣ .

المعنى العام :

يقول تعالى ﴿ لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ المستعجلون بالعذاب المطالبون به حين أي الوقت الذي يُلقون فيه في جهنم والنار تأكل وجوهم وظهروهم ، ولا يستطيعون أن يمنعوا أنفسهم منها ولا هم ينصرون بمن يدفع العذاب عنهم لو عملوا هذا وأيقنوا به لما طالبوا بالعذاب ولا استعجلوا يومه وهو يوم القيامة ، هذا ما دل عليه قوله تعالى : ﴿ لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةً فَتَبۡهَتُهُمۡ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ أي أن القيامة لا تأتيهم على علم منهم يوقتها وساعتها فيمكنهم بذلك التوبة ، وإنما تأتيهم ﴿بَغۡتَةً﴾ أي فجأة ﴿فَتَبۡهَتُهُمۡ﴾ أي فتحيرهم ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴾ أي يمهلون ليتوبوا من الشرك والمعاصي فينجوا من عذاب النار ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ وهو العذاب . اهـ[(١)].

القول في تأويل قوله تعالى : ﴿ لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

يقول تعالى ذكره: لو يعلم هؤلاء الكفار المستعجلون عذاب ربهم ماذا لهم من البلاء حين تلفح وجوههم النار، وهم فيها كالحون، فلا يكفون عن وجوههم النار التي تلفحها، ولا عن ظهورهم فيدفعونها عنها بأنفسهم ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾

---

(١) انظر تفسير الجزائري : ٣٨٥/٢ تفسير سورة الأنبياء الآيات (٣٩ – ٤١) ط/ دار الحديث .

يقول : ولا لهم ناصر ينصرهم، فيستنقذهم حينئذ من عذاب الله لما أقاموا على ما هم عليه مقيمون من الكفر بالله، ولسارعوا إلى التوبة منه والإيمان بـالله، ولمـا اسـتعجلوا لأنفسهم البلاء.

القول في تأويل قولـه تعـالى : ﴿ بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ فَتَبۡهَتُهُمۡ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ يقول تعالى ذكره: لا تأتي هذه النار التي تلفح وجوه هؤلاء الكفار الذين وصف أمرهم في هذه السورة حين تأتيهم عن علم منهم بوقتـها، ولكنـها تأتيهم مفاجأة لا يشعرون بمجيئها فتبهتهم : يقول: فتغشاهم فجأة، وتلفـح وجـوههم معاينة كالرجل يبهت الرجل في وجهه بالشيء، حتى يبقى المبهوت كالحيران منـه(فَـلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا) يقول: فلا يطيقون حين تبغتهم فتبهتهم دفعها عن أنفسـهم ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴾ يقول: ولا هم وإن لم يطيقوا دفعها عن أنفسهم يؤخرون بالعـذاب بهـا لتوبـة يحدثونها، وإنابة ينيبون، لأنها ليست حين عمل وساعة توبة وإنابة، بل هي ساعة مجازاة وإثابة.

القول في تأويل قولـه تعـالى : ﴿ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه محمـد صـلى الله عليه وسلم: إن يتخذك يا محمد اهـ [(١)].

من هداية الآيات :

١ - تقرير أن الساعة لا تأتي إلا بغتة .

٢- تقرير عقيدة البعث والجزاء .

٣- تسلية الرسول ﷺ بما كان عليه الرسل من قبله وما لاقوه من أممهم

٤- بيان عجز آلهة المشركين عن نصرتهم بدفع العذاب عنهم متى حل بهم .

---

(١)انظر جامع البيان لابن جرير لتفسير سورة الأنبياء الآيات (٣٩ - ٤١) .

٥- بيان أن علة إصرار المشركين على الشرك والكفر هو عدم إقبالهم على تدبر القرآن الكريم وتفكرهم في آياته وما تحمله من هدى ونور . أهـ الجزائري

﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ لو يعلم هؤلاء الكفار ما سيكون حالُهم في النار ، يوم لا يستطيعون دَفْعَ النار عن أن تلفح وجوههم وتشوي ظهورهم ، ولا يجدون من ينصرهم وينقذهم - لو يعلمون كل هذا ما قالوا ذلك ، ولا استعجلوا العذاب ، وهذا هو الجواب وهو محذوف . . .ثم بيّن أن هذا الذي يستعجلونه غيرُ معلوم ولا يأتي إلا فجأة فقال :

﴿ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ إن الساعة لا تأتي إلا بغتةً ، تفاجئهم فتحيّرهم وتدهشهم ، ولا يستطيعون ردَّها ، أو تأخيرها ، ولا هم يُمهَلون حتى يتوبوا ويعتذروا فقد فات الأوان .

ثم سلّى رسولَه الكريم على استهزائهم به فقال : ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ إن ما حَدَثَ لك من استهزاء قد حدث قبلك : فحلّ بالّذين سخِروا من رسلهم العذابُ والبلاء ، فليعلموا أن مصير المستهزئين بالرسل معروف ، وعاقبتَهم وخيمةٌ ، وسيكون لك النصر المبين ، وفي سورة الأنعام ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ﴾ [الأنعام: ٣٤]

دقة الميزان وحقيقته :

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ

أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأنبياء]

الكلمات الغريبة :

﴿ٱلصُّمُّ﴾ : واحدُه أصم ، الذي لا يسمع .﴿نَفْحَةٌ﴾ : الشيء الضئيل .

﴿خَرْدَلٍ﴾ : نباتُ عشبي ينبت في الحقول ، تُستعمل بذوره في الطب ، والطعـام ، ويُضرب به المثل في الصغر . ﴿ٱلْقِسْطَ﴾ : العدل . ﴿حَـٰسِبِينَ﴾ : محصين عـادين .

﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ : ما يفرق بين الحق والباطل وتطلق على التوراة ، وكذلك على القـرآن ، والضياء كالفرقان لأنه ينير الطريق للناس . ﴿مُشْفِقُونَ﴾ : خائفون .

المعنى العام :

بعد أن بين الله هول ما يستعجلون ، وحالَهم السيئة حين نزوله بهم ، ثم نعى علـيهم جهلهم وإعراضهم عن ذِكر ربهم الذي يكلؤهم من طوارق الليل وحوادث النهار - أَمَرَ رسولَه الكريم أن يقول لهم : إنما أخبركم به قد جاءَ من عند الله فقال :

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ﴾ قل أيها النبي لهؤلاء الجاحدين السادرين في غـيِّهم : إنما أحذّركم بالوحي الصادق الصادر عن الله ، فإن كنتم تسخرون مـن أمـرِ السـاعة وأهوالها ، فإنها من وحي الله وأمره ، لا من وحي الخيال .

ثم أردَفَ بأن الإنذار مع مثل هؤلاء لا يجدي فتيلا ، فهم كالصمّ الذي لا يسـمعون داعي الله فقال : ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ وكيف يُجدي الإنـذارُ من كان أصم لا يسمع! وكيف يسمع الطرش النداءَ حين يوجّه إليهم ! وكـل مـنَ لا يستجيب لداعي الله فهو أصم ولو كان يسمع ويرى .

﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

وحين يسمهم أقل العذاب يوم القيامة يدعون على أنفسهم بالويلِ والثبور ويقولون : إنـا كنا ظالمين لأنفسنا بكفرنا ، ويندمون على ما فَرَطَ منهم ، لكنه لن يـنفعهم النـدم ولا الاعتراف بعد فوات الأوان .

ثم يبين في خاتمةهذا الحوار ما سيقع من أحداث يوم القيامة وحين يأتي ما أُنذروا بـه فيقـــول :﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ .

في ذلك اليوم العظيم نضع الموازينَ العادلة الدقيقة التي تُحصي كل شيء ، ويأخذُ كل إنسان حقه كاملاً ، ولا تُظلم نفسٌ شيئا ، ولو كان العمل بوزن حبةِ الخـردل ، وحبـة الخردل جزء من ألف جزء من الغرام ، فان الكيلو غرام يحتوي على ٩١٣ الف حبـة ، وهذا صغُر وزنٍ لحبة نبات عُرف حتى الآن . فإن كان الإنسان اخترع الكمبيوتر ، الذي يحصي أدقّ المعلومات فإن الله عنده ما هو أدق منه وأعدل . ولا يخفى ما في هذه الآيـة من التحذير الشديد والوعيد .

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : أي: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، للناس كلـهم: ﴿إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ﴾ أي: إنما أنا رسول، لا آتيكم بشيء من عندي، ولا عندي خـزائن الله، ولا أعلم الغيب، ولا أقول إني ملك، وإنما أنذركم بما أوحاه الله إلي، فإن اسـتجبتم، فقـد استجبتم لله، وسيثيبكم على ذلك، وإن أعرضتم وعارضتم، فليس بيدي من الأمر شيء، وإنما الأمر لله، والتقدير كله لله.

﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾ أي: الأصم لا يسمع صوتا، لأن سمعـه قـد فسـد وتعطل، وشرط السماع مع الصوت، أن يوجد محل قابل لذلك، كذلك الوحي سـبب لحياة القلوب والأرواح، وللفقه عن الله، ولكن إذا كان القلب غير قابل لسماع الهـدى،

كان بالنسبة للهدى والإيمان، بمترلة الأصم، بالنسبة إلى الأصوات فهؤلاء المشركون، صم عن الهدى، فلا يستغرب عدم اهتدائهم، خصوصا في هذه الحالة، التي لم يأقم العـذاب، ولا مسهم أمله.

فلو مسهم ﴿نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ أي: ولو جزءا يسيرا[1] ولا يسير مـن عذابـه، ﴿لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي: لم يكن قولهم إلا الدعاء بالويل والثبور، والندم، والاعتراف بظلمهم وكفرهم واستحقاقهم للعذاب.

[﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ يخبر تعالى عن حكمه العـدل، وقضائه القسط بين عباده إذا جمعهم في يوم القيامة، وأنه يضع لهم الموازين العادلة، الـتي يبين فيها مثاقيل الذر، الذي توزن بها الحسنات والسيئات، ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ﴾ مسـلمة أو كافرة ﴿شَيْـًٔا﴾ بأن تنقص من حسناتها، أو يزاد في سيئاتها.

﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ التي هي أصغر الأشياء وأحقرها، مـن خير أو شر ﴿أَتَيْنَا بِهَا ۗ﴾ وأحضرناها، ليجازى بها صاحبها، كقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة]

وقـالوا ﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهـف] ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ يعني بذلك نفسه الكريمة فكفى به حاسبا أي عالما بأعمال العباد حافظا لها مثبتـا لهـا في الكتاب عالما بمقاديرها ومقادير ثواها وعقاها واستحقاقها موصلا للعمال جزاءها[2]

---

(١) أي عذابه كله عظيم ﴿ فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ...﴾ .

(٢) انظر تفسير السعدي [المجلد الواحد] ص٥٦٦ تفسير سورة الأنبياء الآيات (٤٥ – ٤٧) .

((نصيحة))

إذا كان الوزن دقيقاً على هذا النحو ، وكان الأمر عظيماً على ما قرأت ، وسمعت فلماذا لا أحاسب نفسي يوماً بعد يوم حساباً دقيقاً ، بمعنى أن أجلس مع نفسي جلسة صادقة للنظر فيما فات من يومي أو بعضه ،فإن كان ثمت تقصير وغفلة حاولت أن أسارع في ميادين العمل الصالح كي أتدارك ما ذهب عني عسى أن يكون ذلك عوضاً ، وإن كانت الطاعات ليست على ما يرام استدرك ما فات ، وأتى بما عليه مجتهداً في أن يسد هذا الخلل الذي حدث ، وإن كان حدث شيء من التقصير في جنب الله رجع فتاب واستغفر وأدى ما عليه ، وإن كان الذنب بينه وبين الخلق أعطى كل ذي حق حقه وأرجع لكل امرئ حقه قبل أن لا يكون دينار ولا درهم .

أمر آخر مهم حاول أن ترتب وقتك ، وأن تهتم بوردك من الطاعات والتلاوات والأذكار إنك تنظر اليوم إلى الذين يقتنون التليفون المحمول كيف يحافظون على المكالمات الصادرة خوفاً من ضياع نصف جنيه فما بالك بمن يضيعون الأعمار والأعمال ، والأوقات ، والحسنات وبمن يسارعون في الغفلات والسيئات بل ويقتحمون عظائم المحرمات ؟ أليس فيما ورد من دقة الوزن ما يردع المرء ويلجم فمه بلجام ليسلم من البوار والخسار : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النازعات] ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ ﴾ [هود]

عقيدة أهل السنة والجماعة في هذا المبحث[1] :

ونؤمن بالميزان. قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

---

(١) لقد مرَّ كلام مفيد عن الميزان والموزونات ومرجحات الميزان في سورة الأعراف عند قوله تعالى : ﴿والوزن يومئذ الحق ﴾ .

وقال تعالى: ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [المؤمنون]

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ : قال العلماء: إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال؛ لأن الوزن للجزاء، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة، فإن المحاسبة لتقرير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها. قال: وقوله:﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ يحتمل أن يكون ثم موازين متعددة توزن فيها الأعمال، ويحتمل أن يكون المراد الموزونات، فجمع باعتبار تنوع الأعمال الموزونة، والله أعلم.

والذي دلت عليه السنة : أن ميزان الأعمال له كفتان حسيتان مشاهدتان.

[١٢٧] روى الإمام أحمد، من حديث أبي عبد الرحمن الحبلي، قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: قال رسول الله ﷺ : « **إن الله سيخلص رجلا من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا، كل سجل مد البصر، ثم يقول له: أتنكر من هذا شيئا ؟ أظلمتك كتبتي الحافظون ؟ قال: لا يا رب. فيقول: ألك عذر أو حسنة ؟ فيبهت الرجل، فيقول: لا يا رب. فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة واحدة، لا ظلم اليوم عليك. فتخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، فيقول: أحضروه. فيقول: يا رب، وما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقال: إنك لا تظلم. قال: فتوضع السجلات في كفة، [والبطاقة في كفة]، قال: فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، ولا يثقل شيء بسم الله الرحمن الرحيم**».(١)

وهكذا رواه الترمذي، وابن ماجه، وابن أبي الدنيا، من حديث الليث، زاد الترمذي:

---

(١) هو الحديث: ٦٩٩٤ من المسند، وهذا لفظه، وكان في المطبوعة بعض تحريف صححناه منه، وزيادة [والبطاقة في كفة] ليست في نسخ المسند، وهي ثابتة في رواية الترمذي ٣: ٣٦٧، والحديث من رواية الليث بن سعد عن عامر بن يحيى عن أبي عبد الرحمن الحبلي .

«ولا يثقل مع اسم الله شيء»(١) وفي سياق آخر: **«توضع الموازين يوم القيامة، فيؤتى بالرجل فيوضع في كفة»**، الحديث.

وفي هذا السياق فائدة جليلة، وهي: أن العامل يوزن مع عمله،

[١٢٨] ويشهد له ما روى البخاري عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: **«إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يزن عند الله جناح بعوضة قال: اقرءوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ١٠٥﴾ [الكهف]**

[١٢٩] وروى الإمام أحمد، عن ابن مسعود: **«أنه كان يجني سواكا من الأراك، وكان دقيق الساقين، فجعلت الريح تكفؤه، فضحك القوم منه، فقال رسول الله ﷺ: "مم تضحكون"؟ قالوا: يا نبي الله، من دقة ساقيه. فقال: والذي نفسي بيده، لهما أثقل في الميزان من أحد»** (٢).

[١٣٠] وقد وردت الأحاديث أيضا بوزن الأعمال أنفسها، كما في صحيح مسلم، عن أبي مالك الأشعري، قال: قال رسول الله ﷺ: **«الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان»**.

[١٣١] وفي الصحيح، وهو خاتمة كتاب البخاري، قوله ﷺ: **«كلمتان خفيفتان على اللسان، حبيبتان إلى الرحمن، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»**.

[١٣٢] وروى الحافظ أبو بكر البيهقي، عن أنس بن مالك ﷺ، عن النبي ﷺ، قال: **«يؤتى بابن آدم يوم القيامة، فيوقف بين كفتي الميزان، ويوكل به ملك، فإن ثقل ميزانه، نادى الملك بصوت يسمع الخلائق: سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدا. وإن خف ميزانه، نادى الملك بصوت يسمع الخلائق: شقي فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبدا»**.

---

(١) في المطبوعة: «ولا يثقل شيء اسم الله». والذي أثبتنا هو نص ما في الترمذي.

(٢) المسند: ٣٩٩١. وفي المطبوعة «فجعلت الريح تكفيه»، وصححناه من المسند

فلا يلتفت إلى ملحد معاند يقول: الأعمال أعراض لا تقبل الوزن، وإنما يقبل الــوزن الأجسام !! فإن الله يقلب الأعراض أجساما، كما تقدم،

[١٣٣] وكما روى الإمام أحمد، عن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «يؤتى بالموت كبشا[أغثر] [١] ، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة، فيشــرئبون وينظرون، ويقال: يا أهل النار، فيشرئبون وينظرون، ويرون أن قــد جــاء الفــرج، فيذبح، ويقال: خلود لا موت». ورواه البخاري بمعناه. فثبت وزن الأعمــال والعامــل وصحائف الأعمال، وثبت أن الميزان له كفتان. والله تعالى أعلم بمــا وراء ذلــك مــن الكيفيات.اهــ [العقيدة الطحاوية]

من هداية الآيات :

١- طول العمر والرزق الواسع كثيراً ما يُسبب الغرور لصاحبه .

٢- حب الشيء يعمي صاحبه حتى لا يرى إلا ما أحبه ويصمه بحيث لا يسمع إلا ما أحبه

٣- بيان ضعف الإنسان وأن أدنى عذاب يترل به لا يتحمله ويصرخ داعياً يا هلاكاه

٤- تقرير البعث والحساب والجزاء .

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم
بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ
لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٩٥﴾
حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ
ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ
كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [الأنبياء]

---

(١) في الأصل: (أغر). والتصويب من المسند ٢ / ٤٢٣. ن

شرح الكلمات :

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ ﴾ :أي ملتكم وهي الإسلام ملة واحدة من عهد آدم إلى العهد المحمدي إذ دين الأنبياء واحد وهو عبادة الله تعالى وحده بما يشرع لهم .

﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ : أنا إلهكم الحق حيث خلقتكم ورزقتكم فلا تنبغي العبادة إلا لي فاعبدون ولا تعبدوا معي غيري .

﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ﴾ : أي وتفرقوا في دينهم فأصبح لكل فرقة دين كاليهودية والنصرانية والمجوسية والوثنيات وما أكثرها .

﴿كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴾ : أي كل فرقة من تلك الفرق التي قطعت الإسلام راجعة الينا وسوف نجزيها بكسبها .

﴿فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ ﴾ : أي لا نكران ولا جحود لعمله بل سوف يجزى به وافياً .

﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴾ : إذ الكرام الكاتبون أعمال العباد خيرها وشرها .

﴿ وَحَرَٰمٌ﴾ : أي ممتنع رجوعهم إلى الدنيا .

﴿يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ﴾ : قبيلتان وراء سدهما الذي سيفتح عند قرب الساعة .

﴿حَدَبٖ﴾ : أي مرتفع من الأرض .

﴿يَنسِلُونَ﴾ : أي يسرعون المشي .

﴿ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ : يوم القيامة .

﴿فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ : أي من يوم القيامة وما فيه من أحداث .

معنى الآيات :

بعد ذكر أولئك الأنبياء وما أكرمهم الله تعالى به من إفضالات وما كانوا عليه من كماليات قال تعالى مخاطباً الناس كلهم : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ ﴾ أي ملتكم ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي ملة واحدة من عهد أول الرسل إلى خاتمهم وهو الإسلام القائم على الإخلاص لله في العبادة والخلوص من الشرك وقوله تعالى : ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ ينعي تعالى على الإنس تقطيعهم الإسلام إلى ملل شتى كاليهودية والنصرانية وغيرهما ، وتمزيقه إلى طوائف ونحل ، وقوله ﴿كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴾ إخبار منه تعالى أنهم راجعون إليه لا محالة بعد موتهم وسوف يجزيهم بما كانوا يكسبون ومن ذلك تقطيعهم للدين الإسلامي وتمزيقهم له فذهبت كل فرقة بقطعة منه . وقوله تعالى : ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ والحال أنه مؤمن ، والمراد من الصالحات ما شرعه الله تعالى من عبادات قلبية وقولية وفعلية ﴿فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ ﴾ أي لعمله فلا يجحد ولا ينكر بل يراه ويجزى به كاملاً . وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴾ يريد أن الملائكة تكتب أعماله الصالحة بأمرنا ونجزيه بها أيضاً أحسن جزاء وهذا وعد من الله تعالى لأهل الإيمان والعمل الصالح جعلنا الله منهم وحشرنا في زمرتهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ يخبر تعالى أنه ممتنع امتناعاً كاملاً أن يهلك أمة بذنوبها في الدنيا ثم يردها إلى الحياة في الدنيا ، ... ويحتمل الكلام معنى آخر وهي ممتنع على أهل قرية قضى الله تعالى بعذابهم في الدنيا أو في الآخرة أنهم يرجعون إلى الإيمان والطاعة والتوبة الصادقة وذلك بعد أن كذبوا وعاندوا وظلموا وفسقوا فطبع على قلوبهم فهم لا يرجعون إلى التوبة بحال ، ومعنى ثالث وهو حرام على أهل قرية أهلكهم الله بذنوبهم فأبادهم إنهم لا يرجون إلى الله تعالى يوم

القيامة بل يرجعون للحساب والجزاء فهذه المعاني كلها صحيحة ، والمعنى الأخير لا تكلف فيه بكون ﴿لَا﴾ صلة بل هي نافية ويرجع المعنى الأخير قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ﴾ فهو بيان لطريق رجوعهم إلى الله تعالى وذلك يوم القيامة وبدايته بظهور علاماته الكبرى ومنها انكسار سد يأجوج ومأجوج وتدفقهم في الأرض يخربون ويدمرون ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ﴾ وصوب ﴿يَنسِلُونَ﴾ مسرعين .اهـ [(١)]

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ : وقوله : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ﴾ قد قدمنا أنهم من سلالة آدم عليه السلام بل هم من نسل نوح أيضا من أولاد يافث أي أبي الترك والترك شرذمة منهم تركوا من وراء السد الذي بناه ذو القرنين وقال : ﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ ﴾ [الكهف] الآيات وقال في هذه الآية الكريمة ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ أي يسرعون في المشي إلى الفساد والحدب هو المرتفع من الأرض قاله ابن عباس وعكرمة وأبو صالح والثوري وغيرهم وهذه صفتهم في حال خروجهم كأن السامع مشاهد لذلك ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [فاطر] هذا إخبار عالم ما كان وما يكون الذي يعلم غيب السموات والأرض لا إله إلا هو

وقال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ : حدثنا محمد بن مثنى حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن عبيد الله بن يزيد قال : رأى ابن عباس صبيانا يترو بعضهم على بعض يلعبون فقال ابن عباس : هكذا يخرج يأجوج ومأجوج وقد ورد ذكر خروجهم في أحاديث متعددة من السنة النبوية .

---

(١) انظر تفسير الجزائري : ٢/ ٤٠٢ ، ٤٠٣ تفسير سورة الأنبياء الآيات (٩٣ – ٩٦) .

[١٣٤] (**فالحديث الأول**) قال الإمام أحمد : حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ حَدَّثَنَا أَبِى عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ قَالَ حَدَّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ الأَنْصَارِيُّ ثُمَّ الظَّفَرِيُّ عَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ أَحَدِ بَنِى عَبْدِ الأَشْهَلِ عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ « يُفْتَحُ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ يَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ كَمَا قَالَ اللَّهُ ﷻ : ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ فَيَغْشَوْنَ الأَرْضَ وَيَنْحَازُ الْمُسْلِمُونَ عَنْهُمْ إِلَى مَدَائِنِهِمْ وَحُصُونِهِمْ وَيَضُمُّونَ إِلَيْهِمْ مَوَاشِيَهُمْ وَيَشْرَبُونَ مِيَاهَ الأَرْضِ حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ لَيَمُرُّ بِالنَّهَرِ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهِ حَتَّى يَتْرُكُوهُ يَبَساً حَتَّى إِنَّ مَنْ بَعْدَهُمْ لَيَمُرُّ بِذَلِكَ النَّهَرِ فَيَقُولُ قَدْ كَانَ هَا هُنَا مَاءٌ مَرَّةً حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ مِنَ النَّاسِ إِلاَّ أَحَدٌ فِي حِصْنٍ أَوْ مَدِينَةٍ قَالَ قَائِلُهُمْ هَؤُلاَءِ أَهْلُ الأَرْضِ قَدْ فَرَغْنَا مِنْهُمْ وَبَقِىَ أَهْلُ السَّمَاءِ. قَالَ ثُمَّ يَهُزُّ أَحَدُهُمْ حَرْبَتَهُ ثُمَّ يَرْمِى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَتَرْجِعُ إِلَيْهِ مُخْتَضِبَةً دَماً لِلْبَلاَءِ وَالْفِتْنَةِ فَبَيْنَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ دُوداً فِي أَعْنَاقِهِمْ كَنَغَفِ الْجَرَادِ الَّذِي يَخْرُجُ فِي أَعْنَاقِهِ فَيُصْبِحُونَ مَوْتَى لاَ يُسْمَعُ لَهُمْ حِسًّا فَيَقُولُ الْمُسْلِمُونَ أَلاَ رَجُلٌ يَشْرِى لَنَا نَفْسَهُ فَيَنْظُرَ مَا فَعَلَ هَذَا الْعَدُوُّ قَالَ فَيَتَجَرَّدُ(١) رَجُلٌ مِنْهُمْ لِذَلِكَ مُحْتَسِباً لِنَفْسِهِ قَدْ أَظَنَّهَا عَلَى أَنَّهُ مَقْتُولٌ فَيَنْزِلُ فَيَجِدُهُمْ مَوْتَى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فَيُنَادِى يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ أَلاَ أَبْشِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ كَفَاكُمْ عَدُوَّكُمْ. فَيَخْرُجُونَ مِنْ مَدَائِنِهِمْ وَحُصُونِهِمْ وَيُسَرِّحُونَ مَوَاشِيَهُمْ فَمَا يَكُونُ لَهَا رَعْىٌ إِلاَّ لُحُومُهُمْ فَتَشْكَرُ عَنْهُ كَأَحْسَنِ مَا تَشْكَرُ عَنْ شَيْءٍ مِنَ النَّبَاتِ أَصَابَتْهُ قَطُّ ».(٢)

[١٣٥] (**الحديث الثاني**) قال الإمام أحمد أيضا : حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ أَبُو الْعَبَّاسِ الدِّمَشْقِيُّ بِمَكَّةَ إِمْلاَءً قَالَ حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ يَزِيدَ بْنِ جَابِرٍ قَالَ حَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ جَابِرٍ الطَّائِيُّ قَاضِى حِمْصَ قَالَ حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ الْحَضْرَمِىُّ عَنْ أَبِيهِ

---

(١) وفي رواية (فينحدر) .

(٢) هذا حديث حسن أخرجه ابن ماجة (٤٠٧٩) والحاكم في المستدرك :٥٣٥/٤ من حديث يونس بن بكير عن ابن إسحاق به

أَنَّهُ سَمِعَ النَّوَّاسَ بْنَ سَمْعَانَ الْكِلاَبِيَّ قَالَ ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الدَّجَّالَ ذَاتَ غَدَاةٍ فَخَفَّضَ فِيهِ وَرَفَّعَ حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ فَلَمَّا رُحْنَا إِلَيْهِ عَرَفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِنَا فَسَأَلْنَاهُ فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَكَرْتَ الدَّجَّالَ الْغَدَاةَ فَخَفَّضْتَ فِيهِ وَرَفَّعْتَ حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ. قَالَ « **غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُ مِنِّى عَلَيْكُمْ فَإِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ إِنَّهُ شَابٌّ جَعْدٌ قَطَطٌ عَيْنُهُ طَافِيَةٌ وَإِنَّهُ يَخْرُجُ خَلَّةً بَيْنَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ فَعَاثَ يَمِيناً وَشِمَالاً يَا عِبَادَ اللَّهِ اثْبُتُوا** ». قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا لَبْثُهُ فِي الأَرْضِ قَالَ « **أَرْبَعِينَ يَوْماً يَوْمٌ كَسَنَةٍ وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ** ». قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي هُوَ كَسَنَةٍ أَيَكْفِينَا فِيهِ صَلاَةُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ قَالَ « **لاَ اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ** ». قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَا إِسْرَاعُهُ فِي الأَرْضِ قَالَ : ((كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ. قَالَ فَيَمُرُّ بِالْحَيِّ فَيَدْعُوهُمْ فَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ وَالأَرْضَ فَتُنْبِتُ وَتَرُوحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ وَهِيَ أَطْوَلُ مَا كَانَتْ ذُرًى وَأَمَدُّهُ خَوَاصِرَ وَأَسْبَغُهُ ضُرُوعاً وَيَمُرُّ بِالْحَيِّ فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّوا عَلَيْهِ قَوْلَهُ فَتَتْبَعُهُ أَمْوَالُهُمْ فَيُصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ شَيْءٌ وَيَمُرُّ بِالْخَرِبَةِ فَيَقُولُ لَهَا أَخْرِجِي كُنُوزَكِ فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ. قَالَ وَيَأْمُرُ بِرَجُلٍ فَيُقْتَلُ فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ فَيَقْطَعُهُ جِزْلَتَيْنِ رَمْيَةَ الْغَرَضِ ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيُقْبِلُ إِلَيْهِ يَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ - قَالَ - فَبَيْنَا هُوَ عَلَى ذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ وَاضِعاً يَدَهُ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ فَيَتْبَعُهُ فَيُدْرِكُهُ فَيَقْتُلُهُ عِنْدَ بَابِ لُدٍّ الشَّرْقِيِّ - قَالَ - فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عليه السلام أَنِّى قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَاداً مِنْ عِبَادِي لاَ يَدَانِ لَكَ بِقِتَالِهِمْ فَحَوِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ. فَيَبْعَثُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ كَمَا قَالَ اللَّهُ ﷻ ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ فَيَرْغَبُ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللَّهِ ﷻ فَيُرْسِلُ عَلَيْهِمْ نَغَفاً فِي رِقَابِهِمْ فَيُصْبِحُونَ فَرْسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَيَهْبِطُ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ فَلاَ يَجِدُونَ فِي الأَرْضِ بَيْتاً إِلاَّ قَدْ مَلأَهُ زَهَمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ فَيَرْغَبُ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللَّهِ ﷻ فَيُرْسِلُ عَلَيْهِمْ طَيْراً كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ

ﷻ». قَالَ ابْنُ جَابِرٍ فَحَدَّثَنِي عَطَاءُ بْنُ يَزِيدَ السَّكْسَكِيُّ عَنْ كَعْبٍ أَوْ غَيْرِهِ قَالَ «فَتَطْرَحُهُمْ بِالْمُهَبَّلِ». قَالَ ابْنُ جَابِرٍ فَقُلْتُ يَا أَبَا يَزِيدَ وَأَيْنَ الْمُهَبَّلُ قَالَ مَطْلَعُ الشَّمْسِ. قَالَ « وَيُرْسِلُ اللَّهُ ﷻ مَطَراً لاَ يَكُنُّ مِنْهُ بَيْتُ وَبَرٍ وَلاَ مَدَرٍ أَرْبَعِينَ يَوْماً فَيَغْسِلُ الأَرْضَ حَتَّى يَتْرُكَهَا كَالزَّلَقَةِ وَيُقَالُ لِلأَرْضِ أَنْبِتِي ثَمَرَتَكِ وَرُدِّي بَرَكَتَكِ. قَالَ فَيَوْمَئِذٍ يَأْكُلُ النَّفَرُ مِنَ الرُّمَّانَةِ وَيَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِهَا وَيُبَارَكُ فِي الرِّسْلِ[1] حَتَّى إِنَّ اللِّقْحَةَ مِنَ الإِبِلِ لَتَكْفِي الْفِئَامَ مِنَ النَّاسِ وَاللِّقْحَةَ مِنَ الْبَقَرِ تَكْفِي الْفَخِذَ[2] وَالشَّاةَ مِنَ الْغَنَمِ تَكْفِي أَهْلَ الْبَيْتِ – قَالَ – فَبَيْنَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رِيحاً طَيِّبَةً تَحْتَ آبَاطِهِمْ فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُسْلِمٍ. [أَوْ قَالَ كُلِّ مُؤْمِنٍ] وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ تَهَارُجَ الْحَمِيرِ وَعَلَيْهِمْ أَوْ قَالَ وَعَلَيْهِ تَقُومُ السَّاعَةُ »[3]

[١٣٦] (**الحديث الثالث**) قال الإمام أحمد : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بِشْرٍ حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ – يَعْنِي ابْنَ عَمْرٍو – حَدَّثَنَا خَالِدُ بْنُ عَمْرٍو عَنِ ابْنِ حَرْمَلَةَ عَنْ خَالَتِهِ قَالَتْ خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَاصِبٌ أُصْبُعَهُ مِنْ لَدْغَةِ عَقْرَبٍ فَقَالَ « إِنَّكُمْ تَقُولُونَ لاَ عَدُوَّ وَإِنَّكُمْ لاَ تَزَالُونَ تُقَاتِلُونَ عَدُوًّا حَتَّى يَأْتِيَ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ عِرَاضُ الْوُجُوهِ صِغَارُ الْعُيُونِ صُهْبُ الشِّعَافِ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الْمَجَانُّ الْمُطْرَقَةُ ».

وكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث محمد بن عمرو عن خالد بن عبد الله بن حرملة المدلجي عن خالة له عن النبي ﷺ فذكره مثله سواء .

---

(١) الرِّسْلِ : أي اللبن النازل من الضرع .

(٢) الْفَخِذَ : أي الجماعة من الأقارب .

(٣) هذا لفظ الإمام أحمد في مسنده وانفرد بإخراجه مسلم : ١٨/٣٨٠ ك/ الفتن وأشراط الساعة ب/ ذكر الدجال وصفته ومن معه ح/ ٢٩٣٧ دون البخاري ورواه مع بقية أهل السنن من طرق عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر به وانظر سنن الترمذي ك/ الفتن عن رسول الله ب/ ما جاء في فتنة الدجال ح/ ٢٢٤٠ وقال الترمذي : حسن صحيح .

[١٣٧] (**الحديث الرابع**) ... رواية الإمام أحمد :حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ أَخْبَرَنَا الْعَوَّامُ عَنْ جَبَلَةَ بْنِ سُحَيْمٍ عَنْ مُؤْثِرِ بْنِ عَفَازَةَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ « **لَقِيتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى – قَالَ – فَتَذَاكَرُوا أَمْرَ السَّاعَةِ فَرَدُّوا أَمْرَهُمْ إِلَى إِبْرَاهِيمَ فَقَالَ لاَ عِلْمَ لِي بِهَا فَرَدُّوا الأَمْرَ إِلَى مُوسَى فَقَالَ لاَ عِلْمَ لِي بِهَا فَرَدُّوا الأَمْرَ إِلَى عِيسَى فَقَالَ أَمَّا وَجْبَتُهَا فَلاَ يَعْلَمُهَا أَحَدٌ إِلاَّ اللَّهُ ذَلِكَ وَفِيمَا عَهِدَ إِلَيَّ رَبِّي ﷻ أَنَّ الدَّجَّالَ خَارِجٌ قَالَ وَمَعِي قَضِيبَيْنِ فَإِذَا رَآنِي ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الرَّصَاصُ – قَالَ – فَيُهْلِكُهُ اللَّهُ حَتَّى إِنَّ الْحَجَرَ وَالشَّجَرَ لَيَقُولُ يَا مُسْلِمُ إِنَّ تَحْتِي كَافِراً فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ – قَالَ – فَيُهْلِكُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ يَرْجِعُ النَّاسُ إِلَى بِلاَدِهِمْ وَأَوْطَانِهِمْ – قَالَ – فَعِنْدَ ذَلِكَ يَخْرُجُ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ فَيَطَئُونَ بِلاَدَهُمْ لاَ يَأْتُونَ عَلَى شَيْءٍ إِلاَّ أَهْلَكُوهُ وَلاَ يَمُرُّونَ عَلَى مَاءٍ إِلاَّ شَرِبُوهُ ثُمَّ يَرْجِعُ النَّاسُ إِلَيَّ فَيَشْكُونَهُمْ فَأَدْعُو اللَّهَ عَلَيْهِمْ فَيُهْلِكُهُمُ اللَّهُ وَيُمِيتُهُمْ حَتَّى تَجْوَى الأَرْضُ مِنْ نَتْنِ رِيحِهِمْ – قَالَ – فَيُنْزِلُ اللَّهُ ﷻ الْمَطَرَ فَتَجْرُفُ أَجْسَادَهُمْ حَتَّى يَقْذِفَهُمْ فِي الْبَحْرِ** ».... « **فَفِيمَا عَهِدَ إِلَيَّ رَبِّي ﷻ أَنَّ ذَلِكَ إِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَإِنَّ السَّاعَةَ كَالْحَامِلِ الْمُتِمِّ الَّتِي لاَ يَدْرِي أَهْلُهَا مَتَى تَفْجَؤُهُمْ بِوِلاَدِهَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً** » ورواه ابن ماجة عن محمد بن بشار عن يزيد بن هارون عن العوام بن حوشب به نحوه وزاد : قال العوام : ووجد تصديق ذلك في كتاب الله ﷻ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

ورواه ابن جرير ههنا من حديث جبلة به والأحاديث في هذا كثيرة جدا والآثار عن السلف كذلك وقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث معمر عن غير واحد عن حميد بن هلال عن أبي الصيف قال : قال كعب : إذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج حفروا حتى يسمع الذين يلونهم قرع فؤوسهم فإذا كان الليل ألقى الله على لسان رجل منهم يقول نجيء غدا فنخرج فيعيده الله كما كان فيجيئون من الغد فيجدونه قد أعاده الله كما كان فيحفرونه حتى يسمع الذين يلونهم قرع فؤوسهم فإذا كان الليل ألقى الله

على لسان رجل منهم يقول : نجيء غدا فنخرج إن شاء الله فيجيئون من الغد فيجدونـه كما تركوه فيحفرون حتى يخرجوا فتمر الزمرة الأولى بالبحيرة فيشربون ماءهـا ثم تمـر الزمرة الثانية فيلحسون طينها ثم تمر الزمرة الثالثة فيقولون : قد كان ههنا مرة ماء فيفـر الناس منهم فلا يقوم لهم شيء ثم يرمون بسهامهم إلى السماء فترجع إليهم مخضبة بالدماء فيقولون : غلبنا أهل الأرض وأهل السماء فيدعو عليهم عيسى ابن مريم عليه السلام فيقول : ((اللهم لا طاقة ولا يد لنا بهم فاكفناهم بما شئت فيسلط الله عليهم دوداً يقال لـه النغـف فيفرس رقابهم ويبعث الله عليهم طيراً تأخذهم بمناقيرها فتلقيهم في البحر ويبعث الله عينـا يقال لها الحياة يطهر الله الأرض وينبتها حتى إن الرمانة ليشبع منها السكن(1) وقيل : ومـا السكن يا كعب ؟ قال : أهل البيت قال : فبينما الناس كذلك إذ أتاهم الصـريخ أن ذا السويقتين يريده قال فيبعث عيسى ابن مريم طليعة سبعمائة أو بين السبعمائة والثمانمائـة حتى إذا كانوا ببعض الطريق بعث الله ريحا يمانية طيبة فيقبض فيها روح كـل مـؤمن ثم يبقى عجاج(2) الناس فيتسافدون كما تتسافد البهائم فمثل الساعة كمثل رجـل يطيـف حول فرسه متى تضع قال كعب : فمن قال بعد قولي هذا شيئا أو بعد علمي هذا شـيئا فهو المتكلف وهذا من أحسن سياقات كعب الأحبار لما شهد له من صحيح الأخبار

وقد ثبت في الحديث أن عيسى ابن مريم يحج البيت العتيق وقال الإمام أحمد : حدثنا سليمان بن داود حدثنا عمران عن قتادة عن عبد الله بن أبي عتبة عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : ((**ليحجن هذا البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج**)) انفرد بإخراجه البخاري وقوله : ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ يعني يوم القيامة إذا حصلت هـذه الأهوال والزلازل والبلابل أزفت الساعة واقتربت فإذا كانت ووقعت قال الكـافرون :

---

(١) سميت هكذا لأنهم يسكنون المنزل ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكناً﴾ فأطلق عليهم ذلك دلالة من مكثهم في بيتهم .

(٢) أي السفهاء .

هذا يوم عسر ولهذا قال تعالى : ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي من شدة ما يشاهدونه من الأمور العظام ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ أي يقولون يا ويلنا ﴿قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ أي في الدنيا ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ يعترفون . اهـ

ذكر القرآن الكريم يأجوج ومأجوج من خلال تعرضه لرحلة ذي القرنين ذلك الملك الصالح الذي مكّن الله له المشارق والمغارب .

قال تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾﴾ [الكهف]

تمهيد :

إن الرجل الصالح دائماً يعمل على رضا الله تعالى في كل أحيانه ساعياً إلى الخير ، باذلاً الجهد والوقت ، داعياً إلى ذلك ، مهتماً بمصالح نفسه ومصالح العباد بغض النظر عن ألوانهم وألسنتهم ، لا يبتغي بذلك عرضاً زائلاً ولا شهرة زائفة ، وإنما كل مراده وعظيم غايته إرضاء الله ونشر الصلاح ، ودفع الفساد ، ونفع العباد ، فلا حرم الله تعالى العباد والبلاد في كل عصر ومصر من أمثال هذا الصنف المبارك ، ومن الأكارم ذو القرنين الرجل الصالح الذي كان يجوب البلاد طولاً وعرضاً وشرقاً وغرباً لمصالح البلاد والعباد وها هو ذا يجد ما حلّ بالقوم من أرق وقلق وخوف وعطب محتمل ويريد القوم أن يبني لهم سداً منيفاً مقابل مال عظيم لكنه يؤثر رضا ربه ويقول لهم : ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾ وقد حدث ما تمناه الناس لما عاونوه على ما أراد

عافاهم الله تعالى من خطر محدِّق وموت محقق : ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ ﴾ [الكهف] أي فتحاً أو خرقاً ويعد هذا الجهد المشكور لم ينسب ذلك العمل إلى نفسه بل قال : ﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ﴾ [الكهف: ٩٨]

[يقول تعالى مخبراً عن ذي القرنين ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ أي : ثم سلك طريقاً من مشارق الأرض ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ ﴾ وهما جبلان متناوحان بينهما ثغرة يخرج منهما يأجوج ومأجوج على بلاد الترك ، فيعثون فيهم فساداً ويهلكون الحرث والنسل ، ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم عليه السلام كما ثبت في الصحيحين

[١٣٨] من حديث أَبِى سَعِيد الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى يَا آدَمُ . فَيَقُولُ لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ . فَيَقُولُ أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ . قَالَ وَمَا بَعْثُ النَّارِ قَالَ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ ، فَعِنْدَهُ يَشِيبُ الصَّغِيرُ ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ، فقال ((إن منكم أمتين ما كانتا في شيء إلا كثرتاه : يأجوج ومأجوج))

وقوله ﴿ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ لاستعجام كلامهم وبعدهم عن الناس ﴿ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا ﴾ قال ابن جريج عن عطاء ، عن ابن عباس : أجراً عظيماً ، يعني أهم أرادوا أن يجمعوا له من بينهم مالاً يعطونه إياه ، حتى يجعل بينه وبينهم سداً ، فقال ذو القرنين بعفة وديانة ، وصلاح وقصد للخير: ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ ﴾ أي : إن الذي أعطاني الله من الملك والتمكن خير لي من الذي تجمعونه ، كما قال سليمان عليه السلام : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [النمل]

وهكذا قال ذو القرنين : الذي أنا فيه خير من الذي تبذلونه ولكن ساعدوني ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي بعملكم وآلات البناء ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ والزبر : جمع زبرة . وهي القطعة منه . ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ أي وضع بعضها على بعض من الأساس ، حتى إذا حاز به رءوس الجبلين طولاً وعرضاً ...﴿قَالَ انفُخُوا﴾ أي : أجج عليه النار حتى صار كله ناراً ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ يقول تعالى مخبراً عن يأجوج ومأجوج : إنهم ما قدروا على نقبه من أسفله ، ولما كان الظهور عليه أسهل من نقبه ، قابل كلا بما يناسبه ، فقال : ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ وهذا دليل على أنهم لم يقدروا على نقبه ، ولا على شيء منه . اهـ [1]

هذا وللعلم فإن يأجوج ومأجوج يحاولون خرق هذا السد مراراً حتى يصلوا إلى هدفهم المنشود عندما يتم قدر الله فيهم .

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء]

---

(١) انظر مختصر ابن كثير : ١/٨٠٧، ٨٠٨ اختصار د/ عبد الحميد هنداوي .

شرح الكلمات :

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ : أي من الأوثان والأصنام .

﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ : أي ما توقد به جهنم .

﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً﴾ : أي الأوثان التي يعبدها المشركون من قريش .

﴿مَّا وَرَدُوهَا﴾ : أي لحالوا بين عابديهم ودخول النار لأنهم آلهة قادرون على ذلك ولكنهم ليسوا آلهة حق فلذا لا يمنعون عابديهم من دخول النار .

﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ : أي العابدون من الناس والمعبودون من الشياطين والأوثان

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ : أي لأهل النار فيها أنين وتنفس شديد وهو الزفير .

﴿سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ : أي كتب الله تعالى أزلاً أنهم أهل الجنة .

﴿حَسِيسَهَا﴾ : أي حِسّ صوتها .

﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ : أي عند النفخة الثانية نفخة البعث فإنهم يقومون من قبورهم آمنين غير خائفين .

﴿كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ : أي يطوي الجبار سبحانه وتعالى السماء طيّ الورقة لتدخل في الظرف .

﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ : أي يعيد الله الخلائق كما بدأهم أول مرة فيبعث الناس من قبورهم حفاة عراة غرلا ، كما ولدوا لم ينقص منهم شيء .

معنى الآيات :

يقول تعالى لمشركين الذين بدأت السورة الكريمة بالحديث عنهم ، وهم مشركوا قريش يقول لهم مُوعداً : ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من أصنام

وأوثان ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أي ستكونون أنتم وما تعبدون من أصنام وقوداً لجهنم التي أنتم واردوها لا محالة ، وقوله تعالى : ﴿لَوْكَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً﴾ لو كان هؤلاء التماثيل من الأحجار التي يعبدها المشركون لو كانوا آلهة حقاً ما ورد النار عابدوها لأنهم يخلصونهم منها ولما ورد النار المشركون ودخلوها دل ذلك على أن آلهتهم كانت آلهة باطلة لا تستحق العبادة بحال . وقوله تعالى : ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي المعبودات الباطلة وعابدوها الكل في جهنم خالدون . وقوله : ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ يخبر تعالى أن للمشركين في النار زفيراً وهو الأنين الشديد من شدة العذاب وأنهم فيها لا يسمعون لكثرة الأنين وشدة الأصوات وفظاعة ألوان العذاب وقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ نزلت هذه الآية رداً على ابن الزِّبَعْرَى عندما قال إن كان ما يقوله محمد حقاً بأننا وآلهتنا في جهنم فإن الملائكة معنا في جهنم لأننا نعبدهم ، وأن عيسى والعزيز في جهنم لأن اليهود عبدوا العزيز والنصارى عبدوا المسيح ، فأخبر تعالى أن من عبد بغير رضاه بذلك وكانا يعبدنا ويتقرب إلينا بالطاعات فهو ممن سبقت لهم منا الحسنى بأنهم من أهل الجنة هؤلاء عنها أي عن جهنم مبعدون ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ أي حس صوتها وهم في الجنة ولهم فيها ما يشتهون خالدون ، لا يحزنهم الفزع الأكبر عند قيامهم من قبورهم بل هم آمنون ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ عند القيام من قبورهم بالتحية والتهنئة قائلة

لهم : ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ وقولـه تعـالى : ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ﴾ أي يتم لهم ذلك يوم يطوي الجبار جل جلاله السـماء بيمينـه ﴿كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ﴾ أي الصحيفة للكتب .

وذلك يوم القيامة حيث تبدل الرض غير الأرض والسموات غير السـموات .

وقوله تعالى : ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ أي يعيد الإنسان كما بدأ خلقه فيخرج الناس من قبورهم حفاتـة عـراة غـرلا . وقولـه : ﴿وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أي وعدنا بإعادة الخلق بعد فنائهم وبلاهم وعداً ، إنا كنـا فـاعلين فأنجزنا ما وعدنا ، وإنا على ذلك لقادرون .

من هداية الآيات

١- تقرير التوحيد والنبوة والبعث والجزاء .

٢- من عبد من دون الله بأمره أو برضاه سيكون ومن عَبَده وقوداً لجهنم ومن لم يأمر و لم يرض فلا يدخل النار مع من عبده بل العابد له وحده في النار .

٣- بيان عظمة الله وقدرته إذ يطوي السماء بيمينه ، والأرض في قبضته يوم القيامة .

٤- بعث الناس حفاة عراة غرلا لم يترع منهم شيء ولا غلفة الذكر إنجـاز الله وعده في قوله : ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأعراف] فسبحان الواحد القهار العزيـز الجبار [1]

إن هذه الأهوال السالفة تنتظر كل جبار عنيد مناع للخير معتد أثيم ، لا شك أن كل من يسمع ويتلو هذه الآيات ويستحضر بذهنه تلك الصور الكائنة بنفس الحقائق

(١) انظر تفسير الجزائري : ٤٠٦/٢ لسورة الأنبياء الآيات (٩٨ – ١٠٤) .

القرآنية التي وصفتها وبكل دقة فلا بد أن يبحث له عن طريق للخلاص ، وطريق الخلاص هو الإيمان بمعناه الحقيقي التطبيقي ، وما فيه من صفات وثمرات وأجور :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ ﴾ [البقرة] هؤلاء الذين اقتدوا وتأسوا بالأنبياء والرسل رفع الله عنهم الخوف والهلع والفزع : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنبياء] .

سُورَةُ الحج

﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحج]

شرح الكلمات :

﴿خَصْمَانِ﴾ : خصم مؤمن وخصم كافر كل واحد يريد أن يخصم صاحبه .

﴿ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ : أي في دينه .

﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ﴾ : أي فصلت لهم ثياب على قدر أجسامهم .

﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ﴾ : أي يذاب بالحميم وهوالماء الحار من شحوم وغيرها

﴿مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ : جمع مقمعة وهى آلة من حديد كالمحن .

﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ : أي يقال لهم توبيخاً وتقريعاً : ذوقوا عذاب النار .

المعنى العام :

قوله تعالى : ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ الخصم الأول المسلمون والثاني أهل الشرك والكفر ﴿ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ أي في دينه تعالى كل خصم يدعي أنه على الدين الحق ، وماتوا على ذلك وفصل الله تعالى بينهم يوم القيامة ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وهم أهل الدين الباطل أدخلوا النار وفصلت لهم ثياب من نار ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ أي الماء الحار المنتهي في الحرارة ، ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾﴾ من لحم وشحم ،

﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾﴾ يضربون بها و ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا﴾ أي من النار بسبب ما ينالهم من غم عظيم ﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ أي تجبرهم الزبانية على العودة إليها ولم تمكنهم من الخروج منها، ويقولون لهم: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي لا تخرجوا منها وذوقوا عذاب الحريق. فهذا جزاء الخصم الكافر. اهـ (١)

[١٣٩] وقد قال أبو داود في المراسيل: حدثنا أحمد بن عمرو بن السَّرح، أنبأنا ابن وَهْب، أخبرني معاوية بن صالح، عن عامر بن جَشِب، عن خالد بن مَعْدان؛ أن رسول الله ﷺ قال: ((فُضِّلت سورة الحج على القرآن بسجدتين)).

ثم قال أبو داود: وقد أسندَ هذا، يعني: من غير هذا الوجه، ولا يصح.

وقال الحافظ أبو بكر الإسماعيلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حدثنا ابن أبي داود، حدثنا يزيد بن عبد الله، حدثنا الوليد، حدثنا أبو عمرو، حدثنا حفص بن عنان، حدثني نافع، حدثني أبو الجهم: أن عمر سجد سجدتين في الحج، وهو بالجابية، وقال: إن هذه فضلت بسجدتين(٢).

[١٤٠] وروى أبو داود وابن ماجة، من حديث الحارث بن سعيد العُتَقِيّ، عن عبد الله بن مُنَين، عن عمرو بن العاص؛ أن رسول الله ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن، منها ثلاث في المُفَصَّل، وفي سورة الحج سجدتان(٣). فهذه شواهد يَشُدّ بعضها بعضاً

ثبت في الصحيحين، من حديث أبي مِجْلَز، عن قيس بن عُبَاد، عن أبي ذر؛ أنه كان يقسم قسما أن هذه الآية: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ﴾ نزلت في حمزة وصاحِبَيه، وعتبةَ وصاحبيه، يوم برزوا في بدر (١).

---

(١) انظر تفسير الجزائري: ٤١٨/٢ تفسير سورة الحج الآيات (١٩ – ٢٢) ط/ دار الحديث.

(٢) ورواه البيهقي في السنن الكبرى (٣١٧/٢) من طريق نافع عن رجل من أهل مصر أنه صلى مع عمر بن الخطاب فذكر مثله.

(٣) سنن أبي داود برقم (١٤٠١) وسنن ابن ماجه برقم (١٠٥٧).

لفظ البخاري عند تفسيرها، ثم قال البخاري: حدثنا الحجاج بن مِنْهَال، حدثنا المعتمر بن سليمان، سمعت أبي، حدثنا أبو مِجْلز عن قيس بن عُبَاد، عن علي بن أبي طالب أنــه قال: أنا أول من يَجثُو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة. قال قيس: وفيهم نزلــت: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ ، قال: هم الذين بارزوا يوم بدر: علــيّ وحمــزة وعبيدة، وشيبة ابن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة. انفرد به البخاري (٢).

وقال سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة في قولــه: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ قال: اختصم المسلمون وأهل الكتاب، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبــل كتابكم. فنحن أولى بالله

﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحج]

[إنه مشهد عنيف صاخب ، حافل بالحركة ، مطوّل بالتخييل الذي يبعثه في الــنفس نسق التعبير ، فلا يكاد الخيال ينتهي من تتبعه في تجدُّده .. هذه ثياب من النــار تقطــع وتفصل! وهذا حميم ساخن يصب من فوق الرؤوس ، يصهر به ما في البطون والجلود عند صبه على الرؤوس! وهذه سياط من حديد أحمته النار .اهــ (٣)

(١) صحيح البخاري برقم (٤٧٤٣) وصحيح مسلم برقم (٣٠٣٣).

(٢) صحيح البخاري برقم (٤٧٤٤).

(٣) انظر الظلال :٤/ ٢٤١٥ في ظلال سورة الحج الآيات (١٩ -٢٣) .

﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ
مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ
﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ
يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ
فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ
ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ﴾

[ذكر المفسرون في سبب نزول قوله ﷻ : ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾ روايات أشار الإمام ابن كثير إلى معظمها فقال : " ثبت في الصحيحين عن أبي ذر : أنه كان يقسم قسماً أن هذه الآية ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾ نزلت في حمزة وصاحبيه . وعتبة وصاحبيه ، يوم برزوا في بدر .

وعن قتادة قال : اختصم المسلمون وأهل الكتاب ، فقال أهل الكتاب : نبينا قبل نبيكم ، وكتابنا قبل كتابكم ، فنحن أولى بالله منكم ، وقال المسلمون : كتابنا يقضي على الكتب كلها ، ونبينا خاتم الأنبياء ، فنحن أولى بالله منكم ، فأفلج الله الإسلام على من ناوأه - أي فنصر الله الإسلام - ، وأنزل الآية .

وعن مجاهد في الآية : مثل الكافر والمؤمن اختصما في البعث .

وهذا القول يشمل الأقوال كلها ، وينتظم فيه قصة بدر وغيرها ، فإن المؤمنين يريدون نصرة دين الله ، والكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان .

أي : هذا خصمان اختصموا في ذات ربهم وفى صفاته ، بأن اعتقد كل فريق منهم أنه على الحق ، وأن خصمه على الباطل .

قال الجمل : والخصم في الأصل مصدر ولذلك يوحد ويذكر غالبا ، وعليه قوله - تعالى - : ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ ﴾ [ص] ويجوز أن يثنى

ويؤنث ، ولما كان كل خصم فريقا يجمع طوائف قال : ﴿ٱخۡتَصَمُواْ﴾ بصيغة الجمع كقوله ﷻ: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ ﴾ [الحجرات: ٩] فالجمع مراعاة للمعنى .

وقوله ﷻ: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ ﴾ تفصيل وبيان لحال كل خصم وفريق .

أي : فالذين كفروا جزاؤهم أنهم قطع الله ﷻ لهم من النار ثيابا ، وألبسهم إياها .

قال الآلوسي : أي أعد الله لهم ذلك ، وكأنه شبه إعداد[1] النار المحيطة بهم بتقطيع ثياب وتفصيلها لهم على قدر جثثهم .... وعبر بالماضي ، لأن الإعداد قد وقع ، فليس من التعبير بالماضي لتحققه...وقوله : ﴿يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ﴾ زيادة في عذابهم ، أي : لم تقطع لهم ثياب من نار فحسب ، وإنما زيادة على ذلك يصب من فوق رءوسهم

﴿ٱلۡحَمِيمُ﴾ أي : الماء البالغ أقصى درجات الشدة في الحرارة .

وقوله : ﴿ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ﴾ بيان للآثار التي تترتب على هذا العذاب والفعل ﴿ يُصۡهَرُ﴾ مأخوذ من الصهر بمعنى الإذابة . يقال : صهر فلان الشحم يصهره إذا أذابه

أي : فذلك الحميم الذي يصب من فوق رءوسهم من آثاره أنه يذاب به ما بطونهم من الشحوم والأحشاء . كما تذاب به جلودهم – أيضا – فقوله : ﴿وَٱلۡجُلُودُ ﴾ عطف على ﴿مَا﴾ الموصولة في قوله ﴿مَا فِي بُطُونِهِمۡ﴾ أي : يذاب به الذي في بطونهم وتذاب به أيضا جلودهم .

---

(١) الأمر على أصله و إلا فلماذا قال ﷻ : ﴿ سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار ﴾ ومهما أمكن من شيء فلا ينبغي العدول عن حقيقة التنزيل إلا بدليل واضح الدلالة وقرينة بينة .

وقيل : إن لفظ الجلود مرفوع بفعل محذوف معطوف على ﴿ يُصْهَرُ ﴾ .

والتقدير : يصهر به ما في بطونهم من أحشاء وشحوم ، وتحرق به الجلود . قالوا : ذلك لأن الجلود لا تذاب وإنما تنقبض وتنكمش إذا أصليت بالنار .

والضمير في قوله ﷻ : ﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾﴾ يعود إلى الكفرة المعذبين بهذا الحميم الذي تصهر به البطون .

﴿مَّقَامِعُ﴾ : جمع مقمعة – بكسر الميم وسكون القاف وفتح الميم الثانية – ، وهي آلة تستعمل في القمع عن الشيء ، والزجر عنه ، يقال : قمع فلان فلانا إذا قهره وأذله .

أي : وخصصت لهؤلاء الكافرين مضارب من حديد تضربهم بها الملائكة على رءوسهم زيادة في إذلالهم وقهرهم .

وقيل : إن الضمير في ﴿وَلَهُم﴾ يعود على خزنة النار . أي : ولخزنة النار مضارب من حديد يضربون بها هؤلاء الكافرين .

وعلى كلا القولين فالآية الكريمة تصور هوان هؤلاء الكافرين أكمل تصوير .

وقوله ﷻ : ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ بيان لما يقابلون به عندما يريدون التزحزح عن النار .

أي : كلما أراد هؤلاء الكافرون أن يخرجوا من النار ومن غمها وكربها وسعيرها : أعيدوا فيها مرة أخرى ، كما قال – تعالى – : ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ [المائدة] وقوله ﷻ : ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ مفعول لقول محذوف أي : أعيدوا فيها وقيل لهم على لسان خزنة النار : ذوقوا العذاب المحرق لأبدانكم .

هذا هو حال فريق الكافرين . وهو حال يزلزل القلوب ويرهب المشاعر ، ويفزع النفوس

ولكن القرآن كعادته في قرن الترهيب بالترغيب . لا يترك النفوس في هذا الفزع ، بل يتبع ذلك بما يمسح عنها خوفها ورعبها عن طريق بيان حسن حال المـــؤمنين فيقـــول :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

وغير ﷻ الأسلوب فلم يقل : والذين آمنوا على سبيل العطف على الذين كفروا . . . تعظيم لشأن المؤمنين ، وإشعار بمباينة حالهم لحال خصمائهم الكافرين .

أي : إن الله ﷻ بفضله وإحسانه يدخل عباده الذين آمنوا وعملوا في دنياهم الأعمال الصالحات ، جنات عاليات تجري من تحت أشجارها وثمارها الأنهار .

وقوله ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ بيان لما ينالون في تلك الجنات من خير وفير ، وعطاء جزيل .

أي : يتزينون في تلك الجنات بأساور كائنة من الذهب الخالص ، ومن اللؤلؤ الثمين ، أما لباسهم الدائم فيها فهو من الحرير الناعم الفاخر .

قال الآلوسي : وقوله ﷻ : ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ غير الأسلوب حيث لم يقل ويلبسون فيها حريراً ، للإيذان بأن ثبوت اللباس لهم أمر محقق غني عن البيان . . . ثم إن الظاهر أن هذا الحكم عام في كل أهل الجنة ، وقيل هو باعتبار الأغلب ، لمـــا أخرجـــه النسائي وابن حبان وغيرهما عن أبي سعيد

[من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة . وإن دخل الجنة لبسه أهل الجنة ولم يلبسه " قالوا : ومحله فيمن مات مصرا على ذلك .

وقوله ﷻ : ﴿ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ﴾ بيان لحسن خاتمتهم ، ولعظم النعم التي أنعم الله بها عليهم .

أي : وهدى الله ﷻ هؤلاء المؤمنين إلى القول الطيب الذي يرضى الله ﷻ عنهم ، كأن يقولون عند دخولهم الجنة : ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ﴿٣٥﴾ ﴾

وهداهم - أيضا - خالقهم إلى الصراط المحمود ، وهو صراط الذين أنعم الله عليهم بنعمة الإيمان والإسلام ، فصاروا بسبب هذه النعمة يقولون الأقوال الطيبة ، ويفعلون الأفعال الحميدة .

قال الشوكاني : قوله : ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ ﴾ أي : أرشدوا إليه . قيل : هو لا إله إلا الله . وقيل : القرآن . وقيل : هو ما يأتيهم من الله من بشارات . وقد ورد في القرآن ما يدل على هذا القول المجمل هنا ، وهو قوله ﷻ : ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ ﴾ الزمر: ٧٤ ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا ﴾ [الأعراف: ٤٣] ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَ ﴾[فاطر: ٣٤] ومعنى : ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحج] أنهم أرشدوا إلى الصراط المحمود وهو طريق الجنة ، أو صراط الله الذي هو دينه القويم وهو الإسلام . اهـ

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ۞ ذَٰلِكَۖ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾ [الحج]

شرح الكلمات :

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ : أي هجروا ديار الكفر وذهبوا الى دار الإيمان المدينة المنورة .

﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ : أي هجروا ديارهم لا لدنيا ولكن ليعبدوا الله وينصروا دينه وأولياءه

﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ﴾ : أي في الجنة إذ أرواحهم ي حواصل طير خضر ترعى في الجنة .

﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥۗ﴾ : أي الجنة يوم القيامة .

﴿ذَٰلِكَۖ﴾: أي الأمر ذلك المذكور فاذكروه ولا تنسوه .

معنى الآيات :

ما زال السياق الكريم في بيان حكم الله تعالى بين عباده فذكر تعالى ما حكم به لأهل الإيمان والعمل الصالح وما حكم به لأهل الكفر والتكذيب ، وذكر هنا ما حكم به لأهل الهجرة والجهاد فقال عز وجل : ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي خرجوا من ديارهم لأجل طاعة الله ونصرة دينه ﴿ثُمَّ قُتِلُوٓاْ﴾ من قبلِ أعداء الله المشركين ﴿أَوْ مَاتُواْ﴾ حتف أنوفهم بدون قتل ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ﴾ في الجنة إذا أرواحهم في حواصل طير خضر ترعى في الجنة وتأوي إلى قناديل معلقة في العرش ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم﴾ يوم القيامة ﴿مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥۗ﴾ وهو الجنة ، وقوله تعالى :﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ

﴿ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أي لخير من يرزق فما رزقهم به هو خير زرق وأطيبه وأوسعه . وقوله : ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ عليم بعباده وبأعمالهم الظاهرة والباطنة حليم يعفو ويصفح عن بعض زلات عباده المؤمنين فيغفرها ويسترها عليهم إذ لا يخلو العبد من ذنب إلا من عصمهم الله من أنبيائه ورسله (١).

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ الحج: ٧٢ - ٧٥

شرح الكلمات :

﴿مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ﴾ : الرسول ذكر من بني آدم أوحي إليه بشرع وأمر بإبلاغه والنبي مقرر لشرع من قبله .

﴿تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ : أي قرأ في أمنيته ، أي في قراءته .

﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ : أي بعد إزالة ما ألقاه الشيطان في القراءة يحكم الله آياته أي يثبتها .

﴿فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ : أي اختباراً للذين في قلوبهم مرض الشرك والشك

---

(١) انظر تفسير الجزائري : ٤٣٥/٢ ، ٤٣٦ لسورة الحج الآيات (٥٨ – ٦٠) .

﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ : هم المشركون .

﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ : أي تتطامن وتخشع له قلوبهم .

﴿فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ : أي في شك منه وريب من القرآن .

﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ : هو عذاب يوم بدر إذ كان يوماً عقيماً لا خير فيه .

﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ : أي جنات ذات نعيم لا يبلغ الوصف مداه .

﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ : أي يهان فيه صاحبه فهو عذاب جثماني نفساني .

معنى الآيات : بعد التسلية الأولى للنبي ﷺ الـتي تضـمنها قولـه تعـالى : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ.....﴾ ذكر تعالى تسلية ثانية وهي أنـه ﷺ كان يقرأ حول الكعبة في صلاته سورة النجم والمشركون حول الكعبة يسمعون فلما بلغ قوله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ ﴾ [النجم] ألقـى الشيطان في مسامع المشركين الكلمات التالية : « تلك الغرانيق العـلا ، وإن شـفاعتهم لترتجى » ففرح المشركون بما سمعوا ظناً منهم أن يقدر على السجود فأخذ حثية من تراب وسجد عليها وشاع أن محمداً قد اصطلح مع قومه حتى رجع المهاجرون مـن الحبشـة فكرب لذلك رسول الله وحزن فأنزل الله تعالى هذه الآية تسلية له فقال : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾ ذي رسالة يبلغها ولا نبيّ مقرر لرسالة نبي قبله ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ أي قرأ ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ أي في قراءته ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ﴾ أي يزيل ويبطل ﴿مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ من كلمات في قلوب الكافرين أوليائـه ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ بعد إزالة ما قاله الشيطان فيثبتها فلا تقبل زيادة ولا نقصانا ، والله عليم بخلقه وأحـوالهم وأعمالهم لا يخفى عليه شيء من ذلك حكيم في تدبيره وشرعه هذه سنته تعالى في رسـله

وأنبيائه ، فلا تأس يا رسول الله ولا تحزن ثم بين تعالى الحكمة في هذه السنة فقال : ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ أي من كلمات في قراءة النبي أو الرسول ﴿فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ الشك والنفاق ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ وهم المشركون ومعنى فتنة هنا محنة يزدادون بها ضلالاً على ضلالهم وبُعداً عن الحق فوق بعدهم إذ ما يلقى الشيطان في قلوب أوليائه إلا للفتنة أي زيادة في الكفر والضلال . وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ هو إخبار منه تعالى عن حال المشركين بأنهم في خلاف لله ورسوله ، بعيدون فيما يعتقدونه وما يعملونه وما يقولونه ، وما يتصورونه مخالف تمام المخالفة لما يأمر تعالى به ويدعوهم إليه من الاعتقاد والقول والعمل والتصور والإدراك .

وقوله تعالى : ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ﴾ هذا جزء العلة التي تضمنتها سنة الله في إلقاء الشيطان في قراءة الرسول أو النبي فالجزء الأول تضمنه قوله تعالى : ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ وهذا هو الجزء الثاني أي ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ بالله وآياته وتدبيره ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ أي ذلك الإلقاء والنسخ وإحكام الآيات بعده ﴿فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي تطمئن وتسكن عنده وتخشع فيزدادون هدى . وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ هذا إخبار منه تعالى عن فعله مع أوليائه المؤمنين به المتقين له وأنه هاديهم في حياتهم وفي كل أحوالهم إلى صراط مستقيم يفضي بهم إلى رضاه وجنته ، وذلك بحمايتهم من الشيطان وتوفيقهم وإعانتهم على طاعة الرحمن ﷻ . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ﴾ أي من القرآن هل هو كلام الله هل هو حق هل اتباعه نافع وتستمر هذه المرية

والشك بأولئك القساة القلوب أصحاب الشقاق البعيـد ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أي فجأة وهي القيامة ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ أي لا خير فيه لهم وهو يـوم بدر وقد تم لهم ذلك وعندها زالت ريبتهم وعلموا أنه الحق حيث لا ينفع العلم .

وقوله تعالى : ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ أي يوم تأتي الساعة يتمحض الملك لله وحده فلا يملك معه أحد فهو الحاكم العدل الحق يحكم بين عباده بما ذكر في الآية وهو أن الذين آمنوا به وبرسوله وبما جاء به وعملوا الصالحات من فرائض ونوافل بعد تخليهم عن الشرك والمعاصي يدخلهم جنات النعيم ، والذين كفروا به وبرسوله وبما جـاء به ، وكذبوا بآيات الله المتضمنة شرائعه وبيان طاعاته فلـم يؤمنـوا و لم يعملـوا الصالحات وعملوا العكس وهون السيئات فأولئك البعداء في الحطة والخسـة لهـم عذاب مهين يكسر أنوفهم ذلة لهم ومهانة لأنفسهم .

من هداية الآيات :

١- بيان سنة الله في إلقاء الشيطان في قراءة الرسول أو النبي للفتنة .

٢- بيان أن الفتنة يهلك فيها مرضى القلوب وقساها ، ويخرج منها المؤمنـون أكثـر يقيناً وأعظم هدىً .

٣- بيان حكم الله تعالى بين عباده يوم القيامة بإكرام أهل الإيمان والتقوى وإهانة أهل الشرك والمعاصي .

٤- ظهور مصداق ما أخبر به تعالى عن مجرمي قريش فقد استمروا على ريبهم حـتى هلكوا في بدر .[1]

---

(١) انظر تفسير الجزائري : ٤٣٥/٢ لسورة الحج الآيات (٥٢-٥٧) .

سورة المؤمنون

بين يدي السورة الكريمة :

هذه سورة « المؤمنون » . . اسمها يدل عليها . ويحدد موضوعها . . فهي تبدأ بصفة المؤمنين ، ثم يستطرد السياق فيها إلى دلائل الإيمان في الأنفس والآفـاق . ثم إلى حقيقـة الإيمان كما عرضها رسل الله صلوات الله عليهم من لدن نوح عليه السلام إلى محمد خاتم الرسل والنبيين؛ وشبهات المكذبين حول هذه الحقيقة واعتراضاهم عليها ، ووقوفهم في وجهها ، حتى يستنصر الرسل برهم ، فيهلك المكذبين ، وينجـي المـؤمنين . . ثم يسـتطرد إلى اختلاف الناس بعد الرسل في تلك الحقيقة الواحدة التي لا تتعدد . . ومن هنا يتحدث عن موقف المشركين من الرسول ﷺ ويستنكر هذا الموقف الذي ليس له مـبرر . . وتنتـهي السورة بمشهد من مشاهد القيامة يلقون فيه عاقبة التكذيب ، ويؤنبون على ذلك الموقف المريب ، يختم بتعقيب يقرر التوحيد المطلق والتوجه إلى الله بطلب الرحمة والغفران . .

فهي سورة « المؤمنون » أو هي سورة الإيمان ، بكل قضاياه ودلائله وصفاته . وهـو موضوع السورة ومحورها الأصيل .

ويمضي سياق السورة في أربعة أشواط :

يبدأ الشوط الأول بتقرير الفلاح للمؤمنين : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ . . ويـبين صفات المؤمنين هؤلاء الذين كتب لهم الفلاح . . ويثني بدلائل الإيمان في الأنفس والآفاق ، فيعرض أطوار الحياة الإنسانية منذ نشأها الأولى إلى هايتها في الحياة الدنيا متوسـعاً في عرض أطوار الجنين ، مجملاً في عرض المراحل الأخرى . . ثم يتابع خط الحياة البشرية إلى البعث يوم القيامة . . وبعد ذلك ينتقل من الحياة الإنسانية إلى الدلائل الكونية : في خلق

السماء ، وفي إنزال الماء ، وفي إنبات الزرع والثمار . ثم إلى الأنعام المسخرة للإنسان؛ والفلك التي يحمل عليها وعلى الحيوان .

فأما الشوط الثاني فينتقل من دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق إلى حقيقة الإيمان . حقيقته الواحدة التي توافق عليها الرسل دون استثناء : ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ قالها نوح ﷺ وقالها كل من جاء بعده من الرسل ، حتى انتهت إلى محمد ﷺ وكان اعتراض المكذبين دائماً : ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً ﴾ وكان اعتراضهم كذلك : ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ وكانت العاقبة دائماً أن يلجأ الرسل إلى ربهم يطلبون نصره ، وأن يستجيب الله لرسله ، فيهلك المكذبين . .

وينتهي الشوط بنداء للرسل جميعاً : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾

والشوط الثالث يتحدث عن تفرق الناس بعد الرسل وتنازعهم حول تلك الحقيقة الواحدة . التي جاءوا بها : ﴿ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ وعن غفلتهم عن ابتلاء الله لهم بالنعمة ، واغترارهم بما هم فيه من متاع . بينما المؤمنون مشفقون من خشية ربهم ، يعبدونه ولا يشركون به ، وهم مع ذلك دائمو الخوف والحذر ﴿ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ وهنا يرسم مشهداً لأولئك الغافلين المغرورين يوم يأخذهم العذاب فإذا هم يجأرون؛ فيأخذهم التوبيخ والتأنيب : ﴿ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ ويستنكر السياق موقفهم العجيب من رسولهم الأمين ، وهم يعرفونه

ولا ينكرونه؛ وقد جاءهم بالحق لا يسألهم عليه أجراً . فماذا ينكرون منه ومن الحق الذي جاءهم به؟ وهم يسلمون بملكية الله لمن في السماوات والأرض ، وربوبيته للسماوات والأرض ، وسيطرته على كل شيء في السماوات والأرض . وبعد هذا التسليم هم ينكرون البعث ، ويزعمون لله ولداً سبحانه! ويشركون به آلهة أخرى ﴿ فَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

والشوط الأخير يدعهم وشركهم وزعمهم؛ ويتوجه بالخطاب إلى رسول الله ﷺ أن يدفع السيئة بالتي هي أحسن ، وأن يستعيذ بالله من الشياطين ، فلا يغضب ولا يضيق صدره بما يقولون . . وإلى جوار هذا مشهد من مشاهد القيامة يصور ما ينتظرهم هناك من عذاب ومهانة وتأنيب . . وتختم السورة بتنزيه الله ﷻ : ﴿ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾ وبنفي الفلاح عن الكافرين في مقابل تقرير الفلاح في أول السورة للمؤمنين : ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ وبالتوجه إلى الله طلباً للرحمة والغفران : ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ جو السورة كلها هو جو البيان والتقرير ، وجو الجدل الهادئ ، والمنطق الوجداني ، واللمسات الموحية للفكر والضمير . والظل الذي يغلب عليها هو الظل الذي يلقيه موضوعها . . الإيمان . . ففي مطلعها مشهد الخشوع في الصلاة :﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ﴿٢﴾ ﴾ . وفي صفات المؤمنين في وسطها : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ

رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ وفي اللمسـات الوجدانيـة : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ وكلها مظلّلة بذلك الظل الإيماني اللطيف .اهـ (١)

أحاديث عن جنة الفردوس :

١ - علو الهمة في سؤال الله تعالى الفردوس الأعلى : -

إن القرآن يدعوننا إلى السبق دائماً ، وغلى التنافس كما تدعونا السـنة المطهـرة إلى ذلك ، وهذا من قبيل قوله تعالى : ﴿ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ ﴾ [البقـرة: ١٤٨] وقوله تعالى : ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحديد]

وقال تعالى : ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران]

وعلى هذا المنهج القرآن يدعوك إن استطعت أن لا يسبقك إلى الله سـابق فافعـل ، والسنة المطهرة أيضاً فيها ثراء عريض في هذا الميدان ميدان المتسابقين بل كان ﷺ يـربي الصحب الكرام على معالي الأمور والسبق الدائم .

[١٤٠] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ آمَنَ بِاللَّـهِ وَبِرَسُـولِهِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَصَامَ رَمَضَانَ ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ جَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا » . فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا نُبَشِّرُ النَّاسَ . قَالَ « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ

---

(١) انظر الظلال : ٤/ ٢٤٥٢ ، ٢٤٥٣ في ظلال سورة المؤمنون .

، أُرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ » . قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ فُلَيْحٍ عَنْ أَبِيهِ « وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ » (١)

٢ - سكنى الفردوس الأعلى الآن أمر قائم لمن يستحق : -

[١٤١] عن أَنَسُ بْنُ مَالِك أَنَّ أُمَّ الرُّبَيِّعِ بِنْتَ الْبَرَاءِ وَهْيَ أُمُّ حَارِثَةَ بْنِ سُرَاقَةَ أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، أَلاَ تُحَدِّثُنِي عَنْ حَارِثَةَ وَكَانَ قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ أَصَابَهُ سَهْمٌ غَرْبٌ ، فَإِنْ كَانَ فِي الْجَنَّةِ ، صَبَرْتُ ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ اجْتَهَدْتُ عَلَيْهِ فِي الْبُكَاءِ . قَالَ « يَا أُمَّ حَارِثَةَ ، إِنَّهَا جِنَانٌ فِي الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ ابْنَكِ أَصَابَ الْفِرْدَوْسَ الأَعْلَى » (٢)

قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ في الفتح : قوله ((أَصَابَهُ سَهْمٌ غَرْبٌ)) أي لا يعرف راميه ولا يعرف من أين أتى أو جاء على غير قصد راميه قاله أبو عبيد وغيره .

ورثة الفردوس وخصائصهم :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [المؤمنون]

---

(١) البخاري ك/ الجهاد والسير ب/ درجات المجاهدين في سبيل الله ح/ ٢٧٩٠ .

(٢) البخاري ك/ الجهاد والسير ب/ من أتاه سهم غرب فقتله ح/ ٢٨٠٩

معاني الكلمات :

﴿أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ سعدوا ، أو بقيت لهم أعمالهم ، أو بقوا في الجنة ، الفلاح : البقاء ، أو أدركوا ما طلبوا ، ونجوا من شر ما منه هربوا ﴿ٱللَّغۡوِ﴾ الباطل ... أو الكذب ، أو الحلف ، أو الشتم شتمهم كفار مكة فنهوا عن إجابتهم ، أو المعاصي كلها .

﴿ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾ قال الرسول ﷺ : « **ما منكم من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار ، فإن دخل النار ورث أهل الجنة منزله ، وإن دخل الجنة ورث أهل النار منزلــه فذلك قوله** ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ١٠﴾ » .

﴿ٱلۡفِرۡدَوۡسَ﴾ اسم للجنة ... أو أعلى الجنان ، أو جبل الجنة الذي تنفجر منه أنهارها ، أو البستان رومي عُرِّب ، قاله الزجاج . أو عربي وهو الكرم . اهـ

المعنى العام :

﴿خَٰشِعُونَ﴾ خائفون ، أو خاضعون ، أو ساكنون ، أو غض البصر وخفض الجناح ، أو النظر إلى موضع السجود ، وأن لا يجاوز بصره مصلاه .

هذا تنويه من الله، بذكر عباده المؤمنين، وذكر فلاحهم وسـعادتهم، وبـأي: شـيء وصلوا إلى ذلك، وفي ضمن ذلك، الحث على الاتصاف بصفاتهم، والترغيب فيها. فليزن العبد نفسه وغيره على هذه الآيات، يعرف بذلك ما معه وما مع غيره من الإيمان، زيـادة ونقصا، كثرة وقلة، فقوله ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١﴾ أي: قد فازوا وسعدوا ونجحـوا، وأدركوا كل ما يرام المؤمنون الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين الذين من صفاتهم الكاملة أنهم ﴿فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾

والخشوع في الصلاة : هو حضور القلب بين يدي الله تعـالى، مستحضـرا لقربـه، فيسكن لذلك قلبه، وتطمئن نفسه، وتسكن حركاته، ويقل التفاته، متأدبا بين يدي ربه،

مستحضرا جميع ما يقوله ويفعله في صلاته، من أول صلاته إلى آخرها، فتنتفي بذلك الوساوس والأفكار الردية، وهذا روح الصلاة، والمقصود منها، وهو الذي يكتب للعبد، فالصلاة التي لا خشوع فيها ولا حضور قلب، وإن كانت مجزئة مثابا عليها، فإن الثواب على حسب ما يعقل القلب منها.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ﴾ وهو الكلام الذي لا خير فيه ولا فائدة، ﴿مُعْرِضُونَ﴾ رغبة عنه، وتتريها لأنفسهم، وترفعا عنه، وإذا مروا باللغو مروا كراما، وإذا كانوا معرضين عن اللغو، فإعراضهم عن المحرم من باب أولى وأحرى، وإذا ملك العبد لسانه وخزنه -إلا في الخير- كان مالكا لأمره، كما قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل حين وصاه بوصايا قال: ((ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟)) قلت: بلى يا رسول الله ، فأخذ بلسان نفسه وقال: ((كف عليك هذا)) فالمؤمنون من صفاهم الحميدة، كف ألسنتهم عن اللغو والمحرمات.

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾﴾ أي مؤدون لزكاة أموالهم، على اختلاف أجناس الأموال، مزكين لأنفسهم من أدناس الأخلاق ومساوئ الأعمال التي تزكو النفس بتركها وتجنبها، فأحسنوا في عبادة الخالق، في الخشوع في الصلاة، وأحسنوا إلى خلقه بأداء الزكاة.

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾﴾ عن الزنا، ومن تمام حفظها تجنب ما يدعو إلى ذلك، كالنظر واللمس ونحوهما. فحفظوا فروجهم من كل أحد ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ من الإماء المملوكات ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ بقربهما، لأن الله تعالى أحلهما.

﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ غير الزوجة والسرية ﴿فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ الذين تعدوا ما أحل الله إلى ما حرمه، المتجرئون على محارم الله. وعموم هذه الآية، يدل على تحـريم نكاح المتعة، فإنها ليست زوجة حقيقة مقصودا بقاؤها، ولا مملوكة، وتحريم نكاح المحلل لذلك.

ويدل قوله ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ أنه يشترط في حل المملوكة أن تكون كلها في ملكه، فلو كان له بعضها لم تحل، لأنها ليست مما ملكت يمينه، بل هي ملك له ولغـيره، فكما أنه لا يجوز أن يشترك في المرأة الحرة زوجان، فلا يجوز أن يشترك في الأمة المملوكة سيدان.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾﴾ أي: مراعـون لهـا، ضـابطون، حافظون، حريصون على القيام بها وتنفيذها، وهذا عام في جميع الأمانات التي هي حـق لله، والتي هي حق للعباد، قـال تعـالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الأحزاب: ٧٢] فجميع ما أوجبه الله على عبده أمانة، على العبد حفظها بالقيام التام بها، وكذلك يدخل في ذلك أمانـات الآدميين، كأمانات الأموال والأسرار ونحوهما، فعلى العبد مراعاة الأمرين، وأداء الأمانتين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النسـاء: ٥٨] وكذلك العهد، يشمل العهد الذي بينهم وبين ربهم والذي بينهم وبين العباد، وهي الالتزامات والعقـود، الـتي يعقدها العبد، فعليه مراعاتها والوفاء بها، ويحرم عليه التفريط فيها وإهمالها، ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ أي: يداومون عليها في أوقاتها وحـدودها وأشـراطها وأركانها، فمدحهم بالخشوع بالصلاة، وبالمحافظة عليها، لأنه لا يتم أمرهم إلا بـالأمرين، فمن يداوم على الصلاة من غير خشوع، أو على الخشوع من دون محافظة عليها، فإنـه مذموم ناقص.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ الموصوفون بتلك الصفات ﴿هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ ﴾ الذي هو أعلى الجنة ووسطها وأفضلها لأنهم حلوا من صفات الخير أعلاها وذروتها أو المراد بذلك جميع الجنة ليدخل بذلك عموم المؤمنين على درجاتهم و مراتبهم كل بحسب حاله ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ لا يظعنون عنها ولا يبغون عنها حولا لاشتمالها على أكمل النعيم وأفضله وأتمه من غير مكدر ولا منغص اهـ

وعلى هذا فاعلم أن:

أفلح المؤمنون : ظفروا وفازوا . خاشعون : خاضعون ، اقبلوا بقلوبهم على صلاتهم . اللغو : ما لا فائدة فيه من الكلام . الزكاة : إخراج شيء من المال . وأصل الزكاة : التزكية وطهارة النفس . أو ما ملكت أيمانهم : من الجواري ، وهذا لم يعد موجدا . فمن ابتغى وراء ذلك : فمن طلب غير . العادون : الذين يتجاوزون الحدود . راعون : حافظون . الفردوس : في هذه الآيات الكريمة صورةٌ للمؤمن الحقيقي ، وهو الذي يجمع هذه الخصالَ السبع الحميدة . لقد فاز المؤمنون الّذين هم خاضعون في صلاتهم مقبلين عليها بقلوبهم ، والذين هم معرِضون عما لا يفيد من الكلام ، والذين يؤدون الزكاة ، ذلك الركن الإسلامي العظيم الذي يؤدي إلى توثيق الروابط الاجتماعية بين المسلمين ، وإشعار كل فرد منهم بأنه مسئول عن أخيه ومجتمعه ، والزكاة من أكبر الأهداف الاقتصادية التي تقضي على الفقر أينما حل .

والذين يحافظون على أنفسِهم من أن تكونَ لهم علاقةٌ محرّمة بالنساء ، إذ أن الزنا من الأمور التي حرّمها الإسلام تحريماً قاطعا ، لما فيه من الآثار الاجتماعية السيّئة التي لا يشك فيها عاقل ، وما له من عواقب وخيمة من الناحية الصحية لما ينقله من الأمراض ، وما يؤدي إليه من اختلاط الأنساب .

والله تعالى أباح لنا الزواج أو مِلْكَ اليمين من الإماء فقال : ﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ ﴾ فمن طلب ما بعد ذلك مما حرّم الله فهـو متعدٌ للحدود المشروعة ، وبذلك يكون مؤاخَذاً ومذنباً يستحق العقاب .

﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ ﴾ من صفات المؤمن مراعاةُ الأمانة وحفظُها وأداؤها ، وحفظُ العهود التي بينه وبين الله ، أو بينه وبين الناس ، فـالمؤمنون لا يخونون الأماناتِ ، ولا ينقضون العهود .

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ ﴾ وقد كرر ذِكر الصلاة والمحافظة عليها لما لها من أهمية في حياة المؤمنين ، وذلك لتعظيم شأنها ، وإشارةً إلى أنها أولى بالعناية فهي مصدر جميع الكمالات النفسية ، إذ بها يستمدّ الإنسان من الله روحاً عالية ، وتكون لـه نوراً فياضا ... فمن خشع فيها وحافظ عليها كان جديراً بأن يتّصف بجميـع الصـفات السامية التي تقدمت .

وقد افتتح الله هذه الصفاتِ الحميدةَ بالصلاة واختتمها بالصلاة ، دلالةً علـى عظـيم فضلها ، وكبير مناقبها . وقد ورد في الحديث « **اعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ، ولا يحافظ على الوضوءِ إلا مؤمن** » [1]

وماذا ينتظر من اتصف بهذه الصفات ؟ أن من تحلّى بهذه الصفات يجازيه الله بالجنة .

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ ﴾ يتفضل الله عليهم بـالفردوس ، أعلـى مكانٍ في الجنة ، يتمتعون فيها أبداً لا يخرجون منها ولا يموتون . وتلك غاية الفلاح الذي كتبه الله للمؤمنين ، وليس بعدَها من غاية تمتد إليها عينٌ أو خيال . اهـ[2].

---

(١) صحيح لغيره : انظر سنن ابن ماجة : ١٠٣/١ ك/ الطهارة وسننها ب/ المحافظة على الوضـوء ح/ ٢٧٧ وانظر الطبراني مسند الشاميين : ٢٧٧/٢ ح/ ١٣٣٥ .

(٢) انظر تفسير القطان لتفسير سورة المؤمنون الآيات (١ – ١١) .

من هداية الآيات :

١- وجوب الخشوع في الصلاة .

٢- تحريم نكاح المتعة لأن المتمتع بها ليست زوجة لأنها لا ترث ولا تورث بخلاف الزوجة فإنها لها الربع والثمن ، ولزوجها النصف والربع ، لأن نكاح المتعة هو النكاح إلى أجل معين قد يكون شهراً أو أكثر أو أقل .

٣- تحريم العادة السرّية وهي نكاح اليد وسحاق المرأة لأن ذلك ليس بنكاح زوجة ولا جارية مملوكة .

٤- وجوب أداء الزكاة ووجوب حفظ الأمانات ووجوب الوفاء بالعهود ووجوب المحافظة على الصلوات .

٥- تقرير حكم التوارث بين أهل الجنة وأهل النار فأهل الجنة يرثون منازل أهل النار وأهل النار يرثون منازل أهل الجنة اللهم اجعلنا من الوارثين الذين يرثون الفردوس اهـ[1]

من خصائص طالب الجنة[2]

أولاً : طالب النفوذ إلى الله والدار الآخرة ، بل وإلى كل علم وصناعة ورئاسة ، بحيث يكون مقتدَى به فيه ، يحتاج أن يكون شجاعاً مقداماً حاكماً على وهمه غير مقهور تحت سلطان تخيله زاهداً في كل ما سوى مطلوبه ، عاشقاً لما توجه إليه عارفاً بطريق الوصول إليه ، والطرق القواطع عنه ، مقدام الهمة ثابت الجأش لا يثنيه عن مطلوبه لومُ لائم ، ولا عذل عاذل ، كثير السكون ، دائم الفكرة غير مائل مع لذة المدح ، ولا ألم الذم ، قائماً بأسباب ما يحتاج إليه من أسباب معونته ، ولا تستفزه المعارضات ، شعاره الصبر وراحته التعب ، محباً لمكارم الأخلاق ، محافظاً على وقته ، لا يخالط الناس إلا على حذر كالطائر الذي يلتقط الحب بينهم ، قائماً على نفسه بالرغبة ، والرهبة طامعاً

---

(١) انظر تفسير الجزائري : ٢/٤٤٥، ٤٤٦ تفسير سورة المؤمنون الآيات (١ – ١١) ط/ دار الحديث .

(٢) هذا مبحث مبارك من كتاب " الفرار من النار " آخر مبحث في الكتاب ((رحلة إلى الجنة)) .

في نتائج الاختصاص على بني جنسه غير مرسل شيئاً من حواسه عبثاً ... وملاك ذلـك هجر العوائد وقطع العلائق الحائلة بينه وبين المطلوب ، وعند العوام أنّ لزوم الأدب مـع الحجاب خير من إطراح الأدب مع الكشف ... اهـ

* سبب تنغيص العيش فوات الحظوظ العاجلة ، وليس في الدنيا طيب عـيش علـى الدوام إلا للعارف الذي شغله رضى حبيبه والتزود للرحيل إليه فإنه وإن وجد راحـة في الدنيا استعان بها على طلب الآخرة وإن وجد شدة اغتنم الصبر عليها لثـواب الآخـرة ، فهو راض بكل ما يجري عليه ، يرى ذلك من قضاء الخالق ، ويعلم أنّه مراده . كما قال قائلهم .

إن كـــان رضـــاكم في ســـهري ... فســـلام الله علـــى وَسَـــني

فأما من طلب حظه ، فإنه يقلق لفوات مراده ، ويتنغص لبعد ما يشتهي فلو افتقر تغير قلبه .....واللهِ لو قال المالك سبحانه : إنما خلقتكم ليستدل على وجودي ، ثم أنا أفنيكم ولا إعادة . لكان يجب على النفوس العارفة به أن تقول سمعاً لما قلت وطاعة . وأيُّ شـئ لنا فينا حتى نتكلم ، فكيف وقد وعد بالأجر الجزيل ، والخلود في النعيم الذي لا ينفـد ، لكن طريق الوصول يحتاج إلى صبر على المشقة .....فالصبر الصبر يا أقدام المبتدئين .لاح المنزل ، والسرور السرور بيا متوسطين ، ضربت* الخيـام ....قـد تلقيـتم بالبشـائر ....تخايلوا قرب المناجاة ولذة الحضور . ودوار كؤوس الرضي عنكم فقد أخذت شمـس الدنيا في الأقوال :

مـــا بينـــا إلا تصـــرم ... هــــذه الســـبع البـــواقي

حـــتى يطـــول حـــديثنا ... بصـــنوف مـــا كنـــا نلاقـــي

ثانياً : مشاهد لأفراح الروح من قلب الآخرة

* إذا رأيت عظيم ما نجاك الله منه ، فحمدت الله وازددت شكراً ، إذ نجوت بضعفك من النار ، وخلّفت النار وجسرها من وراء ظهرك متوجهاً إلى جوار ربك ثم خطوت آمناً إلى باب الجنة قد امتلأ قلبك سروراً وفرحاً فلا تزال في عمرك فرحاً مسروراً حتى توافي

أبوابها ، فإذا وافيت بابها استقبلك الملك بحسنه فنظرت إلى حسنه ونوره وحسن صورة الجنة وجدرانها ، وقلبك مستطير فرحٌ مسرور ، متعلق بدخول الجنة حين وافيت بابها أنت وأولياء الرحمن ....فيا سرور قلوب المفتوح لهم أبواب جنة النعيم من الرحمن الرحيم ربِّ العالمين ، فلما فتح لهم بابها هاج نسيم طيب الجنان وطيب جري مائها فنفح وجهك وجميع بدنك ، وثارت أراييح الجنة العبقة الطيبة وهاج ريح مسكها الأذفر وزعفرانها .....وكافورها .... ونظرت بعينيك إلى حسن قصورها وتأسيس بنيانها ....من الزمرد والياقوت الأحمر والدُّرُّ الأبيض قد سطع نوره وبهاؤه ، وصفاؤه فقد أكمله الله في الصفاء والنور ومازجه نور ما في الجنان....اهـ [(١)]

ثالثاً : أدلة وجود الجنة

قال الله تعالى ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ﴾ [آل عمران: ١٣٣] وفيه دليل على وجود الجنة الآن .وكقوله تعالى ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ﴾ [الحديد: ٢١] والآية تدل على وجود الجنة أيضاً ومن ذلك قوله ﷻ ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥ ﴾ [البقرة]

[١٤٢] وفي الصحيح من حديث أَنَسٍ قَالَ إِنَّ أُمَّ حَارِثَةَ أَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ هَلَكَ حَارِثَةُ يَوْمَ بَدْرٍ أَصَابَهُ سَهْمٌ غَرْبٌ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ عَلِمْتَ مَوْقِعَ حَارِثَةَ مِنْ قَلْبِي فَإِنْ كَانَ فِي الْجَنَّةِ فَلَمْ أَبْكِ عَلَيْهِ وَإِلاَّ فَسَوْفَ تَرَى مَا أَصْنَعُ فَقَالَ لَهَا : ((هَبِلْتِ

---

(١) انظر التوهم ص ١٧ ، ١٨ .

أَوَجَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ إِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ وَإِنَّهُ فِي الْفِرْدَوْسِ الأَعْلَى)) وَقَالَ : ((غَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ أَوْ مَوْضِعُ قَدَمٍ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى الأَرْضِ ، لأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا ، وَلَمَلأَتْ مَا بَيْنَهُمَا رِيحًا ، وَلَنَصِيفُهَا – يَعْنِي الْخِمَارَ – خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا)) (١)

والملاحظ أن النبي ﷺ أفاد المرأة أنه في الجنة وأخبرها عن مترلته التي كان فيها قاطناً ساعتئذ وقد كانت المرأة المباركة تعلم وجود الجنة وأنها مسكونة ولابد أن يكون غلامها الذي استشهد في المعركة في الجنة أو في الأخرى فأجابها ﷺ لتقر عينها ، وهذا يبين كم كان اليقين عند القوم راسخاً ثابتاً ، لا يعتريه اهتزاز أو تردد كما هو الواقع الآن عند أصاغر حمقى تشككوا في الثوابت وحاولوا النيل منها ونسوا أنهم سيوافون ذلك في يوم طويل حيث لا تملك نفس لنفس شيئاً ـ نحسب الله فيهم ـ ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾

رابعاً أبواب الجنة

قال تعالى ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴿٥٠﴾ ﴾ [ص] وقال ﷻ ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الرعد] وقال تعالى ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الزمر]

---

(١) مسلم :٣٨٣/٣ ك/الجهاد ،ب/الغدوة والروحة في سبيل الله

[١٤٣] عَنْ ثَابت عَنْ أَنسِ بْنِ مَالك قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : « آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ فَيَقُولُ الْخَازِنُ مَنْ أَنْتَ فَأَقُولُ مُحَمَّدٌ. فَيَقُولُ بِكَ أُمِرْتُ لاَ أَفْتَحُ لأَحَد قَبْلَكَ ».(١)

[١٤٤] وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ ((أَنَا أَوَّلُ مَنْ يَأْخُذُ بِحَلْقَةِ بَابِ الْجَنَّة فَأُقَعْقِعُهَا ».(٢)

[١٤٥] عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « أَنَا أَكْثَرُ الأَنْبِيَاءِ تَبَعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَقْرَعُ بَابَ الْجَنَّةِ ».(٣)

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ : ولّما كانت الجنات درجات بعضها فوق بعض كانت أبوابها كذلك ، وباب الجنة العالية فوق باب الجنة التي تحتها ، وكلما علت الجنة اتسعت ، فعاليها أوسع مما دونه ، وسعة الباب بحسب وسع الجنة ، ولعلّ هذا وجه الاختلاف الذي جاء في مسافة ما بين مصراعي الباب ، فإن أبوابها بعضها أوسع من بعض ، ولهذه الأمة باب مختص بهم يدخلون منه دون سائر الأمم كما في المسند :

[١٤٦] من حديث ابن عمر ، عن النبي ﷺ أنه قال ((بَابُ أُمَّتِي الَّذي يَدْخُلُونَ مِنْهُ الْجَنَّةَ عَرْضُهُ مَسِيرَةُ الرَّاكِبِ الْجَوَادَ ثَلاَثًا)) الحديث .اهـ(٤)

[١٤٧] وأخرج البخاري عَنْ سَهْلٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ الرَّيَّانُ ، يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، لاَ يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ يُقَالُ أَيْنَ

---

(١) أحمد :٣/١٣٦ وعبد بن حميد ١٢٧١ ومسلم :١/٢٢٨

(٢) أحمد :٣/١٣٦ وعبد بن حميد ١٢٧١ ومسلم :١/٢٢٨ ك/الإيمان ب/بيان مكانة النبي ﷺ يوم القيامة وعند الدارمي :١/٤٠ ب/ ما أعطي النبي ﷺ من الفضل ح/٥٠

(٣) صحيح أنظر صحيح الجامع ١٤٥٩، والصحيحة ١٥٧٠ وهو عند أحمد والترمذي في السنن

(٤) حادي الأرواح صـ٥٧

الصَّائِمُونَ فَيَقُومُونَ ، لاَ يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ ، فَإِذَا دَخَلُوا أُغْلِقَ ، فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ » (١)

والريان اسم يطلق على باب من أبواب الجنة يختص بدخول الصائمين منه ، وهو مشتق من الري ، وهو ما يناسب حال الصائمين ،ومن دخله لا يظمأ بعده أبداً ،

قال أبو السعادات في النهاية : ريان : فعلان من الري ,...والمعنى أن الصائمين بتعطيشهم أنفسهم في الدنيا ليأمنوا من العطش قبل تمكنهم من الجنة ، وذلك من باب الجزاء الحسن ، كما جزى الله ﷻ الشهداء بحياة خاصة عنده حيث قال تعالى :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [آل عمران] وقال القاري : الجنة ثمانية أبواب . أي : طبقات .... والتقدير في سور الجنة ثمانية أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم من أصحاب الأعمال الصادرة من أهل الإيمان عنده تعالى معلوم ومنها : باب يسمى الريان ، إما لأنه بنفسه ريان لكثرة الأنهار الجارية إليه والأزهار الطرية لديه ، أو لأنه من وصل إليه يزول عنه العطش يوم القيامة ، ويدوم له الطراوة والنظافة في دار المقامة ...اهـ

وقال صديق حسن خان : من أبواب الجنة باب محمد ﷺ وهو باب الرحمة ،وهو باب التوبة وسائر الأبواب مقسومة على أعمال البر : باب الزكاة ، وباب الحج ، وباب العمرة ، وعند عياض : باب الكاظمين الغيظ ، وباب الراضين ، وهو الباب الأيمن الذي يدخل منه من لا حساب عليه ....اهـ

فتوهم نفسك مسروراً بالدخول لعلمك أنها يفتح بابها لك ، والذين معك أولياء الله ، وفرحك بما تنظر إليه من حسن بهجتها ، وما وصل إلى فؤادك من طيب رائحتها وما

---

(١) صحيح البخاري ك/ الصيام ب/الريان للصائمين وعند ابن ماجة ١٦٤٠

باشر وجهك وبدنك من طيب جوّها ، وبرد نسيمها ، فتوهم نفسك أن تفضل الله عليك بهذه الهيئة ....حتى إذا فتحوا بابها أقبلوا عليك ضاحكين في وجهك ،ووجوه أولياء الله معك ...ونادوا سلام عليكم ، فتوهم حسن نعماهم وطيب كلامهم وحسن تسليمهم في كمال صورهم ،وشدة نورهم ، ثم أتبعوا السلام بقولهم ﴿ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الزمر] ...فلما سمعت الإذن وأولياء الله معك بادرتم الباب بالدخول ، فكظت الأبواب من الزحام .....اهـ [١]

خامساً اتساع الجنة وارتفاعها وطيبها وبهجتها ،

قال تعالى ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَامَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا

---

(١) كتاب التوهم للحارث المحاسبي صـ ٣٨ دار الفرقان

جَانٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الرحمن]

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ أي مقامه بين يدي ربه للحساب فترك المعصية ، والشهوة ،وقيل قيام ربّه عليه بيانه كونه﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد: ٣٣] وقال إبراهيم النخعي : هو الذي يهمُّ بالمعصية فيتذكر الله فيدعها من مخافة الله

وقوله ﴿جَنَّتَانِ﴾ قال مقاتل جنة عدن وجنة نعيم ، قال محمد على الترمذي جنة لخوفه من ربه وجنة لتركه شهوته ، قال الضحاك : هذا لمن راقب الله في السر والعلانية بعلمه ما عرض له من محرم تركه من خشية الله ، وما عمل من خير ، أفضى به إلى الله لا يحب أن يطلع عليه أحد وقال قتادة : إن المؤمنين خافوا ذلك المقام فعملوا لله ودأبوا بالليل والنهار ، ....اهـ

[١٤٨] عن حميد ، قال : سمعت أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : « لَرَوْحَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ غَدْوَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ أَوْ مَوْضِعُ قِيدٍ - يَعْنِي سَوْطَهُ - خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ لأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا وَلَمَلأَتْهُ رِيحًا ، وَلَنَصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا »(١)

قوله تعالى ﴿ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ ﴾ قال البغوي : أغصان واحدها فنن وهو الغصن المستقيم طولاً وهذا قول مجاهد ،وعكرمة ،والكلبي وقال عكرمة : ظل الأغصان على الحيطان ، وقال الحسن ذواتا ظلال ، قال ابن عباس : ألوان . وقال قتادة : ذواتا فضل

---

(١) البخاري ك/ الرقاق :١٤٥/٨ في صفة الجنة ، وابن ماجة :١٢٩/٢ ك/ الجهاد ب/ فضل الغدوة والروحة في سبيل الله ح/ ٢٧٥٧ والترمذي :٢٤٥/٣ ك/ الجهاد ب/ ما جاء في فضل الغدوة والروحة في سبيل الله ح/١٦٥٧ قال أبو عيسى هذا حديث صحيح

وسعة على ما سواهما ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾﴾ قال ابن عباس بالكرامة والزيادة على أهل الجنة ، قال الحسن تجريان بالماء الزلال ، إحداهما التسنيم والأخرى السلسبيل ، وقال عطاء : إحداهما من ماء غير آسن ، والأخرى من خمر لذة للشاربين ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾﴾ صنفان ونوعان قيل معناه أن فيهما من كل ما يتفكه به ضربين رطباً ويابساً ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾﴾ قوله(فُرُشٍ) جمع فراش ﴿بَطَآئِنُهَا﴾ جمع بطانة وهي التي تحت الظهارة وقال الزجاج : وهي ما يلي الأرض ﴿مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ وهو ما غلظ من الديباج ،قال بن مسعود وأبو هريرة ﷺ هذه البطائن فما ظنكم بالظواهر. ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ الجني ما يجتنى من الثمار ، يريد ثمرها دان قريب ، يناله القائم والقاعد والنائم ، قال ابن عباس : تدنوا الشجرة حتى يجتنيها وَلِيُّ الله إن شاء قائماً وإن شاء قاعداً . قال قتادة : لا يرد أيديهم عنها بعد ولا شوك﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾﴾ أي غاضات الأعين قصرن طرفهن على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهن ، ولا يردن غيرهن ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ أي لم يجامعهن ولم يفترعن وأصله من الدم ، ومنه قيل للحائض طامث ، كأنه قال لم يُدْمِهِنَّ جماع ﴿إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ قال مقاتل لأنهن خلقن في الجنة فعلى قوله هؤلاء من الحور العين في الجنة وقال الشعبي : هن من نساء الدنيا لم يمسسهن منذ أنشئنَ ،وهو قول الكلبي :يعني لم يجامعهن في هذا الخلق الذي أنشأهن فيه إنس ولا جان ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾﴾ قال قتادة صفاء الياقوت في بياض المرجان...اهـ[1]

---

(١) من مختصر تفسير البغوي صـ٨٢٠،٨٢١ بتصرف كبير واختصار وتعليق للدكتور عبد الله الزبير حميصة إحياء التراث

سادساً: إن الله تعالى قدَّر وشرّع أن يعطي كل امرئ مما قدمه ويزيده من فضله كمـــا دلّت على ذلك النصوص قال تعـــالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ [فاطر]

وقال تعالى ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الرحمن]

وقال تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الأنفال]

فالصالحون لا يستوون فخير الناس القرن الذي كان فيه النبي ﷺ ثم الذين يلـــوهم ثم الذين يلوهم ،حتى إن القرن الأول متفاضلون لا يستوون ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ

عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ ﴾ [النساء]

كما قال تعالى ﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحديد]

وهكذا أعد الله تعالى لكل مؤمن ما يستحق ﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾

وقد دلت السنة أيضاً على ذلك .

[١٤٩] عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ « **هَذَانِ سَيِّدَا كُهُولِ أَهْلِ الْجَنَّةِ مِنَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ إِلاَّ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ** ».(١)

[١٥٠] وعن مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ « **الْجَنَّةُ مِائَةُ دَرَجَةٍ كُلُّ دَرَجَةٍ مِنْهَا مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَإِنَّ أَعْلاَهَا الْفِرْدَوْسُ وَإِنَّ أَوْسَطَهَا الْفِرْدَوْسُ وَإِنَّ الْعَرْشَ عَلَى الْفِرْدَوْسِ مِنْهَا تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ فَإِذَا مَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ** » (٢)

[١٥١] وعن مَعْدَانُ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ الْيَعْمَرِيُّ قَالَ لَقِيتُ ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ أَعْمَلُهُ يُدْخِلُنِي اللَّهُ بِهِ الْجَنَّةَ. أَوْ قَالَ قُلْتُ بِأَحَبِّ الأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ. فَسَكَتَ ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَسَكَتَ ثُمَّ سَأَلْتُهُ الثَّالِثَةَ فَقَالَ سَأَلْتُ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ « **عَلَيْكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ لِلَّهِ فَإِنَّكَ لاَ تَسْجُدُ لِلَّهِ سَجْدَةً إِلاَّ رَفَعَكَ اللَّهُ بِهَا دَرَجَةً وَحَطَّ عَنْكَ بِهَا خَطِيئَةً** ». (٣)

---

(١) الترمذي ك/ المناقب عن رسول الله ﷺ ب/ في مناقب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ح/ ٣٦٦٥ وانظر سنن ابن ماجة بلفظ مقارب لهذا اللفظ : ٤٣/١ ك/ فضائل أصحاب الرسول ﷺ ب/ فضل أبي بكر الصديق ﷺ ح/٩٥، وانظر صحيح الجامع ٥١ والصحيحة ٨٢٤ .

(٢) انظر صحيح ابن ماجة ح/٣٤٩٦ والصحيحة ٩٢٢ .

(٣) أحمد :٢٧٦/٥ ومسلم :٥١/٢ ك/ الصلاة ب/ فضل السجود والحث عليه ، وابن ماجة :٤٥٧/١ ك/ إقامة الصلاة ب/ كثرة السجود ح/ ١٤٢٣ والنسائي في المجتبى : ٢٢٨/٢ .

والحديث دليل على أن الأعمال تتفاوت بعضها خير من بعض في الفضل وبناءاً على ذلك ـــ بعد فضل الله تعالى ـــ يرفع الناس مقامات ودرجات في الدنيا والآخرة .

قال تعالى ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ وقال ﷻ ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

ودل الحديث أن من أفضل أعمال القرب عند الله تعالى السجود لأنه أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد .

[١٥٢] عَنْ أَبِى بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ « جِنَانُ الْفِرْدَوْسِ أَرْبَعٌ ثِنْتَانِ مِنْ ذَهَبٍ حِلْيَتُهُمَا وَآنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا وَثِنْتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَحِلْيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا وَلَيْسَ بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ إِلاَّ رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَشْخَبُ مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ ثُمَّ تَصْدَعُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْهَاراً » [١]

وهذه الدرجات لو علمت أن ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض فما بالك بمن امتن عليه الله الرؤوف الرحيم بعشرات الدرجات أو بمئات الدرجات ، إنها والله لحياة السعادة الأبدية السرمدية ، التي لا تنفك سعادتها عن ساكنيها أبد الآبدين ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلا﴾

[١٥٣] وفي صحيح الجامع من حديث أنس ((**إن الجنة تشتاق إلى ثلاثة علـيّ . وعمّار . وسلمان**)) [٢] .

والغرف أيضاً بعضها فوق بعض على حسب درجات ساكنيها

[١٥٤] عن سهل بن سعد مرفوعاً ((**إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف في الجنة كما تراءون الكوكب في السماء**)) [٣]

---

(١) البخاري فتح : ٤٩١/٨ ك/ التفسير ب/ تفسير سورة الرحمن ح/ ٤٨٧٨ ومسلم :٢٠٠/١، ٢٠١ ك/ الإيمان ح/ ٣٦٧ والدارمي :٤٢٩/٢ ح/ ٢٨٢٢ والترمذي في ك/ صفة الجنة : ٢٣٦/٤، ٢٣٧ .

(٢) حديث حسن عند الترمذي والحاكم وهو برقم :١٥٩٨ وصحيح الجامع والمشكاة ٦٢٢٥

(٣) صحيح الجامع ٢٠٢٦ .

[١٥٥] عَنْ أَبِى سَعِيدِ الْخُدْرِي قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ أَهْلَ الـدَّرَجَاتِ الْعُلَى يَرَاهُمْ مَنْ أَسْفَلَ مِنهُمْ كَمَا يُرَى الْكَوْكَبُ الطَّالِعُ فِي الأُفُقِ مِنْ آفَاقِ السَّمَاءِ وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ مِنهُمْ وَأَنْعَمَا ».(١)

[١٥٦] عَنْ جَابِرٍ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ « إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَأْكُلُونَ فِيهَا وَيَشْـرَبُونَ وَلاَ يَتْفُلُونَ وَلاَ يَبُولُونَ وَلاَ يَتَغَوَّطُونَ وَلاَ يَمْتَخِطُونَ ». قَالُوا فَمَا بَالُ الطَّعَـامِ قَـالَ « جُشَاءٌ وَرَشْحٌ كَرَشْحِ الْمِسْكِ يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا تُلْهَمُونَ النَّفَسَ ».(٢)

ولو علمت أن أدنى مساحة في الجنة لو بدت من الجنة تزينت لها الدنيا فما بالك بمـا هو أعظم من ذلك وأكبر ؟!!

[١٥٧] عَنْ دَاوُدَ بْنِ عَامِرِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِى وَقَّاصٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ « لَوْ أَنَّ مَا يُقِلُّ ظُفُرٌ مِمَّا فِي الْجَنَّةِ بَدَا لَتَزَخْرَفَتْ لَهُ مَا بَيْنَ خَوَافِقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَوْ أَنَّ رَجُلاً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَ فَبَدَا أَسَاوِرُهُ لَطَمَسَ ضَوْءَ الشَّمْسِ كَمَـا تَطْمِـسُ الشَّمْسُ ضَوْءَ النُّجُومِ ». (٣)

[١٥٨] وحديث أبي هريرة ((لَقَيْدُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْـرٌ مِمَّـا بَـيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ))(٤)

[١٥٩] وفي حديث ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةَ أُسْرِىَ بِي فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّى السَّلاَمَ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ عَذْبَةُ الْمَـاءِ وَأَنَّهَا قِيعَانٌ وَأَنَّ غِرَاسَهَا سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ ». (٥)

---

(١) صحيح الجامع ٢٠٣٠ والروض النضير :٩٧٠

(٢) مسلم :٥٠٧/٤ ك/الجنة ح/٧٢٥٤ ب/أول زمرة تدخل الجنة ،وأبو داود :٢٣٦/٤ ك/السنة ب/الشفاعة مختصراً ح/٤٧٤١ وهو عند أحمد :٣١٦/٣

(٣) صحيح الجامع :٥٢٥١ والمشكاة :٥٦٣٧ .

(٤) صحيح الجامع ٥١٥٣ والصحيحة ١٩٧٨

(٥) حديث حسن انظر صحيح الجامع ٥١٥٢ والصحيحة ١٠٥

[١٦٠] وليست درجات الجنة قاصرة على مائة درجة بل عدد درجاتها كما قال أهل العلم بعدد آي القرآن لقول النبي ﷺ « يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا ».(١)

**** سأل موسى ربه عن أدنى أهل الجنة منزلة ****

[١٦١] عن المغيرة بن شعبة قال : سمعته على المنبر ،..وقــال مسـلم رَحِمَهُ اللَّهُ في الصحيح : وَحَدَّثَنِي بِشْرُ بْنُ الْحَكَمِ – وَاللَّفْظُ لَهُ – حَدَّثَنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ حَدَّثَنَا مُطَرِّفٌ وَابْنُ أَبْجَرَ سَمِعَا الشَّعْبِيَّ يَقُولُ سَمِعْتُ الْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ يُخْبِرُ بِهِ النَّاسَ عَلَى الْمِنْبَرِ قَــالَ سُفْيَانُ رَفَعَهُ أَحَدُهُمَا – أُرَاهُ ابْنَ أَبْجَرَ – قَالَ « سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ مَا أَدْنَى أَهْـلِ الْجَنَّــةِ مَنْزِلَةً قَالَ هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَ مَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ فَيُقَالُ لَهُ ادْخُلِ الْجَنَّةَ. فَيَقُولُ أَيْ رَبِّ كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ فَيُقَالُ لَهُ أَتَرْضَى أَنْ يَكُــونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ رَضِيتُ رَبِّ. فَيَقُولُ لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ. فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ رَضِيتُ رَبِّ. فَيَقُولُ هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ وَلَكَ مَــا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنُكَ.فَيَقُولُ رَضِيتُ رَبِّ. قَالَ رَبِّ فَأَعْلاَهُمْ مَنْزِلَةً قَالَ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ وَلَــمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ». قَالَ وَمِصْدَاقُهُ فِي كِتَــابِ اللَّــهِ ﷻ : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة] (٢)

---

(١) ابن ماجة :٣٧٨٠ وصححه الألباني في الصحيحة :٢٢٤٠

(٢) مسلم ك/الإيمان ب/ من يخرج من النار :١٢١/١ ، والحميدي في مسنده :٣٣٥/١ ـــ٣٣٦ والترمــذي ك/ التفسير تفسير سورة السجدة ح/٣٢٠٩ وقال أبو عيسى حديث حسن صحيح

سابعاً : أهل الجنة يزدادون جمالاً على الدوام

[١٦٢] عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَسُوقًا يَأْتُونَهَا كُلَّ جُمُعَةٍ فَتَهُبُّ رِيحُ الشَّمَالِ فَتَحْثُو فِي وُجُوهِهِمْ وَثِيَابِهِمْ فَيَزْدَادُونَ حُسْنًا وَجَمَالاً فَيَرْجِعُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ وَقَدِ ازْدَادُوا حُسْنًا وَجَمَالاً فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُوهُمْ وَاللَّهِ لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالاً. فَيَقُولُونَ وَأَنْتُمْ وَاللَّهِ لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالاً ». (١)

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ : المراد بالسوق مجمع لهم يجتمعون فيه كما يجتمع الناس في الدنيا ،في السوق ، ومعنى يأتونها كل جمعة ، أي في مقدار كل جمعة أي : أسبوع ، وليس هناك حقيقة أسبوع لفقد الشمس والليل والنهار....اهـ

وهذا كلام جيد ، لكن لا يمنع مانع أن يكون في الجنة ما يعرف بيوم الجمعة ،ولا يحتاج هذا إلى ليل أو نهار ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ : قال القاضي : وخُصَّ ريح الجنة بالشمال لأنها ريح المطر عند العرب كانت تهب من جهة الشام وبها يأتي سحاب المطر ، وكانوا يرجون السحابة الشامية ، وجاء في الحديث تسمية هذه الريح المثيرة المحركة لأنها تثير في وجوههم ما تثيره من مسك أرض الجنة ،وغيره من نعيمها ....اهـ

فلو توهم المتخلف عن هذه الرفقة ، ما أعدَّ الله لهم من الإكرام ،وادخر لهم من الفضل والإنعام ، وما أخفى لهم من قرة أعين ، لم يقع على مثلها بصر ، ولا سمعته أذن ولا خطر على قلب بشر لعلم أيَّ بضاعة أضاع ، وأنه لا خير له في حياته وهو معدود من سقط المتاع ،وعلم أنَّ القوم قد توسطوا ملكا كبيرا لا تعتريه الآفات ،ولا يلحقه الزوال ، وفازوا بالنعيم المقيم وذهبوا بالخير الكثير من الله ربِّ العالمين وفي جوار الكبير المتعال فهم في روضات الجنة لا محال في النعيم يتقلبون ،وعلى أسرتها تحت الحجال يجلسون ،وعلى الفروش التي بطائنها من إستبرق يتكئون وبالحور العين يتنعمون وبأنواع الثمار يتفكهون

---

(١) مسلم شرح النووي :١٧/١٧ ك/ الجنة وصفة أهلها .

ويخبرنا ربنا بنعيمهم فيقـول ﷻ ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن
مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ
﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا
وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ
﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ
وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾
لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الواقعة]

شَمِّرْ عسى أن ينفع التشمير ... وانظر بفكرك ما إليه تصير

طوّلتَ آمالا تكنّفها الهوى ... ونسيت أنّ العمر منك قصير

قد أفصحت دنياك عن غدراتها ... وأتى مشيبك والمشيب نذير

دار لهوت بزهوها متنعما ... ترجو المقام بها وأنت تسير

ليس الغنى في العيش إلا بلغة ... ويسير ما يكفيك منه كثير

لا يشغلنك عاجل عن آجل ... أبداً فملتمس الحقير حقير

ولقد تساوى بين أطباق الثرى ... في الأرض مأمور بها وأمير

((ثامناً نساء الجنة))

فتفكر في أهل الجنة ،وفي وجوههم نضرة النعيم ، يسقون من رحيق مختوم ، جالسين على منابر الياقوت الأحمر ، في خيام من اللؤلؤ الرطب الأبيض ، فيها بسط من العبقري الأخضر ، متكئين على أرائك منصوبة على أطراف أنهار مطردة بالخمر والعسل محفوفة بالغلمان والولدان ، مزينة بالحور العين من الخيرات الحسان كأنهن الياقوت والمرجان ، لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان يمشين في درجات الجنان ،إذا اختالت إحداهن في مشيها حمل أعطافها سبعون ألفاً من الولدان عليها طرائف الحرير الأبيض ما تتحير فيه الأبصار ، مكللات بالتيجان المرصعة باللؤلؤ والمرجان ، شكلات غنجات ،عطرات آمنات من الهرم والبؤس ، مقصورات في الخيام في قصور من الياقوت ، بُنِيَتْ وسط روضات الجنان ، قاصرات الطرف عين ثم يطاف عليهم وعليهن بأكواب وأباريق وكأس من معين ، بيضاء لذة للشاربين ،ويطوف عليهم ولدان وخدامٌ كأمثال اللؤلؤ المكنون ، جزاءاً بما كانوا يعملون ، في مقام أمين ، في جنات وعيون ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القمر]

ينظرون فيها إلى وجه الله الكريم ، وقد أشرقت وجوههم نضرة النعيم لا يرهقهم قتر ولا ذلة ، بل عبادٌ مكرمون وبأنواع التحف من ربهم يتعاهدون فهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون ، لا يخافون فيها ولا يحزنون ،وهم من ريب المنون آمنون ، فهم فيها يتنعمون ، ويأكلون من أطعمتها ومن أنهارها يشربون لبناً ، خمراً ، وعسلاً ، ويؤتون بأكواب من فضة مرصعة بالدر والياقوت ،والمرجان كوب فيه من الرحيق المختوم ، ممزوج به السلسبيل العذب كوب يشرق نوره من صفاء جوهره يبدو الشراب من وراءه برِّقته وحمرتهِ ، لم يصنعه آدمي ، فيقصر في تسوية صنعته ، وتحسين صناعته .....اهـ[1]

---

(١) إحياء علوم الدين :٢٩٩٧/٤ ـــ٢٩٩٨

قال تعالى ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [البقرة]

وقال تعالى ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الواقعة]

وقال تعالى ﴿ فِيهِنَّ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الرحمن]

وقال تعالى ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الرحمن] وقال تعالى ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الرحمن]

وقال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الدخان]

قال ابن القيم رحمه الله : فتأمل جلالة المبشر ومترلته وصدقه وعظمة من أرسله إليك بهذه البشارة ،وقدْر ما بشرك به ، وضمنه لك على أسهل شيء عليك ، وأيسره وجمع سبحانه في هذه البشارة بين نعيم البدن وما فيها من الأنهار والثمار ، ونعيم النفس والأزواج المطهرة ونعيم القلب وقرة العين بمعرفة دوام هذا العيش أبد الآباد ، وعدم انقطاعه .....والمطهرة من طهرت من الحيض والبول والنفاس والغائط والمخاط والبصاق وكل قذر وكل أذى يكون من نساء الدنيا ، فطهر باطنها من الأخلاق السيئة ، والصفات المذمومة ، وطهر لسانها من الفحش والبذاء وطهر طرفها من أن تطلع به إلى

غير زوجها ، وقال رَحِمَهُ اللَّهُ : فجمع لهم بين حسن المترل وحصول الأمن فيه ،واشتماله على الثمار والأنهار ، وحسن اللباس وكمال العشرة ، لمقابلة بعضهم بعضا ، فتمم اللذة بالحور العين ووعدهم بجميع أنواع الفاكهة ، مع أنهم من انقطاعها ومضرتها وغائلتها ،وختام ذلك أعلمهم بأنهم لا يذوقون فيها هناك موتاً .

والحور جمع حوراء : وهي المرأة الشابة الحسناء الجميلة البيضاء شديدة سواد العين ....والعِينْ : جمع عيناء : وهي العظيمة العين من النساء ....اهـ[(١)]

[١٦٣] وعن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ قال ((.... **وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ لأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا وَلَمَلأَتْهُ رِيحًا ، وَلَنَصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**)) [(٢)]

تلك هي الجنة ، وهذا نعيمها ، وتلك هي زوجاتها ،

[١٦٤] عَنْ أَبِى بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ عَنْ أَبِيهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ « **إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الْجَنَّةِ لَخَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ طُولُهَا سِتُّونَ مِيلاً لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُ فَلاَ يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا** » [(٣)]

[١٦٥] وحديث أنس أن رسول الله ﷺ قال ((**إن الحور العين لتغنين في الجنة ، يقلن : نحن الحور الحسان ، خُبئنا لأزواج كرام**)) [(٤)]

---

(١) حادي الأرواح :١٩٩، ٢٠٠ بتصرف

(٢) البخاري ك/ الرقاق :١٤٥/٨ في صفة الجنة ، وابن ماجة :١٢٩/٢ ك/ الجهاد ب/ فضل الغدوة والروحة في سبيل الله ح/ ٢٧٥٧ والترمذي :٢٤٥/٣ ك/ الجهاد ب/ ما جاء في فضل الغدوة والروحة في سبيل الله ح/١٦٥٧ قال أبو عيسى هذا حديث صحيح .

(٣) الدارمي :٤٣٤/٢ ح/٢٨٣٣ والبخاري في الفتح ك/ التفسير , سورة الرحمن :٤٩١/٨ ح/٤٨٧٩ باختلاف في الألفاظ . ومسلم :٥٠٨/٤ ك/ الجنة ،ب/في صفة خيام الجنة ح/ ٧٢٦٠ والترمذي :٢٣٧/٤ ب/ما جاء في صفة غرف الجنة ك/ صفة الجنة ح/٢٥٣٦ وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

(٤) صحيح الجامع ١٦٠٢ والروض النضير ٤٩٦ .

[١٦٦] وعن عمرو بن ميمون ، عن عبد الله بن مسعود ، عن النبي ﷺ قال ((إن المرأة من نساء أهل الجنة لَيُرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة حتى يرى مُخُها ، وذلك بأن الله تعالى يقول﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ .....))(١) .

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ :

وهم الملوك على الأسرة فوقها ... تيك الرؤوس مرصع التيجان

لباسهم من سندس خضر ومن ... إستبرق نوعان معروفان

كلا ولا نسجت على المنوال ... نسج ثيابها بالقطن والكتان

لكنها حلل تشق ثمارها ... عنها رأيت شقائق النعمان

بيض وخضر ثم صفر حمر ... كالربـاط بأحسن الألوان

لا تقرب الدنس المقرب للبلى ... ما للبلى فيهن من سلطان

ونصيف إحداهن وهو خمارها ... ليست له الدنيا من الأثمان

سبعون من الحلل عليها لا تعو ... ق الطرف في مخ ورا الساقان

صورة الكافر منذ خروج روحه وحتى استقراره في الجحيم :

أولا : حالة الاحتضار وسؤاله الرجعة :

﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ۖ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [المؤمنون]

شرح الكلمات :

---

(١) الترمذي :٤/٢٣٩ ك/ صفة الجنة في صفة نساء أهل الجنة ح/٢٥٤١.

﴿إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ : أي إن تريني من العذاب .

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ : أي ادفع بالخصلة التي هي أحسن وذلك كالصفح والإعراض عنهم

﴿مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ : أي من وساوسهم التي تخطر بالقلب فتكاد تفسده .

﴿أَن يَحْضُرُونِ﴾ : أي في أموري حتى لا يفسدوها علي .

﴿جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ : أي رأى علاماته ورآه .

﴿بَرْزَخٌ﴾ : أي حاجز يمنع وهو مدة الحياة الدنيا ، وإن عاد بالبعث فلا عما يقبل .

معنى الآيات :

في هذا السياق تهديد للمشركين الذين لم ينتفعوا بتلك التوجيهات التي تقدمت في الآيات قبل هذه ، فأمر الله تعالى رسوله أن يدعوه ويضرع إليه إن هو أبقاه حتى يحين هلاك قومه ، أن لا يهلكه معهم فقال : ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي﴾ أي أن تريني ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ أي من العذاب ، ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ بل أخرجني منهم وأبعدني عنهم حتى لا أهلك معهم . وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ يخبر تعالى رسوله بأنه قادر على إنزال العذاب الذي وعد به المشركين إذا لم يتوبوا قبل حلوله بهم .

وقوله : ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ هذا قبل أمره بقتالهم : أمره بأن يدفع ما يقولونه له في الكفر والتكذيب بالخلة والخصلة التي هي أحسن وذلك كالصفح والإعراض عنهم وعدم الإلتفاف إليهم . وقوله : ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ أي من قولهم لله شريك وله ولد ، وأنه ما أرسل محمداً رسولاً ، وأنه لا بعث ولا حياة ولا نشور يوم القيامة وقوله : ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ لما

علمه الاحتراز والتحصُّن من المشركين بالصفح والإعراض أمره أن يتحصن من الشياطين بالإستعاذة بالله تعالى فأمره أن يقول ﴿رَّبِّ﴾ أي يا رب ﴿أَعُوذُ بِكَ﴾ أي استجير بك من همزات الشياطين أي وساوسهم حتى لا يفتنوني عن ديني وأعوذ بك أن يحضروا أمري فيفسدوه علي .

وقوله تعالى : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ أي إذا حضر أحد أولئك المشركين الموت أي رأى ملك الموت وأعوانه وقد حضروا لقبض روحه ﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ أي أخروا موتي كي أعمل صالحاً فيما تركت العمل فيه بالصلاح ، وفيما ضيعت من واجبات قال تعالى رداً عليه ﴿كَلَّآ﴾ أي لا رجوع أبداً ، ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ لا فائدة منها ولا نفع فيها ، ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ﴾ أي حاجز مانع من العودة إلى الحياة وهو أيام الدنيا كلها حتى إذا انقضت عادوا إلى الحياة ، ولكن ليست حياة عمل وإصلاح ولكنها حياة حساب وجزاء هذا معنى قوله : ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾

من هداية الآيات :

١- مشروعية الدعاء والترغيب فيه وإنه لذو جدوى للمؤمن .

٢- استحباب دفع السيئ من القول أو الفعل بالصفح والإعراض عن صاحبه .

٣- مشروعية الاستعاذة بالله تعالى من وساوس الشياطين ومن حضورهم أمر العبد الهام حتى لا يفسدوه عليه بالخواطر السيئة .

٤- موعظة المؤمن بحال من يتمنى العمل الصالح عند الموت فلا يُمكن منه فيموت بندمه وحسرته ويلقى جزاء تفريطه حرماناً وخسراناً في الدار الآخرة .

ثانيا : عقيدة أهل السنة في القبر :

الإيمان بفتنة القبر والإيمان بعذاب القبر :-

أجمع أئمة أهل السنة والجماعة ، من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من السلف والأئمة على إثبات سؤال القبر وفتنته ، وعذابه ونعيمه ، وقد تظاهرت على ذلك نصوص الشريعة كتاباً وسنة فمن ذلك .

قال الله تعالى : ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاء ﴾ [إبراهيم : ٢٧]

قال البراء بن عازب نزلت في عذاب القبر .

قال تعالى : ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾[غافر]

[١٦٧] عن زَيْدُ بْنُ ثَابت قَالَ النبي ﷺ « **إِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا فَلَوْلاَ أَنْ لاَ تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ** ».(١)

[١٦٨] عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي جَنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَدْ فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ كَأَنَّ عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرَ وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ بِهِ فِي الأَرْضِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ « **اسْتَعِيذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ..... فَتُعَادُ رُوحُهُ(٢) فِي جَسَدِهِ وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولاَنِ لَهُ مَنْ رَبُّكَ فَيَقُولُ هَاهْ هَاهْ لاَ أَدْرِى. فَيَقُولاَنِ لَهُ مَا دِينُكَ فَيَقُولُ هَاهْ هَاهْ لاَ أَدْرِى. نَيَقُولاَنِ لَهُ مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ فَيَقُولُ هَاهْ هَاهْ لاَ أَدْرِى. فَيُنَادِى مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ فَافْرِشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ وَافْتَحُوا لَهُ بَاباً إِلَى النَّارِ فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلاَعُهُ وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ قَبِيحُ الثِّيَابِ مُنْتِنُ الرِّيحِ**

---

(١) مسلم : ك/ الجنة وصفة نعيم أهلها ح/ ٧٢٩٢ .

(٢) روحه : أي الكافر

فَيَقُولُ أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ. فَيَقُولُ مَنْ أَنْـتَ فَوَجْهُـكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ فَيَقُولُ أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ فَيَقُولُ رَبِّ لاَ تُقِمِ السَّاعَةَ ».(١)

والواضح من هذا الكلام أن هذه الأمة تفتن في قبورها وتسأل عن الإيمان ، والإسلام ، ومن ربه؟ ومن نبيه ؟ ويأتيه منكر ونكير كيف شاء الله عز وجل وكيف أراد وواجب الإيمان به والتصديق به .

وقيل للإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ : ...عذاب القبر ومنكر ونكير ؟ قال أبـو عبـد الله : ((نؤمن بهذا كله من أنكر واحدة من هذه فهو جهمي)) (٢)

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ : ((وعذاب القبر حق ما ينكره إلا ضال مضل)) (٣)

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ : ((وعذاب القبر حق يسأل العبد عن دينه وعن ربه ويـرى مقعده من النار والجنة ،و منكر ونكير حق وهما فتانا القبر نسأل الله عز وجل الثبات)) (٤)

ذكر أبو محمد البربهاري أن من السنة : الإيمان بعذاب القبر ومنكر ونكير وذكر منها : الإيمان بأن الميت يقعد في قبره ، وترسل فيه الروح حتى يسأله منكر ونكير عـن الإيمـان وشرائعه ، ثم تسل روحه بلا ألم ، ويعرف الميت الزائر إذا زاره ، ويتنعم المؤمن في القبر ، ويعذب الفاجر

قال الإمام أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ : ((سؤال منكر ونكير حق كائن في القبر ، وإعـادة الروح إلى جسد العبد في قبره حق ، وضغطة القبر وعذابه حق كـائن للكفـار كلـهم ولبعض عصاة المؤمنين)) (٥)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ : ومن الإيمان باليوم الآخر الإيمان بكـل مـا أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت ، فيؤمنون بفتنة القبر ، وبعذاب القبر ونعيمه ، فأما الفتنة ؛ فإن الناس يمتحنون في قبورهم ، فيقال للرجل : من ربك ؟ وما دينـك ؟ ومـن

---

(١) أحمد : ٢٨٧/٤- ٢٨٨، ٢٩٥ – ٢٩٧ .وأبو داود :٤١٥٣ وابن ماجة : ١٥٤٨ وسنده صحيح .
(٢) مسائل ابن هانئ :١/ ١٩١ .
(٣) طبقات الحنابلة : ٦٢/١ .
(٤) طبقات الحنابلة : ٢٧/١ .
(٥) الفقه الأكبر ص ٣٠٦ .

نبيك ؟ فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، فيقول المؤمن : ربي الله ، والإسلام ديني ، ومحمد ﷺ نبيي ، وأما المرتاب ؛ فيقول : هاه هـــاه ،لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته ، فيضرب بمرزبة من حديد ، فيصيح صيحة ، يســـمعها كل شيء ؛ إلا الإنسان ، ولو سمعها الإنسان لصعق . ثم بعد هذه الفتنة إما نعـــيم وإمـــا عذاب ، إلى أن تقوم القيامة الكبرى ، فتعاد الأرواح إلى الأجساد

ولقد تحدث النبي ﷺ عن ضمة القبر وضغطته ،

[١٦٩] فعن ابن عمر ، عن رسول الله ﷺ قال : « **هَذَا الذي تَحَرَّكَ لَـــهُ الْعَـــرْشُ وَفُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَشَهِدَهُ سَبْعُونَ أَلْفًا مِنَ الْمَلاَئِكَةِ لَقَدْ ضُمَّ ضَـــمَّةً ثُـــمَّ فُرِّجَ عَنْهُ** » (١)

أحاديث في الباب : -

[١٧٠] عَنْ عَائِشَةَ – رضي الله عنها – أَنَّ يَهُودِيَّةً دَخَلَتْ عَلَيْهَا ، فَذَكَرَتْ عَـــذَابَ الْقَبْرِ ، فَقَالَتْ لَهَا أَعَاذَكِ اللَّهُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ . فَسَأَلَتْ عَائِشَةُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ عَذَابِ الْقَبْرِ فَقَالَ « نَعَمْ عَذَابُ الْقَبْرِ » . قَالَتْ عَائِشَةُ – رضي الله عنها – فَمَا رَأَيْتُ رَسُـــولَ اللَّهِ ﷺ .بَعْدُ صَلَّى صَلاَةً إِلاَّ تَعَوَّذَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ)) (٢)

الشرح : -

قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ في الفتح : قوله: (أن يهودية دخلت عليها فذكرت عـــذاب القبر) وقع في رواية أبي وائل عن مسروق عند المصنف في الدعوات"دخلت عجوزان من عجز يهود المدينة فقالتا: إن أهل القبور يعذبون في قبورهم"وهو محمول على أن إحـــداهما تكلمت وأقرتها الأخرى على ذلك فنسبت القول إليهما مجازا، والإفـــراد يحمـــل علـــى المتكلمة. و لم أقف على اسم واحدة منهما. وزاد في رواية أبي وائل"فكذبتهما" ووقع عند مسلم من طريق ابن شهاب عن عروة عن عائشة قالت"دخلت على امرأة من اليهود وهي تقول: هل شعرت أنكم تفتنون في القبور. قال: فارتاع رسول الله ﷺ وقال: إنمـــا يفـــتن

(١) صحيح سنن النسائي للألباني :٢/٧٤ ك/ الجنائز ب/ ضمة القبر وضغطته ح/ ٢٠٥٤
(٢) البخاري في الفتح : ٢٨١/٣ ك/ الجنائز ب/ ما جاء في عذاب القبر ح/١٣٧٢ ط/ دار التقوى للتراث .

يهود. قالت عائشة: فلبثنا ليالي، ثم قال رسول الله ﷺ : هل شعرت أنه أوحى إلى أنكـم تفتنون في القبور. قالت عائشة: فسمعت رسول الله ﷺ يستعيذ من عذاب القـبر"وبـين هاتين الروايتين مخالفة، لأن في هذه أنه ﷺ أنكر على اليهودية، وفى الأولى أنه أقرها. قال النووي تبعا للطحاوى وغيره: هما قصتان، فأنكر النبي ﷺ قول اليهودية في القصة الأولى، ثم أعلم النبي ﷺ بذلك و لم يعلم عائشة، فجاءت اليهودية مرة فذكرت لها ذلك فأنكرت عليها مستندة إلى الإنكار الأول، فأعلمها النبي ﷺ بأن الوحي نـزل بإثباته انتهى. وقال الكرماني: يحتمل أنه صلى ﷺ كان يتعوذ سرا فلما رأى استغراب عائشة حـين سمعت ذلك من اليهودية أعلن به انتهى. وكأنه لم يقف على رواية الزهري عـن عـروة الـتي ذكرناها عن صحيح مسلم، وقد تقدم في " باب التعوذ من عذاب القبر"في الكسوف من طريق عمرة عن عائشة"أن يهودية جاءت تسألها فقالت لها: أعاذك الله من عذاب القـبر، فسألت عائشة رسول الله ﷺ أتعذب الناس في قبورهم؟ فقال رسول الله ﷺ عائذا بالله من ذلك. ثم ركب ذات غداة مركبا فخسفت الشمس " فذكر الحديث، وفى آخره"ثم أمرهم أن يتعوذوا من عذاب القبر"وفى هذه موافقة لرواية الزهري وأنه ﷺ لم يكن علم بـذلك. وأصرح منه ما رواه أحمد بإسناد على شرط البخاري عن سعيد بن عمـرو بـن سـعيد الأموي عن عائشة"أن يهودية كانت تخدمها، فلا تصنع عائشة إليها شيئا من المعروف إلا قالت لها اليهودية: وقاك الله عذاب القبر. قالت: فقلت يا رسول الله هل للقبر عـذاب؟ قال: كذبت يهود، لا عذاب دون يوم القيامة. ثم مكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكث، فخرج ذات يوم نصف النهار وهو ينادى بأعلى صوته: أيها الناس استعيذوا بـالله مـن عذاب القبر، فإن عذاب القبر حق"وفى هذا كله أنه ﷺ إنما علم بحكم عذاب القبر إذ هو بالمدينة في آخر الأمر كما تقدم تاريخ صلاة الكسوف في موضعه. وقد استشكل ذلـك بأن الآية المتقدمة مكية وهى قوله تعـالى ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [إبـراهيم: ٢٧] وكذلك الآية الأخرى المتقدمة وهى قوله تعالى ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ [غـافر: ٤٦] والجواب أن عذاب القبر إنما يؤخذ من الأولى بطريق المفهوم في حـق مـن لم يتصف بالإيمان، وكذلك بالمنطوق في الأخرى في حق آل فرعون وإن التحق بهم من كان

له حكمهم من الكفار، فالذي أنكره النبي ﷺ إنما هو وقوع عذاب القبر على الموحدين، ثم أعلم ﷺ أن ذلك قد يقع على من يشاء الله منهم فجزم به وحذر منه وبالغ في الاستعاذة منه تعليما لأمته وإرشادا، فانتفى التعارض بحمد الله تعالى. وفيه دلالة على أن عذاب القبر ليس بخاص بهذه الأمة .....)) اهـ (١)

[١٧١] عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ أَتَاهُ مَلَكَانِ فَيُقْعِدَانِهِ فَيَقُولانِ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ لِمُحَمَّدٍ ﷺ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَقُولُ أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ فَيُقَالُ لَهُ انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا قَالَ قَتَادَةُ وَذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى حَدِيثِ أَنَسٍ قَالَ وَأَمَّا الْمُنَافِقُ وَالْكَافِرُ فَيُقَالُ لَهُ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ فَيَقُولُ لا أَدْرِي كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ فَيُقَالُ لا دَرَيْتَ وَلا تَلَيْتَ وَيُضْرَبُ بِمَطَارِقَ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ غَيْرَ الثَّقَلَيْنِ)) (٢)

الشرح: قوله : ((إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ)) كذا ثبت في جميع الروايات فقال ابن التين: إنه كرر اللفظ والمعنى واحد، ورأيته أنا مضبوطا بخط معتمد"وتولى" بضم أوله وكسر اللام على البناء للمجهول، أي تولى أمره أي الميت، وسيأتي في رواية عياش بلفظ"وتولى عنه أصحابه " وهو الموجود في جميع الروايات عند مسلم وغيره.

[١٧٢] عن أَسْمَاءَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ رضي اللَّهُ عَنْهُمَا تَقُولُ : ((قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطِيبًا فَذَكَرَ فِتْنَةَ الْقَبْرِ الَّتِي يَفْتَتِنُ فِيهَا الْمَرْءُ فَلَمَّا ذَكَرَ ذَلِكَ ضَجَّ الْمُسْلِمُونَ ضَجَّةً)) (٣)

الشرح: أورده - البخاري - مختصرا جدا بلفظ "قام رسول الله ﷺ خطيبا فذكر فتنة القبر التي يفتتن فيها المرء، فلما ذكر ذلك ضج المسلمون ضجة"وهو مختصر، وقد ساقه

---

(١) البخاري في الفتح :٢٨٦/٣ ، ٢٨٧ .ك/ الجنائز ب/ ما جاء في عذاب القبر .
(٢) الفتح : ٢٨٢/٣ ك/ الجنائز ب/ ما جاء في عذاب القبر ح/ ١٣٧٤
(٣) الفتح :٢٨٢/٣ ك/ الجنائز ب/ ما جاء في عذاب القبر ح/١٣٧٣ .

النسائي والإسماعيلي من الوجه الذي أخرجه منه البخاري فزاد بعد قوله ضجة"حالت بيني وبين أن أفهم آخر كلام رسول الله ﷺ ، فلما سكت ضجيجهم قلت لرجل قريب مني: أي بارك الله فيك، ماذا قال رسول الله ﷺ في آخر كلامه؟ قال . قال: قـد أوحـى إلي أنكم تفتنون في القبور قريبا من فتنة الدجال"انتهى . وقد تقدم هذا الحـديث في كتـاب العلم وفي الكسوف من طريق فاطمة بنت المنذر عن أسماء بتمامه، وفيه من الزيادة"يـؤتى أحدكم فيقال له: ما علمك بهذا الرجل" الحديث، فلم يبين فيه ما بين في هذه الرواية من تفهيم الرجل المذكور لأسماء فيه. وأخرجه في كتاب الجمعة من طريق فاطمة أيضا وفيـه أنه"لما قال أما بعد لغط نسوة من الأنصار، وأنها ذهبت لتسكتهن فاستفهمت عائشة عما قال"فيجمع بين مختلف هذه الروايات أنها احتاجت إلى الاستفهام مرتين، وأنه لما حـدثت فاطمة لم تبين لها الاستفهام الثاني. ولم أقف على اسم الرجل الذي استفهمت منـه عـن ذلك إلى الآن. ولأحمد من طريق محمد بن المنكدر عن أسماء مرفوعا"إذا دخـل الإنسـان قبره فإن كان مؤمنا احتف به عمله فيأتيه الملك فترده الصلاة والصيام، فيناديـه الملـك: اجلس، فيجلس فيقول: ما تقول في هذا الرجل محمد؟ قال: أشهد أنه رسول الله. قـال: على ذلك عشت وعليه مت وعليه تبعث " الحديث اهـ [1]

ثالثا :النفخ في الصور وخفة موازين الكافرين ولفحت النار وجوههم :

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [المؤمنون]

---

(١) انظر كتابنا الجواهر الحسان ط/ العلوم والحكم .

شرح الكلمات :

﴿فِي ٱلصُّورِ﴾ : أي في القرن المعبر عنه بالبوق نفخة القيام من القبور للحساب والجزاء .

﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ : أي الفائزون بالنجاة من النار ودخول الجنة .

﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ : أي تحرقها .

﴿وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ﴾ : الكالح من أحرقت النار جلدة وجهه وشفتيه فظهرت أسنانه .

﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ : أي يوبخون ويذكرون بالماضي ليحصل لهم الندم والمراد بالآيات آيات القرآن .

﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ : أي الشقاوة الأزلية التي تكتب على العبد في كتاب المقادير قبل وجوده .

﴿أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا﴾ : أي من النار فإن عدنا إلى الشرك والمعاصي .

معنى الآيات :

ما زال السياق في تقرير التوحيد والنبوة والبعث والجزاء والدعوة إلى ذلك وعرض الأدلة وتبيينها وتنويعها ، إذ لا يمكن استقامة إنسان في تفكيره وخلقه وسلوكه على مناهج الحق والخير إلا إذا آمن إيماناً راسخاً بوجود الله تعالى ووجوب طاعته وتوحيده في عباداته ، وبالواسطة في ذلك وهو الوحي والنبي الموحي إليه ، وبالبعث الآخر الذي هو دور الحصاد لما زرع الإنسان في هذه الحياة من خير وشر فقوله تعالى : ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ هذا عرض لما يجرى في الآخرة فيخبر تعالى أنه إذا نفخ اسرافيل بإذن الله في الصور الذي هو القرن أي كقرن الشاة لقوله تعالى : ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾﴾ [المدثر] فلشدة

الهول وعظيم الفزع لم يبق نسب يراعى أو يلتفت إليه بل كل واحد همه نفسه فقط ، ولا يسأل حميم حميماً

[١٧٣] عن الْحَسَنُ قَالَتْ عَائِشَةُ رَسُولَ اللَّهِ هَلْ تَذْكُرُونَ أَهْلِيكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ قَالَ : « أَمَّا فِي مَوَاطِنَ ثَلَاثَةٍ فَلَا الْكِتَابُ وَالْمِيزَانُ وَالصِّرَاطُ » (١) ومعنى هذا الحديث واضح والشاهد منه ظاهر وهو أنهم لا يتساءلون .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ أي من رجحت كفة حسناته على كفة سيئاته أفلح أي نجا من النار وأدخل الجنة ومن خفت موازينه بأن حصل العكس فقد خسر وَ أبعد عن الجنة وأدخل النار وهذا معنى قوله تعالى ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ أي تحرق وجوههم النار فيكلحون باحتراق شفاههم وتظهر أسنانهم وهو أبشع منظر وأسوأه وقوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ هذا يقال لهم تأنيباً وتوبيخاً وهم في جهنم وهو عذاب نفساني مع العذاب الجثماني ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أما كان رسلنا يتلون عليكم آياتنا ﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ بأقوالكم وأعمالكم أو بأعمالكم دون أقوالكم فلم تحرموا ما حرم الله ولم تؤدوا ما أوجب الله ، ولم تنتهوا عما نهاكم عنه .

وقوله تعالى : ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا ﴾ هذا جوابهم كالمعتذرين بأن شقاءهم كان بقضاء وقدر فلذا حيل بينهم وبين الإيمان والعمل الصالح . وقوله تعالى : ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴾ هذا قولهم أيضاً وهو اعتراف صريح بأنهم كانوا ضالين . ثم قالوا ما

---

(١) إسناده صحيح:أحمد : ١٧/٤٠٥ ح/ ٢٤٥٧٧ ت/ حمزة الزين ورواه أبو داود : ٤/٢٤٠ ح/٤٧٥٥.

أخبر تعالى به عنهم بقوله : ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ هذا دعاؤهم وهم في جهنم يسألون ربهم أن يردهم إلى الدنيا ليؤمنوا ويستقيموا على صراط الله المستقيم الذي هو الإسلام وسوف ينتظرون جواب الله تعالى ألف سنة ، وهو ما تضمنته الآيات التالية . اهـ [(١)]

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله تعالى :﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

يخبر تعالى عن هول يوم القيامة، وما في ذلك اليوم، من المزعجات والمقلقات، وأنه إذا نفخ في الصور نفخة البعث، فحشر الناس أجمعون، لميقات يوم معلوم، أنه يصيبهم من الهول ما ينسيهم أنسابهم، التي هي أقوى الأسباب، فغير الأنساب من باب أولى، وأنه لا يسأل أحد أحدا عن حاله، لاشتغاله بنفسه، فلا يدري هل ينجو نجاة لا شقاوة بعدها؟ أو يشقى شقاوة لا سعادة بعدها؟ قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [عبس] .

وفي القيامة مواضع، يشتد كربها، ويعظم وقعها، كالميزان الذي يميز به أعمال العبد، وينظر فيه بالعدل ما له وما عليه، وتبين فيه مثاقيل الذر، من الخير والشر، ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ بأن رجحت حسناته على سيئاته ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ لنجاتهم من النار، واستحقاقهم الجنة، وفوزهم بالثناء الجميل ، ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ بأن رجحت سيئاته على حسناته، وأحاطت بها خطيئاته ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾

(١) انظر تفسير الجزائري : ٢/ ٤٦٩ -٤٧١ تفسير سورة المؤمنون الآيات (١٠١ – ١٠٧) .

كل خسارة، غير هذه الخسارة، فإنها -بالنسبة إليها- سهلة، ولكن هذه خسارة صعبة، لا يجبر مصابها، ولا يستدرك فائتها، خسارة أبدية، وشقاوة سرمدية، قد خسر نفسه الشريفة، التي يتمكن بها من السعادة الأبدية ففوتها هذا النعيم المقيم، في جوار الرب الكريم.

﴿فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ لا يخرجون منها أبد الآبدين، وهذا الوعيد، إنما هو كما ذكرنا، لمن أحاطت خطيئاته بحسناته، ولا يكون ذلك إلا كافرا، فعلى هذا، لا يحاسب محاسبة من توزن حسناته وسيئاته، فإنهم لا حسنات لهم، ولكن تعد أعمالهم وتحصى، فيوقفون عليها، ويقررون بها، ويخزون بها، وأما من معه أصل الإيمان، ولكن عظمت سيئاته، فرجحت على حسناته، فإنه وإن دخل النار، لا يخلد فيها، كما دلت على ذلك نصوص الكتاب والسنة.

ثم ذكر تعالى، سوء مصير الكافرين فقال: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: تغشاهم من جميع جوانبهم، حتى تصيب أعضاءهم الشريفة، ويتقطع لهبها عن وجوههم، ﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ قد عبست وجوههم، وقلصت شفاههم، من شدة ما هم فيه، وعظيم ما يلقونه.

﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا
شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ
ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا
وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ
﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ
سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [المؤمنون] .

.رابعا : محاولة فاشلة أخيرة للكفار

فيقال لهم - توبيخا ولوما -: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ تدعون بها، لتؤمنوا، وتعرض عليكم لتنظروا، ﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ ظلما منكم وعنادا، وهي آيات بينات، دالات على الحق والباطل، مبينات للمحق والمبطل، فحينئذ أقروا بظلمهم، حيث لا ينفع الإقرار ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ أي: غلبت علينا الشقاوة الناشئة عن الظلم والإعراض عن الحق، والإقبال على ما يضر، وترك ما ينفع، ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ في عملهم، وإن كانوا يدرون أنهم ظالمون، أي: فعلنا في الدنيا فعل التائه، الضال السفيه، كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك] ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ وهم كاذبون في وعدهم هذا، فإنهم كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام] ولم يبق الله لهم حجة، بل قطع أعذارهم، وعمرهم في الدنيا، ما يتذكر فيه [من] المتذكر، ويرتدع فيه المجرم، فقال الله جوابا لسؤالهم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ وهذا القول - نسأله تعالى العافية- أعظم قول على الإطلاق يسمعه المجرمون في التخييب، والتوبيخ، والذل، والخسار، والتأييس من كل خير، والبشرى بكل شر، وهذا الكلام والغضب من الرب الرحيم، أشد عليهم وأبلغ في نكايتهم[1] من عذاب الجحيم ، ثم ذكر الحال التي أوصلتهم إلى العذاب، وقطعت عنهم الرحمة فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ فجمعوا بين الإيمان المقتضي لأعماله الصالحة، والدعاء لربهم بالمغفرة والرحمة، والتوسل

---

(١) نكايتهم من عذاب الجحيم أي : أشد من عذاب الجحيم

إليه بربوبيته، ومنته عليهم بالإيمان، والإخبار بسعة رحمته، وعموم إحسانه، وفي ضمنه، ما يدل على خضوعهم وخشوعهم، وانكسارهم لربهم، وخوفهم ورجائهم.

فهؤلاء سادات الناس وفضلائهم، ﴿ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ ﴾ أيها الكفرة الأنذال ناقصو العقول والأحلام ﴿سِخْرِيًّا﴾ تهزءون بهم وتحتقروهم، حتى اشتغلتم بذلك السفه. ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾ وهذا الذي أوجب لهم نسيان الذكر، اشتغالهم بالاستهزاء بهم، كما أن نسيانهم للذكر، يحثهم على الاستهزاء، فكل من الأمرين يمد الآخر، فهل فوق هذه الجراءة جراءة ؟!

﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ ﴾ على طاعتي، وعلى أذاكم، حتى وصلوا إلي. ﴿أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ بالنعيم المقيم، والنجاة من الجحيم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [المطففين] الآيات.

﴿ قَٰلَ ﴾ لهم على وجه اللوم، وأنهم سفهاء الأحلام، حيث اكتسبوا في هذه المدة اليسيرة كل شر أوصلهم إلى غضبه وعقوبته، ولم يكتسبوا ما اكتسبه المؤمنون [من] الخير، الذي يوصلهم إلى السعادة الدائمة ورضوان ربهم.

﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ كلامهم هذا مبني على استقصارهم جدا لمدة مكثهم في الدنيا وأفاد ذلك لكنه لا يفيد مقداره ولا يعينه فلهذا قالوا ﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴾ أي الضابطين لعدده وأما هم ففي شغل شاغل وعذاب مذهل عن معرفة عدده فقال لهم ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ سواء عينتم عدده أم لا ﴿لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ اهـ[1]

---

(١) انظر تفسير السعدي [المجلد الواحد] ص٦٠٨ لسورة المؤمنون الآيات (١٠٥ – ١١٤) .

خامسا : إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة .

في هذا الدرس الأخير في السورة يستطرد في الحديث عن نهاية المشركين؛ فيبرزها في مشهد من مشاهد القيامة . يبدأ بمشهد الاحتضار في الدنيا ، وينتهي هنالك بعد النفخ في الصور . ثم تنتهي السورة بتقرير الألوهية الواحدة ، وتحذير من يدعون مع الله إلهاً آخر وتخويفهم من مثل تلك النهاية .

وتختم السورة بتوجيه الرسول ﷺ إلى ربه ليطلب غفرانه ورحمته؛ والله خير الراحمين .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ إنه مشهد الاحتضار ، وإعلان التوبة عند مواجهة الموت ، وطلب الرجعة إلى الحياة ، لتدارك ما فات ، والإصلاح فيما ترك وراءه من أهل ومال . . وكأنما المشهد معروض اللحظة للأنظار ، مشهود كالعيان! فإذا الرد على هذا الرجاء المتأخر لا يوجه إلى صاحب الرجاء ، إنما يعلن على رؤوس الأشهاد :﴿كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ كلمة لا معنى لها ، ولا مدلول وراءها ، ولا تنبغي العناية بها أو بقائلها . إنها كلمة الموقف الرهيب ، لا كلمة الإخلاص المنيب . كلمة تقال في لحظة الضيق ، ليس لها في القلب من رصيد!

وبها ينتهي مشهد الاحتضار . وإذا الحواجز قائمة بين قائل هذه الكلمة والدنيا جميعاً . فلقد قضي الأمر ، وانقطعت الصلات ، وأغلقت الأبواب ، وأسدلت الأستار :

﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ فلا هم من أهل الدنيا ، ولا هم من أهل الآخرة . إنما هم في ذلك البرزخ ....، إلى يوم يبعثون .

ثم يستطرد السياق إلى ذلك اليوم ، يصوره ويعرضه للأنظار .

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١ ﴾ إنما تقطعت الروابط ، وسقطت القيم التي كانوا يتعارفون عليها في الدنيا ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ﴾ . وشملهم الهول بالصمت ، فهم ساكنون لا يتحدثون ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ .

ويعرض ميزان الحساب وعملية الوزن في سرعة واختصار .

﴿ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ١٠٣ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ١٠٤ ﴾ وعملية الوزن بالميزان تجري على طريقة القرآن في التعبير بالتصوير ، وتجسيم المعاني في صور حسية ، ومشاهد ذات حركة .

ومشهد لفح النار للوجوه حتى تلفح ، وتشوه هيئتها ، ويكدر لونها . . مشهد مؤذ أليم .

وهؤلاء الذين خفت موازينهم خسروا كل شيء . فقد خسروا أنفسهم . وحين يخسر الإنسان نفسه فماذا يملك إذن؟ وما الذي يتبقى له . وقد خسر نفسه التي بين جنبيـــه ، وخسر ذاته التي تميزه ، فكأنما لم يكن له وجود .

وهنا يعدل عن أسلوب الحكاية إلى أسلوب الخطاب والمواجهة ، فإذا العذاب الحســي على فظاعته أهون من التأنيب والخزي الذي يصاحبه .

وكأنما نحن نراه اللحظة ونشهده في حوار ماض طويل :

﴿أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٠٥﴾ وكأنما يخيل إلـــيهم وقـــد سمعوا هذا السؤال إنهم مأذونون في الكلام ، مسموح لهـــم بالرجـــاء . وأن الإعتـــراف بالذنب قد يجـــدي في قبـــول الرجـــاء :﴿ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ١٠٦ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ١٠٧﴾ وهو اعتراف تتجلـــى فيه المرارة والشقوة . . ولكن كأنما هم قد تجاوزوا حدهم وأساءوا أدهم ، فلـــم يكـــن مأذوناً لهم في غير الإجابة على قدر السؤال . بل لعله كان سؤالاً للتبكيت لا يطلب عليه منهم جواب . فهم يزجرون زجراً عنيفاً قاسياً :

﴿ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ إخرسوا واسكتوا سكوت الأذلاء المهينين ، فإنكم لتستحقون ما أنتم فيه من العذاب الأليم والشقاء المهين :

﴿ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

وكذلك لم يكن جرمكم أنكم كفرتم فحسب ، واقتصرتم على أنفسكم بالكفر وهو جرم عظيم؛ إنما بلغ بكم السفه والتوقح أن تسخروا ممن آمنوا ، وراحوا يرجون غفران رهم ورحمته؛ وأن تضحكوا منهم حتى ليشغلكم هذا الهذر عن ذكر الله ، ويباعد بينكم وبين التدبر والتفكر في دلائل الإيمان المبثوثة في صفحات الوجود . . فانظروا اليوم أين مكانكم ومكان أولئك الذين كنتم تسخرون منهم وتضحكون :

﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ وبعد هذا الرد القاسي المهين ، وبيان أسبابه ، وما في هذا البيان من ترذيل وتبكيت . . يبدأ استجواب جديد :

﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ وإن الله سبحانه ليعلم . ولكنه سؤال لاستصغار أمر الأرض ، واستقصار أيامهم فيها . وقد باعوا بها حياة الخلود . . وإنهم ليحسون اليوم بقصر تلك الحياة وضآلتها . وإنهم ليائسون ضيقو الصدر ، لا يعنيهم حسابها وعدها :﴿ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾ ﴾ وهي إجابة الضيق واليأس والأسى والقنوط!

والرد : إنكم لم تلبثوا إلا قليلاً بالقياس إلى ما أنتم عليه مقبلون لو كنتم تحسنون التقدير :

﴿ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾ ثم عودة إلى الترذيل والتعنيف على تكذيبهم بالآخرة ، مع التبصير بحكمة البعث المكنونة منذ أول الخلق :

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ فحكمة البعث من حكمة الخلق . محسوب حسابها ، ومقدر وقوعها ، ومدبر غايتها . وما البعث إلا حلقة

في سلسلة النشأة ، تبلغ بها كمالها ، ويتم فيها تمامها . ولا يغفل عن ذلك إلا المحجوبون المطموسون ، الذين لا يتدبرون حكمة الله الكبرى؛ وهي متجلية في صفحات الكون ، مبثوثة في أطواء الوجود . .اهـ (١)

من هداية الآيات :

١- تقرير عقيدة البعث والجزاء من خلال عرض أحداثها في هذه الآيات .

٢- تقرير أن وزن الأعمال يوم القيامة حق وإنكاره بدعة مكفرة .

٣- تقرير أن إسرافيل ينفخ في الصور وإنكار ذلك وتأويله بلفظ الصور كما فعل المراغي عند تفسيره هذه الآية مع الأسف بدعة من البدع المنكرة ولذا نبهت عليها هنا حتى لا يغتر بها المؤمنون .

٤- الاعتذار بالقدر لا ينفع صاحبه ، إذ القدر مستور فلا ينظر إليه والعبد مأمور فليؤتمر بأمر الله ورسوله ولينته بنهيهما ما دام العبد قادراً على ذلك فإن عجز فهو معذور اهـ (٢)

الإنذار بالنار :

[١٧٤] قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ : حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ عَنْ الزُّهْرِيِّ قَالَ حَدَّثَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ ﷺ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((اشْتَكَتْ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا فَقَالَتْ رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ نَفَسٍ فِي الشِّتَاءِ وَنَفَسٍ فِي الصَّيْفِ فَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنْ الْحَرِّ وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنْ الزَّمْهَرِيرِ))(٣)

---

(١) انظر الظلال : ٤/ ٢٤٨٢ في ظلال سورة المؤمنون آيات (١١٤ – ١١٥) ط/ دار الشروق .

(٢) المصدر السابق .

(٣) صحيح البخاري ك/بدأ الخلق/ باب: صفة النار /حـ ٣٠٢٠ ؛ومسلم ك/المساجد ،ومواضع الصلاة ح٩٧٣

[١٧٥] قال رسول الله ﷺ ((إذا كان اليوم الحار فابردوا بالصلاة فإن شدة الحر من فيح جهنم)) (١)

[١٧٦] عن الأعرج ،عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال ((ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم .قيل يا رسول الله إن كانت لكافية قال فضلت عليهن بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها)) (٢)

قال الحافظ : قوله" إن كانت لكافية " إن هي المخففة من الثقيلة

[١٧٧] عن أبي الزناد ،عن الأعرج ، عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ ((قال ناركم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ،قيل :يا رسول الله إن كانت لكافية ، قال فُضِّلَتْ عَلَيْهِنَّ بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها)) (٣)

قال الغزالي : فهذه أصناف عذاب جهنم على الجملة ، وتفصيل غمومها لا نهاية له ،فأعظم الأمور عليهم مع ما يلاقونه من شدة العذاب حسرة فوات نعيم الجنة ، وفوات لقاء الله تعالى .

وفوات رضاه ، مع العلم باعوا كل ذلك بثمن بخس دراهم معدودة ، إذ لم يبيعوا ذلك إلا بشهوات حقيرة في الدنيا .أياماً قصيرة وكانت غير صافية ، بل كانت مُكَدرة منغصة ، فيقولون في أنفسهم : واحسرتاه ! كيف أهلكنا أنفسنا بعصيان ربنا ،،وكيف لم نكلف أنفسنا الصبر أياماً قلائل ، ولو صبرنا لكانت انقضت عنا أيامه ، وبقينا الآن في جواره ، متنعمين بالرضا والرضوان ،فيا حسرة هؤلاء وقد فاتهم ، ما فاتهم ،ابتلوا بما ابتلوا به ، ولم يبق معهم شيء من نعيم الدنيا وشهواتها ،ولذاتها ، ثم إنهم لو لم يُشاهدوا نعيم الجنة ، لم تعظم حسرتهم لكنها تعرض عليهم ...فانظر يا

---

(١) أخرجه الدار مي في كتاب الرقاق ح٢٧٢٢؛ومالك في الموطأ في كتاب :وقت الصلاة ح٣٦؛والترمذى في صفة جهنم ح٢٥١٧؛وفي الصلاة ح١٤٥؛؛والنسائي كتاب المواقيت ح٤٩٦/٣٤١/٦٦٩

(٢) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق باب صفة النار ،وأنها مخلوقة ح٣٠٢٥

(٣) أحمد :٤٧٨/٢ . و صحيح مسلم قريب منه في الألفاظ :١٤٩/٨ ــ ١٥٠

مسكين في هذه الأهوال ، وأعلم أن الله تعالي خلـق النار بأهوالها ، وخلق لها أهـلاً لا يزيدون ولا ينقصون ،وأن هذا الأمر قد قضى وفرغ منه قالي تعـالى ﴿وَأَنـذِرْهُمْ يَـوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾

فالعجب منك حيث تضحك ،وتلهوا ، وتنشغل بمحقرات الدنيا ، ولست تـدري أن القضاء بماذا سبق في حقك،فإن قلت فليت شعري ماذا مـوردي ؟ وإلى مـاذا مـآلي وموردي ؟ وما الذي سبـق به القضاء في حقي ؟فلك علامة تستأنس بهـا ، وتصدّق رجاءك بسببها ، وهي أن تنظر إلى أحوال أعمالك ، فإن كلاً ميسر لما خلق له ، ومن ثم فأحرص على ما ينفعك واستعن بالله ، ولا تعجز ، ولا تقف مع القدر ، وقفة المشركين السلبيين ، الذين هلكوا بسوء ظنهم ، وقصـدهم ،وخبث طويتـهم ، ولكـن لـيكن الكتاب ، والسنة دافعين لك إلى الجد والعمل إلى آخر الأجل ، ليرضى عنـك الله ﷻ ، فإن وفقت فأبشر ببشرى القرآن لك حيث قال ربـك ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾ [الزمر]

يا صاح فاستوثق بالحق واستمسـك ... ولتزك في نفسـك أرجـوك فاسـتقم

فلتنشـر الخـير ولتنشـر الـبرَّ ... ولتنثـر الـدُرَّ وقِّـر أولي العـزم

اصـبر للملحمـة ابـرر برحمـة ... سارع لمكرمة اصحب ذوي القيم

ازرع بسـاتينا واكفـل مسـاكينا ... تحصد رياحينا أكرم ذوي رحـم

اخضع لمولاك فالله سواك أحببـه ... فكفـاك أحيـاك مـن عـدم

أقبل بلا لعب وارغب مع النصـب ... واسلك مع النجب اسهر مع النجم

اقنت ترى عجبا من قـام فانتصبـا ... لله واقتربـا سـيكون في كـرم

سُورَةُ النور

بين يدي السورة الكريمة :

هذه سورة النور . . يذكر فيها النور بلفظه متصلاً بذات الله : ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ويذكر فيها النور بآثاره ومظاهره في القلوب والأرواح؛ ممثلة هذه الآثار في الآداب والأخلاق التي يقوم عليها بناء هذه السورة . وهي آداب وأخلاق نفسية وعائلية وجماعية ، تنير القلب ، وتنير الحياة؛ ويربطها بذلك النور الكوني الشامل أنها نور في الأرواح ، وإشراق في القلوب ، وشفافية في الضمائر ، مستمدة كلها من ذلك النور الكبير .

وهي تبدأ بإعلان قوي حاسم عن تقرير هذه السورة وفرضها بكل ما فيها من حدود وتكاليف ، ومن آداب وأخلاق : ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾﴾ . فيدل هذا البدء الفريد على مدى اهتمام القرآن بالعنصر الأخلاقي في الحياة؛ ومدى عمق هذا العنصر وأصالته في العقيدة الإسلامية ، وفي فكرة الإسلام عن الحياة الإنسانية . .والمحور الذي تدور عليه السورة كلها هو محور التربية التي تشتد في وسائلها إلى درجة الحدود . وترق إلى درجة اللمسات الوجدانية الرفيقة ، التي تصل القلب بنور الله وبآياته المبثوثة في تضاعيف الكون وثنايا الحياة . والهدف واحد في الشدة واللين . هو تربية الضمائر ، واستجاشة المشاعر؛ ورفع المقاييس الأخلاقية للحياة ، حتى تشف وترف ، وتتصل بنور الله . . وتتداخل الآداب النفسية الفردية ، وآداب البيت والأسرة ، وآداب الجماعة والقيادة . بوصفها نابعة كلها من معين واحد هو العقيدة في الله ، متصلة كلها بنور واحد هو نور الله . وهي في صميمها نور وشفافية ، وإشراق وطهارة . تربية عناصرها من مصدر النور الأول في السماوات والأرض . نور الله الذي أشرقت به الظلمات . في السماوات والأرض ، والقلوب والضمائر ، والنفوس والأرواح

ويجري سياق السورة حول محورها الأصيل في خمسة أشواط :

الأول : يتضمن الإعلان الحاسم الذي تبدأ به؛ ويليه بيان حد الزنا ، وتفظيع هذه الفعلة ، وتقطيع ما بين الزناة والجماعة المسلمة ، فلا هي منهم ولا هم منها . ثم بيان حد القذف وعلة التشديد فيه؛ واستثناء الأزواج من هذا الحد مع التفريق بين الزوجين بالملاعنة . ثم حديث الإفك وقصته . . وينتهي هذا الشوط بتقرير مشاكلة الخبيثين للخبيثات ، ومشاكلة الطيبين للطيبات . وبالعلاقة التي تربط بين هؤلاء وهؤلاء .

ويتناول الشوط الثاني وسائل الوقاية من الجريمة ، وتجنيب النفوس أسباب الإغراء والغواية . فيبدأ بآداب البيوت والاستئذان على أهلها ، والأمر بغض البصر والنهي عن إبداء الزينة للمحارم . والحض على إنكاح الأيامى . والتحذير من دفع الفتيات إلى البغاء . . وكلها أسباب وقائية لضمانة الطهر والتعفف في عالم الضمير والشعور ، ودفع المؤثرات التي تهيج الميول الحيوانية ، وترهق أعصاب المتحرجين المتطهرين ، وهم يقاومون عوامل الإغراء والغواية .

والشوط الثالث يتوسط مجموعة الآداب التي تتضمنها السورة ، فيربطها بنور الله . ويتحدث عن أطهر البيوت التي يعمرها وهي التي تعمر بيوت الله .

. وفي الجانب المقابل الذين كفروا وأعمالهم كسراب من اللمعان الكاذب؛ أو كظلمات بعضها فوق بعض . ثم يكشف عن فيوض من نور الله في الآفاق : في تسبيح الخلائق كلها لله . وفي إزجاء السحاب . وفي تقليب الليل والنهار . وفي خلق كل دابة من ماء ، ثم اختلاف أشكالها ووظائفها وأنواعها وأجناسها ، مما هو معروض في صفحة الكون للبصائر والأبصار . .

والشوط الرابع يتحدث عن مجافاة المنافقين للأدب الواجب مع رسول الله ﷺ في الطاعة والتحاكم . ويصور أدب المؤمنين الخالص وطاعتهم . ويعدهم ، على هذا ، الاستخلاف في الأرض والتمكين في الدين ، والنصر على الكافرين .

ثم يعود الشوط الخامس إلى آداب الاستئذان والضيافة في محيط البيوت بين الأقارب والأصدقاء . وإلى آداب الجماعة المسلمة كلها كأسرة واحدة ، مع رئيسها ومربيها رسول الله ﷺ . اهـ [1].

مع الآيات :

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٢٦﴾﴾

شرح الكلمات :

﴿يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ : أي العفيفات بالزنى .

﴿ٱلۡغَٰفِلَٰتِ﴾ : أي عن الفواحش بحيث لم يقع في قلوبهن فعله .

﴿ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ : أي بالله ورسوله ووعد الله ووعيده .

﴿يَعۡمَلُونَ﴾ : أي من قول أو عمل .

﴿يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ﴾ : أي يجازيهم جزاءهم الواجب عليهم .

﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ﴾ : الخبيثات من النساء والكلمات [أي الكلمات الخبيثات].

﴿لِلۡخَبِيثِينَ﴾ : للخبيثين من الرجال .

---

(١) انظر الظلال : ٤/٢٤٨٥ ، ٢٤٨٦ في ظلال سورة النور .

﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ : من النساء والكلمات .

﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ : أي من الرجال .

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ : أي صفوان بن المعطل وعائشة رضى الله عنـهما أي مبرءون من عصبة الإفك[1] . اهـ [2]

المعنى العام :

ثم ذكر الوعيد الشديد على رمي المحصنات فقـال: ﴿ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ أي: العفائف عن الفجور ﴿ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ التي لم يخطر ذلك بقلوهن ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ واللعنة لا تكون إلا على ذنب كبير.

وأكد اللعنة بأنها متواصلة عليهم في الدارين ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهذا زيادة علـى اللعنة، أبعدهم عن رحمته، وأحل بهم شدة نقمته.

وذلك العـذاب يـوم القيامـة ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ فكل جارحة تشهد عليهم بما عملته، ينطقها الذي أنطق كل شيء، فلا يمكنه الإنكار، ولقد عدل في العباد، من جعل شهودهم من أنفسـهم، ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ أي: جزاءهم على أعمالهم، الجزاء الحق، الذي بالعدل والقسط، يجـدون جزاءها موفراً، لم يفقدوا منها شـيئا، ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف]

---

(١) والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما تقدم .

(٢) انظر تفسير الجزائري : ٤٨٤/٢ تفسير سورة النور الآيات (٢٣ – ٢٦) ط/ دار الحديث .

ويعلمون في ذلك الموقف العظيم، أن الله هو الحق المبين، فيعلمون انحصار الحق المبين في الله تعالى.

فأوصافه العظيمة حق، وأفعاله هي الحق، وعبادته هي الحق، ولقاؤه حق، ووعده ووعيده، وحكمه الديني والجزائي حق، ورسله حق، فلا ثمّ حق، إلا في الله وما شيء إلا من الله.

﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ﴾ أي: كل خبيث من الرجال والنساء، والكلمات والأفعال، مناسب للخبيث، وموافق له، ومقترن به، ومشاكل له، وكل طيب من الرجال والنساء، والكلمات والأفعال، مناسب للطيب، وموافق له، ومقترن به، ومشاكل له، فهذه كلمة عامة وحصر، لا يخرج منه شيء، من أعظم مفرداته، أن الأنبياء -خصوصا أولي العزم منهم، خصوصا سيدهم محمد ﷺ، الذي هو أفضل الطيبين من الخلق على الإطلاق لا يناسبهم إلا كل طيب من النساء، فالقدح في عائشة رضي الله عنها بهذا الأمر قدح في النبي ﷺ، وهو المقصود بهذا الإفك، من قصد المنافقين، فمجرد كونها زوجة للرسول ﷺ، يعلم أنها لا تكون إلا طيبة طاهرة من هذا الأمر القبيح.

فكيف وهي هي ؟ صديقة النساء وأفضلهن وأعلمهن وأطيبهن، حبيبة رسول رب العالمين، التي لم يترل الوحي عليه وهو في لحاف زوجة من زوجاته غيرها، ثم صرح بذلك، بحيث لا يبقى لمبطل مقالا ولا لشك وشبهة مجالا فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ والإشارة إلى عائشة رضي الله عنها أصلا وللمؤمنات المحصنات الغافلات تبعا ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ تستغرق الذنوب ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ في الجنة صادر من الرب الكريم.اهـ[١]

(١) انظر تفسير السعدي [المجلد الواحد] ص٦١٤ ، ٦١٥ تفسير سورة النور الآيات (٢٣ – ٢٦) .

وقال البقاعي :

ولما كان الختم بهذين الوصفين بعد الأمر بالعفو ربما جرّأ على مثل هـذه الإساءة ، وصل به مرهباً من الوقوع في مثل ذلك قوله معمماً للحكم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ﴾ أي بالفاحشة ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ أي اللائي جعلن أنفسهن من العفة في مثل الحصن . ولما كان الهام بالسيئ والمقدم عليه عالماً بما يرمي به منه ، جاعلاً له نصب عينه ، أكد معنى الإحصان بقوله : ﴿ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ أي عن السوء حتى عن مجرد ذكره . ولما كان وصف الإيمان حاملاً على كل خير ومانعاً من كل سوء ، نبه على أن الحامل على الوصفين المتقدمين إنما هو التقوى ، وصرف ما لهن من الفطنة إلى ما لله عليهن من الحقوق فقال : ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

ولما ثبت بهذه الأوصاف البعد عن السوء ، ذكر جزاء القاذف كفّاً عنه وتحذيراً منه بصيغة المجهول ، لأن المحذور اللعن لا كونه المعين ، وتنبيهاً على وقوع اللعن من كل من يتأتى منه فقال : ﴿لُعِنُوا۟﴾ أي أبعدوا عن رحمة الله ، وفعل معهم فعل المبعد من الحد وغيره ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ ثم زاد في تعظيم القذف لمن هذه أوصافها فقال : ﴿وَلَهُمْ﴾ أي في الآخرة ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وقيد بوصف الإيمان لأن قذف الكافرة وإن كان محرماً ليس فيه هذا المجموع ، وهذا الحكم وإن كان عاماً فهو لأجل الصديقة بالذات وبالقصد الأول وفيما فيه من التشديد الذي قل أن يوجد مثله في القرآن من الإعلام بعلي قدرها ، وجلي أمرها ، في عظيم فخرها ، ما يجل عن الوصف؛ ثم أتبع ذلك ذكر اليوم الذي يكون فيه أثر ذلك على وجه زاد الأمر عظماً فقال : ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ﴾ أي يوم القيامة في ذلك المجمع العظيم ﴿أَلْسِنَتُهُمْ﴾ إن ترفعوا عن الكذب ﴿وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ إن أنكرت ألسنتهم كذباً وفجوراً ظناً أن الكذب ينفعها ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من هذا

القذف وغيره؛ ثم زاد في التهويل بقوله : ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ أي إذ تشهد عليهم هذه الجوارح ﴿يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ﴾ أي المحيط بكل شيء علماً وقدرة وله الكمال كله ﴿دِينَهُمُ﴾ أي جزاءهم ﴿ٱلۡحَقَّ﴾ أي الذي يظهر لكل أحد من أهل ذلك المجمع العظيم أنهم يستحقونه ، فلا يقدر أحد على نوع طعن فيه ﴿وَيَعۡلَمُونَ﴾ أي إذ ذاك ، لانقطاع الأسباب ، ورفع كل حجاب ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ أي الذي له العظمة المطلقة ، فلا كفوء له ﴿هُوَ﴾ أي وحده ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ أي الثابت أمره فلا أمر لأحد سواه ، ﴿ٱلۡمُبِينُ﴾ الذي لا أوضح من شأنه في ألوهيته وعلمه وقدرته وتفرده بجميع صفات الكمال ، وتتزهه عن جميع سمات النقص ، فيندمون على ما فعلوا في الدنيا مما يقدح في المراقبة وتجري عليه الغفلة؛ قال ابن كثير : وأمهات المؤمنين أولى بالدخول في هذا من كل محصنة لا سيما التي كانت سبب النزول ، وهي عائشة بنت الصديق ﷺ ، وقد أجمع العلماء قاطبة على أن من سبها بعد هذا ورماها بما رماها به بعد هذا الذي ذكر في هذه الآية ، فإنه كافر لأنه معاند للقرآن ، وفي بقية أمهات المؤمنين رضي الله عنهن قولان أصحهما أنهن كهي ، والله أعلم

وقد علم من هذه الآيات وما سبقها من أول السورة وما لحقها إلى آخرها أن الله تعالى ما غلظ في شيء من المعاصي ما غلظ في قصة الإفك ، ولا توعد في شيء ما توعد فيها ، وأكد وبشع ، ووبخ وقرع ، كل ذلك إظهاراً لشرف رسوله ﷺ وغضباً له وإعظاماً لحرمته وصوناً لحجابه .

ولما تضمن ما ذكر من وصفه تعالى علمه بالخفيات ، أتبعه ما هو كالعلة لآية ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ﴾ دليلاً شهودياً على براءة عائشة رضي الله تعالى عنها فقال : ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ﴾ أي من النساء وقدم هذا الوصف لأن كلامهم فيه ، فإذا انتفى ثبت

الطيب ﴿لِلْخَبِيثِينَ﴾ أي من الرجال . ولما كان ذلك لا يفهم أن الخبيث مقصور علـى الخبيثة قال : ﴿وَالْخَبِيثُونَ﴾ أي من الرجال أيضاً ﴿لِلْخَبِيثَاتِ﴾ أي من النساء .

ولما أنتج هذا براءتها رضي الله عنها لأنها قرينـة أطيـب الخلـق ، أكـده بقولـه : ﴿وَالطَّيِّبَاتُ﴾ أي منهن ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ أي منهم ﴿وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ بـذلك قضـى العليم الخبير أن كل شكل ينضم إلى شكله ، ويفعل أفعال مثله ، وهو سبحانه قد اختـار لهذا النبي الكريم لكونه أشرف خلقه خلص عباده مـن الأزواج والأولاد والأصـحاب ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران : ١١٠] « خيركم قرني » وكلمـا ازداد الإنسان منهم من قلبه ﷺ قرباً ازداد طهارة ، وكفى بهذا البرهان دليلاً على براءة الصديقة رضي الله عنها ، فكيف وقد أنزل الله العظيم في براءتها صريح كلامه القديم ، وحاطه من أوله وآخره بهاتين الآيتين المشيرتين إلى الدليل العادي ، وقد تقدم عند آية ﴿الزَّانِي﴾ ذكر لحديث « الأرواح جنود مجندة » وما لاءمه ، لكنه لم يستوعب تخريجه ،

[١٧٨] وقد خرجه مسلم في الأدب من صحيحه وأبو داود في سننه من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال : ((الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ)) (١)

[١٧٩] وفي رواية عنه رفعها : « النَّاسُ مَعَادِنُ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ خِيَـارُكُمْ فِـي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الإِسْلاَمِ إِذَا فَقِهُوا ، و الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَـا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ » (٢) وهذا الحديث روي أيضاً عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وعلي ابن أبي طالب وسلمان الفارسي وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسـعود وعبد الله بن عمرو وعمرو بن عبسة ﷺ ، وقد علق البخاري في صحيحه حديث عائشة

---

(١) مسلم نووي : ١٦/١٤٠ ك/ البر والصلة والآداب ب/ الأرواح جنود مجندة ح/ ٢٦٣٨ ط/ المنار

(٢) مسلم نووي : ١٦/١٤٠ ك/ البر والصلة والآداب ب/ الأرواح جنود مجندة ح/ ٢٦٣٨[١٦٠] ط/ المنار

رضي الله عنها بصيغة الجزم ، ووصله في كتاب الأدب المفرد وكذا الإسماعيلي في المستخرج ، وأبو الشيخ في كتاب الأمثال ، وتقدم عزوه إلى أبي يعلى ،

[١٨٠] ولفظ حديث ابن عمر رضي الله عنهما « **فما كان في الله ائتلف ، وما كان في غير الله اختلف** » أخرجه أبو الشيخ في الأمثال ، ولفظ حديث ابن مسعود ﷺ « **فإذا التقت تشامّ كما تشامّ الخيل ، فما تعارف منها ائتلف** » - الحديث .

[١٨١] وأما حديث علي ﷺ فرواه الطبراني في الأوسط في ترجمة محمد بن الفضل السقطي وأبو عبد الله بن منده في كتاب الروح عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه قال : قال عمر بن الخطاب ﷺ لعلي بن أبي طالب ﷺ : يا أبا الحسن! ربما شهدت وغبنا وربما شهدنا وغبت ، ثلاث أسألك عنهن هل عندك منهن علم؟ قال علي : وما هن؟ قال : الرجل يحب الرجل ولم ير منه خيراً ، والرجل يبغض الرجل ولم ير منه شراً ، فقال علي ﷺ : نعم! سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إن الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف** » قال عمر : واحدة ، قال : والرجل يحدث الحديث إذ نسيه فبينا هو وما نسيه إذ ذكره؟ فقال علي ﷺ : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **ما من القلوب قلب إلا وله سحابة كسحابة القمر ، بينما القمر مضيء إذ علته سحابة فأظلم إذ تجلت فأضاء ، وبينا القلب يتحدث إذ تجللته سحابة فنسي إذ تجلت عنه فذكر** » ،

[١٨٢] فقال عمر ﷺ : اثنتان ، وقال : والرجل يرى الرؤيا ، فمنها ما يصدق ومنها ما يكذب؟ قال : نعم! سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **ما من عبد أو أمة ينام فيستقل نوماً إلا عرج بروحه إلى العرش ، فالتي لا تستيقظ إلا عند العرش فتلك الرؤيا التي تصدق ، والتي تستيقظ دون العرش فتلك الرؤيا التي تكذب** »[١] ، فقال عمر ﷺ :

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥/٢٤٧ ، رقم ٥٢٢٠) ، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٢/١٩٦) ، والديلمي (٤/٥٥ ، رقم ٦١٧٣) .

ثلاث كنت في طلبهن فالحمد لله الذي أصبتهن قبل الموت وكذا أخرج الطبراني حديث سلمان كحديث أبي هريرة ﷺ أجمعين ، وأنشدوا لأبي نواس في المعنى

إن القلوب لأجناد مجندة ... لله في الأرض بالأهواء تعترف

فما تعارف منها فهو مؤتلف ... وما تناكر منها فهو مختلف

ولما ثبت هذا كانت نتيجته قطعاً : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي العالو الأوصاف بالطهارة والطيب ﴿مُبَرَّءُونَ﴾ ببراءة الله وبراءة كل من له تأمل في مثل هذا الدليل ﴿مِمَّا يَقُولُونَ﴾ أي القذفة الأخابث لأنها لا تكون زوجة أطيب الطيبين إلا وهي كذلك .

ولما أثبت لهم البراءة ، استأنف الإخبار بجزائهم فقال : ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ أي لما قصروا فيه إن قصروا ، ولما كان في معرض الحث على الإنفاق على بعض الآفكين قال : ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي يحيون به حياة طيبة ، ويحسنون له إلى من أساء إليهم ، ولا ينقصه ذلك لكرمه في نفسه بسعته وطيبه وغير ذلك من خلال الكرم . اهـ [(١)]

من هداية الآيات :

١- عَظِمُ ذنب قذف المحصنات الغافلات المؤمنات وقد عده رسول الله ﷺ في السبع الموبقات ، والعياذ بالله تعالى .

٢- تقرير الحساب وما يتم فيه من استنطاق واستجواب .

٣- تقرير التوحيد بأنه لا إله إلا الله .

٤- استحقاق الخبث أهله . فالخبيث هو الذي يناسبه القول الخبيث والفعل الخبيث .

٥- استحقاق الطيب أهله فالطيب هو الذي يناسبه القول الطيب والفعل الطيب .

٦- براءة أم المؤمنين وصفوان مما رماها به أهل الإفك . اهـ [(٢)]

---

(١) انظر نظم الدرر للبقاعي تفسير سورة النور الآيات (٢٣ – ٢٦) .

(٢)انظر تفسير الجزائري : ٤٨٥ تفسير سورة النور الآيات (٢٣ – ٢٦) ط/ دار الحديث .

سُورَةُ الفرقان

﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ
الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾
بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا
تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا
الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ
الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ
وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الفرقان]

معاني الكلمات :

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ﴾ : أي لم يكن المانع لهم من الإيمان كونك تأكل الطعام وتمشي في الأسواق بل تكذيبهم بالبعث والجزاء هو السبب في ذلك .

﴿ تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ : أي صوتاً مزعجاً من تغظيها على أصحابها المشركين بالله الكافرين به

﴿ مُّقَرَّنِينَ ﴾ : أي مقرونة أيديهم مع أعناقهم في الأصفاد .

﴿ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ : أي نادوا يا ثبورنا أي يا هلاكنا إذ الثبور الهلاك .

﴿ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴾ : أي ثواباً على إيمانهم وتقواهم ، ومصيراً صاروا إليها لا يفارقونها .

﴿وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا﴾ : أي مطالباً به إذ المؤمنون يطالبون به قائلين ربنا وآتنا ما وعـدتنا والملائكة تقول ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم .اهـ [١]

بين يدي السورة :

سورة الفرقان سورة مكية كلها في قول الجمهور وقال ابن عباس و قتادة : إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة وهي : ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ إلى قوله : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٧٠﴾ وقال الضحاك : هي مدنية وفيها آيات مكية قولـه : ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الآيات

ومقصود هذه السورة ذكر موضع عظم القرآن وذكر مطاعن الكفار في النبوة والرد على مقالاتهم وجهالاتهم فمن جملتها وقولهم : إن القرآن افتراه محمد وإنه ليس من عند الله[٢]

[هذه السورة المكية تبدو كلها وكأنها إيناس لرسول الله ﷺ وتسرية ، وتطمـين لـه وتقوية وهو يواجه مشركي قريش ، وعنادهم له ، وتطاولهم عليـه ، وتعنتـهم معـه ، وجدالهم بالباطل ، ووقوفهم في وجه الهدي وصدهم عنه .

فهي في لمحة منها تصور الإيناس اللطيف الذي يحيط به الله عبده ورسوله؛ وكأنما يمسح على آلامه ومتاعبه مسحاً رفيقاً؛ ويهدهد قلبه ، ويفيض عليه مـن الثقـة والطمأنينـة ، وينسم عليه من أنسام الرعاية واللطف والمودة .

وهي في اللمحة الأخرى تصور المعركة العنيفة مع البشرية الضالة الجاحدة المشـاقة لله ورسوله ، وهي تجادل في عنف ، وتشرد في جموح ، ... ، وتتعنت في عناد ، وتجنح عن الهدى الواضح الناطق المبين .

---

(١) انظر تفسير الجزائري : ٥١٣/٢ تفسير سورة الفرقان الآيات (٩ – ١٦) ط/ دار الحديث .

(٢) انظر تفسير القرطبي لسورة الفرقان الآيات (٩ – ١٦) .

إنها البشرية التي تقول عن هذا القرآن العظيم : ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ﴾.. أو تقول : ﴿ فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ ﴾ والتي تقول عن محمد رسول الله الكريم : ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨ ﴾ . . . أو تقول في استهزاء : ﴿ أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ۝٤١ ﴾ . . . والتي لا تكتفي بهذا الضلال ، فإذا هي تتطاول في فجور على ربها الكبير : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ۝٦٠ ﴾ أو تتعنت فتقول : ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ﴾ وهي هي من قديم كما يرسمها سياق السورة من عهد نوح إلى موقفها هذا الأخير مع رسولها الأخير . . . لقد اعترض القوم على بشرية الرسول ﷺ فقالوا : ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ ﴾ واعترضوا على حظه من المال ، فقالوا : ﴿ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ .

واعترضوا على طريقة تنزيل القرآن فقالوا : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ وذلك فوق التكذيب والاستهزاء والقحة والافتراء الأثيم .

[١٨٣] ووقف الرسول ﷺ يواجه هذا كله ، وهو وحيد فريد مجرد من الجاه والمال ، ملتزم حده مع ربه لا يقترح عليه شيئاً ، ولا يزيد على أن يتوجه إليه مبتغيا رضاه ، ولا يحفل بشيء سواه : « **أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن تنزل بي غضبك أو تحل علي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك** »(١) .

---

(١) وقد بيَّن المحققون المنصفون من أهل الحديث ضعفه على وجاهة لفظه فتبينه [قال الألباني رحمه الله في السلسلة الضعيفة : ضعيف رواه الطبراني في " المعجم الكبير " (١٨١/٧٣/١٣) ، وعنه =

[فهنا في هذه السورة يؤويه ربه إلى كنفه ، ويمسح على آلامه ومتاعبه ، ويهدهده ويسري عنه ، ويهون عليه مشقة ما يلقى من عنت القوم وسوء أدبهم وتطاولهم عليه ، بأنهم يتطاولون على خالقهم ورازقهم ، وخالق هذا الكون كله ومقدره ومدبره . . . فلا عليه أن ينالوه بشيء من ذاك! ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾ ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ ﴾ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ ﴾ ويعزيه عن استهزائهم به بتصوير المستوى الهابط الذي يتمرغون فيه : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾ ويعده العون والمساعدة في معركة الجدل والمحاجة : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ وفي نهاية المعركة كلها يعرض عليه مصارع المكذبين من قبل : قوم موسى ونوح وعاد وثمود وأصحاب الرس وما بين ذلك من قرون .

ويعرض عليه نهايتهم التعيسة في سلسلة من مشاهد القيامة : ﴿ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ ﴾ ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ

= الضياء في " المختارة " (١/١٢٨/٥٦ - ٢) ، وابن عدي (٢/٢٨٤) ، وعنه ابن عساكر (٢/١٧٨/١٤) : حدثنا القاسم بن الليث الراسبي - أملاه علينا حفظا - قال : أخبرنا محمد بن أبي صفوان الثقفي إملاء قال : حدثنا وهب بن جرير بن حازم قال : حدثنا أبي عن محمد بن إسحاق عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن جعفر قال : لما توفي أبو طالب خرج النبي ﷺ إلى الطائف ماشيا على قدميه ، قال : فدعاهم إلى الإسلام ، قال : فلم يجيبوه ، قال فانصرف ، فأتى ظل شجرة ، فصلى ركعتين ثم قال : فذكره .

وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ ﴾ ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾ ويسليه بأن مثله مثل الرسل كلهم قبله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ . . . ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾ ويكلفه أن يصبر ويصابر ، ويجاهد الكافرين بما معه من قرآن ، واضح الحجة قوي البرهان عميق الأثر في الوجدان : ﴿ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ ويغريه على مشاق الجهاد بالتوكل على مولاه : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾

وهكذا تمضي السورة : في لمحة منها إيناس وتسرية وعطف وإيواء من الله لرسوله . وفي لمحة منها مشاقة وعنت من المشركين لرسول الله ﷺ وتتبير ونكال من الله الكبير المتعال . حتى تقرب من نهايتها ، فإذا ريح رخاء وروح وريحان ، وطمأنينة وسلام . . . وإذا صورة ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ ﴾ . . . ﴿ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ ﴾ وكأنما تتمخض عنهم معركة الجهاد الشاقة مع البشرية الجاحدة الضالة المعاندة المشاقة؛ وكأنما هم الثمرة الحلوة الجنية الممثلة للخير الكامن في شجرة البشرية ذات الأشواك .

وتختم السورة بتصوير هوان البشرية على الله ، لولا تلك القلوب المؤمنة التي تلتجئ إليه وتدعوه : ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ

لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾ هذه في ظلال السورة؛ وذلك هو محورها الذي تدور عليـه ، وموضـوعها الذي تعالجه . وهي وحدة متصلة ، يصعب فصل بعضها عن بعـض . ولكـن يمكـن تقسيمها إلى أربعة أشواط في علاج هذا الموضوع .

يبدأ الشوط الأول منها بتسبيح الله وحمده على تتريل هذا القرآن على عبده ليكـون للعالمين نذيرا . وبتوحيد الله المالك لما في السماوات والأرض ، المدبر للكـون بحكمـة وتقدير ، ونفي الولد والشريك .اهـ [١]

النار ترمق أعداء الله من بعيد وتكشر لتفتك بهم :

قوله تعالى : ﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾ . الضمير فيه يعود إلى ﴿سَعِيرًا﴾ والتغـيظ في الأصـل : إظهار الغيظ ، وهو شدة الغضب الكامن في القلب .

﴿وَزَفِيرًا﴾ : ترديد النفس من شدة الغم والتعب حتى تنتفخ منه الضلوع ، فإذا مـا اشتد كان له صوت مسموع .

والمعنى : أن هؤلاء الكافرين الذين كذبوا بالساعة ، قد أعتدنا لهـم بسـبب هـذا التكذيب نارا مستعرة ، إذا رأهم هذه النار من مكان بعيد عنها . سمعـوا لهـا غليانـا كصوت من اشتد غضبه ، وسمعوا لها زفيرا . أي : صوتا مترددا كأنها تناديهم به .

فالآية الكريمة تصور غيظ النار من هؤلاء المكذبين تصويرا مرعبا ، يزلـزل النفـوس ويخيف القلوب .

والتعبير بقوله ﷻ : ﴿مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ يزيد هذه الصورة رعبا وخوفـا ، لأنهـا لم تنتظرهم إلى أن يصلوا إليها ، بل هي بمجرد أن تراهم من مكان بعيد – والعياذ بـالله – يسمعون تغيظها وزفيرها وغضبها عليهم ، وفرحها بإلقائهم فيها .

---

(١) انظر الظلال : ٥/٢٥٤٥، ٢٥٤٦ في ظلال سورة الفرقان ط/ دار الشروق .

قال الآلوسي : وإسناد الرؤية إليها حقيقة على ما هو الظاهر ، وكذا نسبة التغيظ والزفير فيما بعد ، إذ لا امتناع في أن يخلق الله تعالى النار حية مغتاظة زافرة على الكفار ، فلا حاجة إلى تأويل الظواهر الدالة على أن لها إدراكا كهذه الآية ، كقوله ﷻ : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝٣٠ ﴾ [ق]

[١٨٤] وقوله : ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام البخاري رحمه الله : « وَاشْتَكَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا فَقَالَتْ يَا رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا . فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ نَفَسٍ فِي الشِّتَاءِ ، وَنَفَسٍ فِي الصَّيْفِ ، فَهُوَ أَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الْحَرِّ ، وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الزَّمْهَرِيرِ » (١)

الكفار يلقون في النار ويهبطون في مضايقها ويدعون بالويل والثبور.

ثم حكى ﷻ حالهم عندما يستقرون فيها فقال : ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝١٣ ﴾ أي : أن النار إن رأت هؤلاء المجرمين سمعوا لها ما يزعجهم ويفزعهم ، ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا ﴾ أي : وإذا ما طرحوا فيها في مكان ضيق منها ، حالة كونهم ﴿ مُّقَرَّنِينَ ﴾ أي : مقيدين بالأغلال بعضهم مع بعض أو مع الشياطين الذين أضلوهم .

﴿ دَعَوْا هُنَالِكَ ﴾ أي : تنادوا هنالك في ذلك المكان بقولهم ﴿ ثُبُورًا ﴾ أي : هلاكا وخسرانا يقال فلان ثبره الله ﷻ أي : أهلكه إهلاكا لا قيام له منه .

أي : يقولون عندما يلقون فيها ، يا هلاكنا أقبل فهذا أوانك ، فإنك أرحم بنا مما نحن فيه

ووصف ﷻ المكان الذي يلقون فيه بالضيق ، للإشارة إلى زيادة كربهم ، فإن ضيق المكان يعجزهم عن التفلت والتململ . هنا يسمعون من يقول لهم على سبيل الزجر

---

(١) البخاري فتح : ٢/ ٢٢ ك/ مواقيت الصلاة ب/ الإبراد بالظهر من شدة الحر ح/ ٥٣٧

والسخرية المريرة ، ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾ . أي : اتركـوا اليوم طلب الهلاك الواحد . واطلبوا هلاكا كثيرا لا غاية لكثرته ، ولا منتهى لنهايته .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾ أي : أنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحدا ، وإنما هو ثبور كثير ، إما لأن العذاب أنواع وألوان كل نـوع منها ثبور لشدته وفظاعته ، أو لأنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا غيرها ، فلا غاية لهلاكهم .

هل يستويان مثلا ؟

ثم أمر الله ﷻ رسوله ﷺ أن يبين لهم ما أعده ﷻ لعباده المتقين ، فقال : ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾ واسم الإشارة . ذلك يعود إلى ما ذكر من العذاب المهين لهم والاستفهام للتقريع والتهكم .

والعائد إلى الموصول محذوف ، أي : وعدها الله ﷻ للمتقين ، وإضافته الجنة إلى الخلد للمدح وزيادة السرور للذين وعدهم الله ﷻ بها .

أي : قل – أيها الرسول الكريم – لهؤلاء الكافرين ، أذلك العذاب المهين الذي أعـد لكم خير ، أم جنة الخلد التي وعدها الله ﷻ للمتقين ، والتي ﴿كَانَتْ لَهُمْ﴾ بفضـل الله وكرمه ﴿جَزَآءً﴾ على أعمالهم الصالحة ﴿وَمَصِيرًا﴾ طيبا يصيرون إليه .

﴿وَمَصِيرًا﴾ في تلك الجنة ﴿مَا يَشَآءُونَ﴾ أي : ما يشاءونه من خيرات وملـذات حالة كونهم ﴿خَٰلِدِينَ﴾ فيها خلودا أبديا .

﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ أي : كان ذلك العطاء الكريم الذي تفضلنا بـه على عبادنا المتقين ووعدناهم به ، من حقهم أن يسألونا تحقيقه لعظمه وسمو منزلته ، كما قال – تعالى – حكاية عنهم في آية أخرى ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا

﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ [آل عمران] وعلى هذا المعنى يكون قولا ﴿مَسْـُٔولًا﴾ بمعنى جديرا أن يسأل عنه المؤمنون لعظم شأنه .

ويجوز أن يكون السائلون عنه الملائكة ، كما في قوله – تعالى – : ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ [غافر: ٨] ويرى بعضهم أن المعنى ، كان ذلك العطاء للمؤمنين وعدا منا لهم ، ونحن بفضلنا وكرمنا سننفذ هذا الوعد ، قال ﷻ : ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الروم: ٦] هذا ، وقد تكلم العلماء هنا عن المراد بلفظ ﴿خَيْرٌ﴾ في قوله ﷻ ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾ وقالوا : إن هذا اللفظ صيغة تفضيل ، والمفضل عليه هنا وهو العذاب لا خير فيه البته ، فكيف عبر ﷻ بلفظ خير؟

وقد أجابوا عن ذلك بأن المفاضلة هنا غير مقصودة ، وإنما المقصود هو التهكم بهؤلاء الكافرين الذين آثروا الضلالة على الهداية ، واستحبوا الكفر على الإيمان .

قال أبو حيان رحمه الله : و﴿خَيْرٌ﴾ هنا ليست تدل على الأفضلية ، بل هي على ما جرت به عادة العرب في بيان فضل الشيء ، وخصوصيته بالفضل دون مقابلة . كقول الشاعر : فشر كما لخير كما الفداء . . . وكقول العرب : الشقاء أحب إليك أم السعادة . وكقوله ﷻ حكاية عن يوسف عليه السلام : ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ﴾ [يوسف: ٣٣] ثم تنتقل السورة الكريمة إلى الحديث عن حالهم عندما يعرضون هم وآلهتهم للحشر والحساب يوم القيامة ، وقد وقفوا جميعا أمام ربهم للسؤال والجواب ، قال ﷻ : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ اهـ[١].

---

(١) انظر التفسير الوسيط لسورة الفرقان الآيات (٩ – ١٦) .

والخلاصة :

١- والحقيقة أنهم جاحدون بكل آية ، لأنهم كذّبوا بالبعث ويوم القيامة ، فهم لهـذا يتعللون بهذه المطالب ليصرفوا الناس إلى باطلهم ، وقد أعددنا لمن كذب بيوم القيامة ناراً مستعرة شديدة الالتهاب .

٢- إذا رأوها ورأتهم من بعيد سمعوا لها صوتاً ... تغيظاً متحفزاً لإهلاكهم ، وفيه مثل الزفرات التي تخرج من صدر متغيظ علامة على ما هي عليه من شدة .

٣- وإذا ألقوا في مكان ضيق منها يتناسب مع جرمهم وهـم مقرونـة أيـديهم إلى أعناقهم بالأغلال ، نادوا هناك طالبين تعجيل هلاكهم ليستريحوا من هول العذاب .

مع الآيات :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ
هُمْ ضَلُّوا ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ
وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا
تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا
﴿١٩﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى
ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾

شرح الكلمات :

﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ : أي يجمعهم .

﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ : من الملائكة والأنبياء والأولياء والجن .

﴿أَمْ هُمْ ضَلُّوا ٱلسَّبِيلَ﴾ : أي طريق الحق بأنفسهم بدون دعوتكم إياهم إلى ذلك

﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ : أي تتريهاً لك عما لا يليق بجلالك و كمالك ..

﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ﴾ : أي بأن أطلت أعمارهم ووسعت عليهم أرزاقهم .

﴿وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ : أي هلكى ، إذ البوار الهلاك .

﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ : أي ومن يشرك منكم أيها الناس .

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ : أي بليّة فالغني مبتلَى بالفقير ، والصحيح بالمريض ، والشريف بالوضيع فالفقير يقول ما لي لا أكون كالغني والمريض يقول مالي لا أكون كالصحيح ، والوضيع يقول ما لي لا أكون كالشريف مثلاً .

﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ : أي اصبروا على ما تسمعون مِمَّن ابتليتم بهم ، إذ الاستفهام للأمر هنا

﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ : أي بمن يصبر وبمن يجزع ولا يصبر . اهـ [١]

معنى الآيات :

ما زال السياق الكريم في تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر مظاهر لها في القيامة إذ إنكار هذه العقيدة هو سبب كل شر وفساد في الأرض فقوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي اذكر يا رسولنا يوم يحشر الله المشركين وما كانوا يعبدونهم من دوننا كالملائكة والمسيح والأولياء والجن . ﴿فَيَقُولُ﴾ لمن كانوا يعبدونهم ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ أي ما أضللتموهم ولكنهم ضلوا طريق الحق بأنفسهم فلم يهتدوا إلى عبادتي وحدي دون سواي ، فيقول المعبودون ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أي تتريهاً لك وتقديساً عن كل ما لا يليق بجلالك وكمالك ﴿مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي لا يصح منا اتخاذ أولياء من دونك فندعو عبادك إلى عبادتهم فنضلهم بذلك ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ﴾ يا ربنا ﴿وَآبَاءَهُمْ﴾ من

---

(١) انظر تفسير الجزائري : ٢/ ٥١٥ لسورة الفرقان الآيات (١٧ – ٢٠) .

قبلهم بطول الأعمار وسـعة الأرزاق فانغمسـوا في الشـهوات والملاذ ﴿حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾ أي نسوا ذكرك وعبادتك وما جاءهم به رسلك فكانوا بـذلك ﴿قَوۡمَۢا بُورٗا﴾ أي هلكى خاسرين .وقوله تعالى : ﴿فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ يقـول تعـالى للمشركين فقد كذبكم من كنتم تشركون به ، فقامت الحجـة علـيكم فـانتم الآن لا تستطيعون صرفا للعذاب عنكم ولا نصراً أي ولا تجدون من ينصركم فيمنـع العـذاب عنكم .

وقوله تعالى : ﴿وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ نُذِقۡهُ عَذَابٗا كَبِيرٗا﴾ هذا خطـاب عـام لسائر الناس يقول تعالى للناس ومن يشرك منكم بي أي يعبد غيري نذقه أي يوم القيامـة عذاباً كبيراً وقوله تعالى : ﴿أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ﴾ أي يـا رسـولنا ﴿مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾ ولا تحفل به فإنهم يعرفون ذلـك ولكنهم يكابرون ويجاحدون .

وقوله تعالى : ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً﴾ أي هذه سنتنا في خلقنا نبتلـي بعضهم ببعض فنبتلي المؤمن بالكافر والغني بالفقير والصحيح بالمريض والشريف بالوضيع ، وننظر من يصبر ومن يجزع ونجزي الصابرين بما يستحقون والجزعين كذلك .

وقوله تعالى : ﴿أَتَصۡبِرُونَ﴾ هذا الاستفهام معناه الأمر أي اصبروا إذاً ولا تجزعوا أيها المؤمنون من أذى المشركين والكافرين لكـم . وقولـه تعـالى : ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا﴾ أي وكان ربك أيها الرسول بصيراً بمن يصبر وبمن يجزع فاصبر ولا تجزع فإنهـا دار الفتنة والامتحان وإنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب .اهـ [١]

(١) نفس المصدر السابق

قال القرطبي رحمه الله : وقوله ﴿بُورًا﴾ أي : هلكي قاله ابن عباس . . . وقال الحسن ﴿بُورًا﴾ أي : لا خير فيهم ، مأخوذ من بوار الأرض ، وهو تعطيلها عن الزرع فلا يكون فيها خير . وقال شَهْر بن حَوْشَب : البوار : الفساد والكساد ، من قولهم : بارت السلعة إذا كسدت كساد الفساد . . . وهو اسم مصدر يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع والمذكر والمؤنث .

وهكذا ، يتبرأ المعبودون من ضلال عابديهم ، ويوبخونهم علي جحودهم لنعم الله ﷻ وعلى عبادتهم لغيره . ويعترفون لخالقهم ﷻ بأنه لا معبود بحق سواه .

وهنا يوجه ﷻ خطابه إلى هؤلاء العابدين الجهلاء الكاذبين فيقول : ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ أي : قال الله ﷻ لهؤلاء الكافرين على سبيل التقريع والتبكيت : والآن لقد رأيتم تكذيب من عبدتموهم لكم ، وقد حق عليكم العذاب بسبب كفركم وكذبكم ، وصرتم لا تملكون له ﴿صَرْفًا﴾ أي : دفعا بأية صورة نم الصور . وأصل الصرف : رد الشيء من حالة إلى حالة أخرى ، ولا تملكون له - أيضا - ﴿نَصْرًا﴾ أي فردا من أفراد النصر لا من جهة أنفسكم ، ولا من جهة غيركم ، بل لقد حل بكم العذاب حلولا لا فكاك لكم منه بأي وسيلة من الوسائل .

﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ أي : ومن يكفر بالله ﷻ منكم أيها المكلفون بالإيمان ﴿نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ لا يقادر قدره في الخزى والهوان .

قال صاحب الكشاف : هذه المفاجأة بالاحتجاج والإلزام - في قوله : ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم﴾ حسنة رائعة ، خاصة إذا انضم إليها الالتفات ، وحذف القول ، ونحوها قوله - تعالى - : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ

أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [المائدة] وقول القائل :

قالوا خراسان أقصى ما يُراد بنا ... ثم القُفُول فقد جئنا خراسانا

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد أقامت الحجة على الكافرين بطريقة تخرس ألسنتهم ، وتجعلهم أهلا لكل ما يقع عليهم من عذاب أليم .

ثم تعود السورة مرة أخرى إلى تسلية الرسول ﷺ وإلى الرد على شبهات أعدائه فتقول : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ . . . ﴾ .اهـ

من هداية الآيات :

١- تقرير عقيدة البعث والجزاء .

٢- ياهول الموقف إذا سئل المعبودون عمن عبدوهم ، والمظلومون عمن ظلموهم .

٣- براءة الملائكة والأنبياء والأولياء من عبادة من عبدوهم .

٤- خطورة طول العمر وسعة الرزق إذ غالباً ما ينسى العبد بهما ربه ولقاءه .

٥- تقرير أن الدنيا دار ابتلاء فعلى أولى الحزم أن يعرفوا هذا ويخلصوا منها بالصبر والتحمل في ذات الله حتى يخرجوا منها ولو كفافاً لا لهم ولا عليهم .اهـ [1]

﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ
ٱسْتَكْبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٖ
لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرٗا مَّحْجُورٗا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٖ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءٗ
مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٞ مُّسْتَقَرّٗا وَأَحْسَنُ مَقِيلٗا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ
ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى

---

(١) انظر تفسير الجزائري :٢/ ٥١٦ لسورة الفرقان الآيات (١٧ – ٢٠) ط/ دار الحديث .

ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾

﴿لَا يَرْجُونَ﴾ لا يخافون ، أو لا يأملون ، أو لا يبالون ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ليخبرونا بنبوة محمد ، أو رسلاً بدلاً من رسالته ﴿ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ باقتراحهم رؤية ربهم ونزول الملائكة ، أو بإنكارهم إرسالَ محمد ﷺ إليهم ﴿عُتُوًّا﴾ تجبراً ، أو عصياناً ، أو سرفاً في الظلم ، أو غلواً في القول ، أو شدة الكفر ، نزلت في عبد الله بن أبي أمية ومكرز بن حفص في جماعة من قريش قالوا : لولا أنزل علينا الملائكة ، أو نرى ربنا ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾

﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ﴾ يوم الموت ، أو القيامة ﴿لَا بُشْرَىٰ ﴾ للمجرمين بالجنة ﴿وَيَقُولُونَ﴾ الملائكة للكفار ، أو الكفار لأنفسهم ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ معاذ الله أن تكون لكم البشرى ، أو حراماً محرماً أن تكون لكم البشرى ، أو منعنا أن يصل إلينا شيء من الخير .

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾

﴿ وَقَدِمْنَآ﴾ عمدنا ﴿مِنْ عَمَلٍ﴾ خير فأحبطناه بالكفر ، أو عمل صالح لا يراد به وجه الله . ﴿هَبَآءً﴾ رَهَج الدواب « غبار يسطع من تحت حوافرها » ، أو كالغبار يكون في شعاع الشمس إذا طلعت في كوة ، أو ما ذرته الريح من أرواق الشجر ، أو الماء المهراق أو الرماد .

﴿وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا﴾ المستقر في الجنة ، والمقيل دونها ، أو عبّر به عن الدعة وإن لم يقيلوا ، أو مقيلهم الجنة على الأسرة مع الحور ، ومقيل أعداء الله مع الشياطين مقرنين « ع » ، أو يفرغ من حسابهم وقت القائلة وهو نصف النهار .

﴿بِٱلۡغَمَٰمِ﴾ المعهود لأنه لا يبقى بعد انشقاق السماء ، أو غمام أبيض يكون في السـماء يترله الله تعالى على الأنبياء فيشقق السماء فيخرج منها ﴿وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ليبشروا المؤمن بالجنة والكافر بالنار ، أو ليكون مع كل نفس سائق وشهيد .

﴿ٱلظَّالِمُ﴾ قيل عقبة بن أبي مُعيط ﴿سَبِيلٗا﴾ طريقاً إلى النجـاة أو بطاعـة الله ، أو وسيلة عند الرسول ﷺ تكون صلة إليه .

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٢١﴾ يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾

أي: قال المكذبون للرسول المكذبون بوعد الله ووعيده الذين ليس في قلوهم خـوف الوعيد ولا رجاء لقاء الخالق.

﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ﴾ أي: هلا نزلت الملائكـة تشـهد لـك بالرسالة وتؤيدك عليها أو تترل رسلا مستقلين، أو نرى ربنا فيكلمنا ويقول: هذا رسولي فاتبعوه؟ وهذا معارضة للرسول بما ليس بمعارض بل بالتكبر والعلو والعتو.

﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ حيث اقترحوا هذا الاقتراح وتجرأوا هذه الجرأة، فمن أنتم يا فقراء ويا مساكين حتى تطلبوا رؤية الله وتزعموا أن الرسالة متوقف ثبوتها على ذلك؟ وأي كبر أعظم من هذا؟.

﴿وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ أي: قسوا وصلبوا عن الحق قساوة عظيمة، فقلوبهم أشد من الأحجار وأصلب من الحديد لا تلين للحق، ولا تصغي للناصحين فلذلك لم ينجع فيهم وعظ ولا تذكير ولا اتبعوا الحق حين جاءهم النذير، بل قابلوا أصدق الخلق وأنصحهم وآيات الله البينات بالإعراض والتكذيب والمعارضة، فأي عتو أكبر من هذا العتو؟" ولذلك بطلت أعمالهم واضمحلت، وخسروا أشد الخسران، وحرموا غاية الحرمان.

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ التي اقترحوا نزولها ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ وذلك أنهم لا يرونها مع استمرارهم على جرمهم وعنادهم إلا لعقوبتهم وحلول البأس بهم، فأول ذلك عند الموت إذا تنزلت عليهم الملائكة قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ ثم في القبر حيث يأتيهم منكر ونكير فيسألهم عن ربهم ونبيهم ودينهم فلا يجيبون جوابا ينجيهم فيحلون بهم النقمة، وتزول عنهم بهم الرحمة، ثم يوم القيامة حين تسوقهم الملائكة إلى النار ثم يسلمونهم لخزنة جهنم الذين يتولون عذابهم ويباشرون عقابهم، فهذا الذي اقترحوه وهذا الذي طلبوه إن استمروا على إجرامهم لا بد أن يروه ويلقوه، وحينئذ يتعوذون من الملائكة ويفرون ولكن لا مفر لهم.

﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾ ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الرحمن] ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ

﴿مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ﴾ أي: أعمالهم التي رجوا أن تكون خيرا لهم وتعبوا فيها، ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ أي باطلا مضمحلا قد خسروه وحرموا أجره وعوقبوا عليه وذلك لفقده الإيمان وصدوره عن مكذب لله ورسله، فالعمل الذي يقبله الله، ما صدر عن المؤمن المخلص المصدق للرسل المتبع لهم فيه.

﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ أي: في ذلك اليوم الهائل كثير البلابل ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ الذين آمنوا بالله وعملوا صالحا واتقوا ربهم ﴿خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا﴾ من أهل النار ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ أي: مستقرهم في الجنة وراحتهم التي هي القيلولة، هو المستقر النافع والراحة التامة لاشتمال ذلك على تمام النعيم الذي لا يشوبه كدر، بخلاف أصحاب النار فإن جهنم ساءت مستقرا ومقيلا وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل، فيما ليس في الطرف الآخر منه شيء لأنه لا خير في مقيل أهل النار ومستقرهم كقوله: ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النمل]

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ﴿٢٥﴾ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾

يخبر تعالى عن عظمة يوم القيامة وما فيه من الشدة والكروب، ومزعجات القلوب فقال: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾ وذلك الغمام الذي يترل الله فيه، يترل من فوق السماوات فتنفطر له السماوات وتشقق وتترل ملائكة كل سماء فيقفون صفا صفا، إما صفا واحدا محيطا بالخلائق، وإما كل سماء يكونون صفا ثم السماءِ التي تليها صفا وهكذا.

القصد أن الملائكة -على كثرتهم وقوتهم- ينزلون محيطين بالخلق مذعنين لأمر ربهم لا يتكلم منهم أحد إلا بإذن من الله، فما ظنك بالآدمي الضعيف خصوصا الذي بارز مالكه بالعظائم، وأقدم على مساخطه ثم قدم عليه بذنوب وخطايا لم يتب منها، فيحكم فيه الملك الحق بالحكم الذي لا يجور ولا يظلم مثقال ذرة ولهذا قال: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ لصعوبته الشديدة وتعسر أموره عليه، بخلاف المؤمن فإنه يسير عليه خفيف الحمل ؛ ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ [مريم] وقوله: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ لا يبقى لأحد من المخلوقين ملك ولا صورة ملك، كما كانوا في الدنيا، بل قد تساوت الملوك ورعاياهم والأحرار والعبيد والأشراف وغيرهم، ومما يرتاح له القلب، وتطمئن به النفس وينشرح له الصدر أن أضاف الملك في يوم القيامة لاسمه ((الرحمن)) الذي وسعت رحمته كل شيء وعمت كل حي وملأت الكائنات وعمرت بها الدنيا والآخرة، وتم بها كل ناقص وزال بها كل نقص، وغلبت الأسماء الدالة عليه الأسماء الدالة على الغضب وسبقت رحمته غضبه وغلبته، فلها السبق والغلبة، وخلق هذا الآدمي الضعيف وشرفه وكرمه ليتم عليه نعمته، وليتغمده برحمته، وقد حضروا في موقف الذل والخضوع والاستكانة بين يديه ينتظرون ما يحكم فيهم وما يجري عليهم وهو أرحم بهم من أنفسهم ووالديهم فما ظنك بما يعاملهم به، ولا يهلك على الله إلا هالك ولا يخرج من رحمته إلا من غلبت عليه الشقاوة وحقت عليه كلمة العذاب.

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ﴾ بشركه وكفره وتكذيبه للرسل ﴿عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ تأسفا وتحسرا وحزنا وأسفا. ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ أي طريقا بالإيمان به وتصديقه واتباعه.

﴿ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾ وهو الشيطان الإنسي أو الجني، ﴿خَلِيلًا﴾ أي: حبيبا مصافيا عاديت أنصح الناس لي، وأبرهم بي وأرفقهم بي، وواليت أعدى عدو لي الذي لم تفدني ولايته إلا الشقاء والخسار والخزي والبوار.

﴿ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ﴾ حيث زين له ما هو عليه من الضلال بخدعه وتسويله. ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا﴾ يزين له الباطل ويقبح له الحق، ويعده الأماني ثم يتخلى عنه ويتبرأ منه كما قال لجميع أتباعه حين قضي الأمر، وفرغ الله من حساب الخلق ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ [إبراهيم : ٢٢] الآية.

فلينظر العبد لنفسه وقت الإمكان وليتدارك الممكن قبل أن لا يمكن، وليوال من ولايته فيها سعادته وليعاد من تنفعه عداوته وتضره صداقته. والله الموفق. اهـ[1]

﴿فُلَانًا﴾ لا يثنى ولا يجمع . وهو هنا الشيطان ، أو أُبي بن خلف ، أو أمية بن خلف كان خليلاً لعقبة وكان عقبة يغشى مجلس الرسول ﷺ فقال : أمية بلغني أنك صبوت إلى دين محمد ، فقال : ما صبوت فقال : وجهي من وجهك حرام حتى تأتيه فتتفل في وجهه وتبرأ منه ، فأتاه عقبة وتفل في وجهه وتبرأ منه فاشتد ذلك على الرسول ﷺ فنزلت .

﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ ﴾

﴿مَهْجُورًا﴾ أعرضوا عنه ، أو قالوا : فيه هُجراً وقبيحاً ، أو جعلوه هجراً من الكلام وهو ما لا فائدة فيه كالبعث والهذيان . اهـ[2].

---

(١) انظر تفسير السعدي [المجلد الواحد] ص ٦٣٣، ٦٣٤ لسورة الفرقان الآيات (٢٥ – ٢٩) .

(٢) انظر تفسير العز ابن عبد السلام لسورة الفرقان الآيات (٢٨ - ٣٠) .

من هداية الآيات :

١- تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر البعث والجزاء وبذكر أحوالها وبعض أهوالها .

٢- إثبات مجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء يوم القيامة .

٣- تندم الظلمة وتحسرهم على ما فاتهم من الإيمان والطاعة لله ورسوله .

٤- بيان سوء عاقبة موالاة شياطين الإنس والجن وطاعتهم في معصية الله ورسوله .

٥- تقرير مبدأ أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب إذ عقبة بن أبي معيط هو الذي أطاع أبي بن خلف حيث آمن ، ثم لامه أُبيٌّ بن خلف فارتد عن الإسلام فهو المتندم المتحسر القائل ﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ . . . ﴾ .

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا
(٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ
جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ
يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧) وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا
يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ
الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ
يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) ﴾

شرح الكلمات :

﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾: في سكينة ووقار .

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ ﴾ : أي بما يكرهون من الأقوال .

﴿قَالُوا سَلَامًا ﴾ : أي قولاً يسلمون به من الإثم ، ويسمى هذا سلام المتاركة .

﴿سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ : أي يصلون بالليل ﴿سُجَّدًا ﴾ جمع ساجد .

﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ : أي عذاب جهنم كان لازماً لا يفارق صاحبه .

﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ ﴾ : أي بئست مستقراً وموضع إقامة واستقرار

﴿لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ ﴾ : أي لم يبذروا و لم يضيقوا .

﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ : أي بين الإسراف والتقتير وسطاً .

﴿ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ ﴾ : وهي كل نفس آدمية إلا نفس الكافر المحارب .

﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ : وهو واحد من ثلاث : كفر بعد إيمان أو زنى بعد إحصان أو قتــل ظلم وعدوان .

﴿يَلْقَ أَثَامًا ﴾ : أي عقوبة شديدة .

﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ ﴾ : بأن يمحو بالتوبة سوابق معاصــيهم ، ويثبــت مكانها لواحق طاعاتهم .

معنى الآيات :

لما أنكر المشركون الرحمن ﴿قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ ﴾ وأبوا أن يسجدوا للرحمن ، وقــالوا أن محمداً ينهانا عن الشرك وهو يدعو مع الله الرحمن فيقول يــا الله يــا رحمــن ، ناســب لتجاهلهم هذا الاسم الرحمن أن يذكر لهم صفات عباد الرحمن ليعرفوا الرحمن بعباده على حد ((خيركم من إذا رُؤي ذُكر الله)) فقال تعــالى ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ ووصــفهم بثمان صفات وأخبر عنهم بما أعده لهم من كرامة يوم القيامة :-

الأولى في قوله ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ أي ليسوا جبابرة متكــبرين ، ولا عصاة مفسدين ولكن يمشون متواضعين عليهم السكينة والوقار ،

الثانية : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾ أي السفهاء بما يكرهون من القول قالوا قولاً يسلمون به من الإثم فلم يردوا السيئة بالسيئة ولكن بالحسنة

الثالثة : في قوله ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ ﴾ أي يقضون ليلهم بين السجود والقيام يصفون أقدامهم ويذرفون دموعهم على خدودهم خوفاً من عذاب ربهم .

والرابعة : في قوله ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ﴾ إنهم لقوة يقينهم كأنهم شاعرون بلهب جهنم يدنو من وجوههم فقالوا ﴿ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ ﴾ أي مُلحاً لازماً لا يفارق صاحبه ، ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ ﴾ أي جهنم ﴿ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ أي بئست موضع إقامة واستقرار .

والخامسة : في قوله ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ ﴾ في إنفاقهم فيتجاوزوا الحد المطلوب منهم ، ولم يقتروا فيقصروا في الواجب عليهم وكان إنفاقهم بين الإسراف والتقتير قواماً أي عدلاً وسطاً .

والسادسة : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ أي لا يسألون غير ربهم قضاء حوائجهم كما لا يشركون بعبادة ربهم أحداً .

والسابعة : ﴿ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ ﴾ قتلها وهي كل نفس آدمية ما عدا نفس الكافر المحارب فإنها مباحة القتل غير محرمة . ﴿ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ وهو واحدة من ثلاث خصال بينها الرسول ﷺ في حديث الصحيحين من حديث عَبْد اللَّه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : « لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّه إِلاَّ بِإِحْدَى ثَلاَثٍ النَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَالثَّيِّبُ الزَّانِي ، وَالْمَارِقُ مِنَ الدِّينِ التَّارِكُ الْجَمَاعَةَ » (١)

---

(١) البخاري فتح : ١٢/٢٢٦ ك/ الديات ب/ إذا قَتَلَ بحجر أو بعصا ح/ ٦٨٧٨.

الثامنة : ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ أي لا يرتكبون فاحشة الزنا والزنا نكاح على غير شرط النكاح المباح وقوله تعالى ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ هذا كلام معترض بين صفات عباد الرحمن . أي ومن يفعل ذلك المذكور من الشرك بدعاء غير الرب أو قتل النفس بغير حـق ، أو زنا ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ أي عقابـاً ﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ﴾ أي في العذاب ﴿مُهَانًا﴾ مخزياً ذليلاً ، وقوله تعالى ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ من الشرك وآمـن بـالله وبلقائه وبرسوله وما جاء به من الدين الحق ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ من إقامة الصـلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وحج بيت الله الحرام ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المذكورون أي التائبون ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ أي يمحو سيآتهم بتوبتهم ويكتب لهم مكانهم صالحات أعمالهم وطاعاتهم بعد توبتهم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ذا مغفرة للتائبين من عبـاده ذا رحمة بهم فلا يعذبهم بعد توبته عليهم ، وقوله ﴿وَمَن تَابَ﴾ من غير هؤلاء المـذكورين أي رجع إلى الله تعالى بعد غشيانه الذنوب ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ بعد توبته ﴿فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ أي يرجع إليه تعالى مرجعاً مرضياً حسناً فيكرمه وينعمه في دار كرامته .

من هداية الآيات :

١- بيان صفات عباد الرحمن الذين هم يعرف الرحمن ﷻ .

٢- فضيلة التواضع والسكينة في المشي والوقار .

٣- فضيلة رد السيئة بالحسنة والقول السليم من الإثم .

٥- فضيلة الاعتدال والقصد في النفقة وهي الحسنة بين السيئتين .

٦- حرمة الشرك وقتل النفس والزنى وأنها أمهات الكبائر .

٧- التوبة تجب ما قبلها . والندب إلى التوبة وأنها مقبولة ما لم يغرغر .

سورة الشعراء

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا
عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ
يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا
رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ
فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ
﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾
وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ
لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ
لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا
هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ
﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ
﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الشعراء]

شرح الكلمات :

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ : أي اقرأ يا رسولنا على قومك خبر إبراهيم وشأنه العظيم .

﴿ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ ﴾ : أي آزر والبابليين .

﴿ فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴾ : أي فنقيم أكثر النهار عاكفين على عبادتها .

﴿ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ﴾ : أي ... وجدنا آباءنا لها عابدين فنحن تبع لهم .

﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي ﴾ : أي أعداء لي يوم القيامة إذا أنا عبدهم لأنهم يتبرءون من عابديهم

﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ : فإن من يعبده لا يتبرأ منه يوم القيامة بل ينجيه من النار ويكرمه بالجنة

﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ : أي إلى ما ينجيني من العذاب ويسعدني في دنياي وأخراي .

﴿ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ : أي يميتني عند انتهاء أجلي ، ثم يحييني ليوم الدين .

﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ : أي يوم الجزاء والحساب وهو يوم القيامة والبعث الآخر .

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا ﴾ : أي يا رب أعطني من فضلك حكماً أي علمـــاً نافعـــاً وارزقني العمل به .

﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ : لأعمل عملهم في الدنيا وأكون معهم في الدار الآخرة

﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ : أي اجعل لي ذكراً حسناً أذكر به فيمن يأتي بعدي ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي﴾ : كان هذا منه قبل أن يتبين له أنه عدو لله .

﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ : أي لا تفضحني .

﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ : أي من الشرك والنفاق .

﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ﴾ : أي أدنيت وقربت للمتقين .

﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ : أي أظهرت وجليت للغاوين .

﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾ : أي بدفع العذاب عنكم .

﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا﴾ : أي ألقوا على وجوههم في جهنم ودحرجوا فيها حتى انتهوا إلى قعرها

﴿وَالْغَاوُونَ﴾ : جمع غاوٍ وهو الفاسد القلب المدنس الروح من الشرك والمعاصي .

﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ ﴾ : أي أتباعه وأنصاره وأعوانه من الإنس والجن .

﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ : أي في العبادة فعبدناكم كما يعبد الله جل جلاله .

﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ : أي يهمه أمرنا وتنفعنا صداقته نحتمي به من أن نعذب .

﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ : أي رجعة إلى الدنيا لنؤمن ونوحد ونعبد ربنا بما شرع لنا .اهـ[1]

المعنى العام :

﴿وَٱتْلُ﴾ أي: اقرأ قراءة متتابعة يا أشرف الخلق ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي: كفار مكة

وقوله تعالى: ﴿نَبَأَ﴾ أي: خبر ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ قراءة نافع وابن كثير وأبو عمرو في الوصل بتسهيل الهمزة الثانية، وحققها الباقون، وفي الابتداء بالثانية الجميع يحققون ويبدل منه.

﴿إِذْ﴾ أي: حين ﴿قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾ منبهاً لهم على ضلالهم لا مستعلماً لأنه كان عالماً بحقيقة حالهم ولكنه سألهم بقوله: ﴿مَا﴾ أي: أي شيء ﴿تَعْبُدُونَ﴾ أي: تواظبون على عبادته ليريهم أن ما يعبدونه ليس من استحقاق العبادة في شيء كما تقول للتاجر ما مالك وأنت تعلم أن ماله الرقيق، ثم تقول الرقيق جمال وليس بمال.

﴿قَالُوا۟﴾ في جوابه ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾ فإن قيل: قوله ﷺ ما تبعدون سؤال عن المعبود فحسب، فكان القياس أن يقولوا أصناماً كقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩] وكذا قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ: ٢٣] وكقوله تعالى: ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ خَيْرًا﴾ [النحل: ٣٠] أجيب: بأنّ هؤلاء قد أجابوا بقصة أمرهم كاملة كالمبتهجين بها والمفتخرين فاشتملت على جواب إبراهيم ﷺ وعلى ما قصدوه من إظهار ما في نفوسهم من الابتهاج والافتخار، ألا تراهم كيف عطفوا على قولهم: ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ ولم يقتصروا على زيادة نعبد وحده، ومثاله أن

---

(١) انظر تفسير الجزائري : ٢/ ٥٥٠ -٥٥٤ تفسير سورة الشعراء الآيات (٦٩ – ١٠٢) .

تقول لبعض الشطار ما تلبس في بلادك فيقول: ألبس البرد إلا تحمى فأجر ذيله بين جواري الحيّ، وإنما قالوا نظل لأنهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل، يقال ظلّ يفعل كذا إذا فعل بالنهار، والعكوف: الإقامة على الشيء، ثم إن إبراهيم عليه السلام .

[أي: واتل يا محمد على الناس، نبأ إبراهيم الخليل، وخبره الجليل، في هذه الحالة بخصوصها، وإلا فله أنباء كثيرة، ولكن من أعجب أنبائه، وأفضلها، هذا النبأ المتضمن لرسالته، ودعوته قومه، ومحاجته إياهم، وإبطاله ما هم عليه، ولذلك قيده بالظرف فقال:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟﴾ متبجحين بعبادتهم: ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾ ننحتها ونعملها بأيدينا. ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَـٰكِفِينَ﴾ أي مقيمين على عبادتها في كثير من أوقاتنا، فقال لهم إبراهيم، مبينا لعدم استحقاقها للعبادة: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ فيستجيبون دعاءكم، ويفرجون كربكم، ويزيلون عنكم كل مكروه؟.

﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾ فأقروا أن ذلك كله، غير موجود فيها، فلا تسمع دعاء، ولا تنفع، ولا تضر، ولهذا لما كسرها وقال: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنبياء] قالوا له: ﴿فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنبياء] أي: هذا أمر متقرر من حالها، لا يقبل الإشكال والشك.

فلجأوا إلى تقليد آبائهم الضالين، فقالوا: ﴿بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ فتبعناهم على ذلك، وسلكنا سبيلهم، وحافظنا على عاداتهم، فقال لهم إبراهيم: أنتم وآباءكم، كلكم خصوم في الأمر، والكلام مع الجميع واحد.

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ﴾ فليضروني بأدنى شيء من الضرر، وليكيدوني، فلا يقدرون.

﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ هو المنفرد بنعمة الخلق، ونعمة الهداية للمصالح الدينية والدنيوية.

ثم خصص منها بعض الضروريات فقال: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ فهذا هو وحده المنفرد بذلك، فيجب أن يفرد بالعبادة والطاعة، وتترك هذه الأصنام، التي لا تخلق، ولا تهدي، ولا تمرض، ولا تشفي، ولا تطعم ولا تسقي، ولا تميت، ولا تحيي، ولا تنفع عابديها، بكشف الكروب، ولا مغفرة الذنوب.

فهذا دليل قاطع، وحجة باهرة، لا تقدرون أنتم وآباؤكم على معارضتها، فدل على اشتراككم في الضلال، وترككم طريق الهدى والرشد. قال الله تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾[الأنعام: ٨٠] الآيات.

ثم دعا عليه السلام ربه فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا﴾ أي: علما كثيرا، أعرف به الأحكام، والحلال والحرام، وأحكم به بين الأنام، ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ من إخوانه الأنبياء والمرسلين.

﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ أي: اجعل لي ثناء صدق، مستمر إلى آخر الدهر. فاستجاب الله دعاءه، فوهب له من العلم والحكم، ما كان به من أفضل المرسلين، وألحقه بإخوانه المرسلين، وجعله محبوبا مقبولا معظما مثنًى عليه، في جميع الملل، في كل الأوقات.

قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾﴾ [الصافات]

﴿ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ ﴾ أي: من أهل الجنة، الــتي يــورثهم الله إياهــا، فأجاب الله دعاءه، فرفع منزلته في جنات النعيم.

﴿ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ وهذا الدعاء، بسبب الوعد الذي قال لأبيه: ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ ﴾ [مريم] قال تعـالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ [التوبـــــة] ﴿ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ أي: بالتوبيخ على بعض الذنوب، والعقوبة عليها والفضيحة، بل أسعدني في ذلك اليوم الــذي ﴿ لَا يَنفَعُ ﴾ فيه ﴿ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ فهذا الذي ينفعــه عندك وهذا الذي ينجو به من العقاب ويستحق جزيل الثواب

والقلب السليم معناه الذي سلم من الشرك والشك ومحبة الشر والإصرار على البدعة والذنوب ويلزم من سلامته مما ذكر اتصافه بأضدادها من الإخلاص والعلم واليقين ومحبة الخير وتزيينه في قلبه وأن تكون إرادته ومحبته تابعة لمحبة الله وهواه تابعا لما جاء عن الله

ثم ذكر من صفات ذلك اليوم العظيم وما فيه من الثواب والعقاب فقـال ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ ﴾ أي قربت ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ رهم الذين امتثلوا أوامره واجتنبوا زواجره واتقوا سخطه وعقابه

﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ ﴾ أي برزت واستعدت بجميع ما فيها من العذاب ﴿ لِلْغَاوِينَ ﴾ الــذين أوضعوا في معاصي الله وتجرأوا على محارمه وكذبوا رسله وردوا ما جاءوهم به من الحــق ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ بأنفســهم أي فلم يكن من ذلك من شيء وظهر كذبهم وخزيهم ولاحت خســارتهم وفضــيحتهم وبان ندمهم وضل سعيهم

﴿ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا ﴾ أي ألقوا في النار ﴿ هُمْ ﴾ أي ما كانوا يعبدون ﴿ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴾ العابدون لها

﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ من الإنس والجن الذين أزهم إلى المعاصي أزًّا وتسلط عليهم بشركهم وعدم إيمانهم فصاروا من دعاته والساعين في مرضاته وهم ما بين داع لطاعته ومجيب لهم ومقلد لهم على شركهم

﴿ قَالُوا ﴾ أي جنود إبليس الغاوون لأصنامهم وأوثانهم التي عبدوها ﴿ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ في العبادة والمحبة والخوف والرجاء وندعوكم كما ندعوه فتبين لهم حينئذ ضلالهم وأقروا بعدل الله في عقوبتهم وأنها في محلها وهم لم يسووهم برب العالمين إلا في العبادة لا في الخلق بدليل قولهم ﴿بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ إنهم مقرون أن الله رب العالمين كلهم الذين من جملتهم أصنامهم وأوثانهم

﴿بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ عن طريق الهدى والرشد ودعانا إلى طريق الغي والفسق ﴿إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ وهم الأئمة الذين يدعون إلى النار

﴿ فَمَا لَنَا ﴾ حينئذ ﴿مِن شَافِعِينَ ﴾ يشفعون لنا لينقذونا من عذابه

﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ أي قريب مصاف ينفعنا بأدنى نفع كما جرت العادة بذلك في الدنيا فأيسوا من كل خير وأبلسوا بما كسبوا وتمنوا العودة إلى الدنيا ليعملوا صالحا

﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً ﴾ أي رجعة إلى الدنيا وإعادة إليها ﴿فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ لنسلم من العقاب ونستحق الثواب هيهات هيهات قد حيل بينهم وبين ما يشتهون .اهـ (١)

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ :

هذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم عليه السلام إمام الحنفاء أمر الله تعالى رسوله محمداً ﷺ أن يتلوه على أمته ليقتدوا به في الإخلاص والتوكل وعبادة الله وحده لا شريك له والتبري من الشرك وأهله فإن الله تعالى آتى إبراهيم رشده من قبل أي

---

(١) انظر تفسير السعدي [المجلد الواحد] ص ٦٤٨ ، ٦٤٩ لسورة الشعراء الآيات (٦٩ – ١٠٢) .

من صغره إلى كبره فإنه من وقت نشأ وشب أنكر على قومه عبادة الأصنام مـع الله ﷻ ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ أي ما هذه التماثيل التي أنتم لهـا عـاكفون ؟ ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾ أي مقيمين على عبادتها ودعائهـا ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ يعني اعترفوا بأن أصنامهم لا تفعل شيئا من ذلك وإنما رأوا آباءهم كذلك يفعلون فهم على آثارهم يهرعون فعند ذلك قـال لهـم إبـراهيم ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ أي إن كانت هذه الأصنام شيئا ولها تأثير فلتخلص إلي بالإساءة فإني عدو لها لا أبالي بهـا ولا أفكر فيها وهذا كما قال تعالى مخبرا عن نوح عليه السلام: ﴿فَأَجْمِعُوٓا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ [يونس: ٧١] الآية وقال هـود عليه السلام ﴿مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هـود] وهكذا تبرأ إبراهيم من آلهتهم فقـال ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ٨١] الآية

وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤] وقـال تعـالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف]

يعني لا إله إلا الله ؛يعني لا أعبد إلا الذي يفعل هذه الأشياء ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ أي هو الخالق الذي قدر قدرا وهدى الخلائق إليه فكل يجري على ما قدر له وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾﴾ أي هو خالقي ورازقي بما سخر وبسر من الأسباب السماوية والأرضية فساق المزن وأنزل الماء وأحيا به الأرض وأخرج به من كل الثمرات رزقا للعباد وأنزل الماء عذبا زلالا يسقيه مما خلق أنعاما وأناسي كثيراً وقوله ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ أسند المرض إلى نفسه وإن كان عن قدر الله وقضائه وخلقه ولكن أضافه إلى نفسه أدبا كما قال تعالى آمرا للمصلي أن يقول ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ إلى آخر السورة فأسند الإنعام والهداية إلى الله تعالى والغضب حذف فاعله أدبا وأسند الضلال إلى العبيد كما قالت الجن ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ﴿١٠﴾﴾ [الجن]وكذا قال إبراهيم ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ أي إذا وقعت في مرض فإنه لا يقدر على شفائي أحد غيره بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه ﴿ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾﴾ أي هو الذي يحيي ويميت لا يقدر على ذلك أحد سواه فإنه هو الذي يبدىء ويعيد ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ أي لا يقدر على غفران الذنوب في الدينا والاخرة إلا هو ومن يغفر الذنوب إلا الله وهو الفعال لما يشاء

وهذا سؤال من إبراهيم عليه السلام أن يؤتيه ربه حكما قال ابن عباس : وهو العلم وقال عكرمة : هو اللب وقال مجاهد : هو القرآن وقال السدي : هو النبوة وقوله ﴿وَأَلۡحِقۡنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أي اجعلني مع الصالحين في الدنيا والآخرة كما في :

[١٨٥] حديث عائشة : ((... فَلَمَّا أَفَاقَ شَخَصَ بَصَرُهُ نَحْوَ سَقْفِ الْبَيْتِ ثُمَّ قَالَ اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى))[١] ... وقوله ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٨٤﴾ أي واجعل لي ذكراً جميلاً بعدي أذكر به ويقتدى بي في الخير كما قال تعالى : ﴿ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ١٠٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٠ ﴾ [الصافات] قال مجاهد وقتادة ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٨٤﴾ يعني الثناء الحسن قال مجاهد : كقوله تعالى ﴿ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ ﴾ [النحل: ١٢٢] الآية وكقوله ﴿ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ ﴾ [العنكبوت: ٢٧] الآية قال ليث بن أبي سليم : كل ملة تحبه وتتولاه وكذا قال عكرمة وقوله تعالى : ﴿ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ٨٥﴾ أي أنعم علي في الدنيا ببقاء الذكر الجميل بعدي وفي الآخرة بأن تجعلني من ورثة جنة النعيم وقوله ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ﴾ الآية كقوله ﴿ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ ﴾ [إبراهيم: ٤١] وهذا مما رجع عنه إبراهيم عليه السلام كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ١١٤ ﴾ [التوبة] وقد قطع تعالى الإلحاق في استغفاره لأبيه فقال تعالى :

﴿ قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ ﴾ [الممتحنة: ٤]

(١) البخاري ك/ المغازي ب/ وفاة النبي ﷺ ح/ ٤٤٣٧ .

وقوله : ﴿ وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ أي أجرني من الخزي يوم القيامة يوم يبعث الخلائق أولهم وآخرهم.

[١٨٦] وقال البخاري عند هذه الآية : قال إبراهيم بن طهمان عن ابن أبي ذئب عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : ((**إن إبراهيم رأى أباه يوم القيامة عليه الغبرة والقترة**)) [١]

[١٨٧] وفي رواية أخرى : حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ حَدَّثَنَا أَخِي عَنْ ابْنِ أَبِي ذِئْبٍ عَنْ سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((**يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ فَيَقُولُ يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لا تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ فَيَقُولُ اللَّهُ إِنِّي حَرَّمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ**)) [٢]
هكذا رواه عند هذه الآية

[١٨٨] وفي أحاديث الأنبياء بهذا الإسناد بعينه منفردا به ولفظه : ((**يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَى وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لا تَعْصِنِي فَيَقُولُ أَبُوهُ فَالْيَوْمَ لا أَعْصِيكَ فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لا تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الأَبْعَدِ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى إِنِّي حَرَّمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ ثُمَّ يُقَالُ يَا إِبْرَاهِيمُ مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِخٍ فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ**)) [٣] .

...وقوله ﴿ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ أي لا يقي المرء من عذاب الله ماله ولو افتدى بملء الأرض ذهبا ﴿ وَلَا بَنُونَ ﴾ أي ولو افتدى بمن على الأرض جميعا ولا ينفع يومئذ إلا الإيمان بالله وإخلاص الدين له والتبري من الشرك وأهله ولهذا قال ﴿ إِلَّا مَنۡ أَتَى

---

(١) البخاري ك/ التفسير ب/ قوله تعالى ﴿ ولا تخزني يوم يبعثون ﴾ .

(٢) البخاري ك/ التفسير ب/ قوله تعالى ﴿ولا تخزني يوم يبعثون﴾ ح/ ٤٧٦٩ .

(٣) البخاري ك/ أحاديث الأنبياء ب/ قوله تعالى : ﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾ح/ ٣٣٥٠ .

ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ أي سالم من الدنس والشرك قال ابن سيرين : القلب السـليم أن يعلم أن الله حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور وقـال ابـن عباس ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ حيي أن يشهد أن لا إله إلا الله وقال مجاهـد والحسن وغيرهما ﴿ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ يعني من الشرك وقال سعيد بن المسيب : القلـب السليم هو القلب الصحيح وهو قلب المؤمن لأن قلب المنافق مريض قـال الله تعـالى : ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [البقـرة: ١٠] قال أبو عثمان النيسابوري : هو القلب السالم مـن البدعة المطمئن إلى السنة

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ ﴾ أي قربت وأدنيت من أهلها مزخرفة مزينة لناظريها وهم المتقـون الذين رغبوا فيها على ما في الدنيا وعملوا لها في الدنيا ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ أي أظهرت وكشف عنها وبدت منها عنق فزفرت زفرة بلغت منها القلوب الحناجر وقيـل لأهلها تقريعـا وتوبيخـا ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ أي ليست الآلهة التي عبدتموها من دون الله من تلك الأصنام والأنداد تغني عنكم اليوم شيئا ولا تدفع عن أنفسها فإنكم وإياها اليوم حصب جهنم أنتم لها واردون

وقوله ﴿ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ ﴾ قال مجاهد : يعني فدهوروا فيها وقال غيره : كبوا فيها والكاف مكررة كما يقال صرصر والمراد أنه ألقى بعضهم على بعـض مـن الكفار وقادتهم الذين دعوهم إلى الشرك ﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ أي ألقوا فيها عن آخـرهم ﴿ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ أي يقول الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعا فهـل أنـتم مغنون عنا نصيبا من النار ؟ ويقولون وقد عادوا على أنفسهم بالملامة ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى

ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ أي نجعل أمركم مطاعا كما يطاع أمر رب العالمين وعبدناكم مع رب العالمين ﴿ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ أي ما دعانا إلى ذلك إلا المجرمون ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ قال بعضهم : يعني من الملائكة كما يقولون ﴿ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ ﴾ [الأعراف: ٥٣] وكذا قالوا ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ ﴿١٠١﴾ ﴾ أي قريب

قال قتادة : يعلمون والله أن الصديق إذا كان صالحا نفع وأن الحميم إذا كان صالحا شفع ﴿ فَلَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ وذلك أنهم يتمنون أن يردوا إلى دار الدنيا ليعملوا بطاعة ربهم فيما يزعمون والله تعالى يعلم أنهم لو ردهم إلى دار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون وقد أخبر الله تعالى عن تخاصم أهل النار في سورة (ص) ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ ﴾ [ص] ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ أي إن في محاجة إبراهيم لقومه وإقامة الحجج عليهم في التوحيد لآية أي لدلالة واضحة جلية على أن لا إله إلا الله ﴿ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾ اهـ

﴿ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ وهكذا لم يمنعه أن أباه وأن قومه يعبدون ما يعبدون ، أن يفارقهم بعقيدته ، وأن يجاهر بعدائه لآلهتهم وعقيدتهم ، هم وآباؤهم وهم آباؤه الأقدمون!

وكذلك يعلم القرآن المؤمنين أن لا مجاملة في العقيدة لوالد ولا لقوم؛ وأن الرابطة الأولى هي رابطة العقيدة ، وأن القيمة الأولى هي قيمة الإيمان . وأن ما عداه تبع له يكون حيث يكون .

واستثنى إبراهيم ﴿رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ من عدائه لما يعبدون هم وآباؤهم الأقدمون :

﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ فقد يكون من آبائهم الأقدمين من عبد الله ، قبل أن تفسد عقيدة القوم وتنحرف؛ وقد يكون من عبد الله ولكن أشرك معه آلهة أخرى مدعاة . فهو الاحتياط إذن في القول ، والدقة الواعية في التعبير ، الجديران بإبراهيم عليه السلام في مجال التحدث عن العقيدة وموضوعها الدقيق .

ثم يأخذ إبراهيم عليه السلام في صفة ربه . رب العالمين . وصلته به في كل حال وفي كل حين . ...، وفي كل حاجة وغاية .

﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾

ونستشعر من صفة إبراهيم لربه ، واسترساله في تصوير صلته به ، أنه يعيش بكيانه كله مع ربه . وأنه يتطلع إليه في ثقة ، ويتوجه إليه في حب؛ وأنه يصفه كأنه يراه ، ويحس وقع إنعامه وإفضاله عليه بقلبه ومشاعره وجوارحه .....﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ . . الذي أنشأني من حيث يعلم ولا أعلم؛ فهو أعلم بماهيتي وتكويني ، ووظائفي ومشاعري ، وحالي ومآلي : ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ إليه ، وإلى طريقي الذي أسلكه ، وإلى نهجي الذي أسير عليه . وكأنما يحس إبراهيم عليه السلام أنه عجينة طيعة في يد الصانع المبدع ، يصوغها كيف شاء ، على أي صورة أراد . إنه الاستسلام المطلق في طمأنينة وراحة وثقة ويقين

﴿وَٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ . . فهي الكفالة المباشرة الحانية الراعية ، الرفيقة الودود ، يحس بها إبراهيم في الصحة والمرض . ويتأدب بأدب النبوة الرفيع ، فلا ينسب مرضه إلى ربه وهو يعلم أنه بمشيئة ربه يمرض ويصح إنما يذكر ربه في مقام الإنعام والإفضال إذ يطعمه ويسقيه . . ويشفيه . . ولا يذكره في مقام الابتلاء حين يبتليه .

﴿ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ ﴾ . . فهو الإيمان بأن الله هو الذي يقضي الموت ، وهو الإيمان بالبعث والنشور في استسلام ورضى عميق .

﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾ . . فأقصى ما يطمع فيه إبراهيم عليه السلام النبي الرسول ، الذي يعرف ربه هذه المعرفة ، ويشعر بربه هذا الشعور ، ويحس في قرارة نفسه هذه القربى . . أقصى ما يطمع فيه أن يغفر له ربه خطيئته يوم الدين . فهو لا يبرئ نفسه ، وهو يخشى أن تكون له خطيئة ، وهو لا يعتمد على عمله ، ولا يرى أنه يستحق بعمله شيئاً ، إلا أنه يطمع في فضل ربه ، ويرجو في رحمته ، وهذا وحده هو الذي يطمعه في العفو والمغفرة .

إنه شعور التقوى ، وشعور الأدب ، وشعور التحرج؛ وهو الشعور الصحيح بقيمة نعمة الله وهي عظيمة عظيمة ، وقيمة عمل العبد وهو ضئيل ضئيل .

وهكذا يجمع إبراهيم في صفة ربه عناصر العقيدة الصحيحة : توحيد الله رب العالمين . والإقرار بتصريفه للبشر في أدق شؤون حياهم على الأرض . والبعث والحساب بعد الموت وفضل الله وتقصير العبد . وهي العناصر التي ينكرها قومه ، وينكرها المشركون . ثم يأخذ إبراهيم الأواه المنيب في دعاء رخي مديد ، يتوجه به إلى ربه في إيمان وخشوع؛

﴿ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾

والدعاء كله ليس فيه طلب لعرض من أعراض هذه الأرض؛ ولا حتى صحة البدن . إنه دعاء يتجه إلى آفاق أعلى؛ تحركه مشاعر أصفى . ودعاء القلب الذي عرف الله فأصبح يحتقر ما عداه . والذي ذاق فهو يطلب المزيد؛ والذي يرجو ويخاف في حدود ما ذاق وما يريد . ﴿ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا ﴾ . . أعطني الحكمة التي أعرف بها القيم

الصحيحة والقيم الزائفة ، فأبقى على الدرب يصلني بما هو أبقى ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ . . يقولها إبراهيم النبي الكريم الأواه الحليم . فيا للتواضع! ويا للتحرج! ويا للإشفاق من التقصير! ويا للخوف من تقلب القلوب! ويا للحرص على مجرد اللحاق بالصالحين! بتوفيق من ربه إلى العمل الصالح الذي يلحقه بالصالحين!﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾. . دعوة تدفعه إليها الرغبة في الامتداد ، لا بالنسب ولكن بالعقيدة؛ فهو يطلب إلى ربه أن يجعل له فيمن يأتون أخيراً لسان صدق يدعوهم إلى الحق ، ويردهم إلى الحنيفية السمحاء دين إبراهيم . ولعلها هي دعوته في موضع آخر . إذ يرفع قواعد البيت الحرام هو وابنه إسماعيل ثم يقول : ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة] وقد استجاب الله له ، وحقق دعوته ، وجعل له لسان صدق في الآخرين ، وبعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم . . وكانت الاستجابة بعد آلاف من السنين . هي في عرف الناس أمد طويل ، وهي عند الله أجل معلوم ، تقتضي حكمته أن تتحقق الدعوة المستجابة فيه .﴿ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾. . وقد دعا ربه من قبل أن يلحقه بالصالحين ، بتوفيقه إلى العمل الصالح ، الذي يسلكه في صفوفهم . وجنة النعيم يرثها عباد الله الصالحون ﴿ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾﴾. . ذلك على الرغم مما لقيه إبراهيم عليه السلام من أبيه من غليظ القول وبالغ التهديد . ولكنه كان قد وعده أن يستغفر له ، فوفى بوعده . وقد بين القرآن فيما بعد أنه لا يجوز الاستغفار للمشركين ولو كانوا أولي قربى؛ وقرر أن إبراهيم استغفر

لأبيه بناء على موعدة وعدها إياه ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ وعرف أن القرابة ليست قرابة النسب ، إنما هي قرابة العقيدة . . وهذه إحدى مقومات التربية الإسلامية الواضحة . فالرابطة الأولى هي رابطة العقيدة في الله ، ولا تقوم صلة بين فردين من بني البشر إلا على أساسها . فإذا قطعت هذه الصلة أنبتت سائر الوشائج؛ وكانت البعدى التي لا تبقى معها صلة ولا وشيجة .

﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ
﴿٨٩﴾ ﴾ ونستشف من قولة إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ مدى شعوره بهول اليوم الآخر؛ ومدى حيائه من ربه ، وخشيته من الخزي أمامه ، وخوفه من تقصيره وهو النبي الكريم . كما نستشف من قوله : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى
ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ مدى إدراكه لحقيقة ذلك اليوم . وإدراكه كذلك لحقيقة القيم . فليست هنالك من قيمة في يوم الحساب إلا قيمة الإخلاص . إخلاص القلب كله لله ، وتجرده من كل شائبة ، ومن كل مرض ، ومن كل غرض ، وصفائه من الشهوات والانحرافات . وخلوه من التعلق بغير الله . فهذه سلامته التي تجعل له قيمة ووزناً ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾؛ ولا ينفع شيء من هذه القيم الزائلة الباطلة ، التي يتكالب عليها المتكالبون في الأرض؛ وهي لا تزن شيئاً في الميزان الأخير!

وهنا يرد مشهد من مشاهد القيامة يرسم ذلك اليوم الذي يتقيه إبراهيم؛ فكأنما هو حاضر ، ينظر إليه ويراه ، وهو يتوجه لربه بذلك الدعاء الخاشع المنيب :

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾
مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ
﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ

﴿٩٨ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ٩٩ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ١٠١ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٠٢﴾

[لقد قربت الجنة وعرضت للمتقين ، الذين كانوا من عذاب رهم مشفقين . ولقـد كشفت الجحيم وأبرزت للغاوين ، الذين ضلوا الطريق وكذبوا بيوم الدين ، وإنهم لعلـى مشهد من الجحيم يقفون . حيث يسمعون التقريع والتأنيب ، قبل أن يكبكبوا في الجحيم . . إنهم يسألون عما كانوا يعبدون من دون الله وذلك تساوق مع قصة إبراهيم وقومـه وما كان بينه وبينهم من حوار عما كانوا يعبدون إنهم ليسـألون اليـوم : ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ٩٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أين هم ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ ثم لا يسمع منهم جواب ، ولا ينتظر منهم جواب . إنما هو سؤال لمجرد التقريع والتأنيب ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ٩٤ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ٩٥﴾ . . كبكبوا . . وإننا لنكاد نسمع مـن ... اللفـظ صوت تدفعهم وتكفئهم وتساقطهم بلا عناية ولا نظام ، وصوت الكركبة الناشئ مـن الكبكبة ، كما يتهار الجرف فتتبعه الجروف . فهو لفظ مصور ... لمعناه . وإنهم لغاوون ضالون ، وقد كبكب معهم جميع الغاوون . هم ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ٩٥﴾. والجميع جنود إبليس . فهو تعميم شامل بعد تخصيص .

ثم نستمع إليهم في الجحيم . . إنهم يقولون لآلهتهم من الأصنام : ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٩٨﴾ فنعبدكم عبادته . إما معه وإمـا مـن دونه . الآن يقولونها بعد فوات الأوان! وهم يلقون التبعة على المجرمين منـهم ، الـذين أضلوهم وصدوهم عن الهدى . ثم يفيقون فيعلمون أن الأوان قد فات ، وأنه لا جـدوى

من توزيع التبعات : ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ فلا آلهة تشفع ، ولا صداقات تنفع .اهـ [(١)]

من هداية الآيات :

١- تقرير النبوة المحمدية بذكر هذا القصص .

٢- تقرير التوحيد بالحوار الذي دار بين إبراهيم إمام الموحدين وقومه المشركين .

٣- بيان أن كل من عبد معبوداً غير الله تعالى سيكون له عدواً لدوداً يوم القيامة .

٤- بيان أن العكوف على الأضرحة والتمرغ في تربتها وطلب الشفاء منها شرك .

٥- بيان الأسلوب الحكيم في الدعوة إلى الله تعالى من طريق السؤال والجواب .

٦- بيان أن الجنة تورث ويذكر تعالى سبب إرثها وهو التقوى في قوله ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ ﴾ [مريم]

٧- مشروعية الاستغفار للوالدين إن ماتا على التوحيد .

٨- بطلان الانتفاع يوم القيامة بغير الإيمان والعمل الصالح بعد فضل الله ورحمته .

٩- الترغيب في التقوى والتحذير من الغواية .

١٠- تقرير أن دعاة الزنى والربا والخرافة والشركيات من الناس هم من جند إبليس .

١١- تقرير أن المجرمين هم الذين أفسدوا نفوسهم ونفوس غيرهم بدعوتهم إلى الضلال . وحملهم عل المعاصي .

١٢- تقرير أن الشفاعة لن تكون لمن مات على الشرك والكفر .

١٣- لا تنفع العبر والمواعظ والآيات في هداية قوم كتب الله أزلاً شقاءهم وعلم منهم أنهم لا يؤمنون فكتب ذلك عليهم .

---

(١) انظر الظلال : ٢٦٠٥/٥ في ظلال سورة الشعراء الآيات (٦٩ – ١٠٢) .

سُورَةُ النمل

بين يدي السورة الكريمة :

هذه السورة مكية نزلت بعد الشعراء؛ وهي تمضي على نســقها في الأداء : مقدمــة وتعقيب يتمثل فيهما موضوع السورة الذي تعالجه ؛ وقصص بين المقدمة والتعقيب يعين على تصوير هذا الموضوع ، ويؤكده ، ويبرز فيه مواقف معينة للموازنــة بــين موقــف المشركين في مكة ومواقف الغابرين قبلهم من شتى الأمم ، للعبرة والتــدبر في ســنن الله وسنن الدعوات .

وموضوع السورة الرئيسي كسائر السور المكية هو العقيدة : الإيمان بالله ، وعبادتــه وحده ، والإيمان بالآخرة ، وما فيها من ثواب وعقاب . والإيمان بالوحي وأن الغيب كله لله ، لا يعلمه سواه . والإيمان بأن الله هو الخالق الرازق واهب النعم؛ وتوجيه القلــب إلى شكر أنعم الله على البشر . والإيمان بأن الحول والقوة كلها لله ، وأن لا حول ولا قوة إلا بالله

ويأتي القصص لتثبيت هذه المعاني؛ وتصوير عاقبة المكذبين بها ، وعاقبة المؤمنين .

تأتي حلقة من قصة موسى ﷺ تلي مقدمة السورة . حلقة رؤيته للنار وذهابه إليها ، وندائه من الملأ الأعلى ، وتكليفه الرسالة إلى فرعون وملئه . ثم يعجــل الســياق بخــبر تكذيبهم بآيات الله وهم على يقين من صدقها وعاقبة التكذيب مع اليقين . . ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ وكـــذلك شأن المشركين في مكة كان مع آيات القرآن المبين .

وتليها إشارة إلى نعمة الله على داود وسليمان عليهما السلام ثم قصة ســليمان مــع النملة ، ومع الهدهد ، ومع ملكة سبأ وقومها . وفيها تظهر نعمة الله على داود وسليمان

وقيامهما بشكر هذه النعمة . وهي نعمة العلم والملك والنبوة مع تسخير الجن والطير لسليمان . وفيها تظهر كذلك أصول العقيدة التي يدعو إليها كل رسول . ويبرز بصفة خاصة استقبال ملكة سبأ وقومها لكتاب سليمان وهو عبد من عباد الله واستقبال قريش لكتاب الله . هؤلاء يكذبون ويجحدون . وأولئك يؤمنون ويسلمون . والله هو الذي وهب سليمان ما وهب ، وسخر له ما سخر . وهو الذي يملك كل شيء ، وهو الذي يعلم كل شيء . وما ملك سليمان وما علمه إلا قطرة من ذلك الفيض الذي لا يغيض .

وتليها قصة صالح مع قومه ثمود . ويبرز فيها تآمر المفسدين منهم عليه وعلى أهله ، وتبييتهم قتله؛ ثم مكر الله بالقوم ، ونجاة صالح والمؤمنين معه ، وتدمير ثمود مع المتآمرين : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ ﴾ وقد كانت قريش تتآمر على رسول الله ﷺ وتبيت له ، كما بيتت ثمود لصالح وللمؤمنين .

ويختم القصص بقصة لوط مع قومه . وهمهم بإخراجه من قريتهم هو والمؤمنون معه ، بحجة أنهم أناس يتطهرون! وما كان من عاقبتهم بعد إذ هاجر لوط من بينهم ، وتركهم للدمار : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

ولقد همت قريش بإخراج الرسول ﷺ وتآمرت في ذلك قبل هجرته من بين ظهرانيهم بقليل

فإذا انتهى القصص بدأ التعقيب بقوله : ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ ثم أخذ يطوف معهم في مشاهد الكون ، وفي أغوار النفس . يريهم يد الصانع المدبر الخالق الرازق ، الذي يعلم الغيب وحده ، وهم إليه راجعون . ثم عرض عليهم أحد أشراط الساعة وبعض مشاهد القيامة ، وما ينتظر المكذبين بالساعة في ذلك اليوم العظيم .... والتركيز في هذه السورة على العلم . علم الله المطلق بالظاهر والباطن ، وعلمه بالغيب خاصة . وآياته الكونية التي يكشفها للناس . والعلم الذي وهبه لداود وسليمان . وتعليم سليمان منطق الطير وتنويهه بهذا التعليم . .

ومن ثم يجيء في مقدمة السورة : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ ﴾

ويجيء في التعقيب ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ﴾

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ ﴾ ويجيء في الختام : ﴿ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ ويجيء في قصة سليمان : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ وفي قول سليمان : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ ﴾ وفي قول الهدهد : ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ وعندما يريد سليمان استحضار عرش الملكة ، لا يقدر على إحضاره في غمضة عين عفريت من الجن ، إنما يقدر على هذه : ﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ وهكذا تبرز صفة العلم في جو السورة تظللها بشتى الظلال في سياقها كله من المطلع إلى الختام . ويمضي سياق السورة كله في هذا الظل ، حسب تتابعه الذي أسلفنا . فنأخذ في استعراضها تفصيلاً .

﴿ طس ﴾ . الأحرف المقطعة للتنبيه على المادة الأولية التي تتألف منها السورة والقرآن كله . وهي متاحة لجميع الناطقين بالعربية . وهم يعجزون أن يؤلفوا منها كتاباً كهذا القرآن ، بعد التحدي والإفحام . . ويلي ذلك التنبيه ذكر القرآن اهـ (١)

﴿ طس ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

---

(١) انظر الظلال : ٥/ ٢٦٢٤- ٢٦٢٦ في ظلال سورة النمل .

﴿بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ۝٥ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾

تفسير بعض الكلمات :

﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ۝١﴾

﴿تِلۡكَ﴾ أي هذه آيات القرآن وآيات الكتاب والإشارة بتلك عائد إلى السورة ، أو إلى الحروف التي هي ﴿طسٓ﴾ . المبين حلاله وحرامه وأمره ونهيه ووعده ووعيده .

﴿هُدٗى﴾ إلى الجنة ﴿وَبُشۡرَىٰ﴾ بالثواب ، أو هدى من الضلالة وبشرى بالجنة .

﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة باستيفاء فروضها وسننها ، أو بالمحافظة على مواقيتها .

﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾ زكاة المال ، أو زكاة الفطر ، أو طاعة الله تعالى والإخلاص ، أو تطهير أجسادهم من دنس المعاصي

﴿يَعۡمَهُونَ﴾ يترددون ، أو يتمادون ، أو يلعبون ، أو يتحيرون .اهـ[1]

المعنى العام :

ينبه تعالى عباده على عظمة القرآن ويشير إليه إشارة دالة على التعظيم فقال: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ﴾ أي: هي أعلى الآيات وأقوى البينات وأوضح الدلالات وأبينها على أجل المطالب وأفضل المقاصد، وخير الأعمال وأزكى الأخلاق، آيات تدل على الأخبار الصادقة والأوامر الحسنة والنهي عن كل عمل وخيم وخلق ذميم، آيات بلغت في وضوحها وبيانها للبصائر النيرة مبلغ الشمس للأبصار، آيات دلت على الإيمان ودعت للوصول إلى الإيقان، وأخبرت عن الغيوب الماضية والمستقبلة، على طبق ما كان

---

(١) انظر تفسير العز بن عبد السلام لسورة النمل (١ – ٦) .

ويكون. آيات دعت إلى معرفة الرب العظيم بأسمائه الحسنى وصفاته العليا وأفعاله الكاملة، آيات عرفتنا برسله وأوليائه ووصفتهم حتى كأننا ننظر إليهم بأبصارنا، ولكن مع هــذا لم ينتفع بها كثير من العالمين و لم يهتد بها جميع المعاندين صونا لها عن من لا خـير فيـه ولا صلاح ولا زكاء في قلبه، وإنما اهتدى بها من خصهم الله بالإيمان واستنارت بذلك قلوبهم وصفت سرائرهم.

فلهذا قال: ﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ﴾ أي: تهديهم إلى سلوك الصراط المسـتقيم وتبين لهم ما ينبغي أن يسلكوه أو يتركوه، وتبشرهم بثواب الله المرتب على الهداية لهــذا الطريق.

ربما قيل: لعله يكثر مدعو الإيمان فهل يقبل من كل أحد ادعى أنه مؤمن ذلـك؟ أم لا بد لذلك من دليل؟ وهو الحق فلذلك بين تعالى صـفة المـؤمنين فقـال: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ فرضها ونفلها فيأتون بأفعالها الظاهرة، من أركانها وشروطها وواجباتهـا بـل ومستحباتها، وأفعالها الباطنة وهو الخشوع الذي روحها ولبها باستحضار قرب الله وتدبر ما يقول المصلي ويفعله.

﴿ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ المفروضة لمستحقيها. ﴿ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ أي: قد بلغ معهم الإيمان إلى أن وصل إلى درجة اليقين وهو العلم التام الواصل إلى القلب الـداعي إلى العمل. ويقينهم بالآخرة يقتضي كمال سعيهم لها، وحـذرهم مـن أسـباب العـذاب وموجبات العقاب وهذا أصل كل خير.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ﴾ ويكذبون بها ويكذبون من جـاء بإثباتهـا، ﴿ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ حائرين مترددين مؤثرين سخط الله على رضاه، قـد انقلبـت عليهم الحقائق فرأوا الباطل حقا والحق باطلا.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴾ أي: أشده وأسوأه وأعظمه، ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴾ حصر الخسار فيهم لكونهم خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة وخسروا الإيمان الذي دعتهم إليه الرسل.

﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ ﴾ أي: وإن هذا القرآن الذي يترل عليك وتتلقفه وتتلقنه يترل من عند ﴿حَكِيمٍ﴾ يضع الأشياء مواضعها، ويترلها منازلها. ﴿عَلِيمٍ﴾ بأسرار الأمور وبواطنها، كظواهرها. وإذا كان من عند ﴿حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ علم أنه كله حكمة ومصالح للعباد، من الذي [هو] أعلم بمصالحهم منهم؟ اهـ (١)

وفي كتاب التفسير الميسر قال المصنف :

﴿طسٓ﴾ سبق الكلام على الحروف المقطّعة في أول سورة البقرة.

هذه آيات القرآن وهي آيات الكتاب العزيز بينة المعنى، واضحة الدلالة، على ما فيه من العلوم والحكم والشرائع. فالقرآن هو الكتاب، جمع الله له بين الاسمين.

﴿ هُدًى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ ﴾ وهي آيات ترشد إلى طريق الفوز في الدنيا والآخرة، وتبشر بحسن الثواب للمؤمنين الذين صدَّقوا بها، واهتدَوْا بهديها، الذين يقيمون الصلوات الخمس كاملة الأركان، مستوفية الشروط، ويؤدون الزكاة المفروضة لمستحقيها، وهم يوقنون بالحياة الآخرة، وما فيها مِن ثواب وعقاب.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴿٥﴾ ﴾ إن الذين لا يُصدِّقون بالدار الآخرة، ولا يعملون لها حسَّنّا لهم أعمالهم السيئة، فرأوها حسنة، فهم يترددون فيها متحيِّرين.

---

(١) انظر تفسير السعدي [المجلد الواحد] ص٦٥٩ تفسير سورة النمل الآيات (١ – ٦) .

أولئك الذين لهم العذاب السيّئ في الدنيا قتلا وأسْرًا وذُلا وهزيمةً، وهم في الآخرة أشـد الناس خسرانًا.

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾ وإنك -أيهـا الرسـول- لتتلقـى القرآن من عند الله، الحكيم في خلقه وتدبيره الذي أحاط بكل شيء علمًا.اهـ

﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ۝٨٢ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝٨٣ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨٤ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ۝٨٥ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٨٦﴾ [النمل]

شرح الكلمات :

﴿وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ : أي حق عليهم العذاب .

﴿دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ : حيوان يدب على الأرض لم يرد وَصْفُها في حـديث صـحيح يعول عليه ويقال به .

﴿تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ﴾ : بلسان يفهمونه لأنها آية من الآيات .

﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ : أي بسبب أن الناس أصبحوا لا يؤمنون بآيـات الله وشرائعه أي كفروا فيبلون بهذه الدابة .

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ﴾ : أي اذكر يوم نحشر أي نجمع .

﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ : أي طائفة وهم الرؤساء المتبعون في الدنيا .

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ : أي يجمعون برد أولهم على آخرهم .

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾: أي الموقف مكان الحساب .

﴿ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم ﴾ : أي حق عليهم العذاب .

﴿ بِمَا ظَلَمُوا۟ ﴾ : أي بسبب الظلم الذي هو شركهم بالله تعالى .

﴿ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴾ : أي لا حجة لهم .

﴿ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ : أي يبصر فيه من أجل التصرف في الأعمال .

معنى الآيات :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي حق العذاب على الكافرين حيث لم يبق في الأرض من يأمر بمعروف ولا من ينهى عن منكر ﴿ أَخْرَجْنَا لَهُمْ ﴾ لفتنتهم ﴿ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ حيوان أرضي ليس بسماوي ﴿ تُكَلِّمُهُمْ ﴾ أي بلسان يفهمونه ، ﴿ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ هذه علة تكليمهم وهي بأن الناس كفروا وما أصبحوا يوقنون بآيات الله وشرائعه فيخرج الله تعالى هذه الدابة لحِكَم منها : أن بها يتميز المؤمن من الكافر . وقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا ﴾ أي واذكر يا رسولنا ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ ﴾ من الأمم البشرية ﴿ فَوْجًا ﴾ أي جماعة ﴿ مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ بأن يرد أولهم على آخرهم لينتظم سيرهم ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو ﴾ الموقف موضع الحساب يقول الله تعالى لهم : ﴿ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى ﴾ وما اشتملت عليه من أدلة وحجج وشرائع وأحكام ﴿ وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا ﴾ ، وهذا تقريع لهم وتوبيخ . إذ كون الإنسان لم يحط علماً بشيء لا يجوز له أن يكذب به لمجرد أنه ما عرفه . وقوله : ﴿ أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي ما الذي كنتم تعملون في آياتي من تصديق وتكذيب . قال تعالى ﴿ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم ﴾ أي وجب العذاب ﴿ بِمَا ظَلَمُوا۟ ﴾ أي بسبب ظلمهم ﴿ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴾ . أي بعجزهم عن الدفاع عن أنفسهم لأنهم ظلمه مشركون . وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ ﴾ أي ألم يبصر

أولئك المشركون المكذبون بالبعث والجزاء أن الله تعالى جعل ﴿ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ وسكونهم هو موتهم على فرشهم بالنوم فيه ﴿وَٱلنَّهَارَ﴾ أي وجعل ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾ أي يبصر فيه ليتصرفوا فيه بالعمل لحياتهم ، فنوم الليل شبيه بالموت وانبعاث النهار شبيه بالحياة ، فهي عملية موت وحياة متكررة طوال الدهر فكيف ينكر العقلاء البعث الآخر وله صورة متكررة طوال الحياة ، ولذا قال تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي في ذلك العمل المتكرر للموت والحياة كل يوم وليلة ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ أي براهين وحجج قاطعة على وجود بعث وحياة بعد هذا الموت والحياة .

وخص المؤمنون بالذكر وبالحصول على البرهان المطلوب من عملية الليل والنهار لأن المؤمنين أحياء يسمعون ويبصرون ويفكرون والكافرين أموات والميت لا يسمع ولا يبصر ولا يعي ولا يفكر .

من هداية الآيات :

١- تأكيد آية الدابة والتي تخرج ....، وعما قريب تخرج ، وذلك يوم لا يبقى من يأمر بالمعروف ولا من ينهى عن المنكر فيحق العذاب على الكافرين .

٢- تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر وصف لها .

٣- ويل لرؤساء الضلالة والشر والشرك والباطل إذ يؤتى بهم ويسألون .

٤- في آية الليل والنهار ما يدل بوضوح على عقيدة البعث الآخر والحساب والجزاء . اهـ (1)

﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ

---

(1) انظر تفسير الجزائري : ٢/٦٠٧ تفسير سورة النمل الآيات (٨٢ – ٨٦) ط/ دار الحديث .

يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [النمل]

شرح الكلمات :

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ﴾ : أي يوم ينفخ إسرافيل في البوق نفخة الفزع والفناء والقيام من القبور .﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴾ : أي وكل من أهل السماء والأرض أتوا الله ﷻ داخرين أي أذلاء صاغرين .

﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ﴾ : أي تظنها في نظر العين جامدة .

﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ : وذلك لسرعة تسييرها .

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ ﴾ : وهي الإيمان والتوحيد وسائر الصالحات .

﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ : أي الجنة .

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ ﴾ : أي الشرك والمعاصي فله النار يكب وجهه فيها .

﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴾ : أي أصحاب حسنات التوحيد والعمل الصالح آمنون من فزع هول يوم القيامة .

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ ﴾ : أي جاء بالسيئة كالشرك وأكل الربا ، وقتل النفس ، فكبت وجوههم في النار والعياذ بالله أي القوا فيها على وجوههم

﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ : أي ما تجزون غلا بعملكم ، ولا تجزون بعمل غيركم .اهـ [١]

---

(١) انظر نفس المصدر

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [النمل]

يخبر تعالى عن حالة المكذبين في موقف القيامة وأن الله يجمعهم، ويحشر من كل أمـة من الأمم فوجا وطائفة ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ يجمع أولهم علـى آخـرهم وآخرهم على أولهم ليعمهم السؤال والتوبيخ واللوم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو ﴾ وحضروا قال لهم موبخا ومقرعـا: ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا ﴾ العلم أي: الواجب عليكم التوقف حتى ينكشف لكم الحـق وأن لا تتكلمـوا إلا بعلم، فكيف كذبتم بأمر لم تحيطوا به علما؟ ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي: يسألهم عن علمهم وعن عملهم فيجد عليهم تكذيبا بالحق، وعملهم لغير الله أو على غير سنة رسولهم.

﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ ﴾ أي: حقت عليهم كلمة العذاب بسبب ظلمهم الـذي استمروا عليه وتوجهت عليهم الحجة، ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴾ لأنه لا حجة لهم.

﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

أي: ألم يشاهدوا هذه الآية العظيمة والنعمة الجسيمة وهو تسخير الله لهم الليل والنـهار، هذا بظلمته ليسكنوا فيه ويستريحوا من التعب ويستعدوا للعمل، وهذا بضيائه لينتشروا فيه في معاشهم وتصرفاتهم. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ على كمـال وحدانيـة الله وسبوغ نعمته. اهـ (١)

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ

---

(١) انظر تفسير السعدي [المجلد الواحد] ص ٦٧١ لسورة النمل الآيات (٨٣ – ٨٦) ط/ التوفيقية .

إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٌ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾
وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾

يخوف تعالى عباده ما أمامهم من يوم القيامة وما فيه من المحن والكروب، ومزعجات القلوب فقال: ﴿ وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ ﴾ بسبب النفخ فيه ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أي: انزعجوا وارتاعوا وماج بعضهم ببعض خوفا مما هو مقدمة له. ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾ ممن أكرمه الله وثبته وحفظه من الفزع. ﴿وَكُلٌّ ﴾ من الخلق عند النفخ في الصور ﴿أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ﴾ صاغرين ذليلين، كما قال تعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [مريم] ففي ذلك اليوم يتساوى الرؤساء والمرءوسون في الذل والخضوع لمالك الملك.

ومن هوله أنك ﴿ وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةً ﴾ لا تفقد [شيئا] منها وتظنها باقية على الحال المعهودة وهي قد بلغت منها الشدائد والأهوال كل مبلغ وقد تفتت ثم تضمحل وتكون هباء منبثا. ولهذا قال: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ ﴾ من خفتها وشدة ذلك الخوف وذلك ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ فيجازيكم بأعمالكم.

﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٌ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾ ثم بين كيفية جزائه فقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ ﴾ اسم جنس يشمل كل حسنة قولية أو فعلية أو قلبية ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٌ مِّنۡهَا ﴾ هذا أقل التفضيل .

﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴾ أي: من الأمر الذي فزع الخلق لأجله آمنون وإن كانوا يفزعون معهم.﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ ﴾ اسم جنس يشمل كل سيئة ﴿فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي

ٱلنَّارِ﴾ أي: ألقوا في النار على وجوههم ويقال لهم: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ اهـ (١)

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

يخبر تعالى عن هول يوم نفخة الفزع في الصور وهو كما جاء في الحديث قرن ينفخ فيه وفي حديث الصور : إن إسرافيل هو الذي ينفخ فيه بأمر الله تعالى فينفخ فيه أولا نفخة الفزع ويطولها وذلك في آخر عمر الدنيا حين تقوم الساعة على شرار الناس من الأحياء فيفزع من في السموات ومن في الأرض ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ وهم الشهداء فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون .

[١٨٩] قال الإمام مسلم بن الحجاج : حدثنا عبيد الله بن معاذ العنبري حدثنا أبي حدثنا شعبة عن النعمان بن سالم سمعت يعقوب بن عاصم بن عروة بن مسعود الثقفي سمعت عبد الله بن عمرو رضي الله عنه وجاءه رجل فقال : ما هذا الحديث الذي تحدث أن الساعة تقوم إلى كذا وكذا ؟ فقال : سبحان الله أو لا إله إلا الله أو كلمة نحوهما لقد هممت أن لا أحدث أحدا شيئا أبدا إنما قلت أنكم سترون بعد قليل أمرا عظيما يخرب البيت ويكون ويكون ـ ثم قال ـ قال رسول الله ﷺ : ((**يخرجُ الدجال في أمتي فيمكث أربعين ـ لا أدري أربعين يوما أو أربعين شهرا أو أربعين عاما ـ فيبعث الله عيسى ابن مريم كأنه عروة بن مسعود فيطلبه فيهلكه ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة ثم يرسل الله ريحا باردة من قبل الشام فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته حتى لو أن أحدكم دخل في كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه**)) قال : سمعتها من رسول الله ﷺ قال : ((فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا فيتمثل لهم الشيطان فيقول : ألا

---

(١) انظر المصدر السابق .

تستجيبون ؟ فيقولون : فما تأمرنا ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان وهم في ذلك دارٌ رزقهم حسن عيشهم ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا ورفع ليتا ـ قال ـ وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله قال : فيصعق ويصعق الناس ثم يرسل الله ـ أو قال ينزل الله ـ مطرا كأنه الطل ـ أو قال : الظل نعمان الشاك فتنبت منه أجساد الناس ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ثم يقال : يا أيها الناس هلموا إلى ربكم وقفوهم إنهم مسؤولون ثم يقال : أخرجوا بعث النار فيقال : كم ؟ فيقال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين قال : فذلك يوم يجعل الولدان شيبا وذلك يوم يكشف عن ساق)) وقوله ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا ورفع ليتا الليت هو صفحة العنق أي أمال عنقه ليستمعه من السماء جيدا فهذه نفخة الفزع ثم بعد ذلك نفخة الصعق وهو الموت ثم بعد ذلك نفخة القيام لرب العالمين وهو النشور من القبور لجميع الخلائق ولهذا قال تعالى : ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ قرىء بالمد وبغيره على الفعل وكل بمعنى واحد وداخرين أي صاغرين مطيعين لا يتخلف أحد عن أمره كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ ﴾ [الإسراء: ٥٢] وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الروم]

[١٩٠] وفي حديث الصور أنه : ((في النفخة الثالثة يأمر الله الأرواح فتوضع في ثقب في الصور ثم ينفخ إسرافيل فيه بعد ما تنبت الأجساد في قبورها وأماكنها فإذا نفخ في الصور طارت الأرواح تتوهج أرواح المؤمنين نورا وأرواح الكافرين ظلمة فيقول الله ﷻ : وعزتي وجلالي لترجعن كل روح إلى جسدها فتجيء الأرواح إلى أجسادها فتدب فيها كما يدب السم في اللديغ ثم يقومون ينفضون التراب من قبورهم قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [المعارج] وقوله تعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ أي تراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت

عليه وهي تمر مر السحاب أي تزول عن أماكنها كما قال تعـــالى : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ ﴾ [الطـور] قال تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ [طه] وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [الكهف] وقوله تعالى : ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ أي يفعل ذلك بقدرته العظيمة ﴿ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ أي أتقن كل ما خلق وأودع فيه من الحكمة ما أودع ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ أي هو عليم بما يفعل عباده من خير وشر وسيجازيهم عليه أتم الجزاء ثم بين تعالى حال السعداء والأشقياء يومئذ فقـــال : ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ قال قتادة : بالإخلاص وقال زين العابدين : هي لا إله إلا الله وقد بين تعـــالى في الموضع الآخر أن له عشر أمثالها ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴾ كما قال في الآية الأخـــرى : ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] وقال تعالى : ﴿ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [فصلت: ٤٠]

وقال تعالى: ﴿ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾وقولـــه تعـــالى : ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ ﴾ أي من لقي الله مسيئا لا حسنة له أو قـــد رجحـــت سيئاته على حسناته كل بحسبه ولهذا قـــال تعـــالى : ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وقال ابن مسعود وابن عباس وأبو هريرة ﷺ وأنس بن مالك وعطـــاء وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وإبراهيم النخعي وأبو وائل وأبو صالح ومحمد بن

كعب وزيد بن أسلم والزهري والسدي والضحاك والحسن وقتادة وابن زيد في قوله : ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ يعني بالشرك اهـ

من هداية الآيات :

١- تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر أحداثها مفصلة .

٢- بيان كيفية خراب العوالم وفناء الأكوان .

٣- فضل الشهداء حيث لا يحزنهم الفزع الأكبر وهم آمنون .

٤- تقرير مبدأ الجزاء وهو الحسنة والسيئة ، حسنة التوحيد وسيئة الشرك .

سُورَةُ العنكبوت

﴿ وَقَالُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [العنكبوت]

شرح الكلمات :

﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ﴾ : أي قال كفار قريش هلاّ أُنزل على محمد آيات مــن ربّه كناقة صالح ، وعصا موسى .

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾: أي قل يا رسولنا الآيات عند الله يترلها متى شاء .

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا ﴾ : أي أو لم يكفهمُ فيما طلبوا من الآيات ﴿أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ عليك .

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ ﴾ : أي في القرآن رحمة وموعظة للمـــؤمنين فهو خير من ناقة صالح .

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾: وهو ما يعبد مت دون الله .

﴿وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ ﴾ : وهو الإله الحق .

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾: أي حيث استبدلوا الكفر بالإيمان .

معنى الآيات :

ما زال السياق في تقرير النبوة المحمدية فقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا ﴾ أي أهل مكة ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ أي هلاّ أُنزل على محمد آيات من ربّه كناقة صالح وعصا موسى ومائدة عيسى إذ هذا الذي يعنون بالآيات أي معجزات خارقة للعادة . قال تعالى لرسوله ﷺ قل يا رسولنا لقومك المطالبين بالآيات دليلا على صدق نُبُوَّتك قل لهم : **أولا** : الآيات التي تطالبون بها هي عند الله وليست عندي فهو تعالى ينزّلها متى شاء وعلى من شاء .

وثانيا ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي وظيفتي التي أقوم بها هي إنذار أهل الظلم من عاقبة ظلمهم وهي عذاب النار فلذا لا معنى بمطالبتي بالآيات .

وثالثا أو لم يكفهم آية أن الله تعالى أنزل عليّ كتابه فأنا أتلوه عليكم صباح مساء فأي آية أعظم من كتاب من أميّ لا يقرأ ولا يكتب تُتلى آياته تحمل الهدى والنور وهو في الوقت نفسه رحمة وذكرى أي موعظة لقوم يؤمنون فهي معجزة ثابتة قائمة باقية يجد فيها المؤمنون الرحمة فيتراحمون بها ويجدون فيها الموعظة فهم يتعظون بها ، فأين هذا من معجزة تبقى ساعة ثم تذهب وتروح كمائدة عيسى أو عصا موسى .

ورابعا : شهادة الله برسالتي كافية لا يُطلب معها دليل آخر على نبوتي ورسالتي ، فقد قال لي ربي : ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ﴾ . ربي الذي يعلم ما في السموات والأرض من كل غيب ومن ذلك علمه بأني رسوله فشهد لي بذلك بإنزاله عليّ هذا الكتاب .

وأخيراً وبعد هذا البيان يقول تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ وهو تأليه المخلوقات من دون الله ﴿وَكَفَرُوا ﴾ بأولوهية الله الحق ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ﴾البعداء في الفساد

العقلي وسوء الفهم ﴿هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ في صفتهم حين اشتروا الكفر بالإيمان واستبدلوا الضلالة بالهدى .

هذا ما دلت عليه الآيات الثلاث فلتعد تلاوتها بالتأنّي والتدبر . اهـ [١]

قال ابن عطية :

﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ بعد أن ألقمهم حجر الحجّة الدامغة أمر بأن يجعل الله حكَماً بينه وبينهم لما استمر تكذيبهم بعد الدلائل القاطعة . وهذا من الكلام المنصف المقصود منه استدراج المخاطب و ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ بمعنى هو كاف لي في إظهار الحق ، والباء مزيدة للتوكيد وقد تقدم نظيره في قوله : ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ٧٩﴾ في سورة [النساء]

والشهيد : الشاهد ، ولما ضُمن معنى الحاكم عدّي بظرف بيني وبينكم } . قال الحارث بن حلزة في عمرو بن هند الملك: ... وهو الرّب والشهيد على يوم الحِيَارَيْن والبلاء بلاء ... وجملة : ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ مقررة لمعنى الاكتفاء به شهيداً فهي تنزل منها منزلة التوكيد .

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ بعد أن أنصفهم بقوله : ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ﴾ استمر في الانتصاف بما لا يستطيعون إنكاره وهو أن الذين اعتقدوا الباطل وكفروا بالله هم الخاسرون في الحكومة والقضية الموكولة إلى الله تعالى؛ فهم إن تأملوا في إيمانهم بالله حقَّ التأمّل وجدوا أنفسهم غير مؤمنين بإلهيته لأنهم أشركوا معه ما ليس حقيقاً بالإلهية فعلموا أنهم كفروا بالله فتعين

---

(١) انظر تفسير الجزائري : ٢/ ٦٧٥ ، ٦٧٦ تفسير سورة العنكبوت الآيات (٥٠ – ٥٢) .

أنهم آمنوا بالباطل فالكلام موجه كقوله : ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سبأ : ٢٤] ، وقول حسان في أبي سفيان بن حرب أيام جاهليته: ...

أتهجوهُ ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء

... وفي الجمع بين ﴿ءَامَنُواْ﴾ و ﴿وَكَفَرُواْ﴾ محسّن المضادة وهو الطّباق .

والباطل : ضد الحق ، أي ما ليس بحقيق أن يؤمن به ، أي ما ليس بإله حق ولكنهم يدّعون له الإلهية وذلك إيمانهم بإلهية الأصنام . وأما كفرهم بالله فلأنهم أشركوا معه في الإلهية فكفروا بأعظم صفاته وهي الوحدانية . واسم الإشارة يفيد التنبيه على أن المشار إليهم أحرياء بالحكم الوارد بعد اسم الإشارة لأجل الأوصاف التي ذكرت لهم قبل اسم الإشارة مثل : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ [البقرة : ٥] .

والقصر المستفاد من تعريف جزأي جملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ قصر ادعائيّ للمبالغة في اتصافهم بالخسران العظيم بحيث إن كل خسران في جانب خسرانهم كالعدم؛ فكأنهم انفردوا بالخسران فأطلق عليهم المركب المفيد قصر الخسران عليهم وذلك لأنهم حقت عليهم الشقاوة العظمى الأبدية . واستعير الخسران لانعكاس المأمول من العمل المُكدّ تشبيهاً بحال من كد في التجارة لينال مالاً فأفنى رأس ماله ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ ﴾ [البقرة : ١٦] .اهـ

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ عطف على جملة : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ استقصاء في الرد على شبهاتهم

وإبطالاً لتعلات إعراضهم الناشيء عن المكابرة ، وهم يخيلون أنهم إنما أعرضوا لعدم اقتناعهم بآية صدق الرسول ﷺ .

ومناسبة وقوعه هذا أنه لما ذكر كفرهم بالله وكان النبي ﷺ ينذرهم على ذلك بالعذاب وكانوا يستعجلونه به ذكر توركهم عليه عقب ذكر الكفر . واستعجال العذاب : طلب تعجيله وهو العذاب الذي تُوعدوا به . وقصدهم من ذلك الاستخفاف بالوعيد .

وتقدم الكلام على تركيب : ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ في قوله تعالى : ﴿ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ ﴾ [يونس : ١١] ، وقوله : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [الرعد : ٦] . والتعريف ﴿بِٱلْعَذَابِ﴾ تعريف الجنس . وحُكي استعجالهم العذاب بصيغة المضارع لاستحضار حال استعجالهم لإفادة التعجيب منها كما في قوله تعالى : ﴿ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ [هود] .

وقد أبطل ما قصدوه بقوله : ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ وذلك أن حلول العذاب ليس بيد الرسول ﷺ ، ولا جارياً على طلبهم واستبطائهم فإن الله هو المقدر لوقت حلوله بهم في أجل قدره بعلمه .

والمسمَّى أريد به المعيَّن المحدود أي في علم الله تعالى . وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الحج : ٥] .

والمعنى : لولا الأجل المعين لحلول العذاب بهم لجاءهم العذاب عاجلاً لأن كفرهم يستحق تعجيل عقابهم ولكن أراد الله تأخيره لحِكَم عَلِمَها ، منها إمهالهم ليؤمن منهم من آمن بعد الوعيد ، وليعلموا أن الله لا يستفزه استعجالهم العذاب لأنه حكيم لا يخالف ما قدره بحكمته ، حليم يمهل عباده . فالمعنى : لولا أجل مسمى لجاءهم العذاب في وقت طلبهم تعجيله ، ثم أنذرهم بأنه آتيهم بغتة وأن إتيانه محقق لما دل عليه لام القسم ونون التوكيد وذلك عند حلول الأجل المقدّر له . وقد حل بهم عذاب يوم بدر بغتة كما قال

تعالى : ﴿ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ ﴾ [الأنفال : ٤٢] فاستأصل صناديدهم يومئذ وسُقط في أيديهم .

وإذ قد كان الله أعد لهم عذاباً أعظم من عذاب يوم بدر وهو عذاب جهنم الذي يعم جميعهم أعقب إنذارهم بعذاب يوم بدر بإنذارهم بالعذاب الأعظم . وأعيد لأجله ذكر استعجالهم بالعذاب معترضاً بين المتعاطفين إيماء إلى أن ذلك جواب استعجالهم فإنهم استعجلوا العذاب فأُنذروا بعذابين ، أحدهما أعجل من الآخر . وفي إعادة : ﴿ يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ ﴾ تهديد وإنذار بأخذهم ، فجملة : ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ ﴾ معطوفة على جملة : ﴿وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةً ﴾ فهما عذابان كما هو مقتضى ظاهر العطف .

والإحاطة كناية عن عدم إفلاتهم منها .

والمراد ﴿بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ المستعجلون ، واستُحضروا بوصف الكافرين للدلالة على أنه موجب إحاطة العذاب بهم . واستعمل اسم الفاعل في الإحاطة المستقبلة مع أن شأن اسم الفاعل أن يفيد الاتصاف في زمن الحال ، تتريلاً للمستقبل مترلة زمان الحال تنبيهاً على تحقيق وقوعه لصدوره عمن لا خلاف في إخباره .

من هداية الآيات :

١ تقرير النبوة المحمدية بالأدلة القاطعة التي لا تُرد ، وهي أربعٌ كما ذُكر آنفاً .

٢ بيان أكبر معجزة لإثبات لرسول الله ﷺ وهي نزول القرآن الكريم عليه

[١٩١] وفي ذلك قال ﷺ كما في البخاري : « **وما من نبي إلا أُوتي ما على مثله آمن البشر ، وكان الذي أُوتيته حيا أوحاه الله إليّ فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة** » .

٣ القرآن الكريم رحمة وذكرى أي عبرة وعظة للمؤمنين به وبمن نزل عليه .

٤ تقرير خسران المشركين في الدارين لاستبدالهم الباطل بالحق والعياذ بالله

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

شرح الكلمات :

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ : أي يطلبون منك تعجيل العذاب لهم .

﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾: أي وقت محدد للعذاب لا يتقدمه ولا يتأخر عنه لجاءهم .

﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ : فجأة من حيث لا يخطر لهم على بال .

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ : أي من كل جانب وهم فيها وذلك يوم يغشاهم .

﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ ﴾ : أي من فوقهم ومن تحت أرجلهم .

﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ : أي ويقول لهم الجبار ذوقوا ما كنتم تعملـون أي مـن الشرك والمعاصي .

يخبر تعالى عن جهل المكذبين للرسول وما جاء به، وأنهم يقولون –استعجالا للعذاب، وزيادة تكذيب ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾﴾ [النمل] ؟

يقول تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ مضروب لنزولـه، ولم يـأت بعـد، ﴿لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ بسبب تعجيزهم لنا وتكذيبهم الحق، فلو آخذناهم بجهلهم، لكـان كلامهـم أسرع لبلائهم وعقوبتهم، ولكن مع ذلك فلا يستبطئون نزوله، فإنه سيأتيهم ﴿بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فوقع كما أخبر الله تعالى، لما قدموا لـ "بدر" بطرين مفاخرين، ظانين أنهم قادرون على مقصودهم، فأهانهم الله، وقتل كبارهم، واستوعب جملة أشرارهم، و لم يبق فيهم بيت إلا أصابته تلك المصيبة، فأتاهم العذاب من حيث لم يحتسبوا، ونزل بهم وهم لا يشعرون.

هذا، وإن لم يترل عليهم العذاب الدنيوي، فإن أمامهم العذاب الأخروي، الـذي لا يخلص منهم أحد منه، سواء عوجل بعـذاب الـدنيا أو أمهـل. ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ ليس لهم عنها معدل ولا متصرف، قد أحاطت بهم من كل جانب، كمـا أحاطت بهم ذنوبهم وسيئاتهم وكفرهم، وذلك العذاب، هو العذاب الشديد.

﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ فإن أعمالكم انقلبت عليكم عذابا، وشملكم العذاب كما شملكم الكفر والذنوب.اهـ[1]

معنى الآيات :

لقد تقدم في الآيات القريبة أن المكذّبين بالرسالة المحمدية طالبوا بالعذاب تحدياً منـهم للرسول ﷺ فقالوا : إئتنا بالعذاب إن كنت من الصادقين في أنك نبي ورسول إلينـا وفي هذه الآية يعجّب تعالى رسوله أي يحملُه على أن يتعجب من حمق المشـركين وطيشـهم وضلالهم إذ يطالبون بالعذاب فيقول لـه ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ للعذاب أي وقت محدد له لا يتقدمه ولا يتـأخره ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ . ثم أخـبر تعـالى رسوله مؤكداً خبره فقال﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم ﴾ أي العذاب ﴿بَغْتَةً ﴾ لا محالة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بوقت مجيئه ، ثم كرر تعالى حمل رسوله على التعجب من سخف المشـركين الـذين لا يطيقون لسعة عقرب ولا نهشة أفعى يطالبون بالعذاب فقال ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ لا محالة كقولـه ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ ﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ أي يغطيهم ويعمرهم فيكون ﴿فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ وجهنم محيطـة بهم ويقول الجبار تبارك وتعالى موبخاً لهم ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾مـن الشـرك والمعاصي . اهـ

---

(١) انظر تفسير السعدي [المجلد الواحد] ص ٧٠٠ تفسير سورة العنكبوت الآيات(٥٣ — ٥٥)

من هداية الآيات :

١ مشروعية التعجب إذا وجدت أسبابه الحاملة عليه .

٢ بيان مدى حُمق وجهل وسفه الكافرين والمشركين بخاصة .

٣ بيان أن تأخير العذاب لم يكن عن عجز وإنما هو لنظام دقيق إذ كل شيء له أجـل محدد لا يتقدم ولا يتأخر .

﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

شرح الكلمات :

﴿إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ﴾: أي هاجروا من بلاد لم تتمكنوا من العبادة فيها فإن أرض الله واسعة

﴿فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ : فاعبدوني وحدي ولا تعبدوا معي غيري كما يريد منكم المشركون

﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ﴾ : أي لا يمنعنكم الخوف من الموت أن لا تهاجروا في سبيل الله فإن الموت لا بد منه للمهاجرين ولمن ترك الهجرة .

﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴾ : أي بعد موتكم ترجعون إلى الله فمن مات في سبيل مرضاته أكرمه وأسعده ، ومن مات في معصيته أذاقه عذابه .

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم ﴾ : أي لننزلنّهم من الجنة غرفاً تجرى من تحتها الأنهار .

﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾ : أي صبروا على الإيمان والهجرة متوكلين على الله تعالى .

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ ﴾: أي لا تطيق جمعه ولا حمله لضعفها ، والله يرزقهـا فلا ﴿رِزۡقَهَا﴾ عذر لمن ترك الهجرة خوفاً من الجوع والخصاصة .

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ : أي السميع لأقوال عباده العليم بنياتهم وأحوالهم وأعمالهم

معنى الآيات :

لا شك أنه بعد ذلك التأنيب الإلهي للمشركين وتهديدهم بالعذاب وتوعدهم بعذاب جهنم وتوبيخهم فيها على شركهم وباطلهم لا شك أن رد الفعل من المشركين هو الضغط على المؤمنين المستضعفين في مكة فأرشدهم الله تعالى إلى الهجرة من مكة إلى المدينة ليتمكنوا من عبادة الله تعالى ، فناداهم بقوله عز وجل : ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ أي بي وبرسولي ولقائي ﴿إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ ﴾ فهاجروا فيها ، ولا ترضوا بالبقاء مع الكفر تهانون وتُلزمون بعبادة غيري من آلهة المشركين ، ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ لا تعبدوا معي غيري وعليه فهاجروا في سبيل مرضاتي ولا تخشوا موتاً ولا فقراً فإن كل نفس ذائقة الموت هاجر صاحبها أو لم يهاجر ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ﴾ وقوله : ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴾ ، لا محالة فمن رجع إلينا وهو مؤمن مطيع منفذ لأوامرنا مجتنب نواهينا أسعدناه ، ومن رجع إلينا وهو كافر بنا عاصٍ لنا مهمل أوامرنا مرتكب نواهينا أشقيناه . وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ ﴾ أي لَننزلنّهم من الجنة دار الإسعاد ﴿غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ﴾ أي لا يخرجون منها ولا يموتون فيها . هذا بيان لمن مات وهو مؤمن عامل بالصالحات ومنها الهجرة في سبيل الله . وقوله ﴿نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴾ أي ذلك الإنزال في الغرف في الجنان هو الإسعاد المترتب على الإيمان والهجرة والعمل الصالح فالإيمان والهجرة والعمل الصالح عملٌ والجنة وما فيها من النعيم أجرة ذلك العمل . وأثنى الله تعالى على الجنة فقال : ﴿نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴾ ووصفهم بقوله ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾ أي على الإيمان والهجرة والطاعة ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ فخرجوا من ديارهم تاركين أموالهم لا يحملون معهم زاداً كل ذلك توكُلا على ربهم اهـ

فهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
سورة البقرة	١١
من مشكاة النبوة	٢١
من مظاهر الشرك	٢٢
من أسباب محبة الله تعالى	٢٧
سورة النساء	٣٣
من مشكاة النبوة في معنى هذه الآيات	٣٩
سورة الأنعام	٤٨
صورة للمكذبين لما أحيط بهم	٥١
إن في ذلك لعبرة لمن يخشى	٦٨
تذكر الوقوف على الله وتقريره للمكذبين	٦٩
الظالمون يستقبلون أليم السكرات وأهوال البرزخ	٧٨
هل يستويان مثلا	٩٠
سورة الأعراف	٩٧
الميزان من خلال نوافذ القرآن	٩٧
ما الذي يوضع في الميزان يوم القيامة	١٠١
عقيدة أهل السنة في الوزن يوم القيامة	١٠٢
وتوزن أعمال العباد كما جاء في الأثر	١٠٤
تنبيه	١٠٥
كيف توزن الموازين	١٠٦
الصورة الشاخصة للموقف الرهيب	١٠٦
الظالمون بين آهات الموت والسكرات وآلام البرزخ	١٠٩
خصومات من قلب جهنم	١١٥
نسيم الجنة ونداء أهلها لأصحاب النار في موقف مهيب	١١٩
واختلف أهل العلم والمفسرون من هم أصحاب الأعراف وما أعمالهم	١٢٦
نداء من أهل النار لأهل الجنة يرجون السقيا والطعام	١٢٧
تجسيد الأحداث من قلب القيامة	١٢٩
من مشكاة النبوة	١٣٢

الموضوع	الصفحة
سورة الأنفال	١٣٤
صورة ضرب الملائكة للكفار قبل الموت................	١٤٠
يا ليت قومي يعلمون.......	١٤٢
سورة التوبة	١٤٣
الكنز واحتراق الجنوب والجباه والظهور............	١٤٦
من مشكاة النبوة...........	١٥٠
الصدقة فكاك من النار......	١٥٢
الإيمان وخصاله سبيل إلى الجنة	١٥٢
نصيحة في قضية الولاء.......	١٥٨
السبق الحقيقي وجزاء السابقين عند الكريم المنان....	١٥٨
التجارة الرابحة التي لا تخسر أبداً	١٦١
من فضائل الشهداء.........	١٦٧
الجهاد في سبيل الله من الأعمال التي لا تدانيها أعمال	١٦٩
سورة يونس	١٧٦
قواعد مهمة في السعادة.....	١٨٥
الحشر وما أدراك ما الحشر..	٢٠٠
أرض المحشر................	٢٠٠
سورة هود	٢٠٥
أهل السعادة وأهل الشقاوة.	٢١١
سورة الرعد	٢١٥
من صفات أولي الألباب.....	٢١٩
عرض لصفات أهل الجنة وصفات أهل النار..........	٢١٩
تلك عقبى الذين اتقوا.......	٢٢٤
سورة إبراهيم	٢٢٦
عقوبات أعداء الرسل.......	٢٣٣
مثل حي لأعمال الكافرين...	٢٣٩
وقفة بلاغية إعرابية..........	٢٣٩
البروز الكبير في اليوم العظيم..	٢٤٢
الشيطان يعترف لأوليائه بالحقيقة ويتبرأ منهم........	٢٤٣
كفران النعمة يورد الموارد....	٢٤٩
العلاج الأمثل قبل فوات الأوان.	٢٥٢
وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب.	٢٥٣
الويل لأهل الشرك..........	٢٥٩
سورة الحجر..............	٢٦١
أبواب النار	٢٦١
التقوى والجنة	٢٦٦

الموضوع	الصفحة
من مشكاة النبوة............	٢٧١
سورة النحل	٢٧٣
حمل الأوزار في دار القرار ...	٢٧٣
الخزي الحقيقي في الآخرة ...	٢٧٩
بشريات للمتقين عنــد وداع الدنيا	٢٨٤
صورة شاخصة تذكر بعاقبــة التقوى..................	٢٨٨
من أحداث القيامة وأهوالها..	٢٨٩
من مشكاة النبوة...........	٢٩٦
سورة الإسراء	٢٩٧
من مشكاة النبوة	٣٠٤
الحساب ودقته.............	٣٠٥
وقفة مع الحساب ليتنبه الغافل.	٣٠٧
النية شرط لسائر العمل فهــل من مشمر.............	٣٠٩
البعث ودحض حجج المعاندين.	٣١١
الكافر يحشر في القيامة علــى وجهه..............	٣١٥
سورة الكهف	٣٢١
النار أعدت للكافرين والجنــة أعدت للمتقين.............	٣٢٥
و بماذا يكون الإحسان في العمل	٣٣٠
والآخرة خير وأبقى.........	٣٣٢
بين الحشر والعرض علــى الله وخزي المجرمين وندمهم.....	٣٣٥
ياله من مشهد رعيب	٣٣٧
معايشة تلك المشاهد........	٣٤٢
المجرمون يرون النار لأول مرة فأيقنوا : أنهم ساقطون فيها..	٣٤٥
يا حسرة على العباد........	٣٤٧
تجسيد لهذه الصورة..........	٣٥٤
سورة مريم	٣٥٨
إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر...................	٣٦٨
هذه هي الجنة فهل من مشمر لها..................	٣٧٧
شعر في وصف الجنة.........	٣٧٩
من مشكاة النبوة............	٣٨١
الجنة فيها ما لا يتصوره عقل.	٣٨١

الموضوع	الصفحة
وقفات مع مبحث الشفاعة عند أهل السنة والجماعة....	٣٨٩
الأدلة على الشفاعة من القرآن	٣٩٠
الأدلة على الشفاعة من السنة.	٣٩٠
شفاعة و شفاعة............	٣٩٦
أنواع الشفاعة............	٣٩٩
شفاعات النبي............	٣٩٩
قد بلغ من عظيم حرصه ﷺ أنه كان يبكي خوفاً على أمته.....	٤٠٥
سورة طه..................	٤٠٧
اقتــراح..................	٤٣٣
سورة الأنبياء	٤٣٤
دقة الميزان وحقيقته..........	٤٣٧
نصيحة....................	٤٤١
عقيدة أهل السنة والجماعة في هذا المبحث................	٤٤١
سورة الحج................	٤٦٠
سورة المؤمنون.............	٤٧٣
أحاديث عن جنة الفردوس..	٤٧٦
علو الهمة في سؤال الله تعالى الفردوس الأعلى	٤٧٦
سكنى الفردوس الأعلى الآن أمر قائم لمن يستحق.........	٤٧٧
ورثة الفردوس وخصائصهم..	٤٧٧
من خصائص طالب الجنة....	٤٨٣
ثانياً : مشاهد لأفراح الروح من قلب الآخرة.............	٤٨٤
ثالثاً : أدلة وجود الجنة	٤٨٥
اتساع الجنة وارتفاعها وطيبها وبهجتها	٤٨٩
سأل موسى ربه عن أدنى أهل الجنة منزلة	٤٩٦
أهل الجنة يزدادون جمالاً على الدوام.	٤٩٧
نساء الجنة	٤٩٩
تلك هي الجنة ، وهذا نعيمها ، وتلك هي زوجاتها	٥٠١
صورة الكافر منذ خروج روحه وحتى استقراره في الجحيم......	٥٠٢
عقيدة أهل السنة في القبر....	٥٠٥
أحاديث في الباب..........	٥٠٧

الموضوع	الصفحة
النفخ في الصور وخفة موازين الكافرين ولفحت النار وجوههم..................	٥١٠
محاولة فاشلة أخيرة للكفار...	٥١٥
إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة............	٥١٧
الإنذار بالنار............	٥٢٠
سورة النور	٥٢٣
سورة الفرقان............	٥٣٣
النار ترمق أعداء الله من بعيد وتكشر لتفتك بهم..........	٥٣٨
الكفار يلقون في النار ويهبطون في مضايقها ويدعون بالويل والثبور...	٥٣٩
سورة الشعراء............	٥٥٧
سورة النمل............	٥٧٦
سورة العنكبوت............	٥٩٢
الفهرس	٦٠٢